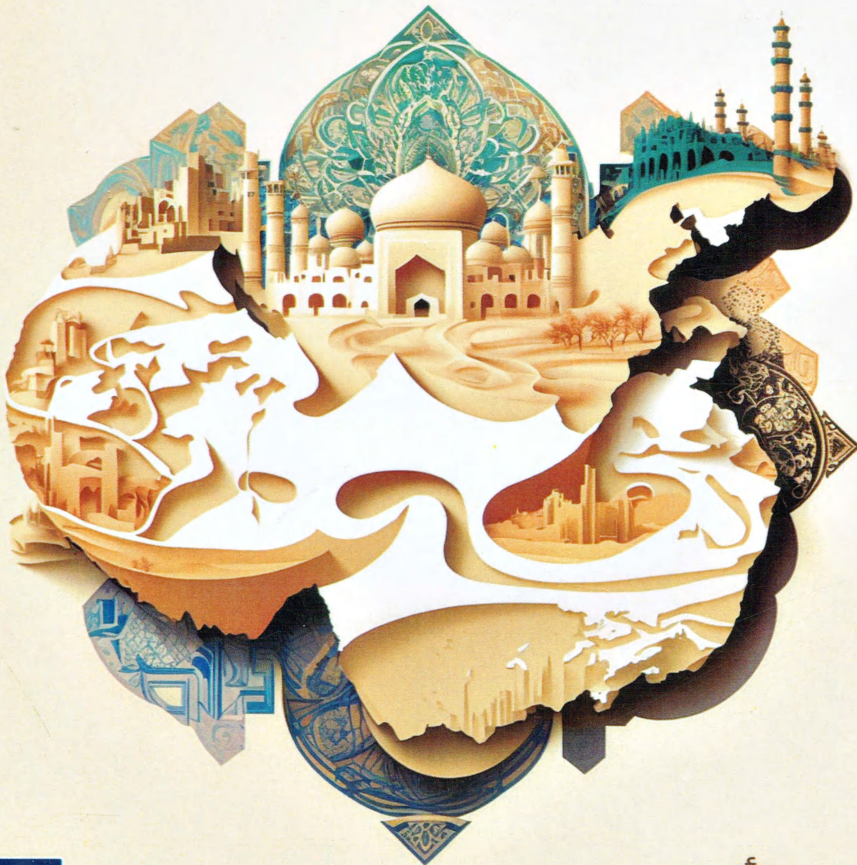
دراسات في

تاريخ الإسلام وأحوال المسلمين في الصين



تأليف

أ.د/ عبد العزيز حمدي عبد العزيز

السحاب

للنشر والتوزيع

دراسات في

تاريخ الإسلام وأحوال المسلمين

في الصين



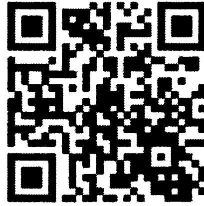
- دراسات في تاريخ الإسلام وأحوال المسلمين في الصين
- المؤلف: أ.د/ عبد العزيز حمدي عبد العزيز
- الطبعة الأولى 2023
- رقم الإيداع: 28308 / 2022
- الترقيم الدولي: 0 - 170 - 755 - 977 - 978

دار السحــاب للنشر والتوزيع

Email: info@elsahab.com

www.elsahab.com





العنوان: 1 شارع عدلي كفافي
ميدان سانت فاتيما
مصر الجديدة - القاهرة

00201005700336
00201146670703
00202277409470

دراسات في

تاريخ الإسلام

وأحوال المسلمين في الصين



تأليف

أ. د/ عبد العزيز حمدي عبد العزيز




بسم الله الرحمن الرحيم



لعل من خير ما يهتدي به الكاتب في حياته الفكرية،

هذه الحكمة المضيئة التي قالها "بيتهوفن":

«ألا فلنفعل كل ما في وسعنا من أجل الخير

ولنُحب الحرية فوق كل شئ آخر....

ولنتجنب خيانة الحقيقة....

ولو كان ثمن الخيانة تاجًا وعرشًا...».

قالـــوا

"حياتي... هي صلاتي..."

(الفيلسوف الصينى الكبير كونفوشيوس)

إذا ما كتبتم عن الصين قبل أن تزوروها فأنتم مضطرون لكسر ريشتكم بعد حين.

(الفيلسوف الفرنسي الأب دو شاردان)

إن معرفة الصين تتطلب عملًا يتخطي حدود حياة كاملة. وخير ما يمكن أن نطمح إليه في هذا المجال هو الحصول علي شئ من التفهم لجزء من المغامرة الصينية. وبقدر ما نسبر أعماق هذه المغامرة يتبين لنا أن لا حدود لأسرارها.

(الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون)

إن شعبنا الكبير يضم حوالي 30 مليون مسلم ومهمتنا الكبري الآن هي أن نكسبهم إلي جانبنا، ونحن بغيرهم لا نستطيع أن نقيم قواعد للدفاع والهجوم تمكننا من القضاء علي الإستعمار الياباني. وأؤكد لكم أننا لن نحقق من أهدافنا شيئًا إلا إذا وقف المسلمون في صفوفنا.

(من خطاب الزعيم الصيني ماوتسي تونغ في عام 1937)

إن الحكمة نزلت من السماء علي ثلاثة أعضاء من أهل الأرض... أدمغة اليونان، وأيدي أهل الصين، وألسنة العرب.

(حكمة قديمة)

وعندما سألوه عن أهل الصين قال:

"أصحاب أثاث وصنعه، لا فكر لها، ولا روية".

(ابن المقفع)

العبقرية في التجانس السياسي، دونما انقطاعات في التاريخ من الثورات الداخلية، مالت إلي تجميد الأشكال الإجتماعية... فنمت في الصين نوعًا من حضارة أزلية مشلولة. قليل فيها ما كان يتعلم، ولا شيء منها ينسي.

(د. جمال حمدان)

إذا لم تقاتل الناس، فإن أحدًا علي ظهر الأرض، لن يستطيع أن يقاتلك... قابل الإساءة بالإحسان... أنا خير للأخيار، وخير لغير الأخيار وبذلك يصير الناس أخيارًا. أنا مخلص للمخلصين، ومخلص لغير المخلصين، وبذلك يصير الناس جميعهم مخلصين.

(أقدم فيلسوف في العالم: لاوتزى)

الثورة الصينية ليست احتلال هواة. فهي لا تتوجه إلي قسم من الفرد أو جزء من السكان. أنها تحيط بالفرد كاملًا، وبالمجموعة في مجملها، وتفرض الإنصياع إليها دون تعليق. والواقع، لا يمكن أن يكون الفرد ثوريًا ومتدينًا في آن، لأن ذلك يعني إيمانه بديانتين مختلفتين.

(مثقف بارز في مدينة شانغهاي)

لقد لعبت الصين الموقع دورها في تفرد الصينيين وعزلتهم وتوجسهم من كل ما هو أجنبي بشرًا كان أم فكرًا. كما لعبت الصين الكتلة البشرية دورًا آخر بنفس القيمة في تكوين البناء الذهني والنفسي لأجيالهم المتعاقبة.

(الأستاذ فهمي هويدي)

أننا نضع في الحساب ما يمكن أن نسميه "**روح التسامح الصيني**" التي لا نجد ما يضارعها في الحضارات الأخري لآسيا وأوروبا. وهي نزعة تتبلور في الصين في ظل انعدام الدين المركزي المأسس حيث لا نواجه في تاريخ الفكر الصيني معايير تكفير وتبديع تلك التي استعملتها أديان الهند وإيران والأديان السماوية الثلاثة. ويخلو القاموس الصيني من مفردات أصيلة تدل علي الإلحاد والزندقة والهرطقة.

(الصينولوجي العراقي الشهيرهادي العلوي)

أن أهل الصين يقولون: جميع الأمم ما عدانا عميانٍ إلا أهل كابل فإنهم عور.

(الثعالبي في كتابه "لطائف المعارف")

وبلاد الصين علي ما فيها من الحسن لم تكن تعجبني، بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها. فمتي خرجت من منزلي رأيت المناكير الكثيرة، فأقلقني ذلك حتي كنت ألازم المنزل فلا أخرج إلّا لضرورة. وكنت إذا رأيت المسلمين بها، فكأني لقيت أهلي وأقاربي.

(أمير الرحالة العرب: ابن بطوطة)

الصينيون هم أشبه بالعرب في الألوان والخلق من سائر الأمم.

(الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر)

مقدمة

لست في هذا الكتاب مؤلفًا أو مترجمًا، إنما أنا قارئ.

وهذه باقة قيمة مختارة من الدراسات التي طالعتها - بين ما طالعت - عزيزة عليَّ، أثيرة لدي....

ومن أجل هذا أحببت أن تشاركوني متعتها والإنتفاع بها،....

وهي قليل من كثير مما تركه لنا الفكر الإنساني والدينى العظيم.

وحين شرعت أختار، لم يندَّ عن ذاكرتي الغرض، ولا الموضوع... فالدراسات في هذا الشأن تعنف حينًا وتخمد حينًا ولكنها لا تتوقف، فيجب أن نولي إهتمامًا للتدرج والتسلسل والترابط في عرض الأفكار، وأحب دائمًا أن أبدأ من الصفر أو ما هو قريب من الصفر ما استطعت إلي ذلك سبيلًا. لأننا نقتحم هنا مشكلة ليس من الممكن أبدًا معالجتها دون استنتاجات ومقارنات ومعارضات واجتهادات مستقاة من وقائع التاريخ وتطوراته وتقلباته، وأن أسبر - بقدر ما هو ممكن - أغوراها وأحاول - بقدر ما هو متاح- استكشاف أسرارها. فالكتاب علي اختصاره المخل لا يخلو من الجهد الشخصي لأنه لم يتقيد بالنقل عما كُتب في موضوعاته ومباحثه، بل رجع أيضًا إلي ما كتبه الأولون في المصادر والمراجع ودوائر المعرفة، أي لقد صُنعت بعض مادته ونُقل البعض الآخر. ولا سبيل لنا إلي غير ذلك، بل لا خيار لنا في الأمر ولا حيلة. فقد تنعدم النصوص والوثائق التي هي عماد الكتابة التاريخية. وهذا يجعل حاجتنا ملحة وماسة إلي معرفة أكبر قدر ممكن من وجهات النظر الأخري؛ لأنها تزيد حظنا من الصواب، وتكشف من الحقيقة تلك الجوانب التي تُغم علينا رؤيتها في غمرة الزهو بآرائنا.

ومن البدائة المقررة، أن حركة التاريخ لا تتقدم من فراغ ولا تترك وراءها ثغرات يطل منها هباء أو خواء. فإن التاريخ ليس علم الماضي وحده، وإذا كان التأكيد علي أن التاريخ ليس علم الماضي وحده، وإنما هو - عن طريق استقراء قوانينه - علم الحاضر والمستقبل، أي أنه علم ما كان وما هو كائن وما سوف يكون. وليس كل ما لم نسمعه نحن، ولم يسمعه آباؤنا قبلنا يكون كذبًا... وإلا استحال سير الزمن وسير المعرفة. هكذا سرت بالحديث عبر هذه الصفحات التي هي أشبه بالتدقيق والتحقيق في دروب التاريخ ومتاهاته، حتي نبصر في غير عسر القيود المفروضة علي محدودية البحث التاريخي، والأصفاد التي فرضتها الأحداث التاريخية ووقائعها علي المؤرخين في العصور المختلفة.

وبعد أن فرغت من كتابة مسودات الكتاب واتخذت الأهبة للشروع في المبيضة، لا أزعم أنني بلغت الشأو، وأوفيت علي الغاية. ولن أتوخي لكتابي هذا الكمال، لقد فكرت طويلًا قبل أن أبدأه وترددت كثيرًا قبل الإقدام عليه لأنه كلما اتسع نطاق المشروع زاد احتمال الخطأ فيه، وفقد مبرر وجوده فلا يتمخض إلا عن المسوخ والاقزام، ولا يند أو ينزّ إلا عن الصور المشوهة والأقاويل المبتورة. فما أن يخرج كتاب إلي النور حتي يحس صاحبه كأنما أثقال كانت تجثم فوق صدره قد انزاحت عنه. وكلما وضع كتابًا ظهر أنه أعجوبة الدنيا. وكم خاب أمل في كتاب، وكم تحقق أمل أو كم حلّق إنسان فوق السحاب علي صحائف من كتاب، وكم هوى إلي أعماق لا قرار لها بسطر من كتاب! فالكتب فيها القمم وفيها السفوح، وفيها ما بين ذلك.

لا يُخلِّد المرء مثل كتاب، ولا يسيئ إلي المرء مثل كتاب.. !!

د. عبدالعزيز حمدي

أول يناير سنة 2023

م. نصر - القاهرة

توطئة

بزغ الدين الإسلامي في شبة الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، وأحرز تفوقًا على سائر الأديان الأخرى المنافسة له بسرعة هائلة باعتباره ثقافة دينية ناهضة تتحلى بالمضمون الثري والغزير. وبعد فترة وجيزة، اعتنق شمال أفريقيا، ومصر، والدول في غرب آسيا الدين الإسلامي وقامت بإقصاء الأديان التي كانت موجودة فيها أصلًا. ومع تقادم الزمن، تعاظم تأثير الدين الإسلامي أكثر فأكثر، كما اتسعت رقعة خارطة الدول التي تعتنق الدين الإسلامي يومًا بعد يوم.

والصين والعالم العربي تربطهما الوشائج الإقتصادية والثقافية العميقةَ الغور منذ القِدم. وفي مرحلة ما قبل الإسلام، كان "طريق الحرير" قديمًا بمثابة الممر الرئيس الذي يربط بين الشرق والغرب. وبعد نهوض الإسلام فصاعدًا، أقام العرب في التو الإمبراطورية العربية التي امتدت من المحيط الأطلسي غربًا إلى حدود الصين شرقًا. وتدفق المسلمون كالسيل الذي لا ينقطع إلى الصين على امتداد "طريق الحرير" وذلك إتساقًا مع مقولة الرسول محمد (صلعم) :" اطلبوا العلم ولو في الصين". ومن ثم، إنتشر الإسلام على جناح السرعة ودخل الصين في أواسط القرن السابع الميلادي، في العام 651 تقريبًا ؛ أي منذ ألف وثلاثمائة وخمسين عامًا ونيفًا.

إن الحضارة الإسلامية من الحضارات العالمية، وأبرزت الحضارات في كل من الصين، والهند، وبابل إشراقها وازدهارها، وقدمت إسهامات ضخمة من أجل تقدم الحضارة الإنسانية، ولا تزال تضطلع بتأثير مهم .حتى يومنا الحاضر .في المجتمع الإسلامي الصيني، وفي المجتمع الإسلامي العالمي، بل وحتى في المجتمع البشري بأسره.

وقد شهدت نشأة الإسلام وتطوره في الصين أربع مراحل مهمة على وجه التقريب.

أولًا: المرحلة التي تشمل أسرة تانغ (618 ـ 907 م)، والممالك الخمس (907 ـ 960 م)، وأسرة سونغ (960 ـ 1279 م) ؛ وهي المرحلة التمهيدية لدخول الإسلام إلى الصين بصورة أساسية، أو في عبارة أخرى هي مرحلة إرهاصات الدين الإسلامي في الصين.

يطلق على تاريخ أواسط أسرة تانغ " تانغ المزدهرة "، وكانت ثقافتها مشرقة ووضاءة وثرية، و" تشجع بلا قيود الثقافة الأجنبية، ولا تشكك فيها إطلاقًا "، ولذلك تدفقت الثقافات الأجنبية تباعًا إلى الصين، وليس في ذلك ما يدعو إلى الإستغراب.

وأنتهجت أسرة تانغ سياسة " الإكرام والمعروف والرعاية " تجاه الدين الإسلامي، وطبقت الممالك الخمس سياسة حماية "التجار الأجانب"، أما أسرة سونغ فقد اضطلعت بسياسة "التقرب والتسامح والشراكة التجارية". وعلى الرغم من إن تلك السياسات تنطوي على إختلاف، بيد أنها ـ على وجه العموم ـ حققت فائدة لانتشار الإسلام في الصين.وعقد مقارنة بين الإسلام والبوذية، التي دخلت الصين من الهند الواقعة في شرق الصين ونشأت فيها وتطورت بقوة وحيوية؛ نجد أن المسلمين في الصين حظوا بالإستقبال اللائق في أراضيها كما حظوا بالإحترام.وعلى كل حال، الدين الإسلامي في حد ذاته لم يتطور بسرعة في الصين على غرار سائر الأماكن الأخرى.

وفي هذه المرحلة، جاء المسلمون الذين يعتنقون الدين الإسلامي بصورة رئيسة من " الأجانب الغرباء " الذين ينحدرون من العرب والفرس، وأقام السواد الأكبر منهم في الموانئ الساحلية أو في الموانئ التجارية الكبرى، وأصبحوا أكثر التجمعات السكانية التي تحظى بالترحيب، والأكثر تفضيلًا في المعاملة. وعلى الرغم من إن هؤلاء " الأجانب الغرباء " تزوجوا العديد من الفتيات الصينيات، بل حتى أقام بعضهم في الصين لأكثر من خمسة أو ستة أجيال ويُطلق على شجرة نسبهم " الأجانب المولدون محليًا "، ولكن مازالوا ينتمون إلى طبيعة المهاجرين الغرباء ولم يشكلوا القومية المسلمة الموحدة. وتأثر هؤلاء المسلمين

بمعتقداتهم الدينية، ولا تزال خصالهم السيكولوجية، وعاداتهم وتقاليدهم (مثل اللباس، الطعام والشراب، واللغة، والأسماء والألقاب) تحتفظ وتتمسك بخصائصهم الإصلية. وتلتزم معتقداتهم الدينية وحياتهم الدينية . بجلاء وبرصانة واحترام . بالإيمان الديني والشريعة الإسلامية في بلادهم الأصلية، وتضم المؤسسات التعليمية والإدارية أهل الدعوة الإسلامية بصورة أساسية.وتأثر الدين الإسلامي في الصين تأثرًا جليا إلى حد ما بهيمنة دولتهم الدينية (أو المقصود هنا الدولة الأم).

والدين الإسلامي . في هذه المرحلة . لم يشكل تأثيرًا هائلًا في الحياة السياسية والإجتماعية في الصين؛ حتى قدوم عصر أسرة سونغ الجنوبية (1127 . 1279) وبات المسلمون من الركائز داخل أروقة " الأجانب الغرباء " الذين يضطلعون بتجارة الإستيراد والتصدير، وحققوا الدخل الضريبي الضخم جدًا للدولة في ذلك الحين، كما أصبحوا من القوى المهمة المؤازرة لحكم الأسرة الإقطاعية الحاكمة، واستمر الإسلام يحظى بالرعاية والحماية أيضًا وقتئذ، حتى إستطاع أن يتطور تطورًا سليمًا.

وفي عصر الممالك الخمس، أسس الويغور[1] أسرة جنكيزخان الحاكمة التي تعتنق الدين الإسلامي واتخذته الدين الرسمي للدولة. ونظرًا لأن السلطة السياسية في هذه الأسرة قائمة على الدمج بين الدين والسياسة ؛ ولذلك عقد مقارنة بين هذه السلطة والدين الإسلامي في داخل البلاد أنذاك، نجد أن الإسلام يتحلى بالدور الرائد الجلي في المجالات السياسية والإقتصادية والحياه الإجتماعية وغيرها من المجالات الأخرى.

ثانيًا : المرحلة التي تمتد من أسرتي يوان ومينغ إلى ما قبل أسرة تشينغ ؛ وهي مرحلة التطور السريع للإسلام في الصين بصورة أساسية.

---

(1) الويغور : قومية مسلمة يبلغ قوامها سبعة ملايين نسمه ، ويقيم معظمها في الشطر الجنوبي من منطقة سينكيانج (تركستان الشرقية) في شمال غرب الصين ، واعتنقت الإسلام في أواسط القرن العاشر ، واللغة المتداولة عندهم هي اللغة الويغورية التي تستخدم الحروف الهجائية العربية.

يمثل عصر أسرة يوان الحاكمة (1271 ـ 1368) مرحلة مهمة لدخول أعداد هائلة من المسلمين إلى الصين والإقامة فيها. ومع مجئ جحافل جيوش المغول والغزو غربًا، غشى السهول الوسطى فسيحة الأرجاء أعداد كبيرة من مسلمي آسيا الوسطى والمناطق المتاخمة لها، وتعاظمت قوة وهيبة كتائب المسلمين في الصين. وعندما وضعت حرب الهجوم على أسرة سونغ الجنوبية أوزارها، دخل المسلمون السهول الوسطى الفسيحة واستقروا فيها حتى أسرة مينغ (1368 ـ 1644) حينما تدفق المسلمون من المناطق الغربية[2] كالسيل الذي لا ينقطع، وأقاموا على مقربة من تلك السهول بصورة مطردة. وفي أواخر أسرة يوان حتى مطلع عصر أسرة مينغ، تكونت مناطق كثيرة من التجمعات السكانية للمسلمين، وقومية هوي[3] نشأت رويدًا رويدًا في هذه المرحلة بإعتبارها الجماعة الإسلامية القومية الموحدة. وتبلورت الملامح الأولية لهيكل توزيع المسلمين في الصين في " المناطق السكانية الكبيرة والمتفرقة، والتجمعات السكانية الصغيرة ".

وشهدت هذه المرحلة إنتهاج سياسات متباينة من قبل الأسرات الحاكمة الإقطاعية، ولكن نقول . بصفة عامة . كانت معتدلة نسبيًا، مثل سياسة " إستخدام الجزرة والعصا بالتبادل " في أسرة يوان، و" القيادة المقنعة " في أسرة مينغ، و" إعداد سياسة منظمة وعدم تغييرعادات الشعب " في مرحلة ما قبل أسرة تشينغ (1644 ـ 1911).

وتبوأ المسلمون في المجتمع الصيني مكانة مرموقة نسبيًا لفترة من الزمن، فعلى سبيل المثال، بعد أن إحتلوا المكانة الثانية بعد المنغوليين في أسرة يوان، تفوقت مكانتهم على الهانيين[4] وأهل جنوب الصين.

---

(1) مصطلح جغرافي قديم إستخدمته أسرةهان (206ق.م .220م) للمنطقة الواقعة في غرب معبر يومين قوان ؛ والتي تشمل الآن منطقة سينكيانج وأجزاء من آسيا الوسطى.

(2) قومية هوي تعد أكبر القوميات المسلمة وأول من اعتنق الإسلام في الصين ، وتنتشر في مقاطعات قانصو ، ونينغشيا ، وتشينغهاي ، وشنشي ، وسينكيانج (تركستان الشرقية)

(3) تتألف الكتلة السكانية الضخمة في الصين من 56 قومية . وتعتبر قومية الهان أكثر القوميات تعدادًا في الصين حيث تمثل اكثر من 93% من إجمالي عدد السكان في الصين.

وحظى الإسلام في الصين بالإحترام والتبجيل، وحقق ذلك فائدة لإنتشار الإسلام وذيوعه في أكبر نطاق بالصين.

والمؤسسات التعليمية والإدارية الخاصة بالدين الإسلامي .في هذه المرحلة .على الرغم من أنها لم تبلغ قامة أهل الدعوة الإسلامية في الدول الإسلامية، ولكن الهيكل الأساسي لها يتألف من المسلمين الصينيين الذين ولدوا محليا وتربوا وكبروا داخل الصين، وبذلك اكملوا مسيرة المواطنة والمحلية بصورة رئيسة.

وجسدت الثقافة الإسلامية الإتجاه نحو الإنهيار المحدود جراء إنتهاج أسرة مينغ الحاكمة سياسة " الإندماج القومي ". وحركة النهوض بالدين الإسلامي إعتمدت على إزدهار التعليم الإسلامي المسجدي وترجمة الكتب الدينية إلى اللغة الصينية إظهارًا لوجود الإسلام ، واضطلعت بدور مهم في دفع التطور المستقر للإسلام في الصين. ويئن العلماء المسلمون من وطأة الحالة النفسية من القلق والهم جراء الدعوة إلى " شرح الأديان في ضوء الكونفوشيوسية "، و" ارتباط الإسلام والكونفوشيوسيين كل منهما بالأخر"، وأصبح ذلك بمنزلة قوة الدفع الضخمة لتوطيد أركان الإسلام وانتشاره في الصين، وتخفيف حدة الصدمات التي يتعرض لها.

وبسبب قدوم التيارات الدينية الجديدة بصورة مطردة، إنتشرت الصوفية على نطاق واسع في المنطقة الغربية الشمالية في الصين، كما ظهرت تباعًا المذاهب والفرق الدينية الجديدة في هذه المنطقه، وأثر ذلك تأثيرًا بالغًا وعميقًا في مسيرة تطور القوميات المسلمة في الصين عبر مئات السنين فيما بعد.

ويتمتع الدين الإسلامي - في هذه المرحلة - بالمنزلة المرموقة لفترة من الزمن داخل منظومة الأديان في الصين، ولكن عقد مقارنة بينه وبين الأديان الأخرى مثل: الكونفوشوسية، والبوذية، والطاوية، فإنه لا يزال غير قادر على إحداث التأثير المهم في الحياة السياسية والإجتماعية في الصين.

ثالثًا : مرحلة أواسط أسرة تشينغ وأواخرها : وهي المرحلة التاريخية التي قابل الإسلام فيها أكبر الأخطار المحدقة به في الصين.

في أواسط أسرة تشينغ وفي مرحلتها المتأخرة، نفذت هذه الأسرة الحاكمة الإقطاعية سياسة التميز القومي، والإضطهاد القومي. كما أنتهجت سياسة " قومية هوي المسلمة تحكم نفسها "، و"قمع التمرد والعصيان باستخدام القوة والوسائل السلمية"، وأدى ذلك إلى حدوث صدام كبير نسبيًا بين الثقافة الإسلامية والثقافة التقليدية الصينية". والمسلمون في منطقتي شمال غرب الصين، وجنوب غرب الصين، رفعوا لواء التمرد والعصيان تباعًا لمناهضة الإضطهاد القومي في أسرة تشينغ تحت تأثير انتفاضة مملكة تايبينغ السماوية (1851 - 1864)، وانتفاضة جيش نيان[5].

وفي هذه المرحلة، وعلى الرغم من إن الدين الأسلامي في الصين لم يتعرض للخطر العلني، ولكنه شهد عصرالتقهقر الذي لم يعرفه من قبل. وطبقت الأسرة الإقطاعية الحاكمة سياسة فرض القيود والأصفاد والكبت، ناهيك عن القمع الوحشي للانتفاضات الإسلامية. ومن ثم، كان الإسلام في هذه المرحلة داخل الأراضي الصينية يئن تحت وطأة الصعوبات والمشاق، وتعثرت خطوات تطوره، وجابهت كافة القوميات المسلمة في الصين أزمة إبادة القومية وفناء الدين.

وقامت أسرة تشينغ - في هذه المرحلة- بتأسيس مقاطعة في منطقة سينكيانج[6] ووجهت ضربة قاصمة للقوة الإنفصالية التي يشار إليها بالبنان هناك، ووطدت دعائم

---

(1) يطلق عليه أيضًا جيش " حاملو المصابيح " : وهي انتفاضة فلاحية مناهضة لأسرة تشينغ في أواسط القرن التاسع عشر.

(1) تقع منطقة سينكيانج (يعني هذا الإسم الصينى " الحدود الجديدة") في نصف الكرة الشرقي وفي أقصى شرق العالم الإسلامي ، وتقع في شمال غرب الصين وفي منتصف المسافة بين آسيا وأوروبا ، ولذا تُعرف ب " مركز البر الآسيوأوروبي" ، ويحدها من الجنوب كل من التبت وكشمير ، ومن الشمال منغوليا ، ومن الغرب قازاخستان وقيرغيزيا وطاجيكستان. وتبلغ مساحتها 1.6 مليون كيلو متر مربع : أي حوالي سدس المساحة الإجمالية للأراضي الصينية.

الإستقرار على الحدود، وطبقت إسلوب الإداراة والعلمانية في السلطة السياسية، وألغت النظام السياسي القديم الذي يجمع بين السياسة والدين.

رابعًا: مرحلة الإنتعاش الجديدة التي يشهدها الدين الإسلامي في الصين من الجمهورية الصينية إلى بناء الصين الجديدة.

إن تأسيس الجمهورية الصينية (1912-1949) أطاح بالحكم الإقطاعي الفاسد الآسن لأسرة تشينغ. وشهدت هذه المرحلة الخروج التدريجي للإسلام من وحدة التطور في أواسط أسرة تشينغ وفي أواخرها، ودخوله مرحلة التطور بخطوات وئيدة. وعلى كل حال، إن مرحلة الجمهورية الصينية حددت مكانة المسلمين الصينيين قانونًا، كما حددت سياستها تجاه الإسلام، ويعد ذلك تقدمًا كبيرًا مقارنة بالسياسات التي طبقتها الأسرات الإقطاعية الحاكمة في العصور السابقة. ولكن وبسبب طبيعة البرجوازية، قررت أسرة تشينغ أن المسلمين الصينيين مازالوا غير قادرين على تحقيق المغزى الحقيقي للمساواة بين القوميات وحرية الإعتقاد الديني.

وبعد بناء الصين الجديدة (1949)، أنتهجت الحكومة الشعبية سياسة حرية الإعتقاد الديني، وأصبح المسلمون الصينيون فعلًا الأسياد في بلادهم، وتمتعوا بالمساواة على غرار كافة القوميات في الصين، وحصلت جميع القوميات المسلمة في الصين على التطور المطرد بصفة عامة. ولكن، ونظرا لحدوث سوء الفهم في السياسات المتعلقة بالأديان، أدى ذلك إلى إنتكاسة في إدارة العمل الديني لبعض الوقت، ولذا جسد الإسلام أحوال التطور صعودًا وهبوطًا بصورة ملائمة.

ويعد الإسلام، والبوذية، والمسيحية من الأديان الثلاثة الكبرى في العالم. والإسلام شهد احوال البوذية والمسيحية، حيث دخل الصين من الخارج بصورة كاملة، وأحرز نجاحًا هائلًا في الإنتشار بالصين. ويتسم الإسلام بالقدرة على التكيف فوق العادة ؛ أنها القدرة ذاتها التي جعلت جذوره تتجذر بثبات في الصين، ولذا حقق الإنتشار الواسع

وأصبح - في نهاية المطاف - الدين الذي تعتقنه عشر قوميات بصورة مشتركة هي : هوي، دونغ شيانغ، سالار، الويغور، القازاق، الاوزوبك، التتار، الطاجيك، باوآن، القرغيز. واضطلع الإسلام بدور مهم جدًا في نشأة الدين الإسلامي وتغيراته وتطوراته داخل أروقة تلك القوميات. وفي مسيرة التاريخ، وفي ضوء الشرط الأساسي إن الدين الأسلامي يتمسك بمضمون جوهر الثقافة الدينية دون ثمة تغيير، فإن إسلوب إظهار هذا الدين يستطيع دائمًا أن يتواكب مع الإصلاح السياسي والإقتصادي في المجتمع الصيني، ويحقق التغيرات الهائلة، ويحقق أيضًا الفائدة من البيئة الإجتماعية الجديدة المناسبة.

ويحرص الدين الإسلامي حرصًا شديدًا على الحقيقة، وشهد جيلين مباركين من الإيمان الديني اللذين منحا القوميات المسلمة قوة حيوية لا تنضب. وبعد أن دخل المجتمع البشري القرن الحادي والعشرين، مازالت الثقافة الإسلامية المصدر الثقافي المهم لدى القوميات المسلمة العشر في الصين. وحتى يومنا هذا، مازال الإسلام يبرز للعيان دوره في مجال التأثير والتنسيق داخل الثقافة التقليدية للمسلمين الصينيين، وفي أحوالهم النفسية وعاداتهم الحياتية.

ويشهد - عالم اليوم- التطور السريع للمجتمع الإنساني، ويحمل إلينا الأشياء الجديدة كل يوم في مجالي العلوم والتكنولوجيا، وكذلك الإسلام يمتلك الوسائل المعنية بإدخال العلوم والتكنولوجيا الحديثة، واستخدام القدرة الملائمة لتحقيق التطور والتقدم في المجتمع. وفي عام 1983، إنعقد في العاصمة الباكستانية إسلام آباد المؤتمر الدولي وعنوانه " العلوم في المجتمع الإسلامي "، الذي أكد على وجه الخصوص أن : "الدين الإسلامي هو دين التطور، ولا ينظر إلى الأديان بصورة سلبية، بل يعالج الحياة من منظور الإبداع، ويجعل الناس ربما يبلغون درجة الكمال في الوقت الذي يقدمون فيه إسهامات بناءة من أجل التقدم البشري، وذلك في إطار الإنصياع للأوامر الإلهيه ؛ وأكد المؤتمر أن العلوم والتكنولوجيا من أجل خدمة الإسلام، والمعرفة يجب أن " يضفي عليها

الطابع الإسلامي "، مما يجعل العلوم والتكنولوجيا تتوافق مع العقيدة الإسلامية، وتنصهر في بوتقة منظومة الفكري الإسلامي. وأتجاه القدرة على التكيف المتبادل بين الدين الإسلامي والإشتراكية في الصين يبدو وضوحًا أكثر فأكثر، ودور الإسلام في حياة المسلمين الصينيين سوف يستمر ردحا طويلًا أيضًا.

المبحث الأول

دخول الإسلام إلى الصين

1. الخلفية التاريخية لدخول الإسلام إلي الصين.

تاريخ الإسلام قصيّ الينبوع طويل المجري. ويمكن أن يرجع مصدر الإسلام - حسب رؤي العلماء المسلمين - إلي النبي الأول وهو جد البشرية الأول (آدم) الذي يعترف به الدين الإسلامي. وبعد أن شهد الإسلام الإنتشار والممارسة من جانب الأنبياء والرسل في العديد من المراحل التاريخية المختلفة مثل: إبراهيم، وموسي، وعيسي، تبلورت ملامحه بصورة كاملة علي يد آخر الأنبياء محمد ﷺ، ولذا أُطلق عليه "النبي محمد خاتم الأنبياء والرسل".

ويتجلي تاريخ النبي محمد - من بين الأنبياء والرسل عبر العصور التاريخية السابقة - بالوضوح نسبيًا، لأنه يتمتع بالسجلات المكتوبة بالتفصيل. وفي العام 610 م، رفع النبي محمد؛ وهو من أهالي المدينة القديمة مكة في شبه الجزيرة العربية - عاليًا راية " الله خالق السموات والأرض، والله واحد أحد، ومحمد رسول الله"، وأعلن غزو العالم القديم، ودعوة الناس إلي نبذ عبادة الفرد وعبادة الجمادات، والتحول إلي عبادة الله الخالق الأعظم. وخاض النبي محمد ثلاثة وعشرين عامًا من الغزو رافعًا هذه الراية خفاقة حتي وحدّ أربعة أخماس شبه الجزيرة العربية التي تعاني من التمزق والإنفصالية، وبدأ إرسال المبعوثين إلي روما، وفارس، والدول والمناطق المتاخمة، وقاد عملية نشر الإسلام في كافة أصقاع العالم.

وتولي السلطة السياسية الشرعية بعد الرسول محمد أربعة خلفاء حسب الترتيب التالي: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، ووصلوا إلي سُدة الحكم في الفترة من 632 - 661، وورثوا الأماني للراحل الرسول محمد التي لم تتحقق، ونشروا الإسلام في الكثير من الدول والمناطق في غرب آسيا وشمال أفريقيا.

واستمرت الدولة الأموية (661- 750) في إرسال الحملات العسكرية شرقًا وغربًا، وفتح الحدود، وتوسيع نطاق الدولة، وتأسيس دولة عظيمة فسيحة الأرجاء تمتد من المغرب واسبانيا غربًا إلي الهند وحدود الصين شرقًا. وأطلق الصينيون علي العصر الأموي لقب "داشي السود"[1]، وانتشر الإسلام فيه علي نطاق واسع بشكل أكبر. وفي الدولة العباسية (750- 1258) كان الإقتصاد متطورًا، والسياسة نشطة، والثقافة مزدهرة أيضًا، وتبلورت ملامح علم المعتقدات الإسلامية، ونظام علم الفقه الإسلامي يومًا بعد يوم، وأطلق الصينيون آنذاك علي العصر العباسي دولة "داشي البيض"[2] التي قفزت وبلغت مصاف الدول الأكثر تطورًا وحيوية في العالم وقتئذ.

وعندما تأسست دولة الخلافة الإسلامية في غرب آسيا، كانت هناك دولة قديمة في شرق آسيا بدأت التقدم نحو الإزدهار؛ انها إمبراطورية تانغ الشهيرة (618- 907) وأسرة تانغ الحاكمة تمثل ذروة عنفوان المجد في المجتمع الإقطاعي الصيني، وكانت أراضيها فسيحة مترامية الأطراف، ومتاخمة لـ "الداشي" (العرب) في آسيا الوسطي، واقتصادها وثقافتها مزدهرة بصورة لم يسبق لها مثيل، وابتدعت حضارة متقدمة جدًا، وقوة الدولة فيها عظيمة وتتقدم جنبًا إلي جنب مع دولة "الداشي".

وكان حكام أسرة تانغ في عهد الإزدهار والرخاء يتحلون برحابة الصدر، والتسامح والحلم، وفي الداخل نفذوا خطة شاملة لحكم البلاد من أعمال السُخرة برفق، والضريبة غير الباهظة، والنقاهة وإستعادة القوة، والإضطلاع بسياسة الإنفتاح علي العالم الخارجي، وانتهاج أسلوب الإستيعاب والإستقبال الثنائي إزاء الثقافة الأجنبية. وعلي هذا النحو، لم يجذبوا العلوم والتقنية الفنية والثقافة من الخارج فحسب، بل جاءت كافة الأديان تباعًا إلي أسرة تانغ.

---

(1) أي العرب الذين يرتدون الملابس السوداء.

(2) العرب الذين يلبسون الملابس البيضاء.

وكان دخول الإسلام إلي الصين سلميًا في ظل هذه الخلفية الكبري علي الصعيدين العالمي والمحلي.

2. أقدم سجل لدخول الإسلام إلي الصين

إن الإتصالات والتبادلات بين الصين والعرب عميقة الغور. والجزء(123) المعنون بـ "سجل داوان" من كتاب "السجلات التاريخية" أطلق علي العرب لقب "تياوتشي"[(3)]، وقدم ذلك قائلًا: "تياوتشي دولة تقع غرب آنشي[(4)] بعدة آلاف من الليات[(5)]، وتطل علي البحر الغربي، حيث يميل الجو إلي الرطوبة صيفًا، وتمارس الزراعة، ولاسيما زراعة الأرز." وفي العام 97م، أُرسل قان ينغ رسولًا إلي المناطق الغربية حتي وصل إلي آنشي، وفي الشطر الغربي من آنشي أراد أن يعبر البحر(الخليج الفارس) متوجهًا نحو مصر، ولكن اعترضته الكثير من العقبات. وأصبح الصينيون أكثر معرفة ببلاد "تياوتشي" بفضل المعلومات التي قدمها قان ينغ. ومن ثم، الجزء رقم(117) وعنوانه "أخبار المناطق الغربية" في كتاب "كتاب أسرة هان الأخيرة "ذكر موقع بلاد "تياوتشي" بصورة أكثر دقة عن كتاب "السجلات التاريخية"، وأضاف أن "دولة تياوتشي مدينة تقع فوق الجبل،....، وتحيطها الشواطئ الملتوية وحبيسة لا يمكن المرور من ثلاث جهات جنوبًا وشرقًا وشمالًا، وبقيت زاوية الشمال الغربي منها متصلة بالبر. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، كانت

(3) كانت بلاد العرب عند الصينيين في العصور القديمة "تياوتشي"، وقد سموها هذه التسمية نقلًا عن الفرس، إذ كانوا يدعون العرب "تازي"، والعرب "تازيان". ويري بعض العلماء أن تياوتشي لفظة إملائية محرفة عن "Antio china"، وترجمة مختصرة لـ "Andio china" التي يقصد بها بلاد ما بين النهرين.

(4) آنشي دولة قديمة في غرب آسيا، وكانت مقاطعة تابعة للإمبراطورية الفارسية.

(5) مفردها "لي" ومعناها وحدة قياس طولية صينية تعادل 500 م.

أسرة هان ترسل ما يتراوح خمس أو ست بعثات سنويًا، بل حتى عشرات البعثات إلي كافة الدول في آسيا الوسطي وغرب آسيا، والحفاظ علي التبادلات المباشرة أو غير المباشرة مع العرب. ودخلت التبادلات بين الصين والعرب مرحلة تاريخية جديدة مع قدوم أسرة تانغ.

وفي العام الثاني من فترة يونغ هوى(في العام 651م)، أرسل عثمان بن عفان(644-656) ثالث الخلفاء الراشدين مبعوثًا دبلوماسيًا إلي مدينة تشانغان عاصمة أسرة تانغ، وقابل إمبراطور هذه الأسرة آنذاك، ويدعي جاو زونغ وأطلعه علي الدين الإسلامي وعملية تأسيس السلطة السياسية الإسلامية في المدينة. وقام المؤرخ الصيني الرسمي وقتئذ ويدعي جينغ تشونغ بتسجيل هذا الحدث في السجلات التاريخية لأنه يعتبر من الأنشطة الدبلوماسية العظيمة علي المستوي الرسمي. والجزء رقم(198) المعنون بـ "أخبار الداشي" من كتاب "كتاب تانغ القديم" ذكر أن: "في عام 651م بدأ إيفاد الرسل إلي البلاط الإمبراطوري والمثول بين يدي الإمبراطور وتقديم الهدايا له. وبعث حاكم الداشي واسمه أمير المؤمنين رسولًا إلي الصين. وقال إن دولتهم قد مضي علي وجودها أربعة وثلاثين عامًا، وتعاقب عليها ثلاثة حكام." وكوكبة كبيرة من العلماء الصينيين يعتبرون العام 651م دليلًا دخول الإسلام إلي الصين في ذلك العام.

إن التعويل علي حادثة تاريخية مهمة ونعتبرها دليلًا علي دخول الإسلام إلي الصين يتسم بالجانب المعقول ويمكن تفهمه وإدراكه. ولكن لا نستطيع أن نقرر في ضوء ذلك أنه قبل هذه الحادثة لم تدخل أخبار الإسلام إلي الصين. وفي الحقيقة، ان الدين الإسلامي دخل الصين في وقت أبكر من ذاك العام(651م)، وذلك من منظور التبادلات التجارية المزدهرة بين الصين والعرب. ان عملية اضطلاع التجار المسلمين بالأنشطة التجارية في الصين- يعد فى الواقع- بمثابة عملية دخول الإسلام إلي الصين. ويتمسك المسلمون بأسلوب حياتهم الفريد المميز وسلوكياتهم في أي مكان يذهبون إليه، كما أن التجار المسلمين يلتزمون بالمعايير التجارية المميزة التي ينص عليها الإسلام عند المتاجرة مع أي

شخص. والصينيون، الذين اضطلعوا بالتجارة مع العرب لا يستطيعون عدم التأثر بأسلوب العرب في التجارة الذي يختلف عن الآخرين، كما لم يستطيعوا عدم إدراك الدوافع الكامنة وراء هذا الأسلوب؛ وهي العقيدة الإسلامية. وجاء التجار المسلمون إلي الصين للاشتغال بالتجارة، ويعتبر ذلك عملًا شعبيًا خالصًا لم يثر الإهتمام علي المستوي الرسمي، ومن ثم، لم يسجل في صحائف التاريخ.

والأحداث التي لا تسجل لا يعني عدم وجودها. ويعتبر ذلك السبب الأول. أما السبب الثاني يكون في احتمال إيفاد مبعوثين إلي الصين قبل عهد النبي محمد ﷺ. ففي عام 628م (العام السابع الهجري) أوفد الرسول محمد مبعوثين إلي كل من إمبراطور روما، وإمبراطور فارس، وملك الحبشة من أجل شرح العقيدة الأساسية في الدين الإسلامي بجلاء. وكانت الصين حينئذ دولة عظيمة تتحلي بالنفوذ المهم في العالم. والرسول محمد لا يمكن أن يغفل دولة كبري علي هذا النحو، وقد شجع مريديه بحماس قائلًا: "اطلبوا العلم ولو في الصين." والمؤرخ البريطاني المشهور هربرت جورج ولز(1866- 1946) Herbert George Wells في الفصل السبعين في كتابه المشهور "الخطوط الكبري لتاريخ العالم" حيث ذكر أن: "النبي محمد -في عام 628- أرسل ثُلة من العرب حاملين رسالته إلي الإمبراطور في أسرة تانغ آنذاك ويدعي تاي زونغ، وقد انطلقوا من المدينة إلي كانتون(6)، ثم وصلوا أخيرًا إلي عاصمة هذه الأسرة مدينة تشانغيان، وظفروا بالترحيب الحار من قبل هذا الإمبراطور. والسجلات التاريخية باللغة الصينية قد أكدت هذه النقطة أيضًا. وذكر الجزء(100) من كتاب "النظام الإقتصادي والسياسي في أسْرة تانغ" أن: المرسوم الإمبراطوري صدر في 16 يونيو عام 628 م ينص علي أن المبعوثين الأجانب الذين تزوجوا من فتيات صينيات لا يجوز لهم اصطحاب زوجاتهم أثناء عودتهم إلي بلادهم." وما ذكرته

(6) ميناء تجاري شهير ومهم في جنوب الصين.

الفقرة السابقة من "المبعوثون الأجانب" هم مبعوثون النبي محمد ﷺ. وتتفق هذه السجلات بصورة أساسية مع الحكاية الشعبية الإسلامية[7] التي ذكرت أن الحكيم الثالث والحكيم الرابع جاءا إلي مدينة تشوان تشو(مدينة الزيتون) للدعوة إلي الدين الإسلامي. ومن ثم، نستطيع القول أن تاريخ دخول الإسلام إلي الصين كان في زمن أبكر من عام 651 م. ولكن، من الممكن تمامًا أن نعتبر ذلك العام(651م) دليلًا علي دخول الإسلام إلى الصين من أجل تقديم تسهيلات في تسجيل وقراءة التاريخ.

(7) دُفن مسلمان من العرب الذين جاؤوا إلي الصين في وقت مبكر للدعوة إلي الإسلام، وهما: "الحكيم الثالث" و "الحكيم الرابع". وذكرت سجلات تاريخية صينية أنه كان لمحمد ﷺ اتباع من بينهم أربعة حكماء جاؤوا إلي الصين يدعون الى الإسلام في عهد الإمبراطور دو ده (618- 626) في أسرة تانغ، فذهب الحكيم الأول إلي كانتون، والثاني إلي يانغتشو، أما الثالث والرابع فقد وصلا إلي تشوان تشو(مدينة الزيتون) للدعوة إلي الإسلام حيث ت وفيا ودفنا فيها.

المبحث الثاني
انتشار الإسلام
وتطوره في أسرة تانغ

1. اتساع نطاق التبادلات بين أسرة تانغ والداشي(العرب).

أوفد الداشي(العرب) مبعوثين إلي البلاط الإمبراطوري الصيني منذ عام 651م، وتطورت التبادلات بين أسرة تانغ ودولة الداشي حتي بلغت مرحلة جديدة. وذكرت سجلات تاريخية أن الداشي أرسلوا إلي الصين تسع وثلاثين بعثة في عضون مائة وثمان وأربعين سنة، بدءًا من عام 651 م إلي عام 798م. وخلال تلك السنوات، كانت الفترة الممتدة بين عامي 713 إلي 756 بمنزلة السنوات الأكثر ازدهارًا في إرسال المبعوثين إلي الصين من جانب العرب. والجزء رقم(971) من كتاب "سجل كبار المسؤولين ومقار الأسر الأرستقراطية في العصور الملكية" جاء فيه أن الاشهر: مارس، وإبريل، ويونيه، وديسمبر من عام 753 شهدت إرسال الداشي السود(الدولة الأموية) أربع بعثات إلي أسرة تانغ، وقدم الإمبراطور إلي رئيس البعثة هدايا كانت عبارة عن عباءة أرجوانية، وحزام مرصع بالذهب، وأعطاه كيس سمك، ومنحه بلاط تانغ لقب "تشونغ لانيغ". وكان بعض مبعوثي الداشي اسمه يطابق واقع حاله، بينما البعض الآخر من التجار الذين انتحلوا أسماء غيرهم، وقدموا هدايا لأباطرة تانغ الذين بدورهم أغدقوا عليهم بالهدايا، واستغلوا ذلك في تسهيل الاشتغال بالتجارة. ولذلك، بعض "المبعوثين الذين دفعوا الجزية تم السماح لهم بالإقامة في بعض المدن في نُزُل المغتربين الذين يمارسون التجارة، وأُطلق عليهم "من قاطني أسرة تانغ"، وأصبحوا جزءًا من التجار الأجانب في المناطق الغربية، وعاشوا مع العرب والتجار الأجانب الآخرين فوق الأراضي الصينية، ولم يعودوا إدراجهم إلي بلادهم منذ ردح طويل.

إن التجار العرب المتجولين المذكورين أعلاه وبعض من نظرائهم الأجانب الذين اعتنقوا الدين الإسلامي أصبحوا أقدم جماعة إسلامية تمثل المسلمين الذين مارسوا الأنشطة التجارية في الصين.

2. حملة طراز واتصال بين حضارتين.

كانت العلاقات بين الصين والداشي(العرب) - من بعض الزوايا- بمثابة الإتصال بين حضارتين (الحضارة الصينية والحضارة الإسلامية). وكان هذا الإتصال متعدد الألوان والأشكال مثل إيفاد المبعوثين وتقديم الهدايا للإمبراطور، والعلاقات التجارية. ناهيك عن نوع آخر من الإتصال وهو الصدام العسكري. ويعتبر الإشتباك العسكري شكلًا خاصًا من الإتصال الحضاري، ويظهر عادة في المواضع الكامنة لعملية ونتائج انتشار العلوم والتقنية الفنية، والثقافة الدينية، وذلك لأن هذا الصدام يعتبر استمرارًا للعلاقات السياسية، والإتصال الحضاري - في الغالب- يلوح بريقه في الأفق ويختفي جراء دخان البارود ونيران المدفعية. وحملة طراز التي حدثت بين الداشى وأسرة تانغ تعد مثالًا في هذا الشأن.

وفي المناطق الغربية كان هناك جزء فسيح الأرجاء يضم دولًا تابعة لأسرة تانغ في الفترة من 627- 649، والتي تقع غرب جبل تسونغ مثل: طشقان، وفرغانة، بخاري وغيرها. ولكن بعد تأسيس إمبراطورية الداشي(العرب) أرسلت الحملات والجيوش والقوات شرقًا وغربًا، وفتحت الحدود، ووسعت نطاق أراضيها، ولامست حدودها تدريجيًا وامتدت داخل نطاق المنطقة التقليدية الصينية وهي منطقة وسط آسيا. وشهدت الصين والعرب آنذاك صراعات عديدة، والنتيجة أن كلًا منهما لم يحرز نصرًا، ولم يعرف طعم الهزيمة أيضًا. وفي العام 751م حدث صدام عسكري واسع النطاق بينهما يعرف باسم "حملة طراز" وطراز(طلس) هي مدينة جمبول الواقعة في جنوب شرق جمهورية قازخستان. وقاد قاو شيان جى المفوض العسكري لأربعة مراكز في آنشى في أسرة تانغ حملة تأديبية ضد دولة "شي" (طشقان) لأنها "لم تقدم الهدايا بصفتها دولة تابعة للدولة الأم". وأعلن سلطان طشقان استسلامه ولكن قاو شيان جى لم يتبادل معه عبارات الود والمجاملة، بل قاد قواته وتوغل في أراضيه إلي مسافة سبعة من الليات، والتهم دولة طشقان التي أسسها الداشي، وأسر سلطانها، وذبح من فيها من الشيوخ والضعفاء، ونهب مجوهراتها

وذهبها وجيادها. ولاذ ولي عهد طشقان بالفرار إلي الداشي طلبًا للمساعدة والنجدة. وأخذ قاو شيان تشي بزمام المبادرة الحربية وقاد جيشًا لمهاجمة الداشي وتوغل في أراضيهم لمسافة أكثر من سبعمائة من الليات. وكان جيشه يضم عشرين ألفًا من قومية الهان. بالإضافة إلي القوات التي تضم المغتربين الذين جاؤوا للمساعدة في الحرب من مختلف القوميات. وكان نتيجة ذلك أن الداشي انزلوا هزيمة نكراء بقوات قاو شيان جى، وأسروا أكثر من عشرة آلاف جندي. وتجاوز هذا الصدام العسكري مفهوم النصر والهزيمة في ميدان المعركة؛ وذلك من منظور الإتصال الحضاري. وكان من بين أسري أسرة تانغ بعض الصناع الفنيين والحرفيين مثل: صناع الورق، والنساجون، والصباغ، والرسامون. وحظي هؤلاء الأسري بمعاملة حسنة من قبل الداشي، مما جعلهم يبرزوا للعيان مهارتهم الخاصة و"التقنية الفريدة"، وعلي وجه الخصوص في صناعة الورق والطباعة. وبفضل انتقال هؤلاء الأسري غربًا إلي آسيا الوسطي، وغرب آسيا، ومصر، ثم إلي إيطاليا، وإنجلترا، وهولندا، والنرويج- قدموا تسهيلات كبيرة جدًا في الكتابة والنسخ، ودفع الحضارة الأوروبية إلي الأمام. وكان من بين هؤلاء الأسري شخص يدعي (دون هوان هوا) ابن شقيق (يو) مؤلف "موسوعة الأنظمة" في أسرة تانغ، وكان من أتباع قاو شيان جى في حملته الحربية، ومكث عشر سنوات في بلاد الداشي، وسجل مشاهداته وملاحظاته في كتابه "مذكرات في ديار الغربة". وقدم هذا الكتاب بالتفصيل إلي حدٍ ما المعتقدات الإسلامية والفقه الإسلامي، وأثر تأثيرًا إيجابيًا في فهم الصينيين للإسلام في ذلك الحين، كما أسهم في نشر الإسلام في الصين.

3. جيش الداشي يستقر في الصين لمساعدة أسرة تانغ في قمع "اضرابات آنشي"

يعرف الجميع أن "اضطرابات آنشي" هي تمرد مسلح من جانب القوي المحلية في عصر أسرة تانغ، وشكلت تهديدًا خطرًا لبلاط هذه الأسرة الذي لا يجد أمامه مفر من طلب

المساعدة من القوات الأجنبية لقمع الإضطرابات. وفي العام 757، استعان بلاط تانغ بالقوات العربية وغيرها من الدول الأخري لمساعدتها في قمع التمرد المسلح في آنلوشان، وشي سي منغ. وفي ذلك الحين، قاد القائد العظيم(لي تشو) جيشًا قوامه مائة وخمسين جنديًا من قومية الهان والأجانب، وقد زعم أن جيشه يضم مائة ألف جندي، وتقدمت قواته من الشرق من فرغانة، وهزم العاصمة الغربية نشانغآن في شهر سبتمبر، واحتل العاصمة الشرقية لويانغ في شهر أكتوبر. وأفادت مصادر تاريخية صينية أن اللوجيستات العربية شاركت في حملة استعادة العاصمتين تشانغان ولويانغ. وذكر الجزء(198) من كتاب "كتاب تانغ القديم" أنه: "في مطلع عام 756 أرسل الداشي مبعوثين إلي البلاط الإمبراطوري في أسرة تانغ وقدموا الهدايا للإمبراطور. وفي فترة زونغ(763) أصبح هؤلاء المبعوثين من القادة العسكريين وتمت الإستعانة بجيشهم في إستعادة العاصمتين".

وبعد قمع "اضطرابات آنشي"، رجع جزء من قوات اللوجيستات العربية إلي بلادهم بحرًا، أما السواد الأعظم منهم لم يعودوا إلي ديارهم واستقر بهم المقام في منطقة تشانغان. وطبعًا، حُلت مشكلة زواجهم، وكانت الطريقة المعتادة أن المرأة المحلية من قومية الهان تعتنق - في المقام الأول- الدين الإسلامي، ثم تتزوج من العرب. وكان هؤلاء الجنود أول من وضعوا إرهاصات المسلمين في الصين بصورة رسمية، ولا نعرف عددهم لأنه لا توجد آنذاك سجلات واضحة ودقيقة. وعلي كل حال، في العصر القديم كانت لا توجد الأسلحة الحديثة، ولذا كانوا يقومون بدور الإمداد ولا يقل عددهم عن بضعة آلاف، والا يصبح الإمداد والمساعدة غير ذي جدوي. وقد عادت قلة قليلة منهم إدراجهم إلي ديارهم، أما الكثرة الكاثرة منهم فقد تزوجوا من فتيات صينيات اللواتي ينتمين إلي قومية الهان، وأنجبوا إسلافهم الذين امتد تأثيرهم ليس داخل أسرهم فقط، بل امتد ليشمل أهل وأقارب زوجاتهم. وعلي هذا النحو، انتشرت المعلومات المعنية بالإسلام علي

نطاق واسع وبصورة مفردة، وفهمها وأدركها الصينيون الذين يزداد عددهم يومًا بعد يوم.

4. طريق الحريروقدوم التجار المسلمين إلي الصين:

طريق الحرير المشهور لدي الجميع لم يكن طريقًا تجاريًا فحسب، بل كان طريقًا لانتشار الحضارة، وخطًا للإتصال أيضًا. وطريق الحرير آنذاك كان يضم خطين هما: طريق الحرير البري وينطلق من بلاد الداشي(العرب) مرورًا بالمدن في آسيا الوسطي، ثم يدخل الى ممر خشبي، وأخيرًا يصل إلي مدينة تشانغان عاصمة أسرة تانغ. وكان الإتصال بين الداشي والصين من خلال هذا الخط بصورة أساسية قبل أواسط هذه الأسرة. وتمتع التجار المسلمون بالإزدهار سنوات طويلة علي امتداد هذا الطريق الذي يغص بالفرص المواتية والمخاطر؛ حيث تتدفق وتتصاعد الرمال والأتربة، فضلًا عن قعقعات أجراس الجمال التي تتقدم بجسارة إلي الأمام، أنهم قافلة من التجار. كما أن المبعوثين الذين ينشرون الثقافة يتعلمون بالممارسة التشجيع والسعادة، والنجاح والإخفاق التي تجلبها الإكتشافات.

وطريق الحرير البحري، ويُطلق عليه أيضًا "طريق العطور"، ينطلق من قوانغتشو (ميناء كانتون)، ويمر بالمحيط الهادئ، ويجتاز مضيق ملقا، ثم يمر بالمحيط الهندي إلي الخليج الفارسي، ومن مصب النهرين دجلة والفرات يصل إلي المدينة العالمية بغداد التي كانت عاصمة الدولة العباسية(الداشي السود) وبعد قمع "اضطرابات آنشي"، شهد طريق الحرير البحري تطورًا جليًا، وبدأ الإضطلاع بالرسالة التاريخية من التبادل الإقتصادي والثقافي بين الشرق والغرب. ومع ظهور عدد من المدن الجديدة التي تتمتع بالموانئ، أصبح التجار المسلمون الذين يزاولون التجارة والقادمين من بلاد الدانشي أهم رواد تلك الموانئ، وقوتهم الإقتصادية جذبت الإهتمام من قبل المجتمع الصيني في كافة

المجالات، كما جعلتهم يتحلون بالقدرة علي تثبيت أقدامهم محليًا وزيادة عددهم تدريجيًا، وتوريث الجيل الإسلامي جيلًا بعد جيل.

وهناك أسباب محلية، ناهيك عن أحداث عالمية أيضًا، حفزت التطور السريع علي امتداد طريق الحرير البحري في أواسط أسرة تانغ وفي مرحلتها المتأخرة.

فعلي صعيد الأوضاع المحلية في الصين. **أولًا:** بلغ طريق الحرير البري مرحلة الذروة في التطور في مطلع أسرة تانغ وحتي أواخر عام 756م، وبسبب تعبئة قوات الحدود لتثبيت دعائم الإستقرار بعد "اضطرابات آنشي"، احتل الداشي(العرب) منطقة خه جونج في وسط آسيا الواقعة في عزب جبل تسونغ شان، كما سيطرت السلطة السياسية القومية توفان(قومية عاشت في الصين في العصر القديم) في التبت علي شرق هذا الجبل حتي لونغشي. وبعد فترة وجيزة، أقامت السلطة السياسية في قومية هويخه(قومية في الصين القديمة) الحكم الإنفصالي في شمال جبال تيانشان(الجبال السماوية). وفي تلك الأثناء، احتدمت المنافسة المستمرة بين الداشي، وتوفان، وهويخه، مما جعل الطريق بين الصين والمناطق الغربية لا يمكن اجتيازه بسهولة ويسر، وأدي ذلك -في نهاية المطاف - إلي اضمحلال طريق الحرير البري. ومن ثم، حفّز ذلك أسرة تانغ علي تعزيز ممارسة وإدارة التجارة مع الدول الأجنبية. **ثانيًا:** أن التطور المطرد لطريق الحرير البحري في هذه المرحلة حقق فائدة لصناعة السفن وتدعيم التقنية الفنية الخاصة بالملاحة البحرية في أسرة تانغ. **ثالثًا:** تأثرت المنطقة الشمالية تأثرًا مباشرًا بالإضطرابات الناجمة عن الحرب، وسبب ذلك أضرارًا للإقتصاد في منطقة حوض النهر الأصفر، بينما شهد الإقتصاد تطورًا سريعًا إلي حد ما في منطقة نهر اليانجستي، ونهر هويخه، التي قدمت "النفقات من أجل الدولة والجيش"، كما قدمت كميات كبيرة من السلع من أجل تصديرها ونقلها إلي الخارج أيضًا.

وزبدة القول، أن نهوض طريق الحرير البحري، جعل عددًا غير قليل من التجار الصينيين يسافرون بعيدًا إلي بغداد وإنطلاقًا منها يروجون السلع الصينية في المناطق القاصية في غرب آسيا، وفي كافة الأصقاع في شمال أفريقيا وحتي في أوروبا. ونظرًا لأن السلع الصينية حظيت بترحيب واسع النطاق في كافة الدول الأجنبية، ومن ثم تم إنشاء سوق للسلع الصينية خصيصًا داخل مدينة بغداد. ويعتبر الذهاب والإياب نوعًا من التبادلات، وازدهرت تجارة ثُلة من التجار العرب في المدن الساحلية والموانئ الصينية مثل: قوانتشو، ويانغتشو وغيرها من المدن علي امتداد البحر في جنوب شرق الصين وهو في الطرف الآخر لطريق الحرير البحري. وكان هؤلاء التجار ينقلون منتجات بلادهم بغرض التجارة، ناهيك عن شراء النفائس من دولة الأسود(سيرلانكا الآن)، والذهب الأصفر من دولة كانلون(ماليزيا حاليًا)، وإرسال ذلك إلي كانتون ومقايضته بنسيج الحرير الرقيق ومُشاقة الحرير وغيرها من السلع. أما السلع التي دخلت الصين قادمة من بلاد العرب تشمل: المينا الملونة، والعقيق، وعين الهر، والمَيَعْة[1]، والريحان، وماء الورد، والقرنفل، والجياد، والنعام، والمرجان، واللآلئ، وسن الفيل، والأغنام، والعنبر، والسكاكين العربية، والأحجار الكريمة العربية. إن ازدهار التجارة والإقتصاد مع العالم الخارجي، جذب مجموعة تلو الأخري من المسلمين المغتربين للإقامة في الصين، وأنجبوا جيلًا جديدًا من "الأجانب المولودون محليًا" عن طريق الزواج والإنجاب، ومن ثم جعل ذلك الإسلام يظفر بأساس صلب ومستقر للإنتشار والتطور في الصين في مرحلة مبكرة.

5. نشأة الجاليات المسلمة في أسرة تانغ:

ان السياسة التي أنتهجتها أسرة تانغ إزاء الإسلام ومفادها بصورة أساسية "الإعتراف بالفضل والرعاية" اضطلعت بدور التشجيع والحماية لتحقيق استقرار المسلمين

(1) المَيَعْة: storax مادة صمغية يابسة تستخرج من الاصطرك أو اللبنّي.

وتناسلهم في الصين، ومن ثم دفع ذلك انتشار الإسلام في الصين إلي الأمام. وفي أواخر أسرة تانغ، أصبحت مدينة تشانغان في الجزء الغربي والمدن الساحلية علي امتداد البحر في الجنوب الشرقي- أصبحت أهم مناطق التجمعات السكانية للمسلمين في الصين، وحقق الإسلام التطور أولًا في تلك المناطق. والأهم- بادئ ذي بدء- أن الداشي والفرس من معتنقي الإسلام، كما أن التجار من أواسط آسيا، الذين أُسروا من قبل الجنود، استقروا وقطنوا في الصين بمقتضي حالة "الإقامة في أسرة تانغ". وقامت أسرة تانغ- فيما بعد- باتخاذ الإجراءات القانونية، وجعلت بعضهم يحصل علي الجنسية ويكون من مواطني البلاط الإمبراطوري لهذه الأسرة. وفي عبارة أخري، أنهم قد أصبحوا صينيين. ولكن بالنسبة للسواد الأعظم للذين أقاموا في أسرة تانغ لم يفقدوا جنسيتهم من خلال الإجراءات الإدارية، بل عن طريق تحقيق الإنتقال الطبيعي من جيل إلي جيل بفضل الزواج من فتيات صينيات وإنجاب الأبناء وزيادة عددهم حتي أصبحوا المسلمين الصينيين الأصليين.

وبعد عام 758م، كان يقطن العاصمة تشانغان العديد من القبائل البربرية الشمالية في الصين القديمة، ولاسيما قبيلة(بيه) بصورة أساسية. وأثرت تلك الأقليات في المناطق الحدودية وبأسلوب الحياة المميز لبعض التجار الأجانب الأثرياء تأثيرًا هائلًا في قومية الهان المحلية، وحفزت النشئ والشباب من ذوى الفضول علي التقليد. ومن ثم، تم إثارة المشاعر والأحاسيس لدي القومية(باي) المنبثقة من داخل الشعب بصفة عامة.

وهناك دلائل علي الأنشطة التي اضطلع بها المسلمون في مقاطعتيْ ستيشوان ويوننان[2]. وكانت أغلبية هؤلاء المسلمين من التجار وتربطهم علاقات وثيقة العري

---

(2) تقع مقاطعة سيتشوان في المنطقة الغربية الجنوبية في الصين، وتعد واحدة من أغني المقاطعات، ويشير اسمها إلي "التيارات الأربعة"، وهي الروافد الأربعة: مين جيانغ، قوا جيانغ، فوجيان،

بالطبقات العليا في المجتمع. وأسلاف الإخوة والأخوات لكل من: لي شون، لي شوان، لي شون هم نماذج للمسلمين الذين دخلوا مقاطعة سيتشوان. والأجداد الأولون للإخوة والأخوات الذين يحملون لقب(لي) هم المسلمون الفرس، وهؤلاء الإخوة والأخوات هم أهل دويلة(شو) في عصر الممالك الخمس، وكان أسلافهم يقيمون في تشانغان في عصر شي زونغ(874- 879) في أسرة تانغ، ولاذوا بالفرار من الظلم الذي عرفه هذا العصر وانتقلوا إلي سيتشوان واستقر بهم المقام في العاصمة تشينغداو. وفي تلك السنين، كانت الإخوة والأخوات من ذوي لقب(لي) يتمتعون بالشهرة لأنهم من أصحاب الكفاءة والثقافة، وهم ينتمون إلي عائلة "فارس المولودة محليًا" التي يعرفها الجميع. بالإضافة إلي ذلك، وفي ربيع عام 801م، صدر المرسوم الإمبراطوري الذي ينص علي الوحدة بين أسرة تانغ والجنوب اللذين خاضا معركة حامية الوطيس ضد القوات المتحالفة المألفة من قومية توفان والداشي. ومنيت حملت توفان التي عبرت مدينة لوتشو في مقاطعة سيتشوان بالهزيمة، وأسر جيش تانغ عشرين ألفًا ونيفًا من الجنود الذين استسلموا، ومن بينهم عناصر من قومية توفان والداشي ودولة كانغ. واستوطن الجزء الكبير من هؤلاء الأسري في مقاطعة سيتشوان ويوننان، وكان من بينهم مسلمو الداشي وغيرهم من الدول الإسلامية الذين كانوا بمثابة المسلمين الأولين الذين حملوا لواء الإسلام إلي تلك المقاطعتين.

وكانت يانغتشو[3] مركزًا مهمًا في منطقة الجنوب الشرقي في أسرة تانغ. كما كانت ملتقي التموين النهري بين الشمال والجنوب، ناهيك عن أنها مدينة مزدهرة في مطلع تلك الأسرة. ويانغتشو هي مرفأ تجاري رئيس للتجارة مع العالم الخارجي في ذلك الحين. وبعد

وجيالنيغ. أما مقاطعة يوننان تقع في جنوب غرب الصين، وتتاخم فيتنام ولاوس في الجنوب، وبورما في الغرب، والتبت وستيشوان في الشمال، ويقطنها أكثر من خمسين قومية.

(3) تقع مدينة يانغتشو علي الضفة الشمالية لنهر اليانجتسي ويرجع تاريخها إلي القرن الرابع قبل الميلاد.

أن شهدت قوات تيان قونغ الهلاك والخراب والفوضي، كان يقطن يانغتشو بضعة آلاف من الداشي المشهورين والتجار الفرس، وكان أغلبهم من أصحاب الثروة الطائلة. وفي عام 760م، قاد ليوجان الحاكم الإقطاعي في مدينة سونغتشو تمردًا ضد أسرة تانغ، وفشل دينغ شان المسؤول عن التنظيم والإدارة في جنوب نهر هوايخه في إخماد هذا التمرد، ولكن استطاعت قوات وجياد تيان شين قونغ نائب مسؤول القوات المساعدة الوصول إلي يانغتشو الغنية المكتظة بالسكان، ولذا استهوت واستحوذت علي إعجاب القوات، ومارس ارتال من الجنود عمليات السلب والنهب والقتل والبطش بلا هوادة. وحسب ما جاء في كتابي "تاريخ أسرة تانغ القديم، وتاريخ أسرة تانغ الجديد"، ان التجار من الداشي والفرس الذين لقوا حتفهم جراء تلك العمليات بلغ عددهم أكثر من ألف. والآثار التاريخية في مدينة يانغتشو تقدم القرائن علي تواجد التجار العرب والمسلمين في تلك السنين. ومثال ذلك، في صيف عام 1963، تم العثور علي شاهدة قبر يرجع تاريخها إلي أسرة تانغ في منطقة ووتاي شان في يانغتشو، وصاحبة هذا القبر هي الزوجة المرحومة(وي) عقيلة (وو تونغ) في مدينة بوهاي في هذه الأسرة. وأنجبت هذه الزوجة خمسة من الأولاد والبنات، وابنها الثاني يدعي "فارس". وفي عام 1980، وأثناء التنقيب عن بقايا مقبرة من أسرة تانغ في الجزء الشمالي من مدينة يانغتشو، تم العثور علي إبريق خزفي أزرق مزجج رمادي، وظهره ملون باللون الأخضر، وقد قيل أن الخطوط الزخرفية باللون الأخضر معناها باللغة العربية "الله أكبر". ومن مقتنيات متحف يانغتشو في الوقت الحاضر مرآة برونزية ترجع إلي عصر أسرة تانغ، منقوش علي ظهرها صورة لمسابقة الخيول، وهذه الرياضة قد جُلبت من فارس. ونعرف مما سبق ذكره في السطور أعلاه أن مدينة يانغتشو كانت من التجمعات السكانية المهمة للمسلمين في أسرة تانغ.

وكانت كانتون(قوانغتشو) أكبر الموانئ للتجارة الخارجية في عصر أسرة تانغ. وكان البلاط الإمبراطوري يسيطر بصرامة علي المدن الحدودية في الشمال الغربي، بينما كان

أكثر مرونة نسبيًا في التعامل مع الملاحة البحرية في الجنوب الشرقي، وأسس المدن التي تشمل علي إدارات يختص موظفيها بالسفن الملاحية عبر المحيطات. وفي بعض الأحايين، كان يصل عدد التجار الأجانب الذين يحضرون إلي كانتون أكثر من ثمانمائة ألف في غضون عام واحد، وكان بينهم عدد غير قليل يقيم دائمًا في كانتون. وكان العرب والفرس من التجار المتجولين في البحار. وفى ضوء الموضوع الرئيس في الإتصال الخارجي، ذكرت معلومات تاريخية لدي الجانب العربي أنه في عام 879 م عندما قام هوانج تشاو بمهاجمة واحتلال كانتون، قتل ما يتراوح بين مائة وعشرين ألفًا إلي عشرين ألفًا من المسلمين والمسيحيين ومعتنقي الزرادشتية. ومن الجلي، ان تلك الإحصائية تنطوي علي ما يجافي الحقيقة. وعلي أية حال، إلقاء نظرة شاملة علي هذه السجلات والأحوال التي سردها كتاب "رحلة سليمان السيرفي" تجعلنا علي دراية أكثر بأن عدد الأجانب المقيمين في كانتون كثير جدًا، وأن أحوال المسلمين هي الأكثر أهمية، ولا داعي أن يدفعنا ذلك إلي الشكوك والإرتياب.

ومع تعاظم أعداد المسلمين في الصين، أدرج البلاط الإمبراطوري في أسرة تانغ معالجة شؤون "هؤلاء المغتربين" في جدول الأعمال. وعلي الجملة، انتهجت هذه الأسرة سياسة "الإكرام والمعروف والرعاية" تجاه المسلمين. وتشمل الإجراءات المحددة في هذا الخصوص الجوانب التالية بصورة أساسية:

أولًا: تقديم التسهيلات والرعاية للتجار المسلمين في الجانب الإقتصادي. بعد "اضطرابات آنشي" انكمش الإقتصاد في أسرة تانغ وبات عاجزًا عن تقديم اللوجيسات مرة أخري، واحتضنت تانغ كوكبة كبيرة من الأجانب الذين أقاموا هناك، ومن ثم قامت بترتيب أحوالهم بحلول فترة جين يوان(758- 804)؛ حيث منحتهم الوظائف في الجيش، والوظائف العامة من أجل ضمان مصدر رزق لحياتهم. ومن أجل زيادة دخل البلاط الإمبراطوري، زادت هذه الأسرة الضرائب المفروضة علي الإستيراد في التجارة الخارجية،

مما جعل التجارة الأجانب- ومن بينهم التجار المسلمون الذين يعتبرون الأكثرية نسبيًا- من الصعب أن يتحملوا ذلك، واستطاعوا قط البحث عن أسواق جديدة خارج الصين. ولكن عندما أدرك البلاط الإمبراطوري الأخطار الناجمة عن اضمحلال السوق، اتخذ في التو إجراءات لإصلاح الموقف وألغي تكرار فرض الضريبة علي سلع الإستيراد، مما جعل التجار يستطيعون ممارسة التجارة الحرة بعد دفع الضريبة. وعلي الرغم من أن هذه الإجراءات من جانب البلاط الإمبراطوري قد ضمنت عدم تأثر دخل التجارة الخارجية، ولكن- من الناحية الموضوعية- أهابت التجار من كافة الدول- بما فيهم المسلمون العرب والفرس بالعودة واستعادة السوق التقليدي، ولذا جعل ذلك كانتون مدينة إلتقاء وحشد التجار المسلمين. إن القوة الإقتصادية الضخمة للتجار المسلمين أسهمت في نشر وتطوير الدين الإسلامي.

ثانيًا: علي الصعيد السياسي، حظي المسلمون بفرصة الترقية في السلم الوظيفي وحسن الإستقبال. وفي فترة شوان زونغ في أسرة تانغ(847- 859) بدأ السماح للشخصيات الأجنبية أن تشارك في امتحان الفحوص الإمبراطورية، وإقرار الحد الأدني من العدد المحدد للمقبولين في هذه الفحوص. وجعل هذا الإجراء الإنفتاحي بعضًا من المسلمين الذين مسقط رأسهم في الشرق يستطيعون الحصول علي الوظائف، ومن ثم رفع المكانة الإجتماعية للمسلمين، وتوسيع نطاق أنشطتهم الإجتماعية، ودفع التبادل الثقافي الصيني- الأجنبي إلي الأمام، وقدم ذلك- من ناحية الموضوعية- الظروف الملائمة في بدء انتشار الدين الإسلامي في الصين. والمواطن العربي(لي يان شنغ) انتقل من كانتون إلي مدينة بيانتشو[4] بمساعدة المسؤول عن التنظيم والإدارة في جنوب الجبال الشامخة

(4) مدينة كايفنغ الواقعة في مقاطعة ختان في الوقت الحاضر.

الخمسة[5]، والحاكم الإقطاعي لمدينة كانتون(لوجون) الذي قام- فيما بعد- بترشيحه للبلاط الإمبراطوري في أسرة تانغ. ولي يان شنغ هو الإسم الصيني لهذا المواطن العربي الذي وُلد في بلاد العرب ويمثل الجيل الأول من المسلمين الذين قاموا في الصين، وتربطه مودة وثيقة بالحاكم لوجون عندما كان يقيم في كانتون، وقدم "الدين الإسلامي لرؤوسائه حتي عرفوا الإسلام"، وشعر لوجون أنه "دين فريد، ولذا أوصي به الأسرة الحاكمة". وفي فترة جينغ زونغ(825- 827) تقريبًا، كان هناك مواطن "مولود في فارس" ويقيم في الصين، وهو من أسلاف الفرس ويدعي(لي موشا)؛ وهو أيضًا من التجار المسلمين الذين يعملون بتجارة العطور. وكان من أصحاب الثروة والمكانة الإجتماعية المرموقة، واستطاع الإقتراب من الطبقات العليا، بل وحتى الإقتراب من الإمبراطورالصينى نفسه. وذكر الجزء(171) من كتاب "تاريخ تانغ القديم" أن: "الإمبراطور جينغ زونغ يدير الشؤون السياسية بكفاءة داخل القصر، والمواطن الفارسي لي جوشا أهدي عود بخور إلي المقصورة لين".

ثالثًا: في مجال العادات والتقاليد والحياة الدينية. انتهجت أسرة تانغ سياسة منحت حرية مناسبة للمغتربين المسلمين، كما شهدت الفترة من 785- 804 إقامة الأجانب في مناطق سكنية متفرقة في كانتون. وكانت مثل تلك البيئة الحياتية والسكنية غير ملائمة تمامًا حتي يحافظ المسلمون علي عاداتهم المميزة والخاصة في الطعام والشراب وأسلوب الحياة. وعندما كان لوجون حاكمًا علي مدينة كانتون في الفترة من 836- 840، بدأ تغيير هيكلة هذه المعيشة الحياتية والاقامة، وأصدر أمرًا مفاده: "الصينيون والأجانب يعيشون في مناطق مختلفة، ولا يجوز الزواج بينهما" وجعل ذلك الصينيين والأجانب كلٌ

(5) سلاسل جبلية تمتد عبر الحدود بين مقاطعتي خونان وجيانغتشي من ناحية، وقوانغدونغ وقوانغتشي من الناحية الأخري.

"يقيم في مكانه ولا يزعج احداهما الآخر". وعلي هذا النحو، أُطلق علي المناطق التي يقطنها المسلمون بكثافة "زقاق المغتربين". وأصبح هذا الزقاق- في الواقع- آنذاك بمثابة مناطق الجاليات الإسلامية، ويتشابه ذلك مع "شارع أهالي أسرة تانغ" في الولايات المتحدة الأمريكية في الوقت الحاضر. وإنشاء تجمعات الجالية الإسلامية يستوجب وجود مراكز الأنشطة الدينية والأنشطة الإجتماعية وهو "المسجد" داخل نطاق هذه التجمعات، ناهيك عن الشخصية القيادية للمسلمين أيضًا وهو "الإمام" الذي أطلق عليه السكان في أسرة تانغ لقب "رئيس المغتربين" الذي يتولي مهام منصبه بمقتضي علومه الواسعة مثل البحر وأخلاقه السامية وسمعته الطيبة، ويبدأ بصورة رسمية الإضطلاع بمهام ومسؤوليات منصبه بعد موافقة حكومة أسرة تانغ. ومسؤوليته الأساسية هي إمامة المسلمين في الصلاة، وإدارة الشؤون الداخلية داخل "جالية المغتربين" مثل معالجة الدعاوي القضائية بين المسلمين بموجب الدين الإسلامي، وترأس مراسم الزواج والجنازة لدي المسلمين، فضلًا عن الأنشطة الدينية والأنشطة في الأعياد.

والرحالة العربي سليمان التاجر جاء إلي كانتون لممارسة التجارة وبعد أن عاد إلي بلاده ألف كتابه "رحلة" ذكر فيه أن: "التجار العرب يحتشدون في المرفأ التجاري الصيني كانتون الذي "يضم مسجدًا ومُعلمًا للدين الإسلامي... والتجار المسلمون في كانتون يتجمعون بكثافة في كانتون مقارنةً بالمناطق الأخري. وكان الإمبراطور الصيني يعين مسلمًا بصفته مساعدًا للمسؤول المحلي حسب القواعد الإسلامية ويتولي ترتيب وتدبير شؤون المسلمين، ومن الأزب أن يصلي عدة أيام من كل أسبوع مع المسلمين، ويقرأ بصوتٍ عال وصايا وأحاديث الرسول محمد ﷺ. وبعد أن يفرغ من القراءة، يتضرع إلي الله أن ينعم بالسعادة علي حاكم المسلمين، كما يتحلي بالعدل والإستقامة والاستماع إلي الشكاوي ومعالجتها بالعدل. و"القرآن الكريم"، والحديث الشريف، والعادات الإسلامية هي معايير معالجة كافة الأحوال والمسائل وتطبيقها وتنفيذها. ولذلك، جاء التجار العراقيون إلي هنا

للزيارة وحظوا بالثناء والمديح". وتتفق هذه الفقرة تمامًا مع الإجراءات في أسرة تانغ حيث كان القانون في هذه الأسرة ينص علي: "جميع الأجانب الذين ينتمون إلي أصل واحد وقومية واحدة، وحدثت تناقضات وشكاوي بينهم، تكون معالجة ذلك حسب قانون العادات والتقاليد والأعراف المعمول بها لديهم. بينما يطبق القانون علي المشاكل والدعاوي بين الأجانب من ذوي الأصول والإنتماءات المتباينة".

المبحث الثالث
الدين الإسلامي
في عصر الممالك الخمسة
(907 - 960)

1. "التجار الأجانب" والدين الإسلامي.

في أواخر أسرة تانغ، شهد حوض النهر الأصفر الفوضي الناجمة عن الحرب مرارًا وتكرارًا وتفاقمت حدة هذه الفوضي في الدويلات العشر في عصر الممالك الخمس، ومارست أسرة لياو الملكية(907- 1125)، التي تأسست حديثًا آنذاك، احتلال الأراضي بصورة مطردة صوب الجنوب، وألحق ذلك أضرارًا بالغة بالإقتصاد الزراعي التقليدي في حوض النهر الأصفر. ولكن استمر ازدهار الإقتصاد علي طول الشريط الساحلي في الجنوب الشرقي، وانتشر الأمان والإستقرارفى المجتمع أيضًا، ناهيك عن المناطق المطلة علي البحر، ولاسيما منطقة مقاطعة فوجيان وقوانغدونغ[1]. واصل الإقتصاد البحري فيها ازدهاره بسرعة، وجعل ذلك مظاهر الإزدهار في كانتون، وتشوان تشو[2] تتفوق علي نظيرتها في الأسرة الحاكمة السابقة.

وفي هذه المرحلة، ونظرًا لأن منطقة السهول الوسطي في مقاطعة شانشي[3] تقع في مركز الحروب، اضطر المسلمون الذين يقيمون أصلًا في تشانغآن لفترة طويلة إلي

---

(1) تقع مقاطعة فوجيان قبالة جزيرو تايوان في جنوب شرق الصين، وتبلغ مساحتها 120 ألف كيلو متر مربع تقريبًا، وعاصمتها فوتشو.

أما مقاطعة قوانغدونغ تقع في جنوب بحر الصين، وتتمتع بأطول شريط بحري بين كافة المقاطعات الساحلية في الصين، وتضم جزيرة هينان أكبر الجزائر في الصين، عدا تايوان، ومساحتها 134 ألف كيلو متر مربع.

(2) هي مدينة الزيتون التي تتحلي بالتاريخ العريق والمجد التليد في الماضي، وكانت من الموانئ الأربعة الرئيسة في الصين في نهاية أسرة تانغ.

(3) مقاطعة شا نشي تقع في شمال الصين، ومساحتها تبلغ 200 ألف كيلو متر مربع، وعاصمتها مدينة شيآن الشهيرة ذات التاريخ العريق.

الإنتقال إلي مقاطعة سيتشوان بحثًا عن الأمان والإستقرار. والتبادلات بين العرب وكافة الدويلات في شمال الصين توقفت كلية بصورة رئيسة، ولكن العرب حافظوا دائمًا علي اتصالاتهم مع جميع الدويلات في الجنوب، وهناك دلائل علي أنشطة المسلمين في مناطق سيتشوان، وفوجيان، وقونغدونغ. وفي تلك الأثناء، انتقل مركز انتشار الدين الإسلامي في أراضي الصين من منطقة تشانغآن في الشمال الغربي إلي الجنوب الشرقي في تشوان تشو(مدينة الزيتون)، وقوانغتشو(ميناء كانتون)، وفي منطقة سيتشوان الواقعة في الجنوب الغربي. والدليل الرئيس علي هذا الإنتقال هو ظهور طبقة جديدة من التجار الذين يعتنقون الدين الإسلامي بصورة رئيسة في ولاية (مين) والتي كانت تقع في مقاطعة فوجيان، وأطلق عليهم الناس في ذلك العصر لقب "التجار الذين ينحدرون من أصلاب الأجانب". وبالمثل كان هناك "التجار من ذوي الأصول الأجنبية" في ولاية هان الجنوبية التي كانت في جنوب الجبال الشامخة الخمسة. وكان هؤلاء "التجار" في عصر الممالك الخمس يمثلون ظاهرة إجتماعية لا يمكن إغفالها، وأصبحوا - بالإضافة إلي "التجار المغتربون" في أسرة تانغ- بمثابة طبقتين في تاريخ المسلمين الصينيين؛ حيث أن تسمية "التجار المغتربون" في عصر تانغ تحمل في طياتها- بلا شك- النكهة الأجنبية، أما تسمية "التجار ذوي الأصول الأجنبية" تبرز للعيان أن هؤلاء التجار قد استقر بهم المقام طويلًا ولسنوات عديدة في الصين ويغيرون هويتهم حاليًا.

وعلي هذا النحو، يمكن القول إذا كان عصر تانغ يعتبر مرحلة إنتشار الإسلام في الصين، إذن، فإن عصر الممالك الخمس يعتبر مرحلة بداية وضع إرهاصات الإسلام في الصين.

وما يُطلق عليه "التجار ذوي الأصول الأجنبية" يمثل عصر "التجار الأجانب" و"التجار المغتربون" الذين عاشوا ردحًا طويلًا في الأراضي الصينية منذ أسرة تانغ، وبعضهم انتقل من الداخل، وبعضهم عاش جيلًا بعد جيل في أراضي ولاية مين (مقاطعة فوجيان)

ومنطقة قوانغتشو. وكانت السلطات المحلية تمنح الأفضلية في المعاملة والدعم لـ "التجار ذوي الأصول الأجنبية"، والذين كان معظمهم من المسلمين، وأصبحوا -مع تقادم الزمن- قوة لا يمكن غض الطرف عنها في المجال الإقتصادي المحلي، واستمد الإسلام منهم يد العون وحقق الإنتشار التدريجي والتطور.

2. المسلمون ومشاهيرهم يقطنون مقاطعة سيتشوان في مرحلة الممالك الخمس:

بسبب الفوضي والقلاقل الناجمة عن الحروب المتكررة، نزح المسلمون،الذين أقاموا أصلًا في عاصمة أسرة تانغ تشانغآن طويلًا، نحو الجنوب تباعا صوب مقاطعة سيتشوان بحثًا عن الأرض التي تنعم بالسعادة، وفتح آفاق جديدة، وظهر بينهم ثُلة من المسلمين المشهورين. وكان من بينهم الموظف المسؤول(شي تشوون) الذي دخل الصين وأقام فيها بهويته الإسلامية، وكان من "أبناء ونتشو" في ولاية مين في الممالك الخمس، و"تنتمي جذوره أصلًا إلي فارس" فهو "فارسي مولود محليًا"، وعمل في حكومتي شوا الأولي والأخيرة، وتولي وظائف: المسؤول عن شؤون الجيش والحكومة ووظائفهما في مدينة ليتشو، ونائب المسؤول عن التنظيم والإدارة في جين ينغ جيانغ، والحاكم المحلي الإقطاعي في مدينة وينتشو. ويجب أن نوصي بالإخوة والأخوات من أصحاب لقب(لي)؛ لأن تأثيرهم كان هائلًا بشكل أكبر، والناس يعرفونهم جيدًا. ويرجع أسلافهم إلي مسلمي فارس الذين جاؤوا إلي الصين- تقريبًا- في أواخر الفترة من 860- 874، أو في الفترة من 874- 879. وكانت لي شون شيان مسؤولة عن المراسم في عهد الحاكم وانغ يان في مملكة شوا الأولي. واستمر الإمبراطور شي زونغ في الحكم حتى عام 874 وخلفه وانغ يان، واستمر في الحكم حتي عام 919. وعلي هذا النحو، عمل في البلاط الإمبراطوري الإخوة والأخوات من ذوي لقب(لي) حوالي خمسين عامًا، ومن ثم يمكن أن نعتبرهم انهم يمثلون الجيل الثاني من المسلمين في

الصين بعد ان حضروا إليها، أما الجيل الأول منهم، المولود محليًا فقد ولدوا في يانغتشو في مقاطعة سيتشوان. وكان لي شون، ولى شوشيان يتحليان بالمهارات والكفاءة في النثر والنظم، وتركا عددًا غير قليل من الأعمال الرائعة.

والجزء الرابع من كتاب "سجل العبرات والدروس" لمؤلفه خه قوانغ، ذكر أن: "لي شون لقبه حارون، وهو فارسى مولود محليًا في أواسط مملكة شو. ويقدح زناد ذهنه منذ نعومة أظافرة، ويقول أنه ضيف ويرسل الهدايا إلي القصر مرات عديدة، وأشعاره مؤثرة دائمًا". وقد ضاعت أجزاء كثيرة من كتابه "سجل اليشب واليشم" الذي وصفه العلامة وانغ قوي وي بأنه: "يمثل بداية انتشار أسلوب (تسي) من الشعر الصيني". وكتاب "أشعار أسرة تانغ الكاملة" يحتوي علي أربع وعشرين قصيدة من شعر "تسي" التي كتبها (لي شون) ناهيك عن سبع وثلاثين قصيدة أخري في كتاب "سجلات بين الزهور". ويتحلي أسلوب لي شون بالتعابير الرائعة عن العواطف ليس في المجال الأدبي فقط، بل جسد ذلك في علم الأدوية أيضًا. وعندما نشر كتابه "الأعشاب الشافية في الأدوية البحرية" وجدنا أن العالم الطبيب في أسرة مينغ (1368- 1644) لي شي جين اقتبس منه الكثير من الإستشهادات عندما كان يؤلف كتابه "الخلاصة الوافية في العقاقير الشافية".

وكانت لي شون شيان محظية الحاكم(وانغ يان) في مملكة شو الأولي، ويحتوي كتاب "أشعار أسرة تانغ الكاملة" علي ثلاث قصائد من تأليفها. وجاء في كتاب "الوصف الدقيق لصور الكنوز" أن الزوجة لي شون شيان "تستطيع الرسم، كما لا تستطيع قرض الشعر فحسب، بل هي نابغة أيضًا". وفي الجزء الثاني من كتاب "أحاديث الضيوف في مقصورة ماو" من تأليف هوانغ شيوه في أسرة سونغ(960- 1279) ذكر أن: "لقب لي شوان هو(تينغ يه) وهو الرجل الرابع الأكبر سنًا وأسلافه من دولة الفرس"، و"لي شوان أسلوبه مهذب، ويتحلي بالكثير من الكرامة الأخلاقية، وكان يتجر في العطور والأدوية. وكان حاذقًا في لعب الشطرنج، وحريصًا علي صحته، وكانت مهنته تصنيع اكسير الخلود لإطالة العمر، وفي

أواخر أيامه نفدت أمواله في شراء القدور من أجل تصنيع دواء العمر المديد، وبات منزله خاويًا من الممتلكات عدا كتاب الطاوية وأكياس الدواء".

وعلي الرغم من أن المشاهير المذكورين أعلاه لم يضطلعوا بالدعوة إلي الإسلام بصورة مباشرة، ولكن- لأنهم من المشاهير- فإن أقوالهم وأحاديثهم وسلوكياتهم، ناهيك عن أسلوب حياتهم الذي يختلف عن سائر عامة الشعب، فإن ذلك كله أثر في أعمال المحيطين بهم وفي أقوالهم وملاحظاتهم. وتأسيسًا علي ذلك، فإن خصائص الإسلام المتميزة الكثيرة أو القليلة التي يتحلون بها، من الطبيعي أن تصبح موضوع المناقشة بين الناس.

المبحث الرابع
قدوم المسلمين إلى الصين للتجارة في أسرة سونغ
(960 - 1279)

شهدت الموانئ الصينية الإنفتاح علي العالم الخارجي من جديد في عام 979 ميلادية مع نهوض أسرة سونغ الحاكمة. وفي الوقت نفسه، ازدهرت التجارة والإقتصاد رويدًا رويدًا عبر البحار والمحيطات وتبادل السلع في العالم نتيجة تطور تقنية الملاحة البحرية وصناعة السفن بشكل أكبر. كما شهد عصر أسرة سونغ كله تطور هيكل البناء التجاري والأنشطة التجارية بين الصين والمسلمين بصورة أكبر علي أساس ما شيدته أسرة تانغ، ومع ازدهار التجارة الخارجية يومًا بعد يوم وتعاظم أعداد المسلمين الذين يأتون إلي الصين جعلا كافة المدن الساحلية والموانئ علي امتداد البحر في الجنوب الشرقي، والتي تضطلع بالتجارة والأعمال التجارية مع العالم الخارجي، بمثابة مراكز مهمة لإلتقاء المسلمين الذين يحضرون إلي الصين. واتسم ذلك بالتأثير المباشر والمهم في تثبيت أركان الإسلام أولًا في تلك المدن الساحلية الواقعة علي امتداد البحر في الجنوب الشرقي، ثم انتشار الإسلام في المناطق الداخلية بالصين. وفي الوقت نفسه، تشكلت معالم ترسيخ إرهاصات الإسلام في دخول المسلمين والتجار من كافة القوميات الذين جاؤوا إلي الصين لمزاولة التجارة من خلال عبور الجزء الشمالي الغربي وطريق الحرير البري في الجزء الغربي بالصين، وجلبوا معهم الدين الإسلامي إلي اصقاع الصين الداخلية ونشروه في المناطق المتاخمة التابعة لكافة المدن التجارية الرئيسة علي طريق الحرير، وفي سائر المناطق الداخلية الأخري، وشكلوا معالم بزوغ قوة - إلي حد ما - مع الجنوب الشرقي.

1. افتتاح طريق الحرير البحري:

أولًا: الإتصال والتبادل بين الدول العربية والمناطق وجميع الخطوط التجارية والموانئ الساحلية في الصين.

منذ أسرة تانغ، هناك مواصلات بحرية بين العرب والصين تتسم بالخطوط المحددة التي وصفها عالم الجغرافيا الصيني(جيادان)، الذي كان رئيسًا للوزراء في الفترة من 785-

805، وصفًا دقيقًا مفصلًا إنطلاقًا من تطور العصور والأزمنة، ناهيك عن جميع الموانئ والمدن الساحلية التي تجتازها هذه الخطوط علي امتداد البحار. كما أن السجلات العربية تحتوي علي قرائن ودلائل تؤيد ذلك، فقد جاء في كتاب "سجل أخبار الصين والهند" أن هذه الخطوط كانت تنطلق من الخليج الفارسي وتجتاز قولان(تويلونج في الهند حاليًا)، وجزيرة يوه يه لان(سيرلانكا اليوم) وجزيرة آندامان، وجزيرة نانوولي(جزء من جزيرة سومطرة اليوم) إلي دولة لوا(جدة اليوم)، ثم تنعطف ناحية الشمال مرورًا بجزيرة خومان(جزء من ماليزيا اليوم) حتي تصل إلي جبل داليانج(فانلانغ في فيتنام اليوم)، ومن هناك تتجه شمالًا وتجتاز جزيرة شانبو(جزء من فيتنام اليوم)، ثم تصل إلي أخيرًا إلي قوانغتشو(كانتون). وحقق هذا الخط البري ازدهارًا لم يسبق له مثيل في فترة تاريخية تبلغ زهاء قرن من الزمان، واضطلع بدور تاريخي مهم في التبادل واسع النطاق بين الصين والعرب في المجالات السياسية والإقتصادية والثقافية.

ثانيًا: احتكار المسلمين العرب للتجارة البحرية (دور المسلمين العرب في التجارة البحرية)

إن الإمبراطورية العربية التي تزامنت مع عهد أسرة سونغ كانت تمثل مرحلة حكم الدولة العباسية في ذلك الحين، وكانت أنشطتها الإقتصادية والتجارية مع سائر المناطق في العالم مزدهرة دائمًا وأبدًا، وبعد أن فرضت هيمنتها البحرية علي غرب المحيط الهندي، عززت المواصلات البحرية والملاحية، وخاصة مع أسرة سونغ التي شهدت مواصلاتها البحرية وأنشطتها التجارية ازدهارًا أكثر فأكثر. والتجارة بين الهند وشرق آسيا - وقتئذ- علي ضفة بحر العرب في الجزء الجنوبي تكدست دائمًا بقوة في قبضة العرب والفرس الذين شيدوا في زمن مبكر جدًا المستودعات والمخازن الخاصة بالتجارة في الموانئ الساحلية الرئيسة الواقعة في جنوب الهند، وتدفق سيل جارف لا ينقطع من التجار

والبعثات والرحالة الذين آتوا من كافة دول العالم بحرًا وبرًا يحملون معهم النفائس والكنوز الثمينة والفريدة، ولم يستطع أحدٌ منهم التفوق علي الداشي(العرب)، وزاد عدد التجار العرب والفرس الذين حضروا إلي الصين زيادة هائلة في الفترة الممتدة من أسرة تانغ إلي أسرة سونغ.

2. المسلمون يأتون إلي الصين للتجارة:

الدول العربية والمناطق التي جاء المسلمون منها للاشتغال بالتجارة في الصين تشمل الآتي:

أولًا: طريقة السفر إلي الصين والمناطق:

إن التجار المسلمين من الدول العربية والمناطق جاؤوا إلي الصين بصورة رئيسة عن طريق الحرير البحري وطريق الحرير البري، وتجشموا مشقة السفر الطويل لممارسة التجارة مع الصين، وكانت المناطق التجارية الرئيسة تتركز في الجنوب، ولاسيما المدن الساحلية التجارية علي امتداد البحر في الجنوب الشرقي اتسعت رقعتها نحو الداخل تدريجيًا وسطعت أضواءها؛ أما في الشمال والشمال الغربي، فإن مناطق تجميع السلع علي امتداد طريق الحرير بصورة أساسية، والمدن الثقافية والتجارية اتسع نطاقها نحو الداخل وأشرقت أضواء ساطعة، وتشكلت معالم المناطق التي تتبادل الإشراق والإنوار. وكان أسلوب التجارة الرئيس عبارة عن تجارة البعثات التي تدفع الجزية، حتي أن التجارة مع العرب كانت ترفع الراية الودية للبعثة التي تدفع الجزية.

ثانيًا: أسماء سلع التصدير والإستيراد

في عهد أسرة سونغ، جاء التجار العرب المسلمون إلي الصين للتجارة، وكانت معظم السلع التي استوردوها مصنوعة في غرب آسيا وشمال أفريقيا. ويقدم كتاب "سجل

البلدان الأجنبية" قائمة تحتوي علي نحو خمسين نوعًا من السلع التي تشمل بصورة أساسية:

1) **المجوهرات:** الآلئ، وسن الفيل، وقرن الكركدن، والحجر الكريم(عين الهر)، والعقيق، والمرجان، والمينا الملونة (يوجد بها زجاج ملون)، والكهرمان، وريش الطاووس.

2) **العطور والتوابل:** اللبان، وعود الند، وخشب الصندل، والقرنفل، والقرفة، والعنبر، وورد البنقسية، والميعة، والزعتر، ورائحة الورود، والغردينة، والمر، والجِلتيت[1] والشبث(بقلة من التوابل)، وإهليلج كابلي، وهال حماما، وجوزة الطيب، وحب الهال العنقودي، والسولع(نوع من الصبر)، وحبض صيني، ولحاء الشجر، والكافور، والقافلة، والكبابة، والبسباسة وغيرها.

3) **المواد الغذائية:** جوز الهند، وكوثل الكاشو، والأناناس، والسكر الخشن، والتمر، واللوز وغيرها.

4) **أدوات منزلية:** حصير الخيزران، وحصير من ألياف النخيل.

5) **المنسوجات:** اللباد الأبيض، القماش الحريري الرقيق، والساتان، والقماش المقصب الناعم، وشاش القطن وغيرها.

6) **مواد خام للصناعة:** البلور، والكيروسين، والكبريت، والنحاس الأصفر.

7) **المعادن والسلع الأخري:** الذهب، والفضة، والحديد المطاوع، ودروع السلحفاة، والمنتجات الذهبية والفضية.

وقبيل عودتهم إلي بلادهم، يصدر هؤلاء التجار المسلمون من الصين السلع التي تشمل بصورة أساسية: الشاي، والحرير، والخزف، والكتب، والمنتجات الزراعية.

---

(1) الجِلتيت: صمغ راتينجي يستخرج من جذور بعض النباتات وكان يستعمل كعلاج للتشنج.

3. التجار المسلمون المشهورون:

المسلمون الذين جاؤوا إلي الصين للمثول بين يدي الإمبراطور، وتقديم الهدايا للبلاط الإمبراطوري، وممارسة التجارة، انبثق من بينهم جماعية كبيرة من الشخصيات التي اتسمت بالتأثير الهائل في السياسة والإقتصاد في المجتمع. والكتب التاريخية في أسرة سونغ قدمت سجلات تفصيلية نسبيًا حول تلك الشخصيات التي تضمنت بصورة أساسية:

1) **كُنية الأسرة:** فان يو بو. كان تاجرًا عربيًا أقام في مدينة جان، ثم تركها وانتقل إلي مدينة قوانغتشو(كانتون) حيث الازدهار الإقتصادي وحياة الترف والبذخ، وكتاب "تاريخ أعمدة الردهات" لمؤلفه يوه كه، تضمن سجلات تفصيلية عن حياته.

2) **بو يه لي:** كان تاجرًا من الداشي(العرب) استقر به المقام في قوانغتشو، وكان ثريًا جدًا، وأقام هناك ولم يرجع إلي بلاده لأنه تزوج من شقيقة زينغنا الذي كان يدعو إلي المآثر العسكرية وصاحب لقب دافو(لقب فئة من الموظفين الكبار في الصين القديمة). وفيما بعد، ونظرًا لأن إدارة السفن الملاحية في المدينة تعتزم تعزيز الإتصالات التجارية الخارجية، فقد أرسلت السطات المحلية ليان نايفو إلي بويه لي لإسداء النصح إليه بالعودة إلي بلاده، والإضطلاع بنقل السلع الأجنبية ذهابًا وإيابًا، ومواصلة مزاولة التجارة الخارجية.

3) **شين ياتوا لوا:** ينتمي أصلًا إلي دويلة ووشون(دولة سوهار في شمال عُمان) من بلاد العرب، وهو من الرسل الذين قدموا الهدايا للبلاط الإمبراطوري الصيني، وأقام في قوانغتشو بضعة عشرات من السنين، وتقدر ثروته بالملايين. وبعد ذلك، عاد إلي بلاده ليجذب الكثير والكثير من التجار المسلمين.

4) **بوشيا شين:** من التجار العرب الذين استقر بهم المقام أصلًا في مدينة جان، ثم دخل القصر الإمبراطوري، وقدم الهدايا للإمبراطور لأنه كان مساعد رئيس الموظفين

المحليين، ومنحه البلاط الإمبراطوري لقب "باو شون ليانغ جيانغ"، وكان ينفق من جيبه من أجل بناء مقابر المسلمين في تشوان تشو(مدينة الزيتون).

5) **شي ناوي:** كان تاجرًا عربيًا أقام في جنوب مدينة تشوان تشو وكان داعمًا لبناء مقابر المسلمين فيها، لا يكتنز المال، ويشعر بالبهجة عند إكرام الآخرين.

6) **بولوا شين:** تاجر من الداشي جاء إلي تشوان تشو للتجارة، يتمتع بثروة طائلة، وصنع سفينة وحملها باللبان ودخلت ميناء كانتون، وقد أنفق ثلثمائة ألف قوان(قوان: ربطة الألف من النقود قديمًا)، ومنحه البلاط الإمبراطوري لقب "تشنغ شين ليانغ"، وأهداه "الزي الرسمي، وحذاء، ولوحة التشريفات في الصين القديمة"، وأوصاه بالعودة إلي بلاده، وينصح "التجار العرب أن يسافروا إلي الصين ويمارسون تجارة اللبان هناك".

7) **فوليان:** كان تاجرًا عظيمًا ومسلمًا بين أسرتي سونغ ويوان، وفي كتابه المعنون بـ "مشاهدات وأفعال في شارع كوي شين في هوانتشو" ذكر جومي أنه: "يوجد تاجر عظيم في جنوب مدينة تشوان تشو(مدينة الزيتون)، وهو زوج بنت رجل اسمه بو، ولديه ثروة في بيته، وأرسل ثماني عشرة سفينة تجوب البحار. وفي عام 1293، كانت ابنته صغيرة، وليس لديه ولد، وصادرت الحكومة ممتلكات بيته التي تحتوي علي مائة وثلاثين دان(صندوق سعته عشرة لتر) من الآلئ.

8) **بوتشو قنغ:** الشخصية الإسلامية الأكثر تأثيرًا في الفترة الممتدة بين أسرتي سونغ ويوان، وينحدر أسلافه من المناطق الغربية، وانتقل إلي أبوه ويدعي بوكاي زونغ من كانتون إلي تشوان تشو. وكان المسؤول العام عن الشؤون الخارجية فيهما حيث كانا تنعمان بالثراء والوفرة. ثم أحرز نجاحًا في قمع القرصنة البحرية في الفترة من 1241- 1252 في أسرة سونغ، ومن ثم تم ترقيته رئيسًا لإدارة السفن الملاحية في تشوان تشو. وكان حاذقًا في إدارة شؤون السفن الأجنبية لمدة ثلاثين عامًا. وبعد ذلك، تركزت في قبضته السلطة العليا لإدارة التجارة الخارجية والسلطة السياسية والعسكرية بعد ترقيته للإضطلاع

بمسؤولية المراكز التجارية علي امتداد البحر في مقاطعة فوجيان، ثم مُنح رتبة فريق أول في الجيش بعد سقوط أسرة يوان في عام 1276.

ومن ناحية أخري، وفي مرحلة أسرتي سونغ وهما: أسرة سونغ الشمالية(960- 1127)، وسونغ الجنوبية(1127- 1279)، كانت الأنشطة التجارية للتجار المسلمين في شمال الصين عبر طريق الحرير البري مزدهرة جدًا أيضًا، وكانت التجارة الرسمية والتجارة الشعبية هما الوسيلة الرئيسة في ممارسة التجارة.

وقدوم التجار المسلمين إلي الصين لمزاولة التجارة جعل الصينيين يتحلون بالفهم الصحيح تجاه العادات الحياتية للمسلمين والإسلام من ناحية، ومن ناحية أخري، عجّل ذلك انتشار وتطور الإسلام في الصين، بالإضافة إلي زيادة عدد بناء المساجد.

المبحث الخامس
اقتصاد المسلمين
وشريان الحياة الاقتصادية
في الصين

التجار المسلمون الذين حضروا إلي الصين للتجارة زادوا دخل الدولة في عهد أسرة سونغ وحققوا ازدهار السوق في هذه الأسرة. وهناك رابطة وثيقة العري بين اقتصاد السوق وشريان الحياة الإقتصادية القومية في أسرة سونغ. وفي الوقت نفسه، قدم هذا السوق أساسًا طيبًا جدًا من أجل دفع وتوسيع نطاق تبادل السلع الصينية والعربية علي الصعيد العالمي، وليس ذلك فحسب، بل إن هؤلاء التجار المسلمين اعتُبروا حاملي الدين الإسلامي، واضطلعوا بدورٍ مهم في نشر الدين الإسلامي في أكبر مساحة ممكنة بالصين.

1. الإجراءات والسياسات التي رسمتها أسرة سونغ لجذب التجار المسلمين لممارسة التجارة في الصين:

قامت أسرة سونغ الشمالية(960- 1127) - في المقام الأول - بتأسيس إدارة المدينة لسفن المحيطات من جديد في قوانغتشو(كانتون). وفي عام 999 م، أسست أيضًا "إدارة شانغهاي للإشراف علي التجار" في كل من هانتشو ومقاطعة فوجيان، تكمن وظيفتها ومسؤوليتها في ترتيب وتنسيق خدمات السفن الملاحية وتقديم تسهيلات تحصيل الضرائب الجمركية علي السلع والمواد الخام الخاصة بالأجانب والصينيين، ناهيك عن توفير المخازن والمستودعات التجارية، وتقديم الشروط الملائمة لتحقيق الأفضلية في ابتياع وبيع السلع الأجنبية. وبعد ذلك، أُنُشئت أيضًا إدراتان لسفن المحيطات في مينغتشو[1]، ثم تأسست هيئة السفن الملاحية في المحيطات في تشوان تشو(الزيتون) وميتشو بانتشياو[2] تباعًا. وحرصت حكومة سونغ الشمالية حرصًا شديدًا في اختيار

(1) مدينة نينغبوا في مقاطعة تشجيانغ اليوم.

(2) محافظة جياو في مقاطعة شاندونغ اليوم.

وإرسال موظفي إدارة سفن المحيطات بالمدينة يتم تعيينه بمقتضي مذكرات يتسلمها الإمبراطور من "مسؤولي الوزارات الثلاث[3]، والمسؤول الحكومي الثانى، ومساعد المسؤول المحلي أو مسؤول النقل". وفي الوقت نفسه، طبقت حكومة سونغ نظام التشجيع والتحفيز إزاء موظفي إدارة السفن الملاحية في مدينة قوانغتشو، وقررت أنه عندما تنتهي مدة خدمة مساعد المسؤول المحلي في هذه الإدارة يمكن نقله إلي وظيفة أخري ومنحه الأفضلية في الترقية "إذا لم تعرف ميزانية الدولة نقصًا في دخل الضرائب"، وجعل دخل المدينة من السفن الملاحية يحافظ علي المستوي المعتاد سنويًا، والمسؤولون الحكوميون في إدارات سفن المحيطات في المدن الأخري، يمكنهم تغيير ونقل الموظفين التنفيذيين في أي مكان. وليس ذلك فحسب، بل ان حكومة أسرة سونغ الشمالية أصدرت الأوامر إلي كل إدارات السفن الملاحية في كافة المدن أن تضطلع بدراسة سياسة "إصدار العفو العام من أجل تآلف القلوب وجذب الناس وبث الطمأنينة في قلوبهم"، وإنزال العقاب بموظفي إدارة سفن المحيطات في المدن جراء "الخسارة في أسعار السلع الأجنبية"، وتأثير ذلك في التجارة الدولية. كما أعدت حكومة أسرة سونغ الشمالية ونفذت سلسلة من الإجراءات التفصيلية والمؤازرة تجاه التجار الأجانب مثل مسؤولية الموظفين المحليين بتوجيه هؤلاء التجار عند عودتهم إلي بلادهم أن ينقلوا إلي حكوماتهم "أطيب التمنيات والرغبات الحسنة"، وتأسيس علاقات ثنائية بين الطرفين. وتقيم إدارة سفن المحيطات في المدن مراسم إقامة الصلاة مرتين سنويًا، بالإضافة إلي إقامة مأدبة عشاء لإستضافة التجار الأجانب مرة كل سنة، وذلك من أجل تشجيعهم علي مواظبة الحضور إلي الصين وممارسة التجارة.

(3) وزارة الخراج في الصين القديمة، ووزارة الملح والحديد، وزارة المالية.

2. ازدهار أسرة سونغ ونمو الإقتصاد الوطني:

إن ازدهار الإقتصاد في أسرة سونغ اعتمد علي مستوي تطور القوة الإنتاجية في المجتمع آنذاك، والسياسة الخارجية التي نفذها حكام هذه الأسرة إزاء التجارة الخارجية، وجذب أعداد كبيرة من التجار المسلمين العرب من الخارج وتجار الدول الأخري الذين جاؤوا إلي الصين مرات عديدة من أجل التجارة، وبدأ دخل الدولة يزداد كثيرًا من تحصيل الضرائب، وأصبح دخل التجارة الخارجية يمثل إحدي المصادر المهمة لنمو الإقتصاد القومي. وفي عبارة أخري، إن المسلمين العرب بإعتبارهم أهم التجار الأجانب الذين حضروا إلي الصين للتجارة دفعوا إلي الأمام تطور الإقتصاد المحلي في أسرة سونغ بصورة أكبر، ورفعوا مستوي القوة الإنتاجية في المجتمع، وحفزوا توسيع نطاق تنمية التجارة الخارجية بصورة هائلة.

أولًا: أسباب ازدهار التنمية الإقتصادية في أسرة سونغ:

الإقتصاد في مجتمع أسرة سونغ قدم الأحوال المادية المواتية من أجل تنمية التجارة الخارجية. ويعتبر عهد أسرة سونغ بمثابة مرحلة التطور النسبي للقوة الإنتاجية في المجتمع الإقطاعي الصيني، ولاسيما في منطقة جنوب حوض تشانغ جيانغ التي شهدت تطور القوي الإنتاجية علي وجه الخصوص، وأصبحت أكثر المناطق المتطورة إقتصاديًا في الصين، كما نشأ وضع "الإحتياجات الأساسية في البلاد تعتمد علي حوض تشانغ جيانغ"، وكان ذلك بمثابة الأساس المادي للإضطلاع بالتجارة الخارجية. ان المنتجات الزراعية الوفيرة الناتجة عن تطور الزراعة وضعت الأساس القوي للمواد الخام من أجل الحرف الفنية اليدوية وصناعة المنسوجات الحريرية. وأصبح تطوير صناعة الخزف بمثابة حجر الزاوية للتجارة الخارجية بصورة أكبر. وبدأ بيع الخزف في الخارج في أسرة تانغ، وازدهر في نظيرتها سونغ، وشهد عصر أسرة سونغ، إنتاجًا وفيرًا من الخزف الذي

يتحلي بالجودة الرائعة الجميلة، والتصميمات والألوان المتعددة الزاهية، مما جعله أن يصبح أكثر المنتجات الرائجة في تبادلات السلع والمنتجات حيث تم بيعه وترويجه في الأماكن القاصية في الخارج في عشرات الدول والمناطق. ومن ثم، انتهج حكام أسرة سونغ سياسة إيجابية تجاه العالم الخارجي وإعداد السياسات والإجراءات الخاصة بتقديم الأفضلية في شتي المجالات، وجذبوا الكثير من التجار المسلمين والتجار الأجانب من كافة الدول الذين وصلوا إلي الصين واضطلعوا بالأنشطة الودية في مجالات التبادلات التجارية والإقتصادية والسياسية. وأدركت أسرة سونغ الشمالية أهمية تطوير التجارة الخارجية من خلال الدخل المالي الضخم الذي حصلت عليه الحكومات في أسرة تانغ وفي عصر الممالك الخمس من ممارسة التجارة الخارجية. وقام سونغ شين زونغ بتلخيص خبرة إنفراد جنوب الصين الشرقي بالسلطة وتأسيس دولة في عصر الممالك الخمس، وطلب من البيروقراطي مساعد الإمبراطور "الحرص الشديد علي إيجاد الطرائق والوسائل" من أجل تحقيق هدف "المحصول السنوي يحقق الإنتاج الغزير، وجعل الصين مركزًا للتجارة الخارجية"[4] ولذلك، أصدرت أسرة سونغ الشمالية أوامرها بإعادة إنشاء إدارة سفن المحيطات في مدينة قوانغتشو(كانتون) وتدشين الأنشطة التجارية الخارجية بمجرد القضاء علي الحكم الإنفصالي لدويلة "نان هان"[5] وبالإضافة إلي ذلك، ان اختراع البوصلة واستخداماتها، والتقنية الصناعية في بناء السفن، وتقدم التقنية الفنية في الملاحة البحرية، قدم ذلك كله الظروف الملائمة من أجل تطوير المواصلات البحرية بشكل أكبر، مما جعل تطوير طريق الحرير البحري وأساس منشآت ازدهار التجارة

(4) انظر كتاب "تكملة الدروس والعبر مرآة الحكام – جميع الدروس الناقصة- الجزء الخامس".

(5) دويلة "نان هان" من الدويلات العشر في عصر الممالك الخمس، تأسست في قوانغتشو وقوانغدونغ في عام 917، استمرت زهاء خمسة وخمسين عامًا حتي استطاعت أسرة سونغ الشمالية القضاء عليها في عام 971.

الخارجية أكثر اكتمالًا، وأسهم في اضطلاع الحكومة بتوسيع نطاق كافة أنشطة التجارة الخارجية.

ثانيًا: الموانئ التجارية المشهورة:

ان التجار المسلمين من الدول العربية وكافة المناطق الذين جاؤوا إلي الصين للتجارة ساعدوا في تطور الإقتصاد في أسرة سونغ، وكان هناك اعتقاد متبادل وتعايش متزامن بين ذاك الازدهار فى الأسواق في المدن المينائية. وتشمل الموانئ الرئيسة للتجارة الخارجية في أسرة تانغ: قوانغتشو، تشوان تشو، مينغتشو، هانتشو، ميتشو(مدينة جوتشينغ في شاندونغ)، شيوتشو(مدينة جياشينغ في مقاطعة تشجانيغ)، ونتشو، وجيانغ يانغ(مدينة جيانغ يانغ في مقاطعة جيانغصو) وغيرها. وفي مطلع أسرة سونغ الشمالية، كانت قوانغتشو أول مدينة في أسرة سونغ تؤسس إدارة المدينة لسفن المحيطات، كما كانت المنفذ الوحيد للتجارة الخارجية في عهد هذه الأسرة. ولذلك، استمر ازدهار ميناء قوانغتشو بعد اضمحلال أسرة تانغ. وفي السنوات الأخيرة لأسرة سونغ الشمالية في عام 1064، أُنشئت إدارات المدن لسفن المحيطات في المناطق الثلاث: قوانغدونغ، فوجيان، ليان تشجيا (الطريق الشرقي والطريق الغربي في مقاطعة تشجاينغ). وكانت "مدينة قوانغتشو(كانتون) الوحيدة الأكثر ازدهارًا من بين المقاطعات الثلاث" وبحلول فترة الإمبراطور جاو زونغ(1127- 1130) في أسرة سونغ الجنوبية(1127- 1279) أسست "قوانغتشو- منذ الأسلاف الأولين- إدارة المدينة لسفن المحيطات، وتضاعف دخلها من الضرائب مرات عديدة مقارنة بالمناطق الأخري". وبعد ميناء قوانغتشو، يأتي ميناء تشوان تشو(الزيتون) الذي أُقيم شامخًا وأصبح المنفذ البحري البحري الرئيس لأسرة سونغ الجنوبية لأنه كان بعيدًا عن ميدان المعركة بين أسرة سونغ ودويلة جين(1115-

1234) وكان يقطنها آنذاك "التجار الأجانب" ويقدر عددهم بـ "عشرة آلاف"، كان معظمهم من التجار المسلمين. ويغص ميناء تشوان تشو بالسواري مثل تجمعات حراشف السمك والتي تغطي صفحة السماء. ويحكي أنه انتشرت مقولة بين الناس آنذاك مفادها: "نصف سكان المدينة من المسلمين"، و"قاطنو الشارع نصفهم يحمل لقب بو". ويصف شاعر تشوان تشو في ذلك الحين قائلًا: "تغص التجمعات السكانية والأسواق بالبشر من كافة الأطياف"، و"تتدفق عشرات الآلاف من المواطنين مثل فيضان البحر". وفي أواخر الفترة الممتدة من 1131- 1162 في أسرة سونغ، بلغ دخل ميناءي تشوان تشو وقوانغتشو زهاء مائة ألف قوان(قوان= ربطة الألف من النقود آنذاك) مناصفة بينهما، مما يوضح أن تشوان تشو تواكبت مع تطور قوانغتشو بسرعة. وكانت هانتشو، عاصمة أسرة سونغ الجنوبية، محور المواصلات البرية في بحر الجنوب الشرقي، وتتمتع بالسلع والمواد الوفيرة، والتجارة المتطورة، وظفرت بالتسمية "المنطقة الإدارية الأولي في الجنوب الشرقي"، وكانت المدينة التي أقيم فيها إدارة المدينة لسفن المحيطات في منطقة تشجانيغ شرقًا وغربًا. أما صورة يانغتشو وقتئذ تجلت في "الآلاف من التجار يمارسون السفاد مع الشمس الغاربة، ويغص السوق باللهو والمجون وطاولات الخمور". ومع توسيع نطاق التجارة الخارجية وازدهارها، أسست حكومة أسرة سونغ الشمالية في عام 1088 إدارة سفن المحيطات في بلدة بانتشياو في ميتشو علي طول ساحل الجنوب الشرقي في شبه جزيرة شاندونغ، كما أنشأت "خدمات سفن المحيطات في محافظة هواتينغ في مدينة سيتشو بمقتضي أوامر الإمبراطور"، وجسدت بلدة بانتيشاو في أواخر أسرة سونغ الشمالية أحوال الازدهار من "احتشاد سفن التجارة الخارجية ورسوها وتموينها". وبالإضافة إلي ذلك، وفي مطلع أسرة سونغ الجنوبية، تطورت خدمات سفن المحيطات في كل من: جيانغ يانغ، ونتشو، كما تم إنشاء ميناء في سانبو في ذلك الحين.

ثالثًا: نمو الإقتصاد القومي في عهد أسرة سونغ:

إن قدوم التجار المسلمين العرب إلي الصين للتجارة جعل الدخل الضريبي في أسرة سونغ يزداد بصورة هائلة، مما دفع نمو الإقتصاد القومي إلي الأمام. كما أن نمو الإقتصاد القومي جعل حكومة أسرة سونغ تهتم بتنمية التجارة الخارجية بشكل أكبر أيضًا، وإعداد مجموعة من سياسات الأفضلية لجذب التجار الأجانب إلي الصين وممارسة التجارة. وفي الوقت نفسه، تشجع التجار داخل البلاد علي ركوب البحر والإضطلاع بالتجارة بقوة ونشاط. وحفزت هذه الإجراءات توسيع نطاق تطوير الإقتصاد والتجارة الخارجية. وجعل ذلك التجارة الخارجية الأكثر نموًا والأكثر ازدهارًا، والتي كانت تمثل ركنًا مهمًا جدًا في المداخيل المالية لدي حكومة أسرة سونغ. وفي مطلع أسرة سونغ الشمالية، شهدت حكومة سونغ ازدهارًا في تجارة السفن، و"حصولها علي أكثر من خمسمائة ألف جين(الجين= نصف كيلو جرام تقريبًا) من السلع والمواد كل سنة ". وفي أواسط هذه الأسرة، وبالتحديد في الفترة بين عامي 1049- 1054" بلغ إجمالي التجارة من سن الفيل، والكركدن، والآلئ، واليشم، والعقاقير الطبية المعطرة أكثر من خمسمائة وثلاثين ألف جين". كما زادت مائة ألف جين في الفترة من 1064- 1067م، وفي خلال الأعوام التسع الممتدة من 1068- 1077، كانت هناك ثلاث مدن فقط هي: هانتشو، ومينغتشو، وتوانغتشو التي شُيد فيها إدارات لسفن المحيطات تقوم بجمع الأموال، والحبوب، والفضة، والعقاقير الطبية العطرة، بإجمالي خمسمائة وأربعين ألف جين. وبلغ الدخل في تلك المدن -في غضون اثني عشر عامًا من 1086- 1100- "خمسة ملايين قوان"، حيث بلغ الدخل السنوي نحو أربعمائة وعشرين ألف قوان سنويًا. وبحلول عام 1101م، ونظرًا لتشجيع حكومة سونغ التجارة الخارجية بشتي الوسائل وبذلها الجهود المضنية من أجل تحقيق "الفائدة" من متعة بيع السلع التي تحملها السفن، ولذلك "قفز الدخل إلي مليون قوان في خلال تسع سنوات"، وحصلت إدارة سفن المحيطات علي

مليون ومائة ألف قوان تقريبًا في السنة. ومن منظور المداخل المالية والضرائبية الضخمة، نجد أن التجارة الخارجية تبوأت مكانة مهمة جدًا في اقتصاد البلاد، ويُعد ذلك بمثابة السبب الرئيس وراء اهتمام حكومتي أسرتي سونغ الشمالية والجنوبية بتطوير التجارة الخارجية.

3. صناعة السفن والتجارة الخارجية في أسرة سونغ:

أولًا: دخلت العلوم والتقنية الفنية في الصين مرحلة هائلة من التطور منذ عهد أسرة سونغ، ولاسيما أن الإستخدام الشامل للعديد من الإنجازات العلمية والفنية في تقنية صناعة السفن، والتقنية الفنية في الملاحة شهدت -في هذه المرحلة- تقدمًا جليًا اتسم بالمستوي العالمي المتقدم، وظهر ذلك بصورة أساسية في التمكن بإقتدار من نظام الظواهر الساحلية والمهارة الفنية في الفلك والملاحة البحرية، ناهيك عن استخدام البوصلة. إن استخدام البوصلة في الملاحة تجسد في البوصلة الملاحية، والأكثر أهمية ان ذلك يُعد تقدمًا بارزًا في مجال التقنية الفنية الملاحية وقتئذ، وفي الوقت نفسه؛ جسد أيضًا اسهاما عظيما من قِبل الصين في مجال الملاحة العالمية. إن تقدم التقنية الصناعية في صناعة السفن برز للعيان بوضوح في زيادة حمولة النقل البحري وامتلاك القدرة الجيدة نسبيًا علي مقاومة الغرق في مياه البحار. إن تمكن الناس بإقتدار من نظام الظواهر البحرية والفلك جعلهم يشعرون أن الملاحة البحرية أكثر أمنًا ومسار الخطوط البحرية الأكثر صوابًا. وفي فترة أسرة سونغ، أقيمت مصانع لبناء السفن تابعة للسطات المحلية في الكثير من الأماكن علي امتداد البحر في الجنوب الشرقي، و"تبوأت مقاطعة فوجيان المركز الأول في صناعة السفن العابرة للمحيطات" في التقنية الفنية لصناعة السفائِن في كافة المناطق علي امتداد البحر، بينما كانت تشوان تشو(مدينة الزيتون) الأكثر شهرة في صناعة السفن العابرة للمحيطات في تلك المقاطعة. وحازت صناعة

السفن العابرة للمحيطات في الصين إعجاب وتقدير عدد غير قليل من الرحالة الأجانب لأنها تتمتع بالصلابة وقدرتها علي مجابهة العواصف والأمواج شديدة.

ثانيًا: الصينيون يمارسون التجارة الخارجية في أسرة سونغ:

في عهد أسرة سونغ لم يحضر إلي الصين عدد كبير من العرب للاشتغال بالتجارة فحسب، بل في الوقت نفسه، ركب عدد ضخم من الصينيين السفن ومخروا عباب البحر ووصلوا إلي بحر العرب وساحل شرق أفريقيا للإضطلاع بالتجارة. وكانت خطوط المواصلات البحرية في أسرة سونغ تتمتع أصلًا بأساس قوي منذ أسرة تانغ. وفي عبارة أخري، ان تلك الخطوط توسعت وامتدت بشكل أكبر من قوانغتشو(كانتون) إلي الخليج الفارسي وعلي طول الساحل في شرق أفريقيا. وأفادت السجلات التاريخية العربية أن الأسطول البحري للصينيين كان يقوم دائمًا برحلات إلي ميناء الشريف علي نهر الفرات والموانئ العربية الأخري في بحر العرب، وذلك في وقت مبكر من القرن الخامس أو السادس. وفي مطلع القرن السابع، تطورت التجارة بصورة هائلة بين الصين والفرس والعرب حتي مدينة الشريف علي امتداد بحر العرب. كما ذكرت السجلات التاريخية الصينية أن التجار الصينيين وصلوا إلي أقاصي أفريقيا علي الساحل الشرقي في سينجيا(سنجار في تنزانيا اليوم). ووصف الرحالة العربي المسعودي في كتابه المشهور أحوال الأنشطة التجارية في الموانئ الواقعة في الجزء الغربي في السعودية العربية والبصرة وعُمان حيث يحضر التجار الصينيون إلي تلكْ الموانئ وسفنهم محملة بالسلع والمواد. وبعض أصحاب الجاه والنفوذ والبيروقراطيين علي امتداد الساحل استفادوا من الإمتيازات السياسية ومارسوا أنشطة التجارة الخارجية علي نطاق واسع من "إرسال السفن، واستقبال التجار الأجانب، وتجارة السلع الثمينة"، كما أن العديد من الموظفين

بعثوا أصحابهم الموثوق فيهم إلي الخارج للإشتغال بالتجارة، وكان من بينهم تشانغ شون الذي يعتبر نموذجًا في هذا الشأن.

إن أعدادًا ضخمة من التجار المسلمين جُذبوا إلي الصين للتجارة بفضل تطور الإقتصاد والتجارة في أسرة سونغ، مما جعل السكان المسلمين في الصين يشهدون زيادة مطردة. ومن ثمار التجارة الخارجية أنها أدارت دخلًا ماليًا ضخمًا علي حكومة أسرة سونغ، ولذا جعلت أيضًا التجارة والإقتصاد في الدول العربية ومناطق المسلمين يرتبطان إرتباطًا وثيقًا بشريان الحياة الإقتصادية في أسرة سونغ. وبالإضافة إلي ذلك، ان سلع الصين الغنية والظروف المناخية الملائمة والبيئة التجارية علي امتداد الساحل الجنوبي الشرقي، جعل ذلك كله التجار المسلمين يمكثون في الصين طويلًا يومًا بعد يوم، ووضع ذلك حجر الأساس الصلب من أجل تطوير الإسلام في الصين بشكل أكبر.

المبحث السادس
المساجد والحياة الدينية
للمسلمين في أسرة سونغ

إن التجار المسلمين الذين سافروا إلي الصين لممارسة التجارة في أسرة سونغ لم يحملوا معهم منتجات الدول العربية الوفيرة فحسب، بل جلبوا معهم أيضًا النظام الديني وأسلوب الحياة الإجتماعية في الدين الإسلامي، ناهيك عن عاداتهم وتقاليدهم. وقد شهدت أسرة تانغ المساجد والتجمعات الإسلامية التي يُطلق عليها "فان فانغ" (مناطق الأجانب). وبقدوم أسرة سونغ، ومع ازدهار وتطور تجارة المسلمين في الصين وارتفاع في عدد السكان المسلمين، بات من المحتوم زيادة عدد المساجد والتجمعات الإسلامية وتوسيع نطاق مقابر المسلمين. ويشير ذلك كله بصورة ضمنية إلي زيادة عدد السكان المسلمين وتعاظم تأثير الإسلام في الصين. وعلي الرغم من أن هذا التأثير كان خافيًا وإيحائيًا، بيد أنه تعرض للقيود إلي حد ما من قِبل البلاط الإمبراطوري في أسرة سونغ. وأيًا كانت تلك القيود، فإن إرهاصات الدين الإسلامي في الصين قد تبلورت معالمه. والأكثر أهمية أن الصينيين باتوا أكثر معرفة وأكثر تفهمًا للإسلام والحياة الدينية للمسلمين عن أسرة تانغ.

1. المساجد في أسرة سونغ:

المسجد هو المكان الأساسي الذي يشهد الأنشطة الدينية للمسلمين، كما يعتبر التجسيد الخارجي للثقافة الروحية للإعتقاد الديني في الحياة الواقعية. والمسلمون في كافة القوميات الذين جاؤوا إلي الصين لمزاولة التجارة أقام معظمهم في المدن المينائية التي تتحلي بالمواصلات السهلة والإزدهار الإقتصادي، أو بقوا في المراكز التجارية التي تتحلي بالتقدم في السياسة والإقتصاد والثقافة، وقد قرر ذلك أن الدين الإسلامي في أسرة سونغ تجذرت جذوره -في المقام الأول- في كافة المدن المينائية والمراكز التجارية علي امتداد الساحل الجنوب الشرقي بفضل المآثر التي تركها هؤلاء التجار المسلمين، وأصبح

ظهور المساجد في تلك المدن والمراكز ضروريًا وحتميًا. وشكلّ ذلك خصائص انتشار المساجد في أسرة سونغ، حيث كان تشييد المساجد في مدن الموانئ المهمة مثل: قوانغتشو(كانتون)، وتشوان تشو(مدينة الزيتون)، ومينغتشو(نينغبو حاليًا)، وهانتشو، ويانغتشو[1]. ومن هذه المساجد مسجد الحنين إلي النبي (ويسمي أيضًا مسجد قوانغتشا؛ أي مسجد المنارة، وذلك لفخامة منارته، وتم بناؤه في أسرة تانغ)، ومسجد شيانخه(الكركي) في يانغتشو(البناء في عام 1275)، ومسجد تشنجياو(مسجد العنقاء) في مدينة هانغتشو، ومسجد شنيغ يو "الصحابة" (بالإضافة الى مسجد تشنغ جينغ، وتم بناؤه في عام 1009)، ومسجد نينغبو(شُيدت في أسرة سونغ في الفترة من 998- 1003). وفي شمال الصين والمناطق الداخلية، يوجد مسجد نيوجيه(البقرة) في العاصمة بكين، ويسمي أيضًا "لي باي سي"(دار الصلاة)، وقد تم بناؤه في عام 996 ميلادية، ومسجد بيه دا(الشمالي الكبير) في جينغتشو(شُيد في أسرة تانغ)، ومسجد دونغدا(الشرقي الكبير) في مدينة كايفنج(شيد في عام 628)، ومسجد هوا جيويه(التوعية) في مدينة شيآن[2] (شُيد في عام 742) ومسجد داشيوه يه في شيآن(بدأ بناؤه في عام 705)، ومسجد جينغ نيغ في مدينة آنكانغ في مقاطعة شانشي(تزعم معلومات اللوح الحجري أنه تم بناؤه في عهد أسرة تانغ، ولكن هذه المعلومات تفتقر إلي الدليل)، ومسجد دونغ قوانغ في مدينة وو وي في

---

(1) تقع مدينة يانغتشو عند ملتقي نهر اليانجتسي والقناة الكبري. وكانت محورًا للنقل المائي في الصين منذ أسرتي سوي وتانغ، كما أصبحت مركزًا للتبادلات الإقتصادية والثقافية مع سائر أنحاء العالم وتوارد الكثير من العرب إلي هذه المدينة برًا وبحرًا لممارسة التبادلات الإقتصادية والثقافية.

(2) كانت شيآن تحمل اسن تشانغآن؛ وهي عاصمة الصين في أسرة تانغ، وكانت تمثل بداية طريق الحرير المشهور، كما كانت مقصدًا لأعداد كبيرة من التجار العرب الذين قصدوها للتجارة أو الإستقرار. كما أن جماعة من أهل الشيعة الهاربين من اضطهاد الأمويين، وجماعة من المسلمين العرب العسكريين الذين ساعدوا أسرة تانغ في قمع اضطرابات لوشان قد استقروا في هذه المدينة.

مقاطعة قانصو(شُيد في أسرة تانغ)، ومسجد آو داشي كه (ويسمي أيضًا مسجد اتزي نيماي جيتي، ويقال بدأ بناؤه في عام 800 في أسرة سونغ الجنوبية) في مدينة كاشغر في منطقة شينجيانغ الويغورية ذات الحكم الذاتي (تركستان الشرقية)

ومن المساجد المذكورة أعلاه وتتحلي بالسجلات التاريخية الجلية، وباستثناء المساجد التي شيدت في أسرة تانغ، فإن سائر المساجد الأخري تعتبر زيادة جديدة في عدد المساجد في أسرة سونغ. ولكن عدد المساجد في تلك الأسرة ينأي عن الواقع فعلًا جراء أن تاريخها موغل في القدم ويفتقر إلي السجلات الواضحة التي تشتمل علي المعلومات التاريخية. إذن، اننا في وضع لا يسمح لنا بمعرفة عدد المساجد في أسرة سونغ. ولكن في تشوان تشو(مدينة الزيتون) فقط، وقبل اضمحلال أسرة سونغ الجنوبية، هناك معلومات تاريخية واضحة تفيد أن تلك المدينة يوجد بها ثلاثة مساجد، ناهيك عن دار إقامة الصلاة المعروفة باسم الصحابة ومسجد اليمين. وبعد انقضاء سبعين عامًا من أفول نجم أسرة سونغ الجنوبية، ذكرت "النقوش الحجرية لترميم المساجد" التي قام بها وو جيان جي - ذكرت أن تشوان تشو يوجد بها ستة أو سبعة مساجد آنذاك. وبالمثل في العام 1348، جاء في "تذييل النقوش الحجرية لترميم المساجد" في مدينة دينغتشو أنه: "في الوقت الحاضر يوجد في العاصمة جينغ، وفي المحافظات القاصية والدانية أكثر من عشرة آلاف مسجد، تقدم الطقوس لإقامة الصلاة". وفي فترة زمنية لا تبلغ سبعين عامًا من اضمحلال أسرة سونغ، كانت المساجد منتشرة بدءًا من العاصمة بكين إلي كافة المحافظات ويقدر عددها بـ "أكثر من عشرة آلاف مسجد"، ومن الجلي أن ظهور عدد كبير من المساجد علي هذا النحو يرتبط إرتباطًا وثيقًا بحجر الأساس الذي وضعه المسلمون في أسرة سونغ.

وعلي الرغم من أن المسلمين الذين حضروا إلي الصين للتجارة في عهد أسرة سونغ أقاموا في الصين، ولكنهم لم يصبحوا مواطنين صينيين، وكان تأثرهم بالثقافة المعمارية

التقليدية في الصين ليس كبيرًا، ولذلك، الهيكل المعماري في بناء المساجد والأسلوب المعماري في أسرة سونغ كانا عادة تقليدًا من الشكل المعماري في القرون الوسطي، ويطلق مؤرخو المعمار علي تلك المرحلة الإقتباس. ومع التغييرات التي شهدتها الأزمنة، وإيغال تاريخ تلك الأسرة في القدم، فإن المساجد في أسرة سونغ اجتازت عملية التغييرات التاريخية التي يناهز تاريخها ألف سنة، واندثرت المعالم القديمة للعديد من المباني. ولا يوجد سوي مسجد تشوان تشو الذي ما زال يحتفظ بالأسلوب المعماري العربي في بناء المساجد، وتم تشييد المدخل الرئيس من الجرانيت الأزرق، وينقسم إلي ثلاثة أقسام: الجزء الخارجي، الوسط، الجزء الداخلي، ويتألف من أربعة أبواب عبارة عن أربعة أقواس مدببة، وقبتين نصف دائرتين، والجزء الخارجي مفتوح، والجزء الداخلي معلق، وتفتح الأبواب التي علي شكل الأقواس علي أبواب صغيرة في الداخل، ويتضاءل حجمها كلما دلفت إلي الداخل. وقاعة الصلاة وبوابة المسجد متجاوران بصورة مباشرة ولا تحاول معرفة أوجه التشابه بينهما، والجدران الأربعة لقاعة الصلاة من أحجار الجرانيت البيضاء المختلفة الأحجام. وبالإضافة إلي ذلك، هناك قوانغتا(المنارة) داخل مسجد هوايشنغ(الحنين إلي النبي) في مدينة قوانغتشو(كانتون) التي لا تزال تحتفظ تمامًا بمعاملها الأصلية وبناؤها المتميز بأسلوب العمارة العربي، وهي اسطوانية الشكل، وجدرانها المبنية من الطوب تتكون من طبقتين داخلية وخارجية، حُشر بينهما التراب لتثبيت الجدران. ويوجد - في جوف المنارة- سُلمان لولبيان لا يتشابك أحدهما مع الآخر، ويمتاز بناؤها بالدقة والمهارة. وفي الطابق الأول قمة المنارة مكشوفة وتفضي إلي مخرج يؤدي إلي منصة تتوسطها منارة صغيرة اسطوانية الشكل، وكانت قمة المنارة مزدانة بالزجاج الذهبي، ثم تعرضت لعوامل التعرية والإنهيار وخضعت للترميم وأصبحت فخمة مرصعة بالأحجار الكريمة، ويبلغ ارتفاعها الآن أكثر من ستة وثلاثين مترًا. والبناء المعماري لهذه المنارة أثر تأثيرًا هائلًا في أسلوب بناء الباغودات في الصين، والدليل علي ذلك استخدام السلالم اللولبية داخل معظم الباغودات التي شُيدت في أسرة سونغ.

أما بخصوص إدارة المساجد في أسرة سونغ، فقد تم تطبيق نظام الإدارة المعمول به داخل أروقة التجمعات السكانية للتجار العرب في الصين، ويطلق علي ذلك نظام السلطة الدينية من القضاء في تاريخ نظام الأخذ بزمام السلطة الدينية في الإسلام. ونظرًا لأن الإسلام يعتبر نوعًا من النظام الديني يجمع بين الدين والسياسة، ولذلك تجسدت هذه الخاصية في إدارة التجمعات السكانية من قبل المسلمين في أسرة سونغ. وعلي وجه العموم، بناء المساجد يكون داخل نطاق التجمعات السكانية التي يستقر فيها الضيوف المسلمون، ولذا فهي تقام أيضًا داخل نطاق السلطة الإدارية المحدودة لرئيس تلك التجمعات للمغتربين المسلمين. ويعود تاريخ أسلوب الإدارة في تلك التجمعات إلي أسرة تانغ، ويتسم أيضًا بالخصائص المتشابهة. وبيَّن يانغ هوانغ تشونغ في مقاله المعنون بـ "الضيوف الأجانب في أسرة تانغ" -بيَّن أن التجمعات السكانية للتجار العرب في الصين تعد -في الواقع- شكلًا تنظيميًا يجمع بين السياسة والدين". وقد وضح هذه النقطة بالضبط.

وإذا كان العام 651 م، الذي شهد تأسيس العلاقات الودية بين الداشي(العرب) وأسرة تانغ نعتبره البرهان علي دخول الإسلام إلي الصين، إذن، فإن ظهور المسجد في الصين يعني بداية إنتقال الإسلام وتجذر جذوره وتوطيد إرهاصاته في الصين. وفي الأصل كان ظهور المسجد تلبية لإحتياجات المسلمين الذين جاؤوا إلي الصين كمبعوثين رسميين وتجار يمارسون التجارة. وأقدم مسجد في الصين ظهر في أسرة تانغ. وعلي كل حال، ومع تقادم الزمن وزيادة السكان المسلمين، زاد عدد المساجد بصورة مطردة أيضًا. ان تلك التغيرات أو تلك الزيادة كانا دائمًا يتسمان بالبطء الشديد، ولكنهما يتراكمان بلا انقطاع. وعلي الرغم من الإفتقار إلي ثمة معلومات تاريخية توضح هذه الأحوال بالتفصيل، ولكن الزيادة التدريجية الهائلة في المقابر التي لا تحصي في كافة الاصقاع وتوسيع نطاق مناطق التجمعات السكانية للمسلمين رويدًا رويدًا في الصين يقدمان البرهان الذى يثبت هذه

المسألة. وحسب معرفة البشرية بقوانين التاريخ، ومن منظور التطور التاريخي للإسلام في الصين، فإن ذلك كان بمثابة استعدادًا حتميًا قبل انتشار الإسلام علي نطاق واسع وإحرازه قفزة نوعية في أسرة يوان(1271- 1368). وهنا يكمن مغزي اضطلاعنا بالسرد التاريخي للمساجد والإسلام في أسرة سونغ.

2. بدء المرحلة الطبيعية لتصيين المسلمين:

(أ) ظهور الجيل الخامس من الضيوف الأجانب:

تحول المسلمون من أجانب إلي مغتربين، ثم انتقلوا إلي عملية التغيرات والتطورات التاريخية لدي الصينيين، ويعتبر ذلك دليلًا علي المرحلة التمهيدية لتصيين السكان المسلمين. وبعد أن جاء التجار الأجانب إلي الصين، واستقروا في بادئ الأمر في المدن المختلفة علي امتداد البحر بسبب الحاجة إلي الأنشطة والأعمال التجارية، وكان من بينهم بعض الناس الذين توغلوا في المناطق الداخلية. وبسبب الحاجة إلي الأعمال التجارية ومحدودية الظروف التاريخية وقتئذ، جعل ذلك الكثير من التجار الأجانب يقيمون في الصين ردحًا طويلًا. وفي فترة اضطلاعهم بالأنشطة التجارية في الصين، ونظرًا لاحتياجات الأعمال التجارية، والحياة اليومية المعتادة، تعلموا اللغة الصينية، واستخدموا أسماء الصينيين، وتزوجوا من النساء الصينيات، وازدهرت أجيالهم المقبلة، بل حتي بعضها بلغ أكثر من الجيل الخامس. ثم بدأت عملية تصيين المسلمين العرب في ظل هذه الأحوال التي تتسم باللاوعي، ويعتبر ذلك بمثابة العملية الطبيعية التي لم تجعل فقط العديد من الصينيين يعتنقون الدين الإسلامي فحسب، بل إن خلف هؤلاء المسلمين - عبر سنوات طويلة فيما بعد- باتت عاداتهم الحياتية والإجتماعية تتشابه تقريبًا مع الصينيين الذين ينتمون إلي زمنهم، باستثناء الإعتقاد الديني والأطعمة التي حرمها "القرآن الكريم".

ووصفت هذه العملية بانها حجر الأساس لنشأة قومية هوي المسلمين في الصين، ويعد ذلك مسألة أوجدتها قومية هوي ولا يمكن إغفالها.

(ب) مناطق إستقرار التجار العرب ومدارس أبنائهم:

ظهرت تسمية "فان فانغ" في كتاب "مشاهد من أزمة اللاجئين" من تأليف فانغ تشيان لي في أسرة تانغ، وتشير إلي مناطق استقرار التجار العرب الذين جاؤوا إلي الصين لممارسة التجارة. وبعد قدوم أسرة سونغ، ازدهار التجارة الخارجية جعل المسلمين في كافة المناطق الغربية يتمركزون في جميع المدن المختلفة والمراكز التجارية علي طول البحر في الجنوب الشرقي، وتشكلت العديد من مناطق توطين المغتربين الأجانب في المدن التالية: قوانغتشو، تشوان تشو، وهانتشو، ويانغتشو. وعلي كل حال، المعلومات التاريخية في أسرة سونغ سجلت بجلاء أنه كانت هناك منطقتان فقط يقطن فيهما التجار العرب هما: قوانغتشو(كانتون)، وتشوان تشيو(مدينة الزيتون). وفي كتابه "روايات بينغتشو" يسجل جو يو الأحوال التفصيلية في مناطق "فان فانغ" (الجاليات الإسلامية)، ويذكر أن: "الأجانب من كافة الدول يقطنون في مناطق فان فانغ في قوانغتشو. ويتم تعيين شيخ مسلم يتولي المهمات العامة والرسمية في تلك المناطق، ولاسيما استمالة التجار الأجانب إلي الصين لمزاولة التجارة، ومن أجل تحقيق ذلك يستعين بضابط كبير من المغتربين تتشابه ملابسه وقبعته وحذاؤه ولوحة التشريفات في يده مع نظيرتها لدي الصينيين. وإذا اقترف المغترب جريمة يُرسل إلي قوانغتشو للمثول أمام القضاء، ويتم إبلاغ فان فانغ بالعقوبة لتنفيذها. ويقيد المجرم من أعلي السُلم الخشبي ويضرب بالخيزران من أخمص قدميه إلي أعلي رأسه، وإذا لم يتواجد الخيزران لضربه ثلاث مرات، يمكن ضربه مرة واحدة بالعصا الغليظة. والمغترب يرتدي أسمالًا بالية، ويجب الجلوس علي أديم الأرض، وضرب كاهله يشعره بالألم الشديد، ولا يخشي ضرب ظهره، وإذا ارتكب جريمة كبيرة،

يُرسل إلي قوانغتشو لمحاكمته هناك. ويوضح ذلك أن النظام والمهام التي تضطلع بها مناطق "فان فانغ" في أسرة سونغ تتشابه بصورة أساسية مع نظيرتها في أسرة تانغ. ويتم تعيين شيخ مسلم لكل منطقة من مناطق الجاليات الإسلامية شريطة أن يتحلي بالأخلاق السامية والسمعة الطيبة، ويكون تعيينه بمقتضي إصدار المرسوم الإمبراطوري، أو يصدر الإمبراطور أوامره للسلطات المحلية بتعيينه. ويرتدي شيخ الجالية الإسلامية الملابس التي تتشابه مع الأهالي في عهد أسرة سونغ. والمهام التي يضطلع بها هي معالجة الشؤون الإدارية والشؤون الدينية داخل منطقة الجالية الإسلامية حسب الأحكام الواردة في القرآن الكريم، وفي الوقت نفسه، يكون مسؤولًا عن استمالة وجذب التجار الأجانب إلي الصين للتجارة، ناهيك عن زيادة الدخل المالي للبلاط الإمبراطوري من خلال التجارة الدولية. ومكث المغتربون المسلمون ردحًا طويلًا في الصين، وتزوجوا وبدءوا يؤسسون حياتهم، ونما عدد أبناءهم وأحفادهم تدريجيًا، وطرح ذلك مسألة تعليم أبنائهم علي جدول الأعمال. وقامت أسرة سونغ بإنشاء مدارس خصيصًا من أجل تقديم تسهيلات لأبناء التجار المغتربين والتحاقهم بها، أطلق عليها آنذاك "فان شيوه" (مدارس الغرباء). وعلي سبيل المثال، عندما كان تشنغ شي منغ محافظًا لمدينة قوانغتشو في أسرة سونغ الشمالية، قام بتشييد عدد كبير من المدارس، و"جميع أبناء المغتربين اعربوا عن رغبتهم في الذهاب إلي المدرسة". وذكر تساي تياو- المعاصر لأسرة سونغ الشمالية- في كتابه "أحاديث في جبل تيه وي شان" أن: "فترة دافون(1107- 1110) ونظيرتها جينغ فه(1111- 1118) شهدتا الإستقرار الذي ساد كافة البلاد، ونعمت الأقليات بالهدوء والطمأنينة، وطلبت كل من: قوانغتشو، وتشوان تشو، بناء مدارس للغرباء". أما بخصوص محتوى المواد التعليمية في مدارس الغرباء، فإن المعلومات التاريخية لم تسجل ذلك بوضوح، ولكن حسب أبحاث العلماء كان التعليم ينتهج الأسلوب العربي بصورة أساسية، وفي عبارة أخري، أن التعليم يدرِّس للطلاب تلاوة "القرآن الكريم"، ودراسة

المبادئ الإسلامية، والخط العربي، وقواعد النحو، والتاريخ، والحساب، بالإضافة إلي الشعر. وكانت المدارس تقام داخل المساجد. وقد يعتبر ذلك أقدم نموذج للتعليم المسجدي لدي قومية هوي المسلمة بالصين.

3. الحياة الدينية الإجتماعية للمسلمين، ومعرفة الصينيين بالدين الإسلامي، وعادات المسلمين وتقاليدهم.

(أ) اللغة المكتوبة.

إن التجار المغتربين المسلمين الذين قدموا إلي الصين للتجارة من كافة الدول العربية والمناطق استخدموا اللغة المكتوبة التي تتوافق بصورة أساسية مع الخاصية القومية للمستخدمين، واستخدموا اللغتين العربية والفارسية بشكل أساسي. وبعد دخول أبناء توجو(الترك) في الإسلام، استخدموا أيضًا اللغتين العربية والفارسية، ناهيك عن لغتهم القومية. والسجلات الوثائقية في أسرة سونغ تثبت أيضًا بالدليل العملي أن هؤلاء التجار المغتربين استخدموا بصورة معتادة اللغة العربية أو الفارسية. وفي كتابه "تاريخ تانغ - التجار الغرباء من بحار قاصية"- ذكر يوه كه أن منازل المسلمين في قوانغتشو(كانتون) كانت "تحتوي علي قاعة رئيسة تسمي "سي"(قاعة المراسم والطقوس الدينية)... وهذه التسمية من أصعب المفردات ولا يمكن أن نعرفها... ويُوضع نصب تذكاري في منتصف القاعة يبلغ ارتفاعه بضعة عشرات أذرع صينية (الذراع الصيني= ثلاثة أمتار وثلث المتر)، ونقوشه تشبه أختام الصين القديمة، وتشوون (نوع من الخط الصيني القديم) " ولكن وبسبب أن التجار المسلمين يضطلعون بالأعمال التجارية مع الصينيين بشكل أكبر، واحتياجات الحياة اليومية المعتادة، ومن ثم كانت دراسة اللغة الصينية واستخدامها يتسمان بالأهمية الكبيرة. ومع تقادم الزمن، أصبحت اللغة الصينية بمثابة اللغة

الضرورية التي يحتاجها التجار المسلمون بصورة تدريجية، وانبثق من داخلهم أناس متضلعين من الثقافة الصينية ويزداد عددهم يوما بعد يوم.

(ب) اسم الأسرة والتغيرات التي طرأت عليه

إن تسمية كُني الأسر يعد شيئًا لا غني عنه في التبادلات الإجتماعية بين الناس. والتغيرات التي طرأت علي أسماء وأسر المسلمين الذين حضروا إلي الصين للتجارة جسدت- بصفة عامة- قواعد تلك التغيرات. وفي بداية قدومهم إلي الصين، كانوا يحافظون علي كني أسرهم في قوميتهم الأصلية. ولكن مع مرور الزمن، استخدم هؤلاء التجار أو خلفهم الأسماء الصينية وكني الأسر الصينية رويدًا رويدًا، أو لا يزالون يستخدمون أسماء الأسر في القومية الأصلية في نطاق التبادلات داخل القومية، بينما يستخدمون الأسماء الصينية وكني الأسر الصينية في التبادلات خارج نطاق قوميتهم. وشهد استخدامهم للأسماء الصينية وأسماء الأسر الصينية الأحوال التالية بصورة أساسية:

1) استخدام الترجمة الصوتية كاسم للأسرة، ومثال ذلك، اسم الأسرة(بو) أصله الترجمة الصوتية لكلمة(أبو) في اللغة العربية، ولكن الصوت اللين(آ) كان يُحذف دائمًا، ويستخدم(بو) فقط.

2) اسم الأسرة ينبثق من اسم الدولة. ومثال ذلك، القبائل الشمالية البربرية في الصين القديمة التي كانت تقطن المناطق الغربية ثم انتقلت واستقرت في الصين، كان أبناء تلك القبائل يستخدمون كثيرًا اسم الدولة كاسم للأسرة لديهم، مثل اسم الأسرة(مي).

3) انبثاق كنية الأسرة من اسم عائلة الدولة مثل: كُنية الأسرة لي، ليو.

(ج) الطعام والشراب والأزياء.

ينصاع المغتربون المسلمون، الذين قدموا إلي الصين في أسرة سونغ للتجارة، بصورة صارمة لقوانين تحريم تناول بعض الأطعمة والمشروبات المذكورة في الدين الإسلامي و"القرآن الكريم". وفي أسرة سونغ الشمالية، سرد جويو في كتابه "روايات بينغ" أحوال الأطعمة والمشروبات والأزياء لدي المغتربين المسلمين علي النحو التالي: "تختلف ملابس المغتربين عن الصينيين، بينما يتشابه طعامهم وشرابهم مع الصينيين... ولكن - حتي يومنا هذا- لا يأكل المغتربون لحم الخنزير"، وفي الوقت الحاضر، لا يتناول المغتربون لحوم الحيوانات التي لا يذبحونها، بينما يتناولون الأطعمة البحرية ولا يسألون إذا كانت حية أم ميتة". وفي أسرة سونغ الجنوبية، قدم يوه كه وصفًا في كتابه المعنون بـ "تاريخ تانغ- التجار الغرباء من بحار قاصية" لأحوال المسلمين عندما يتناولون الطعام قائلًا: "يتناولون الطعام معًا، ولا يضعون السكاكين ولا عيدان الطعام علي الطاولة، ويستخدمون المواعين الضخمة من الذهب والفضة، ويخلطون الأرز باللحم، والدخن بالأرز، وينثرون علي الأطعمة ماء الورود، ويسبل الجلساء إلي الطاولة اليد اليمني ولا يستخدمونها في تناول الطعام ويقولون: أنها تستخدم فقط في المرحاض. ويتناول الجميع الطعام باليد اليسري، ويغسلون أيادهم بعد الأكل، ثم يعودون إلي قاعة الطعام ويشكرون الله". وربما هنا سوء فهم في مغزي استخدام اليد اليسري واليد اليمني؛ لأن المسلمين يستخدمون اليد اليمني للدلالة علي الخلق الكريم. أما بخصوص اختلاف لباس المسلمين في أسرة سونغ عن الصينيين وذلك لأنهم ما زالوا يحافظون علي الخاصية المميزة لقوميتهم، وكما جاء أيضًا في "ملابس المغتربين تختلف عن الصينيين"، ولكن شيخ الجالية الإسلامية في مناطق المسلمين تتشابه قبعته وملابسه وحذاؤه ولوحة التشريفات في يده مع الصينيين، وربما يُعد ذلك رمزًا علي مكانته المرموقة باعتباره مسئوؤلًا كبيرًا. كما ذكر المجلد الثاني

من كتاب "روايات بينغ" أن: "هؤلاء المغتربون المسلمون تزدان أيديهم بالأحجار الكريمة المرصعة بالذهب والقصدير. ويتفق ذلك مع ما ذكره تشوانغ لي يو في كتابه "كتابات قيمة ورخيصة" أن: "المرأة الفارسية في قوانغتشو تغص أذنها بالحلقات، أكثر من عشرين حلقة". وأفادت "السجلات الحكومية في قوانغتشو" التي ظهرت في فترة داوقونغ(1821-1850) أن: "أسر التجار في أسرة سونغ كانت من الأثرياء، وملابسها مرصعة بالذهب والآلئ والحرير، وتستخدم الأدوات والمواعين المصنوعة من الذهب والفضة". ويوضح ذلك أن المرأة المسلمة تحب التزين بالحلي، وتعشق الحياة، وفي الوقت نفسه، يعتبر ذلك من تقاليد المرأة العربية أيضًا.

(د) الزواج والجنازة:

المسلمون الذين جاؤوا إلي الصين لممارسة التجارة، جلب بعضهم الزوجة معهم، ولكن السواد الأعظم منهم لم يحضروا الزوجة أو سافروا إلي الصين بمفردهم. ومكثت كثرة كاثرة منهم في الصين لفترة طويلة، وكان من الطبيعي أن تنشأ علاقة الزوجية مع المرأة الصينية. وحسب التعاليم الإسلامية فإن معتنقي الإسلام لا يجوز لهم الزواج من المرأة غير المسلمة التي يجب عليها اعتناق الإسلام إذا كانت تبغي تأسيس علاقة زوجية. ولذلك، كان أسلوب الزواج من الصينيين يعد وسيلة لنمو عدد السكان المسلمين في أسرة سونغ. وكما ذكر كتاب "روايات تينغ" أن الفترة من 1086- 1094 في أسرة سونغ الشمالية شهدت "مدينة قوانغتشو زواج رجل كنية أسرته ليو من فتاة صينية حسناء، ويتمتع أبوها بالمكانة المرموقة". بل حتي بعض المسؤولين الصينيين يزوجون شقيقاتهم للتجار العرب الأثرياء مثل قيام يوي دافو بتزويج شقيقته للتاجر الثري يدعي بويه لي. وعلي الرغم من إعلان البلاط الإمبراطوري الحظر وفرض القيود علي الزواج بين التجار

الغرباء والصينيين، ولكن الإتجاه التاريخي من التبادلات والإحتكاك بين القوميتين جعل أوامر وقيود البلاط الإمبراطوري عاجزة عن تغيير حقيقة الزيادة المطردة يومًا بعد يوم من الزواج بين التجار المغتربين والصينيين.

والإسلام هو دين يتحلي بالأفكار المباركة في الدنيا والآخرة. ومن منظور الدين الإسلامي، أن موت الإنسان ليس نهاية لمسيرة حياته، بل هو نهاية للحياة في الدنيا، وبداية الحياة في الآخرة. ويذكر "القرآن الكريم": ﴿۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ۝﴾[3] ويقول أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ۝﴾ [4] وعن أحوال تشييع الجنازة لدي المسلمين الذين جاؤوا إلي الصين في أسرة سونغ، وصف كتاب "معارف متعددة عن تاريخ قري سينغ" من تأليف تشومي- وصف مراسم تشييع الجنازة لدي مسلمي مدينة هانتشو بالتفصيل، وذكر أن: "من عادات المسلمين وجود شخص متخصص في غسل جثة الميت، ويستخدم إبريقًا نحاسيًا يصب منه الماء في فم الميت لغسل معدته وأمعائه وتطهيرهما من الروائح الكريهة تمامًا. ناهيك عن غسل الجثة من أعلي الرأس إلي أخمص القدم، وتجفيفها بقطعة من القماش، ثم لفها في الحرير أو الساتان أو القماش، وجثة الميت لا ترتدي ملابس، وبعد ذلك يبدأ وضعها في التابوت. والتابوت مصنوع من ألواح خشب الصنوبر الرقيقة ويتسع لجثة الميت فقط، ولا تُضع داخله أشياء أخري"، و"يغادر التابوت منزل الميت في نفس اليوم، ويتوجه إلي ساحة المقابر للدفن. ويتولي المسلمون إدارة شؤون ساحة المقابر التي تم تأجيرها بأسعار عادية. ورئيس تلك الساحة يقدم الطوب والجير والعمال. وعند حدوث

---

(3) ترجمة محمد أحمد مكين لمعاني القرآن الكريم، سورة طه، الآية رقم 55، دار العلوم الإجتماعية للنشر، الصين.

(4) انظرسابقه، سورة البقرة، الآية رقم 156.

حالة الوفاة، يتجمع أهل الميت ويلطمون خدودهم، وينثرون شعورهم، ويمزقون ثيابهم، ويبكون بحرقة ويهزون أركان القاصي والداني. وعند خروج التابوت، يطلب الأثرياء من بعض الأشخاص حمل الشموع وتوزيع الفاكهة علي طول الطريق. والفقراء لا يقومون بذلك. ويسجد الجميع كبيرًا وصغيرًا علي غرار الخدم من ذوي العادات الشعبية، ويلبسون الأحذية الطويلة الساق. ثم يأمرون أناسًا بتلاوة القرآن الكريم، ويعودون إلي منزل الميت مرة أخري بعد مرور ثلاثة أيام. ويذبح الأثرياء كثيرًا من الأبقار والخيول من أجل إطعامهم وتوزيعها علي الجيران والفقراء. وقد قيل أن أناسًا يذهبون إلي المقابر ويحضرون التابوت بعد دفن الجثة شريطة أن يكون وجه الميت في ناحية الغرب".

وقدمت السطور الآنفة الذكر وصفًا شاملًا للجنازة لدي المسلمين في أسرة سونغ علي الرغم من تضمينها تخمينات أو أخطاء. وبالإضافة إلي ذلك، وفي أسرة سونغ الشمالية، كتب وانغ يوتشنغ(954- 1001) مقالًا بعنوان " تذكر بر الوالدين" سرد فيه أنشطة المسلمين ومراسم الجنازة في تشوان تشو(مدينة الزيتون)، وجاء فيه أن "الداشي" (العرب) يمثلون معظم سكان تلك المدينة، وتأتي سفنهم الملاحية للتجارة مع الصينيين سنويًا. ويحضر الآباء والأبناء سويًا إلي فوتشو، وإذا مات الأب يدفن هناك، ويبكيه ابناءه وينتحبون، ويعزفون عن الطعام والشراب لمدة ثلاثة أيام، ويذهبون إلي نهر اليانجتسي ويحضرون الماء، ويتناولون الأطعمة الخشنة، ثم يستقلون المركب ويرجعون إلي بيتهم".

ومن ناحية أخري، يعد الإضطلاع بإدارة شؤون مقابر المسلمين عملًا خيرًا في الدين الإسلامي، وظهر في الصين أول مقال عن مقابر المسلمين بعنوان: "مشاهد مقابر التجار المغتربين في دونغبان في تشوان تشو" وجاء فيه: " السفن الملاحية التي تحضر إلي سانفوتشي تنتمي إلي الأثرياء الذين ولدوا وعاشوا في تشوان تشو ويقدر عددهم بضعة عشرات، وكان من بينهم التاجر الذي يدعي شي نواوي، وهو من أبناء تشوان تشو، ولا

يكترث بالمال، ويبذل جهودًا لحماية منطقته التي يقطن فيها، وقدم العديد من المآثر، حيث قام بتجميع مقابر التجار في مكان واحد، وبدأ بناء تلك المقابر في منطقته، كما كان يتمتع بالمقدرة علي بناء سور حولها، وتقع في مقاطعة دونغبان في شرق مدينة تشوان تشو، وقام بقطع الحشائش وتشجيرها، وتمهيد الطرق والشوارع، وحفر الأرض من أجل بناء المقابر، وشيد فوقها البيوت، وبني سور حولها، وأغلق مداخلها. والتجار الذين يأتون إلي المدينة بحرًا وينتقلون إلي الآخرة يجب دفنهم هناك. وبدأ بناء المقابر في عام 1162، وانتهي من تشييدها في عام 1163. وقدم شي نواوي خدمات جليلة التي تجعل قاطني المدينة لا يشعرون بالقلق في حياتهم، ويموتون وبالهم مرتاح"[5].

4. المحدودية التاريخية لأسرة سونغ:

بسبب التغيير المستمر في الحكام والقلاقل الناجمة عن الحروب في تاريخ أسرة سونغ، وتعاقب النظم الثقافية المتباينة، والكوارث الطبيعية والويلات البشرية المتعددة وغيرها من الأسباب الأخري، جعلت الكثير من التدوينات التاريخية عن "أنشطة المسلمين في الصين آنذاك وبقايا آثارهم اما تعرضت للضياع أو دُفنت تحت الأرض منذ زمن بعيد بل حتي بعض المعلومات التاريخية والآثار التي تم الحفاظ عليها وموجودة حاليًا تستطيع أيضًا أن تقدم الخطوط العريضة الأولية الرئيسة نسبيًا فيما يتعلق بأطروحات الصينيين لأحوال انتشار وتطور الإسلام في أسرة سونغ. وبالإضافة إلي ذلك، وبسبب الإختلاف في التأثير الثقافي في جعل العديد من السجلات التي تحتويها التدوينات التاريخية والتي تناولت أنشطة المسلمين الذين اتوا إلي الصين للتجارة وكافة المجالات الأخري اما تفتقر إلي الدقة والصحة أو تشتمل علي بعض التحيز، وترك ذلك الكثير من

(5) "مجموعة مقالات سكني المتواضع" المجلد السادس عشر.

التشوش الذهني والصعوبات في اضطلاع الصينيين بالدراسات والأبحاث، وذلك ناجم عن المحدودية التاريخية التي شهدها ذاك العصر. ولا نستطيع- إزاء معالجة ذلك- أن نتخذ موقف الشطط والتزمت من القدماء، بل نستطيع فقط أن نعلق الآمال علي التطور العلمي أكثر فأكثر، وعلم العاديات والآثار، واكتشاف المزيد من المواد التاريخية الأخري.

إن الوصف التاريخي للمساجد والحياة الدينية للمسلمين في أسرة سونغ أبرز للعيان نجاح انتقال الإسلام إلي الصين في المرحلة التمهيدية وتطوره الأولي، ووضع ذلك أساسًا طيبًا لتطور الإسلام في نطاق أوسع في أسرة يوان(1271- 1368). وانصهر مجتمع المسلمين وحياتهم الدينية بصورة تدريجية في بوتقة جميع الفئات والطبقات في المجتمع الصيني، وجعل ذلك المسلمين وعملية تصيين إسلامهم تبدأ في ظل أحوال طبيعية جدًا تؤثر في سلوكهم وتفكيرهم بطريقة غير مباشرة. وفي الوقت نفسه، قد بدأ اندماج وتطور النظام الثقافي الإسلامي العربي وثقافة القوميات الصينية في ظل تلك الأحوال الطبيعية من الإنتشار والنمو في الخفاء من خلال الأحوال الموضوعية الموجودة فعلًا. ويعتبر ذلك نتيجة محتومة ناجمة عن التبادلات الثقافية. وبسبب المحدودية التاريخية جعلت ذلك النوع من تلك التبادلات المختلفة من الازم أن تعاني من المحدودية إلي حد ما، ولا يمكن تجنب ذلك أيضًا.

المبحث السابع
سلالة قراخان
تعتنق الدين الإسلامي

في فترة الممالك الخمس، أسست هويخه(قومية في الصين القديمة) التي انتقلت أصلًا من الغرب، سلالة قراخان التي اعتنقت الإسلام، مما جعل الدين الإسلامي يدخل منطقة سينكيانج(تركستان الشرقية) والمناطق الداخلية في الصين انطلاقًا من آسيا الوسطي متوجهًا نحو الشرق، وقدم ذلك الأحوال الأكثر ملائمة ومواءمة. ومن ثم، جعل ذلك الدين الإسلامي في عملية استيعاب التطورات التاريخية التي حدثت في عدة قرون، وفي انتشاره بالمناطق الداخلية في الصين وعلي امتداد البحر في الجنوب الشرقي ويقوم بتشكيل التجمعات المتشابهة والمتناظرة للإنتشار والذيوع في ناحية الشمال الشرقي والجنوب الغربي. ويوضح ذلك أن انتشار الإسلام وذيوعه في الصين كان في نطاق الأكثر اتساعًا.

1. تأسيس سلالة قراخان:

في عام 744 قام زعيم قومية هويخه ويدعي(قولي فيلوا) بتنصيب نفسه سيدًا علي كافة القبائل البدوية في المناطق الغربية، وأسس عاصمة لأسرته عند مصب نهر خهأر هوي؛ وكان ذلك إيذانًا بتأسيس دولة خان(لقب الأمراء في آسيا الوسطي) القوية لقومية هويخه. وفي عام 755، شهدت أسرة تانغ اندلاع "اضرابات آنشي"، وأرسلت قومية هويخه الجنود لمساعدة البلاط الإمبراطوري لتلك الأسرة في قمع الإضطرابات. وفي عام 788 تغير اسم دولة الخان من هويخه إلي دولة خان هونجو. وبحلول ثلاثينيات القرن التاسع الميلادي، وقعت نزاعات مستمرة بين كافة القوميات داخل دولة خان، مما أدي إلي تغيير الخان مرارًا وتكرارًا، ناهيك عن القلاقل وعدم الإستقرار في الأوضاع السياسية داخل الدولة. وفي الوقت نفسه، الكوارث الطبيعية المتتالية جعلت السلطة السياسية الواهنة

في دولة خان تئن تحت وطأة النكبات المستمرة. وفي ضوء تلك الأوضاع، وفي فترة ون زونغ في أسرة تانغ في العام 839، قام جيوه لواخو بالتآمر مع شاقو واتفقا علي الإعتداء، وبعد ذلك كان هناك جنرال عسكري آخر يدعي(جولو موخه) تآمر أيضًا مع(جيه قهسي)، وقاموا هؤلاء جميعًا بدمج قواتهم وبلغت قوامها مئة ألف جندي وشنت هجومًا مباغتًا علي مدينة هويخو. وكانت النتيجة مصرع الخان وهزيمة كافة القبائل هناك. كما كانت هناك قبيلة رئيسة من فلول تلك القبائل اتجهت صوب الغرب بقيادة(بانغ تيه تشنغ)، و(شيانغ جيه تشو) في قبيلة الخان؛ حيث تقام هناك قبيلة قهلوا لو التي- في الأصل- تعتبر إحدي قبائل دولة الخان هويخه البالغ قوامها إحدي عشر قبيلة والتي اشتد عودها يومًا بعد يوم واستقلت عن الدولة في عام 789. وبسبب الإفتقار إلي المعلومات التاريخية الصينية والأجنبية؛ فالصينيون لا يستطيعون معرفة الأحوال بالتفصيل إبان وقوع قبيلة قهلوا لو تحت سيطرة بانغ تيه تشنغ. ولكن، وتأسيسًا علي بعض الإستنتاجات التاريخية غير المباشرة، ان بعد دخول القائد يانغ تيه تشنغ منطقة تشي خه، ومن المرجح جدًا حدوث صدام مع قبيلة قهوا لو التي اعترفت بتبعيتها له. وبعد ذلك، أطلق بانغ تيه تشنغ علي نفسه لقب "خان"، وأسس عاصمة الآلهة في مكان علي مقربة من بيلاسجون Belasagun وتطلق عليها الكتب التاريخية الصينية سلالة "خيي خان"، بالإضافة إلي التسميات الثلاث: "سلالة كالاخان"، و"سلالة هالاخان"، و"سلالة خالاخان". وقد أشارت إلي ذلك الوثائق الغربية. وفي كتابه "دراسة قومية الويغور"[1] سرد ليو يه تانغ ذلك، وذكر أن: "أشهر أمير في تلك الأسرة كان بخاري خان، وبني العاصمة في بيلاسجون، وتمتد

(1) قومية الويغور اسمها يعني "الوحدة" و "الإتحاد". تعتنق الدين الإسلامي، وتستخدم الحروف الهجائية العربية في الكتابة، بالإضافة إلي اللاتينية. تقيم في منطقة سينكيانغ الويغورية ذات الحكم الذاتي الذي تأسس في شمال غرب الصين في أول أكتوبر عام 1955.

حدودها شرقًا إلي الصين، وتتولي إدارة شؤون المناطق والمدن: كاشغر[2] Kashgar، وخوتان Khoton، وكاراكورم Karakrum، وتلاس Talas، وأوترار Otrar وغيرها من المناطق"[3] وأفادت استنتاجات المصادر التاريخية الصينية أن بانغ تيه تشنغ بعد أن أطلق علي نفسه لقب "خان" في منطقة تشي خه، تقدم نحو الشرق، وبعد ذلك اتجه ناحية الجنوب، واحتل تباعًا وادي النهر في مدينة إيلي، ومنطقة كاشغر، وكانا جزءًا من منطقة الولايتين بيتنغ وآنشي التابعتين لأسرة تانغ.

وبعد وفاة بانغ تيه تشنغ، أصبح نجله الكبير(باتزي أر) الخان العظيم الذي يسيطر علي مدينة بيلاسجون، أما نجله الثاني ويدعي(أوقوأر تشهكه) سيطر علي تلاس. وحسب كتاب "تاريخ كاشغر" الموجود حاليًا، أن ملك دولة سامان ويدعي إسماعيل بن محمود خاض صراعًا مريرًا مع أوقوأر تشهكه. وحاصر إسماعيل بن محمود مدينة تلاس ردحًا طويلًا، وبعد ذلك، وفي نهاية المطاف، هاجم هذه المدينة ودمرها في محرم عام 280هـ (الفترة من مارس- إبريل عام 893 م)، ولقي عشرة آلاف من قوات أوقوأر تشهكه حتفهم في ميدان المعركة، ووقعت عقيلته وخمسة عشر ألفًا في الأسر. وبعد أن احتل اسماعيل بن محمود مدينة تلاس، أصدر أوامره أن تتحول الكنائس داخل المدينة إلي مساجد. واضطر أوقوأر تشهكه إلي نقل عاصمته إلي كاشغر، وقام بمهاجمة المنطقة الحدودية لأسرة سامان إنطلاقًا من كاشغر في عام 904 م. وأفادت السجلات الواردة في كتاب "المخطوطات التاريخية في سلالة قراخان" أن أوقوأر تشهكه استغل الحرب الأهلية في أسرة سامان، ووفر الحماية لولي العهد الهارب من منطقة خه تشونغ، وجعله يقيم في

(2) كاشغر: كانت تحتل الموقع الاستراتيجي علي طريق الحرير، فقد كانت البوابة الغربية من الصين، كما كانت تعرف بدرة طريق الحرير لما فيها من واحات وارفة الظلال غنية بشتي الإنتاجات.

(3) انظر: ليويه تانغ "دراسة قومية الويغور" عام 1975.

آتوشي الواقعة في شمال كاشغر. وعلى وجه العموم، وفي ذلك الحين(في أواخر القرن التاسع أو في مطلع القرن العاشر) حظي الدين الإسلامي بالقبول- في المقام الأول- لدي بعض الأعضاء في ولاية قراخان.

2. دخول الإسلام واعتناق الخان عبدالكريم الدين الإسلامي:

ذكرت سجلات تاريخية وثائقية أجنبية أنه قبل أكثر من قرن ونيف من ظهور سلالة قراخان، شهد التاريخ العسكري العربي القائد الشهير الذي يدعي قتيبة بن مسلم الباهلي الذي امتدت غزواته إلي أقاصي المعمورة، إلي مدينة كاشغر؛ أنه القائد المسلم الذي قدم إنجازات عظيمة لنشر الإسلام. ويسجل تاريخ الطبري ذلك، ويذكر أن الفترة من 713-717 شهدت غزو قتيبة لمدينة كاشغر، وأرسل وفدًا علي رأسه هبيرة بن مشمرج الكلابي إلي الإمبراطور الصيني وقدم له هدايا من الخيول والأشياء الأخري. وليو بو يستشهد بما ذكره(آننوا دا) من أن: "دولة الداشي القوية(دولة الأمويين) أصدرت أوامرها أن يكون قتيبة بن مسلم حاكمًا علي خراسان(704م)، وقاد جيوشه وعبر نهر آمو، وأحرز انتصارات في معاركه المتتالية، واحتل مدينة آن(706- 709)، ومدينة كانغ(710- 712) والمدن والمناطق الأخري، مما حقق انتشارًا عظيمًا للإسلام. وفي الفترة من 713- 715 قاد قتيبة الجيوش وعبر نهر سيجون، وشرع في سلسلة من الحملات الناجحة، أخضع فيها مدن بخاري وسمرقند ومون وأخري، ومضي إلي الأمام في فتوحاته حتي وصل إلي الحدود القريبة للإمبراطورية الصينية، ودخل مدينة كاشغر، وبات علي حافة بلاد الصين، وأرسل وفدًا إلي أسرة تانغ. ولكن التاريخ الرسمي الصيني لم يذكر ذلك إطلاقًا. ومن ثم، ليس في جعبتنا ثمة سجلات أخري حول انتشار الإسلام في المناطق الأخري بفضل الغزوات التي قادها قتيبة بن مسلم.

وعلي كل حال، بحلول القرن العاشر، تم أسلمة منطقة خه تشونغ، وأنشطة الرحلات التجارية للمسلمين في كافة البقاع عززت العلاقات التجارية في المناطق الزراعية والمراعي، مما جعل توجو (الترك) يكتسبون المعارف الأولية للإسلام والمسلمين. ان تأسيس أسرة سامان التي تعتنق الإسلام وتطورها يومًا بعد يوم، جعل الإقتصاد متطورًا، وأصبحت مدينة الثقافة المزدهرة بخاري مركزًا للثقافة الإسلامية -العربية وقاعدة جديدة لنهوض الثقافة الإسلامية- الفارسية. وأثر ذلك إلي حد ما في كافة القبائل الترك المحيطة بها. وذكرت سجلات أن الخان المخضرم لمدينة كاشغر(عم سافوكه) كان يشعر بالإعجاب الشديد تجاه الأزياء الحريرية واللوازم اليومية وسكر القصب، وكان الشاب سافوكه يذهب دائمًا إلي مدينة آتوشي ليتلذذ بالسلع التي تنقلها القوافل التجارية للمسلمين. وزعيم قبيلة قوسي؛ وهي قبيلة تركية أخري، يشعر بالرضا التام تجاه الهدايا التي يحصل عليها من المناطق الإسلامية، كما أن عامة أبناء هذه القبيلة اعتبروا الثياب واللوازم اليومية التي يحصلون عليها وتم تصنيفها في تلك المناطق بأنها مهر العروس في الزواج. ويظهر ذلك كله أن القبائل التركية تتطلع إلي الحياة المادية في مناطق المسلمين. وتزامن قبولهم لمنتجات المسلمين مع تأثرهم بالثقافة الإسلامية، وجعلهم ذلك التأثير لا يترددون مثقال ذرة في الإقتداء بعادات وتقاليد المسلمين. وفي معرض تطلعهم للحياة المادية الجديدة تأثروا بالثقافة الإسلامية متعددة الجوانب، وبالإضافة إلي ذلك، أن إيمانهم الأصلي بالسماء يعتبر نوعًا من القوة العظيمة العليا غير المرئية. وأرسي ذلك أساسًا طيبا إلي حد ما لإعتناق الإسلام من قِبل مجموعات كبيرة داخل كافة القبائل التركية في منطقة تيان شان(الجبال السماوية) في الجزء الغربي والمتاخمة لأسرة سامان.

وذكر ابن حوقل أنه قبل الخان ساتوكه بو قهلا، شهد الجزء الغربي من تيان شان أناسًا من قبيلتي قهلو، وقوسي التركيتين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي، كما عرفت اللغة التركية بعض المفردات الإسلامية. كما ذكر: "يوجد منبر للصلاة في موتهكان بمنطقة

فالابو. وكانت تلك المنطقة مكانًا لاحتشاد الترك الذين كان من بينهم أناس من كافة الأطياف والأشكال تعتنق الإسلام. كما كان هناك بعض الأفراد الذين اعتنقوا الإسلام داخل قبيلتي قوسي، وهاقهلو، وهما من القبائل التركية القوية. وتنتشر المراعي الخصبة في مناطق: فالابو، وجان، وتشاتشى، حيث توجد ألف خيمة يقطنها الترك الذين اعتنقوا الإسلام. انهم يسكنون في الخيام وليس في البنايات. وكانت طلاس مركزًا للتجارة بين المسلمين والأتراك"[4] ووجود مثل تلك الإرهاصات، ومع التغيرات التي طرأت علي الأوضاع السياسية في آسيا الوسطي في أوائل القرن العاشر، فإن كافة القبائل التركية التي تعد بمثابة الهيكل الأساسي لأسرة قراخان، وجمهور عريض من الناطقين باللغة التركية في منطقة تيان شان في الغرب تقبلوا واعتنقوا الإسلام، وبشكل طبيعي أيضًا توفرت الشروط التي تسهل انتشار الإسلام بنجاح في مناطق أخري.

وتفتقر المعطيات التاريخية الصينية والأجنبية إلي السجلات الدقيقة فيما يتعلق بميقات دخول الإسلام إلي سلالة قراخان. وبالإضافة إلي ذلك، غالبية السجلات التاريخية المعنية باعتناق قومية خان الإسلام في تلك السلالة قائمة علي الأقاويل والحكايات. ولكن تلك الأقاويل كلها تمت بصلة بالخان ساتوكه. وتسرد الأقاويل والحكايات في السطور التالية تأثير الإسلام في ساتوكه إنطلاقًا من زوايا متباينة:

(أ) ذكر كتاب "تاريخ مدينة كاشغر" أن ناصر شقيق الخان إسماعيل في أسرة سامان مُني بهزيمة في صراعه مع أخيه علي السلطة السياسية ولاذ بالفرار إلي كاشغر، واستقبله أوقوأر تشهكه بحرارة وشمله برعايته؛ فهو ولي العهد، وجعله يقيم في مدينة آتوشي وسمح له وللمسلمين التجار أن يصلوا في المسجد الذي شيده. ومن المرجح أن ساتوكه تأثر بولي العهد آنذاك واعتنق الإسلام. وتذكر السجلات التاريخية أن ناصر رحل عن

(4) "أبحاث قومية هوي في الصين" دارنينغشيا للنشر، عام 1991، ص8.

دنيانا في عام 894م. ويعد ذلك أقدم سجل مكتوب يجعلنا نعرف في الوقت الحاضر الأنشطة التي اضطلع بها المسلمون داخل منطقة سينكيانج.

(ب) تأثر ساتوكه بالداعية الإسلامي المتصوف الشهير أبو حسن محمود كريم، ولذا اعتنق الإسلام.

(ج) حسب ما ذكره ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" ان ساتوكه رأي في منامه رجلًا بسيط من السماء، ويقول له: "يجب عليك أن تعتنق الإسلام من أجل نفسك في الدنيا والآخرة". ثم غيرّ ساتوكه اعتقاده الديني سرًا واعتنق الإسلام. وفي كتابه "تكملة قاموس صولافه" سرد جميل كرشي أقدم حكاية ومفادها أن بوقهلا- ساتوكه(عبدالكريم) كان أول خان قَبَلَ الإسلام في سلالة قراخان.

(د) يذكر كتاب "سيرة الخان بوقهلا" ان ساتوكه عندما كان في السادسة عشرة من عمره، خرج إلي الصيد يرافقه تسعة وثلاثين شريكًا، وقابلوا القوافل التجارية لأسرة سامان في ضواحي مدينة آتوشي، وعندما كانوا يستعدون لاختيار السلع، يؤذن أحد الأشخاص للصلاة فجأة. ويترك هؤلاء التجار تجارتهم ويوضعها جانبًا علي الفور، ويقيمون الصلاة في خشوع. وفيما بعد، استفسر ساتوكه منهم عن ماهية سلوكهم. وكانت تلك القوافل تضم آنذاك الداعية الإسلامي الشهير أبو ناصر الذي استغل هذه الفرصة السانحة وشرح لهم الدين الإسلامي. وبفضل نصائحه وإرشاداته، اعتنق ساتوكه وشركاؤه الدين الإسلامي معًا. وفي الوقت الحاضر، وعلي الرغم من أن المعطيات التاريخية -بالإضافة إلي الأدلة والبراهين- الواردة في الحكايات المختلفة المذكورة آنفًا لم تجعل الناس يصدقونها، ولكنها -علي الأقل- يمكن أن توضح نقطتين، أولهما: ان الإسلام دخل سينكيانج إنطلاقًا من آسيا الوسطي. وثانيهما: ان ساتوكه يعتبر شخصية رئيسة في دخول الإسلام إلي سلالة قراخان، كما أنه أول حاكم يعتنق الدين الإسلامي في هذه

السلالة، ويمكن القول أيضًا أنه حظي بالشهرة بصفته أول مسلم يتحلي بالتأثير المهم في السكان المحليين في سينكيانج.

3. عملية أسلمة سلالة قراخان:

أطلق الاسم الإسلامي "عبدالكريم" علي ساتوكه بعد اعتناقه الإسلام. وهاجم أوقرأه تشهكه وهزمه واحتل كاشغر بفضل تأييد أسرة سامان، وأُطلق عليه الخان بوقهلا. وبعد ذلك، استرد تلاس من قبضة حاكم أسرة سامان. وكتاب "تاريخ الطاجيك في آسيا الوسطي" ذكر أن في القرن العاشر الميلادي كانت الأوساط الدينية الإسلامية في أسرة سامان تضطلع بدورٍ مهم جدًا. وانتشر المذهب الإسلامي أبو حنيفة بصورة أساسية في منطقة خه تشونغ. وكان زعيم تلك الأوساط (ووسي تودا)، والذي أصبح اسمه فيما بعد الشيخ اسلام، يتمتع بالتأثير الهائل داخل أروقة أسرة سامان، ونري أن ذاك التأثير امتد إلي سلالة قراخان. وفي كتابه "دراسة قومية الويغور" يذكر ليو اي تانغ أن المؤرخ العربي النقراشي سجل بعد وفاة الخان قدير أمير القسم الغربي التابع لسلالة قراخان، خلفه في مركز الخان ساتوك الذي كان يعتنق الإسلام في ذلك الحين. ولذلك، في مطلع القرن العاشر، انتشر الإسلام في سلالة قراخان الغربية، مما جعل ثقافتها الإجتماعية تشهد تغيرات هائلة. وبعد أن وصل ساتوكه إلي سُدة الحكم، قاد قواته لغزو الشرق حيث شن حملة علي مدينة بيلاسجون في الفترة من 942- 943، وهزم أسرة قراخان الشرقية. وحسب السجلات الوثائقية الإسلامية، ان الخان العظيم في تلك المدينة طلب المساعدة من حكومة أسرة السهول الوسطي في الصين. ولكن كانت تلك الأسرة آنذاك تئن تحت وطأة الإنقسامات والتصدعات، ولذا لم تستطع أن تلتف إلي طلب المساعدة وهي غارقة حتي أذنيها في مشاكلها، بينما حصل ساتوكه علي مؤازرة المتطوعين المسلمين، وبعد ذلك

أصبح الخان العظيم لسلالة قراخان. وفي عام 955، رحل ساتوكه إلي العالم الآخر بعد أن قضي أربعين عامًا متربعًا علي العرش، وانتشر الإسلام خلالها في سينكيانج في منطقتي كاشغر وآتوشي، ولم يتجاوز حدود الدولة في سلالة قراخان فحسب، بل لم يتحقق إضفاء الطابع الإسلامي داخل أروقة الدولة. ولكن ذلك وضع أساسًا جيدًا لعملية أسلمة سلالة قراخان.

وبعد وفاة ساتوكه، خلفه في العرش نجله الكبير با ايتاشي الذي أُطلق عليه الخان موسي أرسلان. وبينما وقعت مدينة بيلاسجون تحت سيطرة ابنه الثاني ويدعي سليمان. وبذل الخان موسي أرسلان جهودًا مضنية لنشر وتحقيق أسلمة دولته بمؤازرة داعية المذهب الصوفي الإسلامي. وأوضحت وثائق أن الدعاة الذين اضطلعوا بنشر مذهب الصوفية أدوا دورًا مهمًا في عملية أسلمة التوجو(الترك) في آسيا الوسطي أثناء القرون الوسطي. وفي عام 960، حظي الإسلام بالقبول من جانب مائتي ألف من الترك قاطني الخيام. وأشار ذلك في أعمالهم كل من المؤرخ العربي المعاصر للقرن العاشر ابن مسكوية(320- 421هـ)، والمؤرخ الشهير في العالم الإسلامي ابن الأثير(555- 630هـ) في الفترة من القرن 12- 13. ومن ثم، يعتقد كثير من المؤرخين أن ذاك العام شهد إعلان الخان موسي أرسلان أن الدين الإسلامي هو دين الدولة، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، بدأ في تاريخ البشرية- في وقت مبكر نسبيًا- تاريخ أسرة حاكمة وهي قومية تتحدث اللغة التركية بعد إسلامها.

وبدأت -في فترة حكم موسي- سلالة قراخان تشن "الحرب المقدسة" علي مركز البوذية في مدينة ختان، وفي الوقت نفسه، تبحث عن الفرص باستمرار لتوسيع رقعة أراضيها الحدودية. ودامت حرب إخضاع ختان أكثر من خمسين عامًا. وذكر معطيات تاريخية أنه في أواخر عام 1009 تمت السيطرة وإخضاع ختان في نهاية المطاف. ومنذ ذلك الحين،

اعتنق الإسلام كل من ختان الواقعة في شرق تسونغ لينغ ويهأر تشانغ، وكاشغر. وفي منطقة خه تشونغ، قضت سلالة قراخان علي نظيرتها سامان في عام 999 م، واقتسمت أراضيها مع أسرة جياتسي ني. وأفادت وثائق أجنبية وصينية ومعطيات تاريخية أخري ذات الصلة أن كتاب "تاريخ الطاجيك في آسيا الوسطي" ذكر أن أسرة سامان في فترة حكم نيوخه الثاني(976- 997) كانت خائرة القوي وعجزت عن صد هجوم سلالة قراخان بسبب اضمحلال قوة الدولة وأسباب دينية. "وقد قام نيوخه الثاني بتعبئة القوات المسلحة في كافة أنحاء البلاد من أجل التصدي لهجوم سلالة قراخان، ولكن قواته لم تحقق نتيجة إيجابية. ولم يستطع الإفادة من الشعار الديني في استنفار الشعب لمناهضة الهجوم علي نطاق واسع من قبل قومية التوجو(الترك)، وذلك لأن أبناء هذه القومية في سلالة قراخان يعتنقون الدين الإسلامي أيضًا. وقد انتشر الإسلام بين أبناء هذه القبيلة بسبب أنهم أقاموا علاقات تجارية وأعمال تجارية في حواضر منطقة خه تشونغ والواحات الزراعية. ولذلك لم يواجه جيش سلالة قراخان ثمة مقاومة في احتلاله بخاري عاصمة أسرة سامان"[5] والكاتب سلار صابي في ذلك الحين، سرد الأسباب الدينية الكامنة وراء اضمحلال أسرة سامان قائلًا: عندما اقترب جيس سلالة قراخان، أهابت السلطة الدينية العليا الحاكمة الشعب بالنهوض والمقاومة. ولكن عندما استفتي الناس رأي علماء الفقه الإسلامي ذكروا أنه: "إذا كان خان الدولة يتشبث بموقفه في مجابهة أسرة سامان من أجل الدين، إذن، يجب أن نحاربها. وإذا كان القتال من أجل الثروة في هذا العالم، إذن، لا يجوز للمسلمين الإقتتال فيما بينهم، وندعه ينال نصيبه من القتل. ويعيش الشعب في سلالة قراخان حياة طيبة جدًا. ولا يمكن أن نلقي باللائمة علي

(5) بي. تي جفلوف "تاريخ الطاجيك في آسيا الوسطي- الطبعة الأولي من القرن التاسع عشر". دار العلوم الإجتماعية للنشر، الصين، عام 1985، ص202.

اعتقادهم. ومن ثم، الأفضل أن نتخلي عن أي تدخل"[6]. ويعد ذلك من الأسباب التي جعلت سلالة قراخان تغتصب السلطة وتهزم أسرة سامان وتقضي عليها. ويوضح ذلك، أن عملية أسلمة هذه السلالة قد اكتملت بصورة أساسية.

4. تأثيرومغزي اعتناق سلالة قراخان الإسلام:

أحدث الدين الإسلامي تغييرًا في أسلوب حياة العرب البدو وعقيدة الآلهة لديهم، كما حقق الإسلام الوحدة في شبه الجزيرة العربية، وطور السياسة والإقتصاد والتجارة والأبحاث الثقافية في المدن. وبالمثل، اعتناق سلالة قراخان الإسلام غيَّر أيضًا أسلوب حياة الأتراك البدو واعتقادهم الديني التقليدي. ويتمتع الإسلام بالدور التأثيري المهم بالنسبة لهذه السلالة في عملية توسيع نطاق وتطوير الإسلام في منطقتي سينكيانج وآسيا الوسطي. وكتاب "موجز تاريخ سينكيانج" يجرى تقيما لذلك قائلًا: "دخول الإسلام يتمتع بالعلاقة المهمة والتأثير عميق الغور في تاريخ سينكيانج وفي داخل قومية الويغور وغيرها من القوميات الأخري. وجعل ذلك السلطة الحاكمة في منطقة آسيا الوسطي يقع تحت سيطرتها دائمًا الشخصيات التي تمثل الترك أو تمثل كافة القوميات التي تتركت، كما أسرع بالعملية التاريخية لتتريك جميع القوميات المحلية الشهيرة في منطقة آسيا الوسطي. وحظي الإسلام بالقبول-في المقام الأول- من قِبل المجموعات الحاكمة لكافة القوميات الناطقة باللغة التركية. وبالإضافة إلي ذلك، ان أسلحة الدويلات الواقعة في نطاق الأسرة الحاكمة جعل الإسلام وثقافته ينتشران في نطاق واسع في المنطقة الواقعة تحت حكم هذه الأسرة، ويندمجان في ثقافة هذه القومية، ويشكلان- في نهاية المطاف- نوعًا من الثقافة الجديدة هي الثقافة الإسلامية- التركية التي تتسم بالتأثير المهم في

(6) وي ليانغ تاو "تاريخ سلالة قراخان" دار الشعب للنشر، سينكيانج، عان 1986، ص82- 83.

العملية التاريخية الخاصة بتعجيل أسلمة منطقة سينكيانج، ودخول الإسلام ناحية الشرق وانتشاره في منطقة المقاطعات الصينية الثلاث: قانصو، نينغشيا، تشينغهاي.

وكان تأثير الإسلام في سلالة قراخان من أعلي إلي أسفل، فقد حظي الإسلام- أولًا- بالقبول من جانب الطبقات العليا، وتم الإعلان أن الإسلام هو دين الدولة، ولذا استطاع أن ينتشر بقوة داخل أروقة الأسرة الحاكمة. ولذلك- منذ البداية- يتحلي الإسلام بالتأثير الهائل داخل تلك السلالة، ومقارنة ذلك بالإسلام داخل الصين، نجد أن الجوانب السياسية والإقتصادية والحياة الثقافية في مجتمعات المناطق تعكس الخصائص المميزة الرئيسة التي تجسدت بصورة أساسية في الجوانب التالية.

نظرًا لأن الإسلام يعد نوعًا من النظام الديني والنظام الإجتماعي أيضًا. واعتناق الإسلام يسهم في تعزيز القوة الكامنة للم شمل الأتراك، مما جعل ذلك سلالة قراخان تمتلك السلاح المعنوي غير المرئي في عملية تدعيم قوة الدولة، وتوسيع نطاق الدولة والتطور خارج حدود الدولة، ناهيك عن أن القوة المعنوية لا تنضب. وفي الوقت نفسه، الإيمان بوجود الاله الواحد الأحد في الإسلام يحقق فائدة لحكام قراخان في فرض حكمهم علي الشعوب والدول الأخري بفاعلية. ومثال ذلك، في حرب إخضاع مدينة ختان اشترك فيها الأئمة والمتطوعون المسلمون، كما أن الحرب التي وضعت نهاية أسرة سامان يكمن سببها في الدين الإسلامي، مما جعل جيش سلالة قراخان يدخل عاصمتها بخاري دون أن يواجه مقاومة شديدة تقريبًا. وفي الجانب الديني، ومن أجل أن تبرز للعيان خشوعها وتقواها تجاه العقيدة الإسلامية، قامت سلالة قراخان- منذ أن غيرت عقيدتها وآمنت بالإسلام- بتشييد عدد كبير من المساجد والمآذن، واهتمت اهتمامًا شديدًا بالأسلوب المعماري في تشييدها. وفي الوقت نفسه، حرصت بقوة علي ترميم مزارات أولياء المسلمين. وبسبب قدوم ولي عهد أسرة سالمان، شيدت مدينة آتوشي أول مسجد في سلالة قراخان، وجعلته إحدي عاصمتي تلك السلالة الحاكمة، بالإضافة إلي كاشغر. وفي مطلع

مرحلة الخان ساتوكه شيدت المدرسة الإسلامية التي أصبحت المركز السياسي والثقافي والديني المشهور في سلالة قراخان. وفي العالم الإسلامي، ويعد بناء المسجد إنجازًا عظيمًا، ولذلك الخان المشهور محمد بن سليمان في عام 1119 شيد مسجدًا علي أطلال قصر شمس عبده، كما شيد في عام 1121 المسجد الكبير الفخم في سمرقند، ناهيك عن تشييده المئذنة الإسلامية في بخاري عام 1127. وفي فترة سلالة قراخان، ونظرًا لأن الطوب المستخدم لم يجعل مئذنة المسجد شامخة ومتناسقة عن ذي قبل فحسب، بل أسلوبها المعماري مختلف وقلما يتشابه مع الآخرين، ومثال ذلك مئذنة مسجد بخاري مظهرها الخارجي كامل الإستدارة، وشاهقة وفخمة، ومسجد بيكند مئذنته متناسقة البنيان ومنتصبة، ومتناسقة ومناسبة، والمئذنة في مسجد جرجانية تستخدم الألواح المتموجة في التزيين التي تشع منها المهابة وليس الكآبة. كما كانت سلالة قراخان، التي تحقق أسلمة خانها بفضل مؤازرة مذهب التصوف، تهتم اهتمامًا كبيرًا بتشييد العديد من المزارات التي تحمل أسماء الأولياء المسلمين وأهل البيت. وفي الفترة من 955- 956 شهدت مدينة آتوشي بناء مزار فخم للخان ساتوكه أصبح أول مزار في تاريخ سينكيانج. وبعد ذلك، تم إقامة الكثير من المزارات المتنوعة الأحجام من أجل ضباط الجيش والدعاة الذين ضحوا بحياتهم في حرب غزو وإخضاع ختان، وأصبحت تلك المزارات الأرض المقدسة التي يحج إليها المسلمون عبر العصور والأجيال المتعاقبة. ويوجد في منطقة خهيتان ألفان ومائة وثمانين عشر مزارًا متفاوت الأحجام في سبع محافظات تضم تلك المنطقة؛ من بينها عشرون مزارًا كبير الحجم نسبيًا أصبحت مكانًا للحج لعابر المناطق.

وفي الجانب الثقافي، أسلمة سلالة قراخان نجحت في تكوين ثقافة جديدة. وفي عبارة أخري، ان الثقافة التركية - الإسلامية الجديدة القائمة علي أساس الثقافة التركية أصلًا واستوعبت الثقافة الإسلامية دفعت إلي الأمام التقدم العلمي والتقني والإزدهار الثقافي

المتلألأ في سينكيانج ومنطقة آسيا الوسطي. كما كان للإسلام تأثير عميق في اللغة المكتوبة والعادات الإجتماعية لدي قومية الويغور، وفي الوقت نفسه، تطورت كل من اللغة العربية، واللغة التركية بشكل كبير أثناء فترة سلالة قراخان. وعلي سبيل المثال، تأليف كتاب "حكمة السعادة" باللغة التركية، وشرح "قاموس اللغة التركية" باللغة العربية جسد نضوج الثقافة التركية والتأثير المهم للدين الإسلامي. وأصبحت كاشغر مركزًا أكاديميًا وبحثيًا لتعليم ودراسة المؤلفات الإسلامية، كما شيدت سلالة قراخان معهد دراسة المؤلفات الإسلامية يتحلي بالطابع القومي الجلي والنكهة المحلية، وأحرزت اللغة القومية تطورًا أكبر أيضًا. وبعد سلالة قرخان، واصل الإسلام ذيوعه وانتشاره في آسيا الوسطي وفي المناطق المتاخمة لها التي يقطنها الأتراك، وانتشر صوب الشرق، ثم دخل منطقة المقاطعات الثلاث: قانصو، نينغشيا، تشينغهاي في الأراضي الصينية مع التطور والتبادل الإقتصادي والتجاري والثقافي بين القوميات، ووضع ذلك أساسًا طيبًا لذيوع وتطور الإسلام في نطاق ضخم بشكل أكبر.

ونظرًا لأن الإسلام أصبح السلاح المعنوي الفعال للتوسع في سلالة قراخان، ولذلك القوة الدينية الشديدة جعلت الحكام في الأسرات عبر العصور والأجيال يعتمدون إعتمادًا كبيرًا علي الإسلام إلي حدٍ ما، وخاصة الحاجة الشديدة إلي الدعم الإسلامي في الدعاية والتشجيع قبل القيام بالحملات العسكرية. ولكن الحكام الخان- في بعض الأحايين- اضطروا إلي خوض غمار الحرب ضد الأوساط الدينية من أجل الحفاظ علي سُدة الحكم واستقرار الأسرة الحاكمة. ويتبلور هذا التناقض بصورة أساسية في تضارب المصالح بين الحكام في الأسرة الحاكمة والطبقات الدينية العليا. وفي هذا الخصوص، قدم كتاب "تاريخ سلالة قراخان" سردًا علي هذا النحو: إن صراع سلالة قراخان مع الأوساط الدينية يعد في الظاهر صراعًا علي السلطة السياسية والسلطة الدينية، أما في الواقع فهو صراع التكالب علي ثروة الأراضي بين الحياة البدوية والملاك المحليين الذين

يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضي منذ القدم، وهم الملاك الإقطاعيون المتدينون. وعلي سبيل المثال، ففي فترة حكم ناصر في العام 1069 صدر قانون في مدينة بخاري بإعدام إمام والسبب أنه أجبر أحد الأشخاص علي الإنصياع لتوجيهات المجموعة الدينية، كما تم الإعلان علي أن القواعد الدينية تقتصر علي إدارة الخان. ويوضح ذلك أن الصراع بين الحكام في الأسرة الحاكمة والأوساط الدينية قد وصل درجة التأجج والإحتدام. ونظرًا لأسلمة سلالة قراخان حقق ذلك الإندماج بين السلطة السياسية والسلطة الدينية داخل أروقة الدولة، ويغدق كل ملك وخان علي المساجد والمزارات والمدارس الدينية بمساحات شاسعة من الأراضي وكافة أنواع الأملاك والممتلكات، ويتمتع الدخل الناتج عن إدارة تلك الممتلكات بالإعفاء الضريبي والإمتيازات، ومن ثم أصبح ذلك الأساس الإقتصادي الرئيسي للقوة الدينية. ولذلك، في فترة حكم سلالة قراخان، كان الحكام والقوي الدينية يلتفون دائمًا حول هذه المشكلة، مما أدي إلي حدوث التناقضات والصراعات.

واعتناق سلالة قراخان الدين الإسلامي أسرع بعملية أسلمة قومية الويغور في سينكيانج وسائر القوميات الناطقة باللغة التركية، مما جعل الإسلام يحل محل الأديان المنتشرة بين تلك القوميات من البوذية، والمجوسية، والزرادشتية. واضطلع دعاة الصوفية بدور مهم في عملية أسلمة تلك القوميات التركية. وبالمثل، أدي أبناء تلك القوميات دورًا كبيرًا وتحلوا بالتأثير في دخول الإسلام إلي الجزء الشمالي الغربي من الصين قادمًا من الشرق وانتشاره في نطاق أكثر اتساعًا. ومن ثم، وضعوا إرهاصات نشأة وتطوير مذهب منهوان، وهو من المذاهب الإسلامية في الصين، في منطقة قومية هوي المسلمة في الشمال الغربي خلال الفترة من أواخر أسرة مينغ(1368- 1644) إلي أوائل أسرة تشنغ(1644- 1911).



المبحث الثامن

العرب والإبحار إلى الشرق الأقصى

يقول الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم (526- 584)

ملأنا البر حتي ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا

تمتد المحيطات والبحار بين القارات ولا تقف عائقًا يحول دون التقاء البشر، وعلي الرغم من امتدادها علي حوالي ثلاثة أرباع مساحة كرتنا الأرضية، إلا أن الإنسان قد جاز هذه البحار منذ القديم ليلتقي بأخيه الإنسان محولًا تلك المسطحات المائية إلي مساحات تمازجت فوقها الحضارات الإنسانية، شأنها في ذلك شأن اليابسة. ومن الطبيعي أن العرب الذين عاشوا علي السواحل العربية منذ أقدم العصور أن يكون لهم شأن هام في هذه البحار، ولا نعلم نحن عرب القرن العشرين إلا النزر اليسير من حياة ذلك الشعب العربي الذي عاش ملتصقًا بسواحل يزيد طولها عن خمسة عشر ألفًا من الكيلومترات قبل أن يفتح التاريخ صفحاته ليسجل لنا تاريخًا بحريًا مشرفًا لهم.

1. تاريخ بحري موغل في القدم بين العرب والبحر:

منذ الألف الثالث قبل الميلاد كان لميناء الجرعاء "العقير اليوم" علي ساحل الاحساء سفن تجارية تقوم بالإبحار إلي سواحل أفريقية الشرقية حاملة إليها البضائع الهندية من أقمشة مصبوغة وملابس وجلود الحيوانات لتعود محملة بالعاج وزيت النخيل والبخور علي سفن شراعية تسوقها الرياح الموسمية الصيفية إلي سواحل الهند، مستفيدين من الرياح الموسمية الشتوية للوصول إلي سواحل أفريقية الشرقية، وقد وجدت كتابات منذ عهد الملك الأكادي نارام سن 2750 ق.م تشير إلي بلاد ماجان وهي عُمان، وكذلك وجدت لوحة في مدينة أور يرجع تاريخها إلي 2500 ق.م تشير إلي اللؤلؤ الذي يرسل إليهم من إقليم دلمن. وكان سكان الخليج العربي ينقلون إلي جنوبي العراق خشب الصندل والذهب مما يشير إلي أن العرب كانوا من أوائل من طرق البحار في المنطقة وعرفوا الملاحة فيها.

وخلال الألف الأول قبل الميلاد استمر نشاط التجارة البحرية العربية فكانت لدول سبأ ومعين تجارة ناشطة مع سواحل شرقي أفريقية، وكانت للدول المعينية سفن وصلت إلي سواحل الملايو وجزر جاوه وسومطرة وتجاوزتها إلي الصين. وقد بقي هذا النشاط البحري مستمرًا حتي أن الجغرافي المقدسي (945- 991) أطلق علي عدن فيما بعد تسمية "**دهليز الصين**". وكان العرب الكنعانيون علي ساحل المتوسط "الفينيقيون" سادة هذا البحر في القرن العاشر قبل الميلاد، حيث كانوا يقيمون المراكز التجارية علي سواحل المتوسط وقد امتدت خطوطهم الملاحية إلي بحر الشمال، وأحضروا من الجزر البريطانية معدن القصدير، كما وصلوا إلي الصومال حيث جلبوا منها الذهب والعاج والقردة والطواويس.

وفي موسوعته الجغرافية التي جاءت في 17 كتابًا يذكر العالم الجغرافي والمؤرخ والفيلسوف الإغريقي سترابو Strabo (63 أو 64 ق.م- 24م) وأطلق العرب عليه اسم "اسطرابون" - يذكر أن صلات العرب بالبحر لم تنقطع ويؤكد ما كان للعرب من سلطان في البحر العربي والمحيط الهندي وسواحل أفريقية الشرقية وأن مدينة الشحر كانت تلتقي فيها السفن المصرية والهندية والفارسية. ومع بزوغ فجر الإسلام ونزول القرآن الكريم عربيًا علي الأمة العربية وردت فيه الآيات تذكر بأهمية البحر والإفادة منه، وقد وردت كلمة البحر أربعين مرة منها الآية الكريمة ﴿.. وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ..﴾ وكذلك في سورة إبراهيم﴿.. وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ..﴾. وهكذا بقي العرب علي صلة مع البحر بشكل لا يقل عن الأمم البحرية الأخري في العالم.

وقد قاد العرب الكثير من المعارك البحرية المظفرة والحملات البحرية في البحر المتوسط التي قضي فيها الأسطول العربي علي قوة الأسطول البيزنطي، وتوطدت أركان الدولة العربية الإسلامية علي الشواطي الشرقية والجنوبية وعلي أمد من الزمن علي

الشواطئ الغربية. ولم يكن العرب خلال هذه الفتوحات غزاة بل كانوا ينشرون الحضارة، بالإضافة إلي اهتمامهم الكبير بالثقافة وبناء المساجد ونشر التعليم فيها. ولعل من النتائج الواضحة لدورهم العلمي أن روجر الثاني ملك صقلية(1130- 1154م) استدعي الجغرافي العربي الشريف الإدريسي ليؤلف له كتابًا عن العالم، وليرسم له خريطة للعالم للمعروف من الأرض، وليضع له كرة فضية عين عليها البحار والقارات. ولا غرور أن تصبح جزيرة صقلية، بعد أن استظلت بفئ الحضارة العربية الإسلامية ردحًا من الزمن، من أهم مراكز الثقل الحضاري في عالم الغرب. أما في الجنوب فقد امتدت الحضارة العربية الإسلامية غربًا إلي شواطئ أفريقية الشرقية وشرقًا إلي جزر المالديف وسيلان وسواحل الهند وخليج البنغال وشبه جزيرة الملايو، وكذلك علي سواحل الصين وإندونيسيا والفلبين. وكان من آثار وجودهم البحري في المحيط الهندي ظهور تراث بحري وعربي يظهر في شهرة بعض الملاحين الذين فرضوا أنفسهم بسبب شهرتهم في تاريخ الملاحة في العالم أمثال رجال عظام: عبدالله بن قيس الفزاري، وسفيان بن عوف الأزدي، وجنادة بن أمية، ومعاوية بن حديج الكندي، وعبدالله بن أبي السرح، وغيرهم الكثير ممن يضيق حصرهم.

ولا نغفل في هذا المجال أسد البحار أحمد بن ماجِد وسليمان المهري. وكان هؤلاء جميعًا لهم فضل ريادة البحار الجنوبية وتأليف الكتب في فنون الملاحة، وفي ذلك يفتخر أحمد بن ماجد بقوله:

بوادرعلم البحارعني تفرعت   وخيرصفات البحارتصدرمن فمي

وقد أطلق العرب علي قائد الأسطول اسم أمير الماء ومنه اشتقت لتسمية أميرال فيٍ في اللغات الأجنبية. وإذا كان الشعر ديوان العرب فإن الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم يفاخر قبل أحمد بن ماجد بألف سنة تقريبًا متحدثًا لسان العرب قائلًا:

ملأنا البر حتى ضاق عنا   وظهر البحر نملؤه سفينا

وهكذا فقد كان البحر أحد الميادين التي خاضها العرب في ماضيهم التالد فخلفوا علي شواطئه مركز إشعاع لحضارة عربية إسلامية كانت منهلًا ثرا للحضارات اللاحقة.

العرب منذ الجاهلية وهم مشغولون بالتجارة البرية والبحرية، فهم مضطرون إلي احتراف مهنة التجارة بالفطرة حيث يعيشون في الجزيرة العربية التي هي عبارة عن دولة أرضها قاحلة جرداء بور بلا عشب أو ماء، ولذا تبوأت التجارة مكانة بارزة في حياتهم.

ويقول ياقوت الحموي من أشهر علماء المسلمين في الجغرافية والأدب وهو من أصل رومي والمتوفي في 626هـ- يقول في كتابه(معجم البلدان) تحت كلمة "جزيرة العرب": "الجزيرة العربية دولة تحيط بها البحار من ثلاث جهات، الخليج الفارسي من جهة، وبحر الهند من جهة ثانية، وبحر الحبش أو بحر القلزم أو الأحمر من جهة ثالثة؛ ولذا يطلق العرب علي وطنهم اسم جزيرة، وكانت عمومًا تلقب بـ (جزيرة العرب) في أدبيات بداية القرن الثاني الهجري، وبحارها تعين حدودها".

وكانت الأقاليم الخصبة والمزدهرة في الجزيرة العربية مثل: البحرين واليمامة وعمان وحضرموت واليمن جميعًا تقع علي الساحل، ولهذه الأسباب الطبيعية كان من الضروري أن يصبح العرب قومًا من الملاحين والتجار. ويؤكد ذلك أن الذين قاموا بتوصيل القافلة التجارية لسيدنا يوسف عليه السلام قبل ألف وخمسمائة سنة تقريبًا من ميلاد السيد المسيح عليه السلام كانوا من تجار الجزيرة العربية.

تفيد المصادر التاريخية عن اتصال العرب في شبه الجزيرة العربية بساحل إفريقيا الشرقي من ناحية والطريق البحري المؤدي إلي الهند والصين من ناحية أخري كان قد بدأ قبل الميلاد. وعندما أسس الإسكندر الأكبر(ت 323 ق.م.) الإمبراطورية الهلينستية التي امتدت إلي أقصي الشرق إلي بخاري، وإلي الغرب في واحة سيوة في صحراء مصر الغربية،

أصبح هناك طرق برية عبر آسيا الوسطي تقود إلي الهند والصين، وقد أُطلق عليها "طريق الحرير".

ومنذ استطاع العرب اكتشاف سر الرياح الموسمية استطاعوا الملاحة والإبحار إلي أقصي الشرق(الصين في ذلك الوقت) وإلي الساحل الإفريقي الشرقي، في حين أن الأوروبيين لم يكتشفوها إلا في عام 45 م بفضل البحار والقبطان اليوناني "هيبالوس" Hippalus الذي عاش في زمن الإمبراطور كلاوديوس. ومن الراجح أن هيبالوس عاش في القرن الأول قبل الميلاد، وربما كان قبطان المستكشف اليونانيEudoxus of Cyzicus ، كما يرجع إليه الفضل كأول مكتشف للممر من البحر الأحمر إلي الهند عبر المحيط الهندي هو ثالث أكبر محيط من محيطات العالم يغطي 20% من المياه علي سطح الأرض.

ومن المؤكد أن العرب لم يكونوا يجهلون الرياح الموسمية، وكفي ذلك دليلًا علي أن الكلمة العربية "موسمية" هي التي انتقلت وتطورت في اللغات الهندية إلي nonsoom[1]. ويخبرنا ذلك أن العرب استطاعوا أن يعرفوا الكثير من البلاد التي تقع في شرق المحيط الهندي في ذلك العهد المبكر للقرن التاسع معتمدين في ذلك إما علي رحلاتهم الشخصية أو روايات التجار والملاحيين والجغرافيين من العرب.

ويؤكد جمهور كبير من الباحثين أن عرب الخليج هم الذين سعوا إلي الشرق الأقصي وليس العكس، وأن عبارة "سفن صينية" التي كان يستخدمها جغرافيو العرب ومؤرخوهم كانت تعني في بعض -الأحايين - سُفنًا خليجية إسلامية مخصصة للإيجار إلي الصين، وأن المياه العربية لم تعرف قبل الإسلام سفنًا غير عربية وغير فارسية سوي سفن القراصنة الهنود.

(1) مجلة كلية الآداب-جامعة القاهرة- عدد مايو 1953، ص135.

ومن الجدير بالذكر أن العرب عرفوا الأيام التي تهب فيها الرياح الموسمية وحددوا الأوقات الملائمة لسير السفن في المحيط الهندي. ويذكر المسعودي أن الملاحين العرب كانوا يستعينون في أسفارهم بدليل بحري سموه "راهنامة" (رهماني)، وقد ارتحل المسعودي بحرًا مع جماعة من التجار، وهو يقول: "وصاحبت مشايخ فيه(المحيط الهندي) ولدوا ونشأوا من ربابين وأشائمة ووكلاء وتجار ورأيت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها".

ومن أطول الطرق الملاحية في ذلك الوقت، كان الطريق الذي تقطعه السفن من الساحل العربي إلي سواحل الصين، إذ كانت سفن الرحلات الضخمة تتوقف بسيراف عند مدخل الخليج، وذلك لكثرة الأمواج في الخليج وقلة الماء في مواضع منه، مما يجعل ملاحة السفن الكبيرة ذات الغاطس العميق خطرة[2].

كانت "سيراف" الميناء في القرن الثالث علي ساحل الخليج الفارسي علي بعد سبعة منازل من البصرة، وقد ازدهرت فيها حركة الملاحة وكانت سفن العرب التي تتوجه إلي الصين والهند تمر من هناك. وكانت سيراف هي الفرضة التي تمر بها صادرات فارس ووارداتها، وكانت علي الخليج الفارسي تقصدها المراكب من جميع البلاد، وكانت فرضة لبضائع الصين خاصة، بل كانت بضائع اليمن المرسلة إلي الصين تحمل علي المراكب بسيراف. وكان أهل سيراف أغني تجار فارس كلها - وذلك كما ذكر الأصطخري. وكان كثير من أهل سيراف يقضون جياتهم كلها في البحر- كما ذكر الأصطخري أيضًا في كتابه المسالك والممالك -أن رجلًا منهم ألف البحر حتي ذكر أنه لم يخرج من السفينة نحوًا من أربعين سنة، وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه لقضاء حوائجه في كل مدينة، وكان إذا انكسرت السفينة التي هو فيها وتشعثت تحول عنها إلي أخري.

---

(2) جورج فضلو حوراني(العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسط) ترجمة السيد يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، 1958، ص3- 4.

وكان من أثر هذا المركز العظيم الذي تمتعت به مدينة سيراف أن اللغة الفارسية أصبحت أكبر لسان يتكلم به تجار المسلمين الذين يقصدون الهند وشرق آسيا، ولا تزال اللغة العربية إلي اليوم تشتمل علي الكثير من الإصطلاحات البحرية الفارسية مثل: **ناشُدا** (صاحب السفينة وليس قائد السفينة)، **ديدبان** (الحارس)، **ربَّان** (ربما كان أصلها راه بان) وهو قائد السفينة، أما الرجل الذي كانت مهمته تبليغ أوامر الربان إلي الملاحين بصوته فكثيرًا ما كان يسمي المنادي، وهو لفظ شائع عند الناطقين بالعربية.

وفيما يتعلق بالتجارة العربية في المحيط الهندي مع الهند والملايو والصين، فإن العرب سادوا طبقًا للطرق البحرية القديمة في منطقة جنوبي العراق وسواحل الخليج العربي في العصر الساساني(226- 630 م)، وقد بلغت المستعمرة العربية الفارسية بميناء كانتون بالصين حدًا من القوة استطاعت معه في عام 758م أن تضع يدها علي المدينة وتنهبها وتغادرها عن طريق البحر. وأن أبا عبيدة عبدالله بن القاسم التاجر العُماني سافر بتجارة إلي الصين قبل نهب كانتون، وأن تاجرًا إباضيًا آخر من البصرة اسمه "النضر بن ميمون" سافر إلي الصين ما بين أواخر القرن الثامن أو أوائل التاسع الميلادي، ويمكن اعتبار هؤلاء التجار الإباضيين بمثابة ممهدي الطريق لمؤلفي "أخبار الهند والصين": سليمان التاجر وأبو زيد حسن السيرافي[3].

المستشرق الروسي المولود في ليتوانيا والمتوفي في لينيجراد وأحد مؤسسي مدرسة الإستشراق الروسي **كراتشكوفسكي (1883- 1951)** أنصب اهتمامه علي تاريخ الأدب العربي ودراسة اللغة العربية - يذكر في كتابه المعنون بـ "تاريخ الأدب الجغرافي العربي" أن أول معرفة للعرب بهذا الطريق كان عن طريق الوصف الذي قدمه تميم بن بحر المطوعي الذي لم يكن من فئة التجار كما يظهر جليًا من اسمه، وأغلب الظن أنه عاش حياة الجهاد والمرابطة في الثغور الإسلامية التي تمتد مساحتها علي سائر تخوم الخلافة

(3) يوسف الشاوري (أخبار الصين والهند) –الدار المصرية اللبنانية، يناير 2000، ص 16.

الإسلامية. وقد قام بمهمة دبلوماسية في خاقان الترك(التغزغز) في الفترة من (143-184هـ/ 760- 800م). وأورد ياقوت في كتابه(معجم البلدان) سجلًا عن هذه الرحلة أفادتنا في الإستدلال علي شخصية صاحب الرحلة، ناهيك عن الجغرافيين مثل: أبو دُلف، والإدريسي.

ويوضح ذلك أن تميم بن بحر المطوعي يكون أول جغرافي عربي يذكر لنا وصف الطريق البري إلي الصين، ويمكن نجد أثر تميم المذكور في النصوص التي أوردها عنه جغرافيون كبار ورحالة معروفون وذكرنا بعضهم آنفًا. كما يبيِّن ذلك أن الرحلات البرية في العهود المبكرة اشتملت علي روايات استقاها الجغرافيون العرب من أفواه رحالة عرب آخرين مروا بالطريق البري الذي يخترق آسيا الوسطي وصولًا إلي الصين.

ويري جُل الباحثين الأوروبيين من المستشرقين في الجغرافيا أن أبي عبدالله محمد بن إسحاق- ليس ابن إسحاق صاحب السيرة والمغازي المعروف- يكان يكون المصدر الوحيد لكل من ابن رُسته وابن خرداذبة، وهو الذي ينقل عنه ياقوت الحموي فقرات معينة في بعض مواد كتابه. وكان ابن إسحاق قد أمضي قرابة عامين في جزيرة قماري(أي خمير وهو الاسم القديم لكمبوديا) وكان ذلك علي أغلب الظن في أوائل القرن الثالث الهجري(التاسع الميلادي). وبذلك كون الرحالة العربي عن بلدان الشرق الأقصي وغيرها مادة مقتضبة منذ عهود مبكرة معتمدين علي ما يتناقله الرحالة المغامرون، وهم في الغالب عربية بحتة أسهمت في الأسفار التجارية.

وزبدة القول، لقد وصل الملاحون العرب إلي الصين والهند في عصر ما قبل الإسلام، واستمر هذا التفوق في العصور الوسطي، وكان الحرير السلعة الصينية الرئيسة في تجارة الصين وجنوب شرق آسيا، فكان الحرير ينقل من الصين إلي المشرق الإسلامي ومن هناك إلي الغرب الأوروبي.

وهذا الطريق البحري إلي الهند والصين الذي كان يسلكه التجار العرب والسيرافيون ذهابًا وإيابًا، عند نقلهم للحرير والتوابل وسائر السلع من الشرق الأقصي، كان همزة الوصل بين عالمين مختلفين، عالم الشرق وعالم الغرب. ومن المسلم به أن النواخذة العرب تمرسوا في سلوك هذا الطريق البحري، وأصبحوا سادته والعارفين بكل أسراره وتوصلوا إلي التعرف علي مواطن الضعف به، ومراسم مده وجزره وأوقات هبوب الرياح والعواصف، وأفادوا من ذلك كل الفائدة وخصصوا في جزره محطات ومراسي للتموين والإستراحة[4].

وقد استعمل الملاحون العرب في الخليج الفارسي كلمة "نواخذة"، وهذه الكلمة مشتقة من تركيب هندي فارسي.

وعندما قام الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان(65- 86هـ/ 685- 705م) بتعيين قتيبة بن مسلم الباهلي(49- 96هـ/ 669- 715م) واليًا علي خرسان سنة 85هـ(704م)، واتخذ من مدينة "مرو" قاعدة له، قاد منها في نحو عشر سنوات عددًا من الحملات الحربية الموفقة في خرسان وفيما وراء النهر، ولم يخيب قتيبة ظن الخليفة، فشمر عن ساعد الجد والإجتهاد واستمر في حروبه، ففتح كاشغر في التركستان الصينية، وكانت أقرب المدن إلي الصين، وذلك في سنة 96هـ(715م). وزادت فتوحات قتيبة الإتصال بين الدولة الإسلامية وبين الصين في أشكالها المختلفة، سواء أكان سياسيًا أم تجاريًا أم دينيًا أم فنيًا أم ثقافيًا.

وتوقفت فتوحات العرب إلي الشرق بعد وفاة الوليد بن عبدالملك، وبعد مقتل قتيبة القائد الإسلامي الشهير الذي قاد الفتوحات الإسلامية في بلاد آسيا الوسطي في القرن

---

(4) سيد سليمان الندوي (الملاحة عند العرب) ترجمة جلال السعيد الحفناوي، المركز القومي للتجارة، العدد رقم 2071، القاهرة، عام 2013، ص10.

الأول الهجري والتي تسمي اليوم الجمهوريات الإسلامية التي انفصلت عن الإتحاد السوفيتي(سابقًا)، وتوغل حتي حدود الصين وتدين كثير من هذه البلدان بدين الإسلام. وتخلصت الصين بذلك من الغزو العربي لها، لكن الصين لم تستطع مقاومة نفوذ الدين الإسلامي الذي كان ينتشر بسرعة، ومن الراجح أن بعض أهالي تركستان الشرقية قد اعتنقوا الإسلام زمن قتيبة(5).

إن قتيبة بن مسلم الباهلي الفاتح لكاشغر، كان أول من بعث وفدًا من العرب عن طريق البر إلي إمبراطور الصين في أواخر سنة 715م(96هـ) فعرضوا عليه أحد أمور ثلاثة: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب.

وثمة رحالة آخر رأي بغداد في مستهل القرن الرابع عشر: هو شمس الدين الدمشقي Chamseddin Dimichki فوصفها أيضًا بأنها المكان الذي تلتقي عنده السفن قادمة من الصين واليمن والهند، وبلاد الزنج(الساحل الشرقي الأفريقي) عن طريق نهر دجلة، بينما بحارة الفرات يأتون إليها بمنتجات أرمينيا والغرب(6).

---

(5) د. عبدالمنعم خفاجي و د. عبدالعزيز شرف(معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي) – الدار المصرية اللبنانية، ط الثانية، عام 1992، ص90.

(6) ف. هايد(تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطي) ترجمة أحمد رضا محمد رضا- الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991، ص 345.

المبحث التاسع
«سلام الترجمان»
أبرع من وصف الصين القديمة

إنها رحلة استكشاف سد ذي القرنين...!

ورحالة يبحث عن قوم يأجوج ومأجوج...!

سلام الترجمان هو رحالة عربي مسلم من مدينة سامراء بالعراق، وكان يتكلم ثلاثين لسانًا(لغة)، واشتهر برحلته إلي الأصقاع الشمالية من قارة آسيا سعيًا وراء استكشاف سد ذي القرنين والبحث عن قوم يأجوج ومأجوج. وكانت الرحلة في الفترة بين 227 إلي 232 من العام الهجري.

وكان سلام معاصرًا لزمن الخليفة العباسى التاسع الواثق بالله التي دامت خلافته خمس سنوات وتسعة أشهر(227- 232هـ). وكانت رحلته - بلا شك- مغامرة قبل ألف عام؛ وتعد من أقدم الرحلات الإستكشافية التي عرفها العالم، وكانت الرحلة مصدرًا مهمًا لما كتب عن الصين القديمة قبل ألف سنة ونيف.

كان هناك نوع آخر من الرحلات التكليفية بمهمات رسمية من قبل الواثق بالله إلي حصون جبال القوقاز عام(227هـ) ويرجع سبب الرحلة في رواية ابن خرداذبة[1].

ويقول الدكتور محمد بن فارس الجميل بجامعة سعود بالسعودية نلاحظ عن رحلة سلام الترجمان أن الكثير من المصادر الأولي، خاصة التاريخية والأدبية، لم تشر إليها، علي الرغم من أهميتها نظرًا لما لها من علاقة بأمر قوم من خلق الله ورد ذكرهم في القرآن وفي السنة النبوية وهم "يأجوج ومأجوج".

ويردفْ قائلًا: "لعل كتب الجغرافية والرحلات هِي المصادر التي تفردت بأمر تلك الرحلة، كما شاركها هذا الإهتمام أحيانًا بعض المصادر الأدبية المتأخرة. ويبدو أن كافة

(1) د. حسين محمد فهيم(أدب الرحلات)- سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رقم(138)، عام 1989، ص90.

المصادر اعتمدت علي ما ذكره ابن خرداذبة(ت 912 م) في كتابه(المسالك والممالك) الذي ظهر حوالي 232هـ- 846 م"

ذكرت المصادر التاريخية أن الخليفة العباسي الواثق بالله رأي في منامه حلمًا أن السور الذي بناه ذو القرنين ليحول دون تسرب يأجوج ومأجوج قد انفتح، فأفزعه ذلك، ولذا كلف الرحالة الماهر البارع سلام الترجمان برحلة استكشافية لمعرفة مكان السد والبحث عن قوم يأجوج ومأجوج. وجهزه بحملة ضمت ستين رجلًا وزوده بخمسة آلاف دينار وأعطاه ديته عشرة آلاف درهم، وأمر لكل واحد من أصحابه بخمسين ألف درهم ومؤونة سنة ومئة بغل تحمل الماء والزاد وأمر للرجال بأكسية من صوف وشعر.

ويؤكد ابن خرداذبة أنه قد سمعها في بداية الأمر من سلام الترجمان ثم أمليت عليه من التقرير الذي رفعه سلام إلي الخليفة. ويسرد ابن خرداذبة قصة رحلة سلام الترجمان في كتابه(المسالك والممالك) علي النحو التالي:

"فحدثني سلام الترجمان أن الواثق بالله لما رأي في منامه كأن السد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج قد انفتح، فطلب رجلًا يخرجه إلي الموضع فيستخبر خبره. فقال أشناس ما ها هنا أحد يصلح إلا سلام الترجمان، وكان يتكلم بثلاثين لسانًا. قال فدعا بي الواثق وقال: أريد أن تخرج إلي السد حتي تعاينه وتجيئني بخبره، وضم إلي خمسين رجلًا شباب أقوياء، ووصلني بخمسة آلاف دينار، وأعطاني ديتي عشرة آلاف درهم."

ويقول:

"... فأقمنا عند ملك الخزر يومًا وليلة حتي وجه معنا خمسة أدلاء، فسرنا من عنده ستة وعشرين يومًا، فانتهينا إلي أرض سوداء منتنة الرائحة. وكنا قد تزودنا قبل دخولها خلا نشمه من الرائحة المنكرة، فسرنا فيها عشرة أيام. ثم صرنا إلي مدن خراب، فسرنا

فيها عشرين يومًا، فسألنا عن حال تلك المدن، فخبرنا أنها المدن التي كان يأجوج ومأجوج يتطرقونها فخربوها. ثم صرنا إلي حصون بالقرب من الجبل الذي شعبة منه السد. وفي تلك الحصون قوم يتكلمون العربية والفارسية مسلمون يقرأون القرآن، لهم كتاتيب ومساجد".

ويقول:

"... ثم صرنا إلي مدينة يقال لها إيكه، تربيعها عشرة فراسخ ولها أبواب حديد يرسل الأبواب من فوقها، وفيها مزارع وإرحاء داخل المدينة، وهي التي كان ينزلها ذو القرنين بعسكره، بينها وبين السد مسيرة ثلاثة أيام، وبينها وبين السد حصون وقري حتي تصير إلي السد، في اليوم الثالث. وهو جبل مستدير ذكروا أن يأجوج ومأجوج فيه وهما صنفان، ذكروا أن يأجوج أطول من مأجوج، ويكون طول أحدهم ما بين ذراع إلي ذراع ونصف وأقل وأكثر. ثم صرنا إلي جبل عال عليه حصن، والسد الذي بناه ذو القرنين هو فج بين جبلين عرضه مائتا ذراع، وهو الطريق الذي يخرجون منه فيتفرقون في الأرض، فحفر أساسه ثلثين ذراعًا إلي أسفل، وبناه بالحديد والنحاس حتي ساقه إلي وجه الأرض".

وعندما عاين سلام السد أخرج من خفه سكينًا وحك بها موضع شق فيه فأخرج منه مقدار نصف درهم وشده في منديل ليريه الواثق، ثم سأل من هناك هل رأوا من يأجوج ومأجوج أحدًا، فذكروا أنهم رأوا ذات مرة عددًا منهم فوق الجبل فعصفت ريح سوداء فألقتهم إلي جانبهم، وكان مقدار الرجل في رأي العين شبرًا ونصفًا.

وبعد تفقد سلام الترجمان للسد انصرف نحو خراسان ومنها إلي(طبانوين) ومنها إلي(سمرقند) في ثمانية أشهر، ومنها إلي(أسبيشاب)، وعبر نهر بلخ ثم صار إلي شروسنة فبخاري وترمذ ثم إلي ينسابور. ومات من الرجال في الذهاب 22 رجلًا، وورد ينسابور وبقي

معه من الرجال 14 رجلًا، ومن البغال 23 بغلًا، وعاد إلي (سر من رأ) السامراء، فأخبر الخليفة بما شاهده بعد رحلة دامت 28 شهرًا؛ 16 شهرًا ذهابًا، و12 شهرًا إيابًا.

في **القرآن الكريم** في سورة الكهف يظهر يأجوج ومأجوج كقبائل بدائية وغير أخلاقية تم إبعادها وحظرها من قبل ذو القرنين الذي ورد ذكره في القرآن باعتباره حاكمًا صالحًا وفاتحًا، وفي أغلب الأحيان، يتم الربط بينه وبين الإسكندر الأكبر. اعتبر الكثير من المؤرخين والجغرافيين المسلمين الحديثين أن ظهور(الفايكنج) هو ظهور يأجوج ومأجوج.

ومما هو جدير بالذكر أن قصة يأجوج ومأجوج قصة قرآنية، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم مرتين: ففي سورة الكهف، الآية 94 جاء قول الله تعالي: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤﴾. وجاء أيضًا قوله تعالي في الآية 96 من سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾. وجاء في نفس السورة إشارة إلي السد بمعني الردم، فقال الله تعالي علي لسان ذي القرنين: ﴿.. فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥﴾ [الكهف: 95].

بعض الروايات الإسلامية تؤكد بصراحة علي أن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم، فهما قبيلتان من ولد يافث، ويافث هذا هو ابن النبي نوح ولكن يبدو أنه كانت لهم سطوة وجبروت.

المتفق عليه من أهل العلم أن يأجوج ومأجوج هما قبيلتان عظيمان مد الله تعالي لهما في العمر وكثر لهما في النسل، وينتسبان إلي يافث بن نوح، وقد اختلف العلماء في طبيعتهما، لكن معظم أهل العلم اتفقوا علي أنهم بشر مثلنا أتاهم الله القوة لكنهم أفسدوا في الأرض. وجاء ملك يلقب بذي القرنين- وهو ملك غير الإسكندر المقدوني والذي ربما لقب بنفس اللقب تيمنًا بذي القرنين، ويرجع أنه عاش في زمان إبراهيم عليه السلام،

وكان عبدًا صالحًا، وقد طلب منه القوم الذين يسكنون بجوار يأجوج ومأجوج أن يبني بينهم وبين القبيلتين سدًا علي أن يجعلوا له خراجًا. وطلب منهم أن يأتوا له بالرجال يجلبون له الحديد، وبني سدًا علي جانبي الجبل حيث كان يضع لبنات من الحديد ويصب عليه نحاس مصهور، فلن يستطيع يأجوج ومأجوج بعد ذلك أن يتسلقوا الجبل لأنه أملس مستوي مع الجبل. وقال ذو القرنين أنه عندما يحين موعد خروجهم سوف يجعله الله عز وجل مستويًا بالأرض ليخرج يأجوج ومأجوج، ويعد ذلك من علامات الساعة الكبري، ويتواكب مع خروج المسيح الدجال، كما تذكر المصادر الإسلامية- ثم يأتي نبي الله عيسي فيقضي علي الدجال، ويرسل الله تعالي علي يأجوج ومأجوج مرضًا يفتك بهم وتنتن الأرض من جيفهم فيرسل عليهم طيورًا ضخمة تنقلهم وتلقيهم حيث يشاء الله.

وقد جاء ذكر سد(ذو القرنين) وقوم يأجوج ومأجوج في **السنة النبوية**، فقد روي أبو هريرة ’رضي الله عنه‘ أن رسول الله ﷺ قال: (فتح الله من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا) وعقد بيده تسعين. أي حلق اصبعه.

كذلك روي أبو هريرة في مناسبة أخري أن رسول الله ﷺ ذكر مرة يأجوج ومأجوج، وما يلقونه من نصب وعنت في سبيل الخروج من السد، فقال: (إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتي إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحضرونه غدًا، فيعودون إليه أشد ما كان...).

وجاء في الحديث أن رجلًا قال للنبي ﷺ: رأيت السد مثل البرد المحبر، قال: "رأيته؟" أي أن النبي ﷺ وافق الرجل وصدق رؤيته للسد وصفته.

وهناك رواية تعود إلي أحداث فتح أذربيجان(22هـ/ 642م) في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ’رضي الله عنه‘ (ت 25هـ/ 644 م) مفادها أن صاحب أزبيجان(شهر براز) أخبر الفاتح العربي عبدالرحمن بن ربيعة عن السد.

وتذكر المصادر التاريخية أنه في عصر الأموي، وبالأحري في عهد معاوية بن أبي سفيان(ت: 60هـ/ 679م) أنه قد أرسل بعثة قوامها خمسة وعشرين رجلًا لتقصي حقائق وأوضاع السد.

1. رحلة سلام الترجمان بين الحقيقة والأسطورة:

بعض المصادر اتخذت موقفًا محايدًا مفاده النقل عن ابن خرداذبة الذي كان له قصب السبق في الإستماع إلي أخبار الرحلة وتسجيلها، ولم يعلق علي ذلك بشيء كالإدريسي، والقزويني والحميري والمقدسي، والثعلبي.

وهناك مصادر أخري رفضت أخبار الرحلة وروايتها وأرتأت فيها مزايدة وخلط وخليط مثل: ابن رسته.

ومن ناحية أخري، هناك من يري أن روايات كثيرة ومختلفة بشأن الرحالة والرحلة ويشكك فيها وفي أخبارها مثل الحموي.

- **الثعلبي:** (ت: 427هـ/ 1035م) في كتابه المعروف (عرائس المجالس) اهتم ببناء السد وقوم يأجوج ومأجوج، واقتبس التفاصيل الصغيرة من كتاب ابن خرداذبة.
- **الأدريسي:** (ت: حوالي 650هـ/ 1164م) في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) نقل رواية ابن خرداذبة وبعثة سلام الترجمان ولم ينكرها، بل أضاف إليها وخاصة فيما يتعلق انتشار الإسلام بين الأقوام المجاورة للسد.
- **القزويني:** (ت: 682هـ/ 1223م) في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) قام بالحذف والإضافة والتحريف لرواية ابن خرداذبة، وخاصة عند حديثه عن يأجوج ومأجوج وعن اختلاف حول المدة الزمنية التي قضتها بعثة سلام الترجمان في رحلتها إلي سد ذي القرنين.
- **الحميري:** (ت: 727هـ/ 1326م) صاحب (الروض المعطار)، كان من أكثر المهتمين ومن أكثر الجغرافيين برحلة سلام الترجمان، وتتبع ما جاء عن السد في القرآن والسنة،

وندين له بالمعلومات القيمة التي زودنا بها عن بعض الرحلات التي يقال أنها بلغت السد قبل بعثة الواثق بالله العباسي بأكثر من قرن من الزمان، ولم يغير جوهر رواية ابن خرداذبة.

(الحميري، ص ص، 308- 310)

- **ابن رُسته:** (ت: بعد حوالي 290هـ/ 903 م) يأتي علي رأس الجغرافيين الذين رفضوا الرحلة وشككوا في أخبارها، وأشار باقتضاب إلي الواثق وتكليفه لسلام الترجمان بالرحلة في كتابه (الأعلاق النفسية).

- **الحموي:** (ت: 626هـ/ 1228م) نشر معظم ما جاء في رواية ابن خرداذبة ولم يشر إلي المصدر وتحدث عن يأجوج ومأجوج، وشكك في رحلة سلام وعن ما نقلته من أخبار السد.

- **ابن الفقية:** (توفي بعد 290هـ/ 903م) أشار إلي رحلة السلام الترجمان باقتضاب في بضعة عبارات، وكرس اهتمامه علي السد، نظرًا لعدم مصداقية خبر الرحلة بالنسبة له كما جاء في كتابه(مختصر كتاب البلدان).

- **المقدسي:** (ت: 390هـ/ 1000م) كان يظن أن السد في الأندلس، بينما رحلة سلام الترجمان أكدت أنه في مكان آخر، فقد صححت لديه بعض الأفكار الخاطئة، ونقل رواية ابن خرداذبة فيما يتعلق بأوصاف السد وبعثة الواثق.

- **الطبري:** (ت: 310هـ/ 922م) في تفسيره لم يشر إطلاقًا لبعثة الواثق، ولم يشر إلي رواية ابن خرداذبة أيضًا. ولكنه ناقش في تفسيره لسورة الكهف أخبار ذي القرنين ويأجوج ومأجوج وبناء السد، وذلك في كتابه(جامع البيان عن تأويل آي القرآن).

- **الرازي:** (ت: 606هـ/ 1209م) أشار في تفسيره باقتضاب إلي رواية ابن خرداذبة حول بعثة سلام الترجمان، ولكنه لم يعر اهتمامًا إلي المعلومات التي جاءت بها الرحلة حول السد وقوم يأجوج ومأجوج، في كتابه(التفسير الكبير).

- **القرطبي**: (ت: 761هـ/ 1273م) ذكر في تفسيره تفاصيل كثيرة عن يأجوج ومأجوج وعن ذي القرنين وأمر السد، لكنه لم يتطرق إلي رواية ابن خرداذبة ولا إلي بعثة الواثق، في كتابه(الجامع لأحكام القرآن).

اهتم العلماء الروس منذ وقت مبكر برحلة سلام إلي سد يأجوج ومأجوج، وذلك لأن الرحلة تتحلي بالأهمية التاريخية لبلاد السوفييت. كما اتفق الباحثون والدارسون المحدثون في الجغرافيا التاريخية لأوروبا الشرقية وآسيا الوسطي، اتفقوا أن الرحلة واقعية وحدثت واعتبرت من أقدم الرحلات العربية والإسلامية إلي بلدان الشرق الأقصي التي وصلنا منها نص مدون يكشف أن سلام كان كثير الأسفار، واسع الإطلاع، إذ قدم لنا وصفًا دقيقًا للطريق واهتم بذكر أحوال البلدان والشعوب التي مر بها في طريقه إلي الصين.

ونستعرض في عجالة آراء بعض هؤلاء العلماء والمكتشفين والجغرافيين في الشرق والغرب علي النحو التالي:

- **غريغورييف Grigoriev**: من الذين شككوا في الرحلة واعتبرها حكاية خرافية تنتشر فيها أسماء جغرافية، ويشاطره هذا الرأي نظيره الروسي مينورسكي Minorsky.

- **دي خويه De Goeje**: منذ عام 1888 اعتبر الرحلة واقعية لا شك فيها وأنها جديرة بالإحترام والإهتمام. وقد أيده في ذلك خبير ثقة في الجغرافيا التاريخية هو توماشك Tomaschek.

- **كراتشكوفيسكي Krachkovski**: يري أن سلام الترجمان في طريق رحلته قد اتجه شمالًا خلال أرمينية وبلاد الكرج(جورجيا)، إلي بلاد الخزر، ثم اتجه من هناك شمالًا إلي بحر قزوين فوصل إلي بحيرة بلخش Balkhash وزنغاريا Zhungoria وهو بلا شك قد أبصر سد القوقاز عند دربند.

ولا يستبعد كراتشكوفسكي أن يكونا أسلام قد وصل إلي سور الصين العظيم.

- **كارادي فان Carra De Van**: المستشرق الفرنسي يري أنه من الأرجح أن هذه الرحلة كانت إلي الحصون الواقعة في جبال القوقاز علي مقربة من دربند أو باب الأبواب في إقليم داغستان غربي بحر قزوين، ومهما يكن من الأمر، فإننا لا نعرف عنها إلا بعض المقتطفات في كتب التاريخ والجغرافية، ولاسيما "نزهة المشتاق" للأدريسي، و"معجم البلدان" لياقوت.

- **أبو الكلام آزاد(1306- 1377هـ/ 1888- 1958م)**: ينحدر من أسرة أفغانية، هاجرت إلي الهند، وكان أول وزير للتعليم. وكلمة(آزاد) تعني في اللغة الأردية "الحُر". يري أبو الكلام أن ذي القرنين هو نفسه قورش الكبير الملك الأخميني(600 ق.م- 530 ق.م) وأول ملوك فارس حكم من(550- 529 ق.م). ويري أبو الكلام أن ذي القرنين هو نفسه قورش الكبير، ورفض ما سبق القول بأنه الإسكندر المقدوني، ويبني نظريته علي أساس أن أصل تسمية "ذي القرنين" من اسم ورد في التوراة هو "لوقر انائيم" وهو اسم أطلقه اليهود علي قورش الذي يبجلوه لتسامحه معهم ان كان أسلافه قد قهروهم، ويدل علي رأيه بتمثال شهير له يمثله وعلي رأسه قرنين.

- **الدكتور زكي محمد حسن**: يقول ان رحلة سلام الترجمان إلي سور الصين الشمالي قد تكون حقيقة تاريخية، وإن كان سببها الذي يذكره الجغرافيون العرب - كالقزويني وياقوت- علي لسان الرحالة نفسه، أشبه بأسطورة خيالية. والظاهر أن حديثها كان مشهورًا في العصور الوسطي[(2)].

في شهر مايو عام 1955، قام أول وزير أوقاف بعد ثورة يوليو 1952، وثاني رئيس لجامعة الأزهر هو الشيخ أحمد حسن الباقوري-قام بزيارة الصين زار خلالها سور الصين العظيم، وأكد أنه ليس هو السد المذكور في سورة الكهف، وكتب يقول:

---

(2) الدكتور زكي محمد حسن(الرحالة المسلمون في العصور الوسطي)، الناشر شركة نوابغ الفكر، ط الأولي، عام 2008، ص13.

"وليس يرتاب الذين رأوا سور الصين وتدبروا القرآن العظيم. أنه ليس هو المقصود بكلمة السد التي وردت علي لسان ذي القرنين في سورة الكهف، فالذين يذهبون هذا المذهب الخاطئ، إما أنهم لم يروا سور الصين، وإما أنهم لم يفهموا معني الآية في الكتاب الكريم.

ذلك أن القرآن حين ذكر أمرين عن السد الذي أقامه ذو القرنين وهما أنه بني في مكان ارتفعت الجبال فيه كجدارين علي جانبيه: أعني أن المكان كان مضيقًا جبليًا، وأن السد الذي أقيم به استخدمت فيه قطع الحديد، ثم أفرغ عليها النحاس المذاب، علي ذلك يجب أن نجد السد في مضيق جبلي، كما يجب أن يكون هو جدارًا حديديًا، لا جدار من الحجر والآجر، ثم أن يكون قد سد طريق المضيق الجبلي لكي نعلم أنه هو السد المذكور في القرآن.

وقد ذكرنا هذه الأوصاف علي هذه الصورة لأن المفسرين للقرآن غضوا النظر عنها، فإذا سمعوا بوجود جدار في مكان ما، سبق إلي أذهانهم أنه هو السد الذي يريده القرآن الكريم في الآية الشريفة، علي حين أن جدار الصين أو سورها العظيم، لا يمكن أن يكون علي الصورة التي ذكرنا بحال من الأحوال. ذلك أن بانيه لم يضعه في مضيق جبلي، ولا استخدم فيه قطع الحديد بل هو جدار من الحجر يمتد إلي مئات من الأميال.

ومن حق الآية الكريمة علينا أن نشير إلي ما تضمنته من فائدة السد لمن كان دونه من قبائل تخشي الغارة من يأجوج ومأجوج، فمن كان هؤلاء القوم يا تري؟... لقد تظاهرت الشواهد التاريخية علي أنهم لم يكونوا إلا قبائل همجية بدوية تعيش في السهول الشمالية الشرقية، وقد تدفقت سيولها قبل العصور التاريخية إلي القرن التاسع الميلادي، وكان تدفقها نحو البلاد الغربية والجنوبية، وقد سميت هذه القبائل بأسماء مختلفة في عصور مختلفة، وعرف الناس قسمًا منها في الزمن المتأخر باسم "ميفر" في أوروبا.، وباسم "التتار" في آسيا.

ولاشك أن فرعًا لهؤلاء القوم كان قد انتشر علي سواحل البحر الأسود في سنة 600 قبل الميلاد، وقد أغار هذا الفرع علي آسيا الغربية نازلًا من جبال القوقاز، وقد سماه اليونانيون باسم "سيت هين".

ولنا أن نجزم بعد قراءات كثيرة بأن هؤلاء هم الذين شكلت غاراتهم الشعوب الجبلية إلي ذي القرنين، فبني السد الحديدي يمنع به أولئك المغيرين المدمرين"[3].

(3) أحمد حسن الباقوري(بقايا ذكريات)- مركز الأهرام للنشر والترجمة، ط الأولي، عام 1408هـ/ 1988، ص 170.



المبحث العاشر

«السندباد العماني»

صاحب أقدم رحلة بحرية إلى الصين

أول عربي يقوم برحلة بحرية إلى الصين

تمهيد:

تذكر المصادر التاريخية الصينية أن الصينيين كانت لديهم معرفة عميقة قوية بالعرب قبل الإسلام بعدة قرون، حيث يرجع تاريخ العلاقات بين العرب والصين إلي ما يقرب من 2000 سنة.

والأسرة الإمبراطورية الصينية (هان) التي حكمت الصين من 206 ق.م - 8 م كانت سياستها تهدف إلي فتح طرق تجارية مع الأقاليم الغربية للصين فيما عُرف لاحقًا بطريق الحرير. وذكر كتاب(تاريخ أسرة هان) والمؤرخ بعام 91 ق.م.، فقد أرسل الإمبراطور(ووه) (ت 87 ق.م) الجنرال جانغ تشيان في بعثتين إلي غرب آسيا، الأولي كانت في عام 139 ق.م.، والثانية عام 119 ق.م. زار خلالها كثيرًا من الدول مثل: منطقة تركستان الشرقية والهند وأفغانستان وآسيا الوسطي والعراق وسوريا، وبعد عودته قدم وصفًا وافيًا لبلاد العرب. لقد كان الصينيون علي دراية جيدة بالعرب في عهد أسرة هان.

وتشير المصادر التاريخية في الصين مثل كتاب(تانغ القديم) أن الصينيين لم يسمعوا عن الإسلام إلا في عام 17هـ/ 639 م في عهد أسرة تانغ التي حكمت في الصين في الفترة من 618- 907م في فترة حكم الإمبراطور(تاي زونغ)(626- 649م) عندما استقبل بلاطه سفارة من آخر الحكام الساسانيين يزدجرد الثالث(631- 651 م) يطلب المساعدة ضد الجيوش العربية الغازية لبلاده إلا أن الإمبراطور تجنب الأمر درءًا للمتاعب التي تنتج عنها.

وكان أقدم اتصال سياسي بين الصين والشرق الإسلامي جاء ذكره في المصادر التاريخية كان الطريق البري. فعندما انهارت أسرة سوي (Sui) الحاكمة في الصين، في سنة 617 م أي بعد النبوة بحوالي ست سنوات، وانتقل الحكم إلي أسرة تانغ (Tang). وكان أول إمبراطور لهذه الأسرة العظيمة يدعي تانغ تاو زو(618- 626) وكان رجلًا عسكريًا عظيمًا.

فعلي الصعيد السياسي اتسع نفوذه إلي سمرقند وبخاري وبلاد قفجان. وكان يأخذ الخراج من ملوكها لأنهم قد رضوا بحكمه وسيادته عليهم. وشهدت فترة حكم هذا الإمبراطور حوادث خطيرة في بلاد العرب التي أثرت تأثيرًا بالغًا في الساحة الدولية في ذلك الحين مثل: خلافة أبي بكر 'رضي الله عنه'، بعد وفاة الرسول ﷺ وفتوحات عمر 'رضي الله عنه'، وسقوط دولة كسري وغيرها من الوقائع الشهيرة في تاريخ الإسلام والعالم.

وتولي الإمبراطور الصيني تاي زونغ(626- 649م) زمام الحكم وتربع علي عرش الإمبراطورية خلفًا لأبيه الإمبراطور قاو زو الذي عاجلته المنية في سنة 626م، وكان تاي سديدًا في الأمور السياسية وشجاعًا مثل أبيه، واحتفظ بالتركة التي ورثها من الممتلكات في آسيا الوسطي ووسع نفوذه ليشمل بلاد التبت وكشمير ونيبال. وقد استنجد به يزدجرد آخر ملوك الساسانيين عندما كان العرب يغزون بلاده فسقطت في أيديهم في سنة 642 م.

وأكبر الظن أن الإسلام دخل إلي الصين علي يد التجار، ساروا في الطريق البحري الذي كانت تتبعه السفن التجارية[1]، ولكن أقدم اتصال سياسي بين الصين والشرق الإسلامي، جاء ذكره في المصادر التاريخية، كان الطريق البري؛ فإن فيروز بن يزدجرد كتب إلي إمبراطور الصين قاو زونغ ليجي(650- 655م) يسأله المساعدة في صد غارة العرب الذين فتحوا بلاده، وهلك علي يدهم أبوه يزدجرد ملك الفرس، وقد أبي إمبراطور الصين أن يقدم إليه المدد العسكري المطلوب محتجًا ببعد الشقة. ولكن قيل أنه أرسل إلي المدينة مندوبًا من قبله للدفاع عن قضية فيروز، وليتبين قوة الجماعة الإسلامية الفتية.

(1) اقرأ، عن انتشار الإسلام في الصين، مقال الاستاذ هارتمان في دائرة المعارف الإسلامية، مادة "الصين" الطبعة الفرنسية، ج1، ص866 وما بعدها.

وقيل أيضًا- إن الخليفة عثمان بن عفان أرسل أحد قواد العرب لمرافقة السفير الصيني في عودته سنة 651م، وإن إمبراطور الصين أكرم وفاءة هذا القائد[2].

كان الأمويون لا ينظرون إلي التاجر بعين التقدير، إذ أنهم كانوا جيلًا من المحاربين الفرسان وأمراء القطائع، فقد أصبح لطبقة التجار في العصر العباسي شأنًا كبيرًا. فلما جاء القرن الرابع الهجري أصبح التاجر الغني هو ممثل الحضارة الإسلامية. ولما كان كل تاجر رجلًا رحالة فإن المعرفة بأثمان البضائع وأسعارها وأنواع النقود التي يجل عددها عن الحصر كانت تمتزج بالخبرة الواسعة بطبائع البلدان وعادات الأقوام.

وكانت التجارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري مظهرًا من مظاهر أبهة الإسلام، وصارت لها السيادة في بلادها، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب البحار والبلاد، وأخذت تجارة المسلمين المكانة الاولى في التجارة العالمية. ولقد نشأ من هذا التقدم الحضاري ازدهار الجاليات الإسلامية في كثير من الأطراف التي يغلب عليها غير المسلمين، فكان يرأسهم مسلم، ولا يقبلون حكم غير المسلمين فيهم، ولا يتولي حدودهم ولا يقيم عليها شهادة إلا المسلمون، وان قلوا، وذلك ممثل بلاد الخزر وغانا وصيمور(الهند) وكان بالصين أيضًا جالية إسلامية[3].

وبالنسبة للصين وتاريخ الإتصال بها، وما ترتب علي ذلك من حركة تجارية واتصال حضاري إلي حد تكوين جالية إسلامية بها، فقد ساعدت الإكتشافات الأثرية في سيراف تقدير الفترة الزمنية التي نشطت فيها الرحلات البحرية بين المسلمين والصين. وقد وجد الأثريون أن آثار المسجد الذي بني في سيراف في بداية القرن الثالث الهجري قد تضمنت

(2) ذكي محمد حسن (الصين وفنون الإسلام). وزارة الثقافة والرياضة- دولة قطر، 2016، ص30-31.

(3) آدم متز(الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، المركز القومي للترجمة، ميراث الترجمة، العدد 1204، عام 2008.

كميات كبيرة متنوعة من الخزف الصيني تفوق ما احتوته المباني القديمة التي بُنيت قبل المسجد. وهذا يؤكد إذًا ما ورد في كتابات الرحالة القدامي عن نشاط بحري وتجاري بين المسلمين والصينيين. فلقد ذكر جورج حوراني في دراسته عن الملاحة البحرية عند العرب أن أحد الرحالة العمانيين واسمه أبو أباضية الصغير قد زار الصين في منتصف القرن الثالث الهجري، وأن تاجرًا من البصرة قد موّل رحلات تجارية مع الصين حوالي عام 775 ميلادية[4].

والقوة التي كانت تنافس قوة العرب في البحر بالشرق في الفترة التي بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر الميلاديين، هي قوة الصين. نعلم حقًا أن نفوذ العرب البحري في الشرق كان قويًا جدًا لا يكاد يساويهم فيه أمة من الأمم، لكن الصينيين ما كانوا متأخرين عن العرب في الملاحة البحرية ونفوذهم البحري لم يكن أقل من نفوذ العرب، خصوصًا بسواحل الهند وخليج فارس[5]. وكانت المراكب الصينية أكبر مراكب الشرق، ولهذا لم تكن تستطيع اجتياز ما يجتازه غيرها من مضايق خليج فارس. وكانت ضخامتها الزائدة تثير تعجب أهل كانتون(جنوب الصين) حتي القرن الثامن الميلادي لأن علوها عن سطح الماء يضطر الناس إلي استخدام سلالم بارتفاع عشرة أقدام حتي يصعدوا إلي سطحها.

وعلي كل حال، وفي زمن الإسلام بسط العرب والمسلمون نفوذهم وسيطرتهم علي البحار والمحيطات في التجارة العربية، وبلغوا شأنًا رفيعًا في إدارة وتنظيم الموانئ وتعزيز العلاقات التجارية مع الدول كافة. ويؤكد ذلك الكتب والمصادر التاريخية والرحلات القديمة، وكتابات ثقات الجغرافيين والمستكشفين، وأقدم مصدر للعلاقة التجارية هو ما كتبه ابن خُرداذبة، عن طريق البحر من البصرة إلي خانفو(كانتون)، ثم كتاب(أخبار

(4) أدب الرحلات، مصدر سابق، ص229.

(5) بدر الدين حي الصيني(العلاقات ين العرب والصين)- مكتبة النهضة المصرية، عام 1950، ص113.

الهند والصين) للتاجر أبي زيد سليمان السيرافي كما سنري في الصفحات القادمة. ويبين ذلك أن التجارة بين الصين والعرب قد أصبحت منظمة في القرن الثامن الميلادي، وازدهرت من القرن التاسع الميلادي إلي القرن الرابع عشر الميلادي، أي بعد دحر قوات المغول في الصين في سنة 1367م.

وفي عام 1178م يقول أحد كُتاب الصين: إن مملكة العرب لا يفوقها بلد آخر من البلدان الأجنبية في كثرة ما يدخر بها من البضائع المتنوعة الغالية، ويليها في ذلك جاوة وبالمبانج(وهي سومطرة) ثم تأتي بعد ذلك بلاد أخري كثيرة. وقد تجدد النشاط الملاحي إلي الصين والذين يأتون من بلاد العرب يتخذون أول الأمر سفنًا صغيرة تسير بهم إلي الجنوب حتي ساحل كويلون(ملبار) ومن ثم ينتقلون إلي سفن كبيرة تحملهم إلي بالمبانج(سومطرة). وكان الطريق البحري إلي الصين خاضعًا لما تقتضيه هبوب الرياح الموسمية التي تستطيع السفن أن تسير معها من غير حاجة إلي استعمال البوصلة[6].

وقال المسعودي في عام 332هـ- 943م: وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة، فلم أجد أهول من بحر الزنج، وكان قد ركب البحر سنة 304هـ- 916م من زنجبار(قنبلو) إلي عمان، وذلك في مركب أحمد وعبدالصمد أخوي عبدالرحيم بن جعفر السيرافي، وفي ذلك البحر غرقًا بمركبهما وجميع من كان معهما[7].

حاول المقدسي الذي ألف كتابه في الجغرافية حوالي عام 375هـ/ 985م، أن يثبت من القرآن أن في العالم بحرين هما: بحر الروم، والبحر الصيني، مستندًا إلي سورة الرحمن آية 19 وما بعدها، حيث يقول الله تعالي: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ۝٢٢﴾ [الرحمن: 19-22]؛

(6) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، مصدر سابق، ص377.

(7) مروج الذهب، الجزء الأول، ص234.

وقد لقي أبا علي بن حازم بساحل عدن، وكان الشيخ من أعلم الناس بالبحر الصيني، لأنه إمام التجار، ومراكبه أبدًا تسافر إلي أيه، فسأله عن صفة بحر الصين، فمسح الرمل بكفه، ورسم صورة البحر أمام المقدسي، وبيَّن له معارجه المتلسنة، وشعبه الكثيرة[8].

ويقول المسعودي: إنه لقي كثيرين ممن رحلوا إلي الصين وعرف منهم أن الطريق من خراسان إلي بلاد الصين يمر ببلاد الصغد وأنه يمر بالجبال التي يؤخذ منها النشادر، ويؤخذ من هذا أن طريق الصين كان في القرن الرابع هو الطريق الذي وصفه الرحالة الصيني سوين تسانغ والجردوزي، لأن في الروايات الصينية ما يدل علي أن هذه الجبال داخلة ضمن سلاسل جبال تيان شان شمالي مدينة كوشا. ولم يوصف هذا الطريق إلا بعد ذلك بمائتي عام. وكان الإدريسي أول جغرافي عربي وصف الطريق الذي يسير من فرغانة إلي حوض تاريم مارا بهضبة البامير، وذلك حوالي عام 550هـ/ 1155م، وربما كان لهذا علاقة بما حدث في ختام القرن الرابع الهجري من فتح أمراء البُغرا الغربي بلاد ما وراء النهر ونقلهم قصبتهم إلي كاشغر في تركستان الشرقية، مما أدي إلي عودة الطريق إلي ناحية ممرات البامير.

إن المواصلات البحرية لم تكن متصلة تمامًا بين الصين والشرق الأدني في عصر المسعودي(القرن 4هـ، 10م)؛ فإن السفن من الجانبين لم تعد تبحر إلا حتي مدينة تسمي "كله" في منتصف الطريق بين البلدين. ويذكر كتاب عجائب الهند أن أقصي ما كانت تبلغه مراكب المسلمين مدينة (كَلَة) أو (كِدا) في ملقا، وكان هذا البلد في موضع سنغافورة اليوم. ويقول أبو دُلف إن(كله) هي أول بلاد الهند وآخر منتهي مسير المراكب؛ لا يتهيأ لها أن تتجاوزها وإلا غرقت[9].

---

(8) كتاب المقدسي، ص11.

(9) معاجم البلدان لياقوت الحموي، الجزء الثالث، ص453(كلمة صين).

وكذلك يقول المسعودي حوالي عام 332هـ- 944م إن بلاد(كله) هي النصف من طريق الهند أو نحو ذلك، وإليها تنتهي مراكب أهل الإسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت، وفي(كله) أيضًا كان التاجر السمرقندي ينزل إلي المراكب الآتية من عمان، ويركب البحر في مراكب الصين إلي خانقو (كانتون)[10].

وفي القرن السادس الميلادي كان الحرير الصيني أهم سلعة في تجارة الصين مع البلدان الأخري، حيث كانت السفن التجارية الصينية تبحر إلي عمان وسيراف والبحرين والأبلة وبغداد وعدن. وكانت عدن من أهم المدن التجارية بجنوب العرب. وذكرت مصادر أن في عدن يوجد مرسي خاص للسفن الصينية التي كان لها أيضًا قصب السبق أن تصل إلي الميناء اليمني الشحر وإلي السواحل الشرقية من أفريقيا. وكان بين شحنات السفن الصينية إلي البلدان العربية الحرير والقماش المقصب وأواني الخزف الصيني والورق والمسك وعود الند والكافور والقرفة وفرو الزبلين والسروج. كما ذكر ابن خُرداذبة أن عدن يوجد بها العنبر والعود والمسك ومتاع السند والهند والصين.

وكانت السفن التجارية العربية إذا أرادت أن تبحر إلي الصين، ترفع مراسيها من عدن وصُحار. وكانت صحار ملتقي للتجارة من مختلف البلدان، وأول محطة تحويل للبضائع من جنوب جزيرة العرب والخليج الفارسي إلي الهند والصين. وكان من بين البضائع التي تنقلها تلك السفن ما يعرف بـ "مبيعات محصورة" بمعني أنها محصورة علي الحكومة الصينية تشتريها برمتها وتشمل: الودع، وقرن الكركدن، والعاج، والحديد المطاوع والمرجان والعقيق واللبان، بالإضافة إلي "المبيعات المفتوحة" التي يحق لأصحابها بيعها بحرية ودون أن يدفعوا ضرائب.

والجدير بالذكر كان من بين البضائع التي ينقلها التجار العرب إلي الصين: اللبان والعنبر وكافور برنيو وماء الورد والمر ودم الأخوين وزيت الميعة والحلتيت والسولع واللؤلؤ

(10) مروج الذهب للمسعودي، الجزء الثالث، ص308.

والعقيق وقرن الكركدن والعاج والأواني الزجاجية. وكان أفراد الأسرة الحاكمة يستهلكون كميات كبيرة من البخور العربي. وكانوا يتخذون من العنبر شموعًا في القصور. وكانت(ظفار) في أرض عمان وجنوب الجزيرة من أهم مواطن البخور الذي تشتريه الصين.

1. السندباد العُماني: أول عربي يصل إلي الصين عام 750م.

يتفق العلماء الصينيون أن الإسلام وصل إلي بلادهم سنة 29هـ/ 651م، وذلك في صيف السنة الثانية لفترة حكم ثاني أباطرة أسرة تانغ(618- 907م) الإمبراطور قاو زونغ، ففي ذلك العام كانت أول سفارة عربية إلي بلاط أسرة تانغ.

وفي الدولة الإسلامية زادت أهمية الخليج العربي؛ حيث أصبحت بغداد حاضرة الدنيا، مما عزز من الملاحة البحرية في البحار، حيث كان يجلب التجار كل غالٍ ونفيس إلي بلاط الخلفاء من شتي بقاع الأرض، ونشطت التجارة وعظمت الأموال، واندفع التجار يجوبون مشارق الأرض ومغاربها ليبيعوا منتجات العرب ويشترون نفائس الأرض كالبخور والخزف والحرير وغيرها. وكان التجار العرب قد ساروا علي التقاليد القديمة لمنطقة جنوبي العراق وسواحل الخليج العربي منذ العصر الساساني، وذلك فيما يتعلق بالتجارة عن طريق البحر وقصص الأسفار للبحارة العرب والفرس مع بلاد الهند وأرخبيل الملايو والصين.

وقد قيل أنه حينما استولي العرب علي ميناء(الأبلة) قرب البصرة في خلافة عمر بن الخطاب وجد بها المسلمون سفنًا صينية. وقد كان الفرس حتي عصر السيادة العربية هم أكثر الناس جسارة علي ركوب البحر، وكان من الواضح منذ عهد طويل أن المستعمرة العربية الفارسية بميناء كانتون بالصين كانت بلغت حدًا من القوة أصبحت معها في سنة 758م تضع يدها علي المدينة وتتحكم فيها ثم تنهبها وتغادر البلاد عن طريق البحر.

وتقول المصادر والوثائق أن رحلات التجار العمانيين البحرية إلي الصين بدأت منذ القرن الثاني الهجري، وكانت من أقدم رحلات العرب إليها. وتطورت هذه الرحلات في القرن الثالث الهجري، حيث استضاف ميناء كانتون بجنوب الصين العديد من الرحالة والتجار العمانيين الذين مارسوا النشاط التجاري بين الجانبين.

وحسب ما تظهر بعض المؤلفات والسجلات الصينية أن التاجر العماني المشهور أبو **عبيدة عبدالله بن القاسم قد وصل في حوالي سنة 750م** إلي ميناء كانتون عبر المحيط الهندي إنطلاقًا من ميناء صحار، الذي يقع إلي الشمال من العاصمة العمانية مسقط والمعروف قديمًا بطريق الحرير، ويعتقد بعض المؤرخين أن هذا الوصول المبكر للعمانيين إلي الصين في العصر الإسلامي يرجع إلي أن هذه التبادلات كانت قد بدأت منذ زمنٍ بعيد.

ووردت أخبار رحلة الشيخ أبو عبيدة عبدالله بن القاسم في مصدر تاريخي آخر هو "كتاب أبي سفيان" من تأليف أبي سفيان بن حرب(57ق.هـ- 31هـ/ 567- 652م) وهو الصحابي الجليل وسيد من سادات قريش، وهو الأب لسادس الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، وكان تاجرًا واسع الثراء وزعيم أشراف قريش. ورحل عن دنيانا في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، وذكر في كتابه: "إن أحد شيوخ الإباضية هو أبو عبيدة عبدالله بن القاسم من أهل عمان كان عالمًا كبيرًا وتاجرًا معروفًا اشتغل بتجارة المر، وكان قد سافر بتجارة المر والصبر إلي الصين". كما كان من فقهاء الإباضية بالمشرق ومؤرخيهم في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وكان معاصرًا للإمام عبدالوهاب.

ويقول المستشرق الروسي كراتشكوفسكي عن رحلة الشيخ أبو عبيدة: "تاريخ تلك الرحلة غير معروف لنا ولو أنه لاعتبارات عديدة، يمكن القول أنها حدثت دون شك قبل نهب مدينة كانتون عام 758م".

ويؤكد هذه المقولة التاريخية أنه في أواخر القرن التاسع عشر حالف الحظ بعض المستشرقين بأن عثروا علي شواهد قبور تثبت زيارة بعض العرب للصين في ذلك العهد القديم، وكان ذلك مقبرة تثبت وجود جماعة من أهل عمان والخليج العربي. وعزز هذا الإثبات التاريخي ما ذكره أبو سفيان في كتابه المذكور آنفًا.

كانت أول ما يتوقف عنده الرحالة والتجار العرب القدامي، الذين قصدوا الصين- أو بلاد الخطا كما كانوا يسمونها- بالبحر، وكان أولهم فيما تذكره بعض المصادر العربية تاجر عُماني الأصل، هو أبو عبيدة عبدالله القاسم، الذي اقلع من عُمان إلي كانتون حوالي عام(133هـ- 750م) لشراء الصبار والأخشاب. وهو الرجل الذي يقول عنه العمانيون انه أول من أطُلق عليه وصف "السندباد"(11).

ويعتقد أنه في أسرة سونغ Song (960- 1279م) قام الإمبراطور الصيني شن تشونغ(1048- 1085) منح الشيخ عبدالله العماني، الذي ذاع صيته بعد أن تم تعيينه رئيسًا لمنطقة سكني العرب والأجانب الآخرين في مدينة قوانغوتشو، لقب "جنرال الأخلاق الحميدة"، حيث يحسب للشيخ عبدالله اسهاماته البارزة في مجال تطوير العلاقات الودية بين الصين وعُمان.

وذكر كتاب "موجز تسجيل الأمور الهامة المختلفة في عهد أسرة سونغ" الآتي: "إن المبعوث لدولة وو شيون(صحار) التابعة لداشي(العرب) قد جاء لتقديم الهدايا إلي الإمبراطور الصيني. وقد عاش سنوات عديدة في الصين".

علي أية حال، يمكن أن نعدَّ أخبار رحلة أبي عبيدة عبدالله بن القاسم إلي الصين- التي تمت قبل سنة 141هـ/ 758م، أي قبل نهب وحرق مدينة خانقو(كانتون) **أقدم ما وصل إلينا من أخبار الرحلات. وتعد رحلته أقدم رحلات العرب إلي بلاد الصين، وكان يدعي**

(11) فهمي هويدي(الإسلام في الصين)- عالم المعرفة، الكويت، رقم 43، عام 1981، ص17.

عند الصينيين بالشيخ عبدالله، وخلال رحلته مر بموانئ: الملايو، وموانئ جزيرة سومطرة وجاوة، لأن هذه الموانئ تقع علي طريق التجارة البحرية من المنطقة العربية والصين كما بيننا في الصفحات السابقة.

وفي مدينة الزيتون(تشوان تشو) الصينية بمقاطعة فوجيان الواقعة في جنوب الصين، تم افتتاح قاعة للصلاة بالمسجد الأثري المشهور في تلك المدينة وتم تشييده في سنة 1009، وهو مسجد(الطاهر)، وتحمل القاعة اسم التاجر والرحالة العماني المعروف الشيخ أبو عبيدة عبدالله بن القاسم، وقد بلغت تكاليفها خمسمائة ألف دولار أمريكي علي نفقة الحكومة العمانية، وذلك تقديرًا لدوره في نشر الإسلام، حيث يعتبر الشيخ أبو عبيدة من أوائل التجار العرب الذين أوصلوا الإسلام إلي الصين. **وكان أول عربي يصل إلي الصين في عام 750م تخليدًا لدوره الكبير في نشر الإسلام.**

وقد استمرت رحلات بحارة وتجار الخليج العربي إلي ميناء كانتون الصيني، حيث كان لهم وكلاء عديدون في هذه المدينة وغيرها من مدن الصين التي فتحت أبوابها لتجارتهم فكانوا هم الذين قاموا بمعظم النشاط التجاري مع بلاد الصين في القرن الثالث الهجري بصفة خاصة، ومنهم **النضير بن ميمون الأباضي البصيري** من أبناء القرن الثالث الهجري(12). الذي عاش بالبصرة علي ما يظهر في حدود القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، ومن هناك سافر إلي الصين، ولكن لا نملك تفاصيل دقيقة عن رحلته.

وعلي كل حال، فإنه يمكن اعتبار أولئك التجار العمانيين، بما فيهم أهل الإمارات بمثابة ممهدين لتجار آخرين كبار مثل رحلة سليمان السيرافي ورفيقه **ابن وهب** اللذان التقيا بالمؤرخ الجغرافي هو أبو زيد السيرافي. وقد أقام هؤلاء وأمثالهم في الصين فترات طويلة بسبب نشاطهم التجاري، فتزوجوا من صينيات مما ساعد كثيرًا في نشر الإسلام في تلك البلاد.

---

(12) حسين نصار(أدب الرحلة) مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر عام 1991.

إن الرحالة العرب قد كونوا عن بلدان الشرق الأقصي وغيرها مادة مقتضبة منذ عهود مبكرة تعود إلي القرن التاسع الميلادي معتمدين في ذلك علي ما يتناقله الرحالة المغامرون، وهم شخصيات في الغالب عربية بحتة أسهمت في بعض الأسفار التجارية، ويؤكد لنا ابن رُستة(توفي نحو 300هـ/ نحو 912م) الجغرافي الفارسي صاحب كتاب(الأعلاق النفيسة) والذي يضم حقائق عن الهند يرويها عن شخص غير معروف عند المؤرخين هو **أبو عبدالله محمد بن إسحاق**، وهو غير ابن إسحاق صاحب السيرة والمغازي المعروف، وكان هذا قد أمضي قرابة عامين في جزيرة قماري(أي الخمير وهو الاسم القديم لكمبوديا) وكان ذلك في أغلب الظن في أوائل القرن التاسع. ويري أكثر الباحثين الأوروبيين من المستشرقين في الجغرافيا أن هذا الرجل يكاد يكون المصدر الوحيد لكل من ابن رستة، وابن خرداذبة، وهو الذي ينقل عنه ياقوت فقرات معينة في بعض مواد كتابه.

الأديب والكاتب والمؤرخ **أبو علي التنوخي**(327- 384هـ/ 939- 994م) الذي نشأ وولد في البصرة وسكن بغداد وتوفي فيها، كان يجمع من الأخبار والطرائف مالم يسبقه أحد حيث يجد القارئ ما تغذي العقل ويشرح الصدر ويسعد النفس، وإليه كتب أبو العلاء المعري قصيدته التي أولها: "هات الحديث عن الزوراء أو هيتا".

ومن أشهر أعماله كتاب **"نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة"** يقع في أحد عشر مجلدًا، كل مجلد له فاتحة بخطه، وهو كتاب جيد ألفه التنوخي في عشرين سنة أولها سنة 36، واشترط ألا يضمنه شيئًا نقله من كتاب آخر. بدأ طبعه عام 1918 وفرغ منه عام 1921. "النشوار" كلمة فارسية معناها جرة الحيوانات المجترة، وقد استعملها التنوخي بمعني الحديث.

ويسجل التنوخي في كتابه رواية لأحد تجار عُمان الذي كان يذهب ويجئ للشحاذة بين الأبلة (ميناء عبدان الآن) في الخليج العربي وكانتون في الصين، ويقول فيها: "كنت بالأبلة

أريد الخروج إلي البحر، فرأيت سائلًا بباب الجامع فصيح اللسان يلح في المسألة فرققت له وأعطيته دراهم صالحة. وخطفت في الوقت إلي عمان فقضيت شهورًا، ثم قضي لي أن مضيت إلي الصين فدخلتها سالمًا. وإذ أنا يومًا أطوف، فإذا الرجل بعينه قائمًا في السوق يتصدق، فتأملته فعرفته، فقلت له: ويحك، سائلًا بالأبلة وسائلًا بالصين؟ فقال: قد دخلت هذا البلد(يقصد كانتون) ثلاث دفعات وهذه الرابعة لطلب المعيشة فلا أجدها إلا من الكدية(الشحاذة). فأرجع إلي الأبلة ثم أرجع إلي ههنا"[13].

في عام 331هـ- 943، أرسل ملك الصين في أسرة هوجين(936- 947) في أواسط القرن العاشر يخطب ود نصر بن أحمد الساماني وهو أحد أشهر حكام الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر وأطولهم حكمًا توفي في سنة 331هـ، ويطلب مصاهرته، فرضي نصر أن يزوج ابنة من ابنة ملك الصين، ففتح هذا أمام التجار المسلمين الطريق إلي الصين[14].

وفي عصر بني سامان(261- 389هـ/ 874- 999م) ببلاد ما وراء النهر كانت التجارة واسعة مع الصين، وكان الإقبال علي منتجاتها شديدًا. وقد وصل إلينا أن الأمير الساساني نصر بن أحمد(301- 331هـ/ 913- 942م) أمر الشاعر الإيراني رودكي بنظم كليلة ودمنة ثم طلب بعد ذلك إلي فنانين صينيين أن يوضحوا مخطوطات الترجمة المنظومة بالصور ليطرب الناس بقراءتها. ولا ريب في أن بني سامان كان سهلًا عليهم استخدام الفنانين من أهل الصين، فقد كانت صلتهم كبيرة ببلاط الصين، وكانت تجارتهم مع تلك البلاد مزدهرة؛ إذ كان الطريق البري بين البلدين مطروقًا، وفضلًا عن ذلك، فإن الكاتب الصيني جاو رو كوي ترك بعض البيانات الثمينة عن التجارة بين الصين والشرق الإسلامي في القرن السادس الهجري(الثاني عشر الميلادي). وقد كان هذا الكاتب مفتشًا للتجارة

(13) أبو علي التنوخي(نشوار المحاضرة وأخبرة المذكرة)- تحقيق عبود الشالجي، الجزء الثالث، ص78.

(14) المزيد من التفاصيل انظر: معجم البلدان لياقوت تحت كلمة صين نقلًا عن أبي دلف.

الخارجية في إقليم فوكين بالصين. وكتب في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي مؤلفًا عن الأمم الأجنبية وتجارتها مع بلاده. وعنوان هذا الكتاب(جو- فان- جي / وصف الأمم الاجنبية) وقد ترجمه إلي الإنجليزية الأستاذان هرث F. Hirth وروكهل W. W. Rockhill ونشراه سنة 1911 بمدينة سانت بطرسبرج مع شروح وتعليقات من مراجع أخري وصدراه بمقدمة فيها موجز عن تاريخ التجارة بين الشرق الأقصي والأدني، ذكرا فيه أن التجارة البحرية في العصور القديمة والعصور الوسطي بين مصر وإيران والشام من ناحية والشرق الأقصي والهند من ناحية أخري، كان معظمها في أيدي العرب وكانوا يؤسسون منذ العصور القديمة في أهم الموانئ التي يمرون بها[15].

ومما كتبه ياقوت الحموي(المتوفي سنة 626هـ/ 1229م) في مادة "الصين" من كتابه(معجم البلدان) أن شخصًا اسمه إبراهيم بن إسحق كان يتجر إلي الصين فنسب إليها. وأن سعد الخير الأنصاري الأندلسي كان يكتب لنفسه الصيني لأنه كان قد سافر من المغرب إلي الصين، وأن بلدة صغيرة تحت واسط كان يقال لها الصينية، ويقال لها أيضًا صينية الحوانيت[16].

---

(15) د. زكي محمد حسن(الصين وفنون الإسلام) مطبعة المستقبل عام 1941، القاهرة، ص14.

(16) انظر(معجم البلدان) لياقوت، طبعة مصر، الجزء الرابع، ص 408.

المبحث الحادي عشر
«ابن وهب القرشي»
أول حوار عربي مع إمبراطور الصين
عام (870م)

هو ابن وهب بن هَّبار بن الأسود من قبيلة قريش. وكان من ذوي الثروة والجاه في مدينة البصرة بالعراق. وتذكر السجلات التاريخية أنه قام برحلة إلي الصين في سنة 56هـ/ 870م، فرحل عن البصرة بعد اندلاع ثورة الزنج التي اندلعت فيها عام 257هـ/ 870م قبل حدوث التمرد في الصين عام 264هـ. وانه كان مجرد راوٍ لأبي زيد حسن السيرافي لقصة مقابلته لإمبراطور الصين وهي قصة تتكرر لدي الكُتاب العربي.

وذكر كتاب(أخبار الصين والهند) تحت عنوان "مقابلة بين رجل من قريش وملك الصين"- ذكر الآتي: "وقد كان بالبصرة رجل من قريش يُعرف بابن وهب من ولد هّبار بن الأسود خرج منها عند خرابها فواقع إلي سيراف وكان فيها مركب يريد الصين، فنزعت به همته بالمقدار الجاري، علي أن ركب في ذلك المركب إلي بلاد الصين، ثم نزعت به همته إلي قصد ملكها الكبير فسار إلي حمدان في مقدار شهرين من المدينة المعروفة نجانفو، وأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب"[(1)].

المسعودي: المؤرخ العظيم والرحالة البارع سماه فون كريمر في كتابه(ثقافة الشرق) بأنه "هيرودتس العرب"، وسماه ابن خلدون "إمام المؤرخين". وهو رائد نظرية الإنحراف الوراثي ومن أشهر علماء العرب. والمسعودي(283- 346هـ/ 896- 957م) وُلد في بغداد ونشأ وترعرع فيها، أحب الرحلات وطلب العلم، فرحل إلي أقصي البلاد فطوف في أرجاء فلسطين وفارس وأرمينية وكرمان حتي استقر سنة 309هـ في اصطخر، وفي السنة التالية(310هـ) خرج إلي الهند فزار "ملقان" و"المنصورة"، ثم انتقل إلي كبنايه وصيمور وسرنديب. ثم ركب البحر إلي الصين وطاف المحيط الهندي حتي وصل إلي مدغشقر ثم عاد إلي عُمان.

(1) يوسف الشاروني(أخبار الصين والهند)- الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ص ص 69- 70، عام 2000م.

وفي كتابه الأشهر(مروج الذهب ومعادن الجوهر) فصل " ذكر ملوك الصين وأخبار الصين" وكان مما كتبه في رحلة ابن وهب علي النحو التالي:

"ومن طرائف أخبار وملوك الصين أن رجلًا من قريش من ولد هَبَّار بن الأسود لما كان من أمر صاحب الزنج بالبصرة ما كان واشتهر، خرج هذا الرجل من مدينة سيراف، وكان من أرباب البصيرة وأرباب النعم بها، وذوي الأموال الحسنة، ثم ركب منها في بعض مراكب بلاد الهند ولم يزل يتحول من مركب إلي مركب، ومن بلد إلي بلد، يخترق ممالك الهند، إلي أن انتهي إلي بلاد الصين فصار إلي مدينة خانفو، ثم دعته همته إلي أن صار إلي دار ملك الصين".[(2)]

ويذكر التاريخ أسماء بعض الشخصيات العربية التي زارت الصين، ومنهم الرحالة المعروف ابن بطوطة وهو خير من كتب عن الصين من العرب القدماء، وهناك سائحان عراقيان هما ابن وهب وسليمان قد وصلا إلي الصين في القرن التاسع الميلادي وسجل أحدهما مشاهداتما في سفرتهما، ويظهر أنها زارا جميع موانئ الصين الجنوبية والشمالية وكانا يتاجران بعود الند وخشب الصندل والعاج والامبلوس والتوابل المنوعة[(3)].

وقد ارتحل ابن وهب القرشي من سيراف إلي الصين بحرًا في العام الحادي عشر من فترة شيان تونغ في عهد الإمبراطور إيي تسونغ(860- 874م) في أسرة تانغ ثم سافر من كانتون إلي تشانغآن عاصمة الصين حينئذ، حيث كانت لديه رغبة جامحة في لقاء ومقابلة الإمبراطور الصيني، وقدم عرائض متلاحقة صرح فيها بأنه من أبناء عشيرة النبي

---

(2) أبو الحسن المسعودي(مروج الذهب ومعادن الجوهر)- الجزء الأول، دار الفكر للطباعة والنشروالتوزيع، بيروت- لبنان، 2000م، ص153.

(3) سعيد لنجو نمن(نبذة عن الصين)- من منشورات المفوضية الصينية ببغداد عام 1946، مطبعة المعارف- بغداد، ص ص 7-8.

راجيًا مقابلة الإمبراطور الذي أمر بتأمين مقر ملائم لإقامته من جهة، وكلف والي كانتون أن يستقصي الأمر من جهة أخري.

وحينما أيقن الإمبراطور صحة ما قاله ابن وهب، رتب له مقابلة خاصة مع الملك الصيني. وعندما التقي الإمبراطور الصني بالرحالة القرشي ابن وهب أجري معه حوارًا دينيًا وسياسيًا أشار إليه المسعودي في كتابه(مروج الذهب)، ناهيك عن كتاب(أخبار الصين والهند). ونسرد هنا مقتطفات ومقطوعات من الحوار علي النحو التالي:

الإمبراطور: لِمَ عدلت عن مَلِكك وهو أقرب إليك منا دارًا ونسبًا؟

القرشي: بسبب ما حدث علي البصرة ووقوعي إلي سيراف ونظري إلي مركب ينفذ إلي الصين، وما بلغني من جلال ملك الصين وكثرة الخير به فأحببت الوقوع إلي تلك الناحية ومشاهدتها وأنا راجع عنها إلي بلادي ومُلك ابن عمي ومخبره بما شاهدت من جلال هذا الملك وسعة هذه البلاد وسأقول بكل حسن وأثني بكل جميل.

الإمبراطور: يسأل القرشي عن أحوال العرب وكيف أزالوا ملك العجم؟

القرشي: بالله جل ذكره ومما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس وللقمر من دون الله؛ لقد غلبت العرب علي أجل المالك وأوسعها ريفًا وأكثرها أموالًا وأعقلها رجالًا وأبعدها صوتًا.

الإمبراطور: وماذا عن منزلة سائر الملوك عند العرب؟

القرشي: إنا نعُد الملوك خمسة، فأوسعهم ملكًا الذي يملك العراق لأنه في وسط الدنيا... ومن بعده ملك السباع، وهو ملك الترك الذي يلينا ومن بعده ملك الفيلة، وهو ملك الهند، ونجده عندنا ملك الحكمة أيضًا، ومن بعده ملك الروم لأنه ليس في الأرض أتم خلقًا من رجاله.

الإمبراطور: أتعرف صاحبك ان رأيته؟ يعني رسول الله ﷺ.

القرشي: وكيف لي برؤيته وهو عند الله عز وجل؟

الإمبراطور: لم أرد هذا، وإنما أردت صورته. ثم يفتح درجًا يحتوي علي بعض صور الأنبياء مثل نوح 'عليه السلام' في السفينة ينجو من الغرق بأمر الله، وصورة عيسي بن مريم 'عليه السلام' علي حماره والحواريون معه.

القرشي: ثم رأيت صورة نبينا محمد ﷺ علي جمل وأصحابه محدقون به في أرجلهم نعال عربية من جلود الإبل، وفي أوساطهم الحبال، قد علقوا فيها المساويك...(ويزعم القرشي وهو المعروف بابن هبار أنه: "رأي فوق كل صورة كتابة طويلة قد دون فيها ذكر أسمائهم، ومواضع بلدانهم، ومقادير أعمارهم، وأسباب نبواتهم وسيرهم...").

وقدم ابن وهب القرشي وصفًا دقيقًا لعاصمة الصين آنذاك(تشانغآن) وقال: "مدينة عظيمة كثيرة السكان، ويتوسطها شارع واسع يقسمها إلي شطرين، شطر شرقي يشمل المدينة المحرمة وقصور كبار الموظفين والعسكريين وثكنات الحرس الإمبراطوري؛ وشطر غربي تسكنه الرعية والتجار. وقد بدت أحوال مدينة تشانغآن في حديثه متفقة مع ما ذكر في(سجل تشانغآن) بقلم الأديب سونغ مين تشيو في عهد سونغ، ومع ما جاء أيضًا في كتاب(أخبار وإنطباعات عن تشانغآن) بقلم الأديب لي هاو وين في عهد أسرة يوان الحاكمة.

المستشرق الفرنسي **جوزيف توسان رينو Reinaud** (1795- 1867م) الذي أخذ العربية علي يد المستشرق العظيم دي ساسي- يرجح أن أبا زيد حسن السيرافي لقي المؤرخ المسعودي وتبادلا ما كانا يعرفانه عن الهند والصين والبحار الشرقية.

قال المسعودي: وأخبرني أبو زيد الحسن بن يزيد السيرافي بالبصرة، وكان قد قطنها وانتقل عن سيراف، وذلك في سنة ثلاث وثلاثمائة، وأبو زيد هذا هو ابن عمر بن زيد بن محمد بن مزد بن ساسياد السيرافي، وكان الحسن بن يزيد من أهل التحصيل والتميز- انه سأل ابن هبَّار هذا القرشي عن مدينة حمدان(عاصمة الصين في ذلك الحين) التي بها الملك وصفتها، فذكر سعتها وكثرة أهلها، وأنها مقسومة علي قسمين يفصل بينهما شارع

عظيم طويل عريض، فالملك ووزيره وقاضي القضاة وجنوده وخصيانه، وجميع أسبابه في الشق الأيمن منه مما يلي المشرق... وفي الشق الأيسر مما يلي المغرب الرعية والتجار والميرة والأسواق..."[4].

وأعرب الإمبراطور الصيني عن غبطته بما قال ابن وهب، وأمر بمنحه هدايا قيمة وبإيصاله بخيول البريد الإمبراطوري إلي كانتون، كما أمر والي كانتون بإحاطته بالرعاية التامة والحفاوة البالغة إلي أن يغادر البلاد. إن زيارة ابن وهب للصين تعد مثالًا طيبًا لقوة العلاقات الصينية- العربية، فقدوم شخص عادي مثل ابن وهب إلي الصين متحملًا مشقات السفر عبر البحار والمحيطات تعد دليلًا قويًا علي المودة الكبيرة التي كان العرب يكنونها للشعب الصيني.

ويري الأستاذ فؤاد قنديل في كتابه "أدب الرحلة في التراث العربي" أن رحلة ابن وهب حقيقية، وأنه يثق في ذلك ثقة حدس لا ثقة تعتمد علي دليل مادي أو عقلي بل أثق أنها واحدة من مئات الرحلات المشابهة التي حدثت في ظروف مختلفة ودوافع متباينة ولم تجد من يدونها وينقذها من الضياع.

(4) الهيئة العامة لقصور الثقافة، مكتبة الشباب 34، 1995، ص118.

المبحث الثاني عشر
«معركة تلاس»
الصدام العسكري الوحيد
بين العرب والصين

معركة "تلاس" من أهم المعارك العسكرية في التاريخ، إنها المعركة التي جمعت بين جيش الإسلام وجيش الصين، وتعد المعركة الوحيدة المسجلة تاريخيًا بين الجيوش الإسلامية العباسية، وجيوش الإمبراطورية الصينية.

جاء في(كتاب تانغ الجديد - الجزء الخامس) تحت عنوان "سيرة الإمبراطور شوان زونغ(712- 756م) Xuan Zong أنه: في يوليو سنة 751م تقاتل قائد الجيش الصيني قاو شيان جي (Gao Xian Ji) المتوفي في سنة 755م، وجيش العرب في "تلاس" وهُزم جيش قاو"[1].

وكانت معركة تلاس بمثابة الصراع بين القوتين الإسلامية والإمبراطورية في بسط النفوذ علي منطقة آسيا الوسطي الإستراتيجية. "ففي غضون مائة سنة ونيف كانت الدولة الإسلامية قد صارت من حقائق عالم القرن الثامن الميلادي الساطعة. وكانت قد وصلت إلي حدودها التي بقيت ثابتة علي مدي القرون الثلاثة التاليةعلي أقل تقدير. ولم يكن هناك في عالم القرن الثاني الهجري(الثامن الميلادي) قوة سياسية تضاهي الدولة الإسلامية سوي إمبراطورية أسرة تانغ في الصين"[2].

كانت الإمبراطورية الصينية تحت قيادة أسرة تانغ Tang(618- 907) تتمتع بنفوذ قوي جدًا في منطقة آسيا الوسطي وتمتلك العديد من المستعمرات فيها. ولجأت الصين إلي سياسة القوي الناعمة لبسط سيطرتها وسياستها علي تلك المناطق، مثل عقد اتفاقيات تجارية طويلة الأمد، مع حكامها التابعين لها، ونشر المعتقدات والثقافة والتقاليد الصينية، ولم تلجأ إلي القوة العسكرية.

(1) حسب ما ذكره ابن الأثير في كتاب "الكامل في التاريخ" كان القائد العربي هو أبو مسلم الخراساني المتوفي في عام 755م.

(2) د. قاسم عبده قاسم(إعادة قراءة التاريخ)- كتاب العربي 78، 2009، ص187.

وتجدر الإشارة إلي أن اهتمام الصين بمنطقة آسيا الوسطي يعود إلي سنة 97 قبل الميلاد، عندما قامت الأسرة الإمبراطورية الحاكمة هان Han(206 ق.م.- 220م) بفرض سيطرتها علي الصين في ذلك الحين، وجهزت جيشًا ضخمًا قوامه سبعين ألفًا من المحاربين بقيادة القائد(هاند شاو) إلي مدينة مروة، التي تقع حاليًا في دولة تركمانستان للقضاء علي القبائل التي كانت تهاجم القوافل الصينية التجارية. وكانت الصين تربطها علاقات تجارية قوية مع الإمبراطورية الفارسية، وبينهم أيضًا تحالف عسكري بهدف القضاء علي قوة القبائل التركية المتنامية في المنطقة.

ويبيّن ذلك أن الصين- علي مر الحقب التاريخية- كانت تتمتع بنفوذ كبير في منطقة آسيا الوسطي والتي تضم اليوم جمهوريات: أوزباكستان، تركمانستان، طاجيكستان، قرغيستان، كازاخستان، أذربيجان، حيث كانت تلك المناطق تمثل مجالًا حيويًا للصين منذ أقدم العصور، كما كانت لها أهميتها الجغرافية، حيث أنها تقع علي طريق الحرير، وقد سكنت تلك المناطق قبائل تركية كانت شبه مستقلة، لكنها كان تتدين بالولاء للإمبراطور الصيني وتدفع الجزية.

ومنذ القرن السابع الميلادي ظهرت تطورات جديدة علي الساحة العالمية، فقد ظهر الإسلام، وصاحب ذلك بداية الفتوحات الإسلامية التي لم تهتم بها الصين في أول الأمر لعدة أسباب، منها أن الفتوحات الإسلامية تنأي كثيرًا عن الصين، ورغبة حكام الصين في التخلص من ملوك فارس(الساسانيين) المنافس الأكبر لهم في آسيا الوسطي، بل حكام الصين غضوا الطرف عن استنجاد ملك فارس بهم.

وفي ذلك الوقت، كانت الخلافة الأموية تتوسع بسرعة هائلة، ونجحت في ضم مساحات شاسعة من الأراضي تحت سيطرتها من أسبانيا والبرتغال في الغرب، مرورًا بالشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وحتي مدن مروة وسمرقند وطشقند في الشرق.

وكانت البداية الحقيقية للصراع بين المسلمين والصينيين بعد ما أكمل المسلمون فتح إيران وما تلا ذلك من تطلع المسلمين إلي فتح آسيا الوسطي، لتأمين الفتوحات الإسلامية التي حققها المسلمون، ففتحت جيوش الدولة الأموية كلًا من كابول وهرات وغزنة وكلها تقع في أفغانستان الآن. وكان ولاة المسلمين علي إقليم خراسان أثر بالغ الأهمية في التشجيع علي الفتوحات، فقد كانت لمجهودات **المهلب بن أبي صفرة** (والي خراسان) أكبر الأثر في فتح ما يعرف الآن بأفغانستان.

واضطلع الحجاج بن يوسف الثقفي(40 - 95هـ/ 660 - 714م) بدورٍ هام في التشجيع علي الفتوحات الإسلامية لبلاد ما وراء النهر، عندما حشد الجيوش، وقال قولته المشهورة: "**أيكما سبق إلي الصين فهو عامل عليها.**" ووجد الحجاج في قتيبة بن مسلم الباهلي غايته، فقد كان قائدًا بارعًا، ولاه الحجاج خراسان سنة(85هـ/ 704م) وعهد إليه بمواصلة الفتح وحركة الجهاد، فأبلي بلاء حسنًا، ونجح في فتح العديد من النواحي والممالك والمدن الحصنية مثل: بلخ، بيكند، بخاري، شومان، كش، الطالقان، خوارزم، كاشان، فرغانة، كاشغر الواقعة علي حدود الصين المتاخمة لإقليم ما وراء النهر. وانتشر الإسلام في هذه المناطق وأصبح كثير من مدنها مراكز مهمة للحضارة الإسلامية مثل بخاري وسمرقند.

وعلي الرغم مما هو معروف من أن المسلمين لم يحاولوا غزو الصين ابدا، فإن الظروف السياسية والعسكرية المضطربة في أقاليم وسط آسيا آنذاك جعلت الإحتكاك بين الصين والمسلمين أمرًا محتومًا. ومن المؤكد، من ناحية أخري، إن المسلمين كانوا يتطلعون إلي فتح الصين. وتحكي المصادر التاريخية أن "الحجاج بن يوسف الثقفي" وعد أن يعطي ولاية الصين لمن يصل إليها أولًا من ولاة المشرق[3].

(3) **إعادة قراءة التاريخ، المصدر السابق، ص190.**

وشهد العام 715 ميلادية أول اشتباك بين المسلمين والخلافة الأموية. ففي القرن الثامن الميلادي كانت هناك قبائل تركية مختلفة تحارب من أجل التجارة والسيطرة علي طريق الحرير، ففي وادي فرغانة(في أوزباكستان حاليًا) قامت تلك القبائل بإجلاء الملك أخشيد صاحب العلاقة الوطيدة بأسرة تانغ، ونصبت الملك ألوتار، فهروعت أسرة تانغ وأرسلت جيشًا جرارًا قوامه عشرة آلاف جندي أطاحوا بالملك ألوتار.

وبالرغم من ذلك، فقد عجزت الصين عن وقف موجات الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطي عسكريًا، واكتفت بدعم زعماء القبائل، وتحريضهم علي القتال ضد المسلمين دون أن تحقق نجاحًا يذكر. وفي ذلك الحين لم يكن بمقدور الصين مواجهة العرب عسكريًا، نظر للمشكلات والثورات التي عاشتها الصين في تلك الفترة، ناهيك عن سمعة الجيش المسلم الذي لا يقهر، فقد هزم الفرس وأسقط دولتهم، كما قلَّم أظافر الدولة الرمانية، واستولي علي أكثر أملاكها، حتي بلاد الغال البعيدة(فرنسا) لم تستثنها غزوات المسلمين.

بعد الهزيمة الساحقة للإمبراطورية الساسانية في عام 651 ميلادية، أصبح الطريق ممهدًا أمام الأمويين للتقدم ناحية مدن بخاري وفرغانة وكاشغر التي تقع مباشرة علي حدود الإمبراطورية الصينية. ووقعت بالفعل العديد من المناوشات العسكرية المحدودة جدًا بين الإمبراطورية الصينية وحلفائها من جهة، ومن جهة أخري، الخلافة الأموية وخلفائها، ولكن دون نتائج تذكر.

وعلي الرغم من استيلاء المسلمين علي معظم مناطق آسيا الوسطي، إلا أن الصين احتفظت ببعض المناطق المهمة الباقية والتي تتمثل في قرغيزيا. لكن الصين لم تأل جهدًا في استعادة نفوذها المفقود، فاشتغلت الأزمة التي تعيشها الدولة الأموية وانشغالها بمقاومة الثورات والمعارضين، وقامت الصين بإرسال حملة عسكرية بقيادة القائد(قاو شيان جي) الذي استطاع استرجاع بعض المدن المهمة من المسلمين مثل: كش، الطالقان،

توكمال(في جمهورية أوزباكستان الآن) ومما زاد الطين بلة، ان الصين قامت بتهديد مدينة كابول إحدي كبريات مدن المسلمين في آسيا الوسطي، وكان ذلك في سنة 130هـ/ 748م.

في عام 750 ميلادية سقطت الخلافة الأموية، وقامت مكانها الحلافة العباسية، التي كانت مصممة علي السيطرة علي مناطق آسيا الوسطي، والصدام المباشر مع الإمبراطورية الصينية.

أدي وصول العباسيين إلي سدة الخلافة إلي استقرار الدولة الإسلامية، وبالتالي التفكير في تأمين حدودها، فأرسل الخليفة أبو جعفر المنصور إلي أبي مسلم- واليه علي خراسان- بالتحضير لحملة لإستعادة هيبة المسلمين في تركستان الشرقية(أي آسيا الوسطي) فقام أبو مسلم بتجهيز جيش زحف به إلي مدينة "مرو" وهناك وصلت قوات دعم من إقليم طخارستان(يقع هذا الإقليم في أفغانستان)، وسار أبو مسلم بهذا الجيش إلي سمرقند، وانضم بقواته مع قوات **زياد بن صالح**- الوالي السابق للكوفة، وتولي زياد قيادة الجيش.

1. **السبب المباشر لاندلاع معركة "تلاس" سنة 751م:**

ويعتقد أن السبب المباشر لمعركة تلاس هو أنه في عام 751 ميلادية، كانت هناك مشاكل علي الحدود بين ملك فرغانة التابع للإمبراطورية الصينية وملك طشقند التابع للخلافة العباسية، حيث قام ملك فرغانة بالإستعانة بالصينيين الذين أرسوا جيشًا ضخمًا بقيادة القائد قاو شيان جي والذي نجح في حصار طشقند، وعاهد الحاكم بأنه سيسمح له بالخروج بأمان، ولكنه أعدمه.

وفي العام 751م، وبالتحديد في شهر يوليو، اشتبكت الجيوش الإسلامية مع الجيوش الصينية، وحاصر فرسان المسلمين الجيش الصيني بصورة كاملة، وأطبقوا الخناق

عليه، مما أدي إلي سقوط آلاف القتلي من الجانب الصيني ولاذ بالفرار القائد الصيني قاو شيان جي بعد أن خسر المعركة، ووقع الآلاف من قواته أسري في قبضة المسلمين والذين أرسلهم القائد العربي زياد بن صالح إلي بغداد وتم بيعهم في سوق الرقيق.

ومدينة تلاس التي شهدت تلك المعركة تقع علي نهر تلاس في جمهورية قرغيزستان، وهي مدينة تقع في شمال غربي البلاد، وأسسها السلافيون الشرقيون في عام 1877 ومساحتها 13 كيلو مترًا مربعًا.

ومن المعلوم أن العرب الذين فتحوا أواسط آسيا بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي لم يستطيعوا المحافظة علي النظام فيما بعد أن قتل قائدهم، بسبب الإختلاف الذي ظهر بين رؤساء العرب. فاشتد هذا الإختلاف في آخر عهد بني أمية. فالصينيون وهم أقرب إلي ما وراء النهر من الناحية الجغرافية، قد سعوا إلي تقوية سيادتهم في بعض مدنها، باغتنام حالة الضعف في الأتراك والخلاف الداخلي بين قواد العرب. وقد قيل أن رؤساء الأتراك الذين خضعوا لقوة العرب في وقت قتيبة، قد بعثوا رجالهم إلي الصين انقاذا لامبراطورها في رد سلطتهم المفقودة إليهم راضين بحمايتها عليهم. فالذين قد بعثوا مع الإمبراطور الصيني في هذه المسألة السياسية، تلقوا من قبله، ألقاب الشرف وكانوا يلاقون حتفهم منه في بعض الأحيان أن خرجوا أو هموا بالخروج عن طاعته. ولقد روي الأستاذ برتولد الروسي في كتابه "تركستان إلي غزو المغول" أن الصينيين قد سيطروا علي مدينة سوياب وكان ذلك بسبب الخلاف الداخلي بين العرب أنفسهم من ناحية، ومن ناحية أخري، بسبب عدم كفاية الأتراك في تكوين قوة جديدة بعد خضوعهم إلي حكم العرب، فقتلوا حاكم شاش في سنة 749م، لأنه لم يوف عهده بكونه تابعًا للصين[4].

(4) بدر الدين حي الصيني(العلاقات بين العرب والصين)- مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولي، عام 1370هـ/ 1950م، ص34.

ويقول ابن الأثير[5]: "أن آل أخشيد بفرغانة، استنجدوا بالصينيين علي حاكم شاش، عندما ظهر الخلاف بين المدينتين. وكان طمع الصينيين في وضع يدهم علي شاش، هو الذي دفعهم إلي الإصطدام مع قوات العرب فعادوا بخسارة فادحة وذلك لأن ابن حاكم شاش القتيل، التجأ إلي أخذ المساعدة من العرب، بدلًا من الخضوع لحكم الصين. فأجابه زياد بن صالح الذي بعثه أبو مسلم الخراساني إلي ما وراء النهر لإطفاء نار الثورة التي قد أوقدها شريك بن المهدي من أيام قريبة فجاء بجيش جرار فاصطدم بقوات الصين بموضع(تلاس) فإذن كانت معركة فاصلة للعرب علي الصينيين في سنة 751م".

وقد جاء في المصادر التاريخية الصينية أنه حدث بين أسرة تانغ والتازيان السود(الدولة العباسية) اشتباك حربي عظيم عرف بحملة طراز(تلاس) في آسيا الوسطي. وإن سلطان دولة "شي" (طشقند) لم يقدم في العام 750 الهدية التي تقدمها عادةً الدول التابعة للدولة السيادية. وقدم قاو شيان جي المفتش العسكري لأربعة مراكز في آنشي مذكرة إلي الإمبراطور، طالب فيها بشن حملة تأديبية لهذه الدولة. فأعلن سلطانها (Najuchebishi) الإستسلام، وتظاهر قاو بأنه راغب في أن يتصالح معه. ومن ثم هاجمها علي حين غرة منها، فأسر السلطان وذبح من فيها من شيوخ وأطفال، وسلب ما لديهم من المجوهرات والذهب والجياد. فبكي أهل طشقند حزنًا، وهرب منها ولي عهد السلطان، يتظلم إلي البلدان في آسيا الوسطي فثارت تلك الأقطار والإمارات، واستعانت خفية ببعض القوات العسكرية من داشي(الدولة العباسية) للهجوم علي المراكز الأربعة. ولما بلغ الخبر إلي القائد الصيني قاو أرسل قوات تضم أبناء القوميات المختلفة في بلاده، بلغ عددهم ثلاثين ألفًا للإنقضاض علي الجيش العربي الإسلامي، وتوغلت القوات الصينية إلي أراضي داشي سبعمائة لي(يعادل نصف كيلو متر) حتي وصلت إلي مدينة

(5) ابن الأثير، الجزء السابع، ص344.

طراز(تلاس) حيث دامت المعارك بين الطرفين سجالًا مدة خمسة أيام، وفرضت قوات داشي حصارًا علي قوات تانغ وهزمتها هزيمة نكراء، وقُتل السواد الأعظم منهم، ولم يتبق منهم سوي بضعة آلاف[6].

وكانت القوات العربية بقيادة "زياد بن صالح"، واعترفت الصين في "المقدمة العامة للدفاع الحدودي" أن قوات قاو شيان جي البالغ قوامها سبعين ألفًا قد قضي عليها برمتها. وكان عدد كبير من جنود الصين أُسروا في المعركة وتتضارب الأخبار في احصائه قيل أنه بلغ عشرين ألفًا، والقول الآخر خمسون ألفًا. وذكر ابن الأثير هو مائة ألف.

2. الأهمية التاريخية لمعركة تلاس:

أولًا: ترجع أهمية المعركة في أنها كانت أول وآخر صدام عسكري حدث بين المسلمين والصينيين، كما أنها وضعت حدًا لنفوذ الصين في آسيا الوسطي بعد أن سقطت قرغيزيا في أيدي المسلمين، حيث تم صبغ تلك المنطقة آسيا الوسطي إسلامية، بعد أن أسلم أكثر قبائلها، وغدت مناطق إشعاع إسلامي وحضاري، وأنجبت علماء مسلمين عظام كالإمام البخاري والترمذي وأبي حنيفة وغيرهم.

ثانيًا: أضعفت معركة تلاس الإمبراطورية الصينية بشكل كبير جدًا، مما أغري خصومها بشن هجمات عليها، وانتزاع أراض من تحت سيطرتها، وكذلك اندلعت العديد من الإضطرابات والحروب الأهلية في داخل تلك المناطق.

ثالثًا: وتكمن أهمية معركة تلاس في أنها كانت علامة النهاية لحركة الفتوح الإسلامية الكبري في الشرق، فلم يحدث بعدها أبدًا أن توغلت جيوش المسلمين إلي شرق فرغانة أو

---

(6) راجع دو يو(Tong dian) – الجزء(216)، تحقيق وانغ ون جين، طبعة دار الصين، بكين، عام 1988. وانظر أيضًا دو هوان(مشاهدات في ديار الغربة)- مادة(داشي).

شمال شرق بلاد الشاش. كما لم يحدث بعدها أبدًا أن دخلت الجيوش الإسلامية علي طريق الحرير الشهير عبر صحراء جوبي إلي سينكيابج داخل الأراضي الصينية، ومن ناحية أخري، كانت تلك المرة الأخيرة التي وصلت فيها الجيوش الصينية إلي هذه المسافة البعيدة شرقًا. لقد كانت معركة تلاس في الشرق شبيهة بمعركة تور- بواتييه (بلاط الشهداء) التي جرت علي أرض فرنسا في الغرب سنة 732م، والتي هزم فيها "شارل مارتل" جيوش المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي. وعلي الرغم من أن معركة تلاس كانت انتصارًا للمسلمين، علي حين كانت معركة تور- بواتييه هزيمة لهم، فإنهما تشابهتا في أمرين أساسيين: أولهما، أن المصادر العربية لم تتحدث عن كل منهما إلا قليلًا، وثانيهما، أن كلًا من المعركتين كانت علامة علي نهاية الدور النشيط في حركة الفتوح الإسلامية شرقًا وغربًا[7].

رابعًا: يظهر أن الصدام العسكري الصيني- العربي لم يؤثر علي العلاقات بينهما، ولم يحاول الطرف الصيني الإنتقام والأخذ بثأره، وكذلك لم يحاول الطرف العربي استغلال النصر ليتوغل إلي داخل حدود الصين. وربما كانت القلاقل والزعازع السياسية التي سادت كل منهما شغلتهما عن ذلك، ولاسيما نزلع الفتنة الداخلية المعروفة باسم "تمرد آن لوشان" وهو الجنرال الصيني الذي استنزف قوة أسرة تانغ في عام 755م. وطلب الإمبراطور الصيني آنذاك صو زونغ Su Zong(756- 763) المساعدة والنجدة من الخليفة العباسي أبو جعفر العباسي الذي أرسل إليه قوة من الجيوش العربية التي ساعدته علي استعادة عرشه وملكه، ولم ترجع هذه القوة العربية إلي بلادها، بل استقر بها المقام هنا وتزوجت من السكان المحليين ومكثت في الصين.

(7) د. حسن إبراهيم حسن(تاريخ الإسلام)- الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية، سنة 1953، ص330.

وقد ذكرت المصادر التاريخية الصينية أن رسولًا اسمه سليمان جاء من قبل الخليفة هشام بن عبدالملك إلي الأمبراطور الصيني شوان زونغ Xuan Zong(712- 756)، وكان ذلك في العام 726هـ/ 108هـ، وزادت العلاقة السياسية بين العرب والصين في نهاية حكم هذا الإمبراطور، حتي نهض ثائرًا أقصاه عن العرش فتنازل عن الحكم لابنه الإمبراطور صو زونغ الذي طلب من الخليفة العباسي المنصور أن يظهره علي خصمه المغتصب، فلبَّي المنصور طلبه، وأرسل إليه فرقة من الجنود العرب، استطاع بوساطتها أن يسترد سلطانه ويستولي علي عاصمتيه، والمعروف أن أولئك الجند لم يرجعوا إلي بلادهم بعد انتهاء مهمتهم، بل طاب لهم العيش في الصين، فاستقروا فيها، وتزوجوا من بناتها[8].

وتشهد المصادر الصينية بوجود جموع من المسلمين في الصين، في عهد أسرة تانغ، وكان معظمهم من التجار الذين نزلوا الثغور، ولا غرو، فقد كانت التجارة بين الشرق والغرب في يد المسلمين إلي نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، التاسع الهجري، وكان التجار المسلمون يبحرون من الخليج الفارسي(كانوا يسمونه، في القرن التاسع الميلادي، الثالث الهجري، الخليج الصيني)[9] ويعبرون المحيط الهندي مارين بسرنديب وجزائر البحار الجنوبية إلي أن يصلوا موانئ الصين التجارية، وقد قلَّ مجئ الصينيين أنفسهم إلي الخليج الفارسي منذ بداية القرن التاسع الميلادي، وزاد سفر العرب إلي البحار الجنوبية[10].

خامسًا: القضاء تمامًا علي النفوذ الصيني في منطقة آسيا الوسطي، وأحكام الخلافة العباسية سيطرتها علي المنطقة تلك بدون منافس. وانحسرت العقائد البوذية

(8) M. Broomhahh Islam in China (London 1910) p. 70.

(9) Ph. Walter Schulz: Die Persisch- Islamische Miniaturmalerei, الجزء الأول، ص48

(10) W. Heyd: Histoire du commerce du Lerant Leipzig.(1923) p. 29.

والهندوسية والوثنية التي كانت سائدة في منطقة آسيا الوسطي، وانتشر الإسلام بدلًا منها.

سادسًا: عندما وضعت تلك المعركة أوزارها، انتشر الإسلام بصورة مطردة في بلاد آسيا الوسطي، واختفي النفوذ الصيني بما يحمله من أفكار ضد الإسلام نهائيًا، كما أدت إلي تثبيت أركان الدول الإسلامية خارج أراضي آسيا الوسطي، لما عرفه الناس من الجيش الإسلامي من أنه "قوة لا تقهر"، مما جعل القبائل تخشي من التعرض للمسلمين علي أرضها.

سابعًا: ارتبطت معركة تلاس بالتراث العربي لأسباب مختلفة تمامًا، فقد حملت قصص ذلك التراث روايات عن أن المسلمين أسروا في هذه المعركة عددًا من الصناع الصينيين الذين جلبوا معهم تكنولوجيا صناعة الورق إلي العالم الإسلامي. ومن المؤكد أن الورق كان معروفًا في الصين مثل هذا التاريخ، بيد أنه لم يظهر في العالم العربي إلا في الربع الأخير من القرن الهجري الثاني(الثامن الميلادي). وسوف نتناول ذلك بالتفصيل في المبحث القادم.

ثامنًا: ومن أهم النتائج والمكاسب من معركة تلاس أنها قادت إلي ظهور كتابة صينية-لأول مرة- تتحدث بالتفصيل عن أحوال البلاد العربية والدين الإسلامي وحياة المسلمين، وذلك بفضل الأسير الصيني "دو هوان" الذي كان من بين الأسري الصينيين الذين تم إرسالهم إلي العراق، وعندما رجع أدراجه إلي الصين ألف أول كتاب صيني يتحدث عن الإسلام والمسلمين، وذلك يكون موضوع حديثنا في المبحث القادم أيضًا.

هذا وأما علاقة العرب بالصين من الناحية السياسية، فلا نعرف كثيرًا عنها بعد واقعة(تلاس)، لأن تاريخ العرب وكذلك الصين صمت بعد ذلك اليوم المشهور. إلا أننا نجد في "تاريخ ممالك جين" لمؤلفه الأستاذ كاركورن، ما يأتي: "مما هو جدير بالذكر في

آخر عهد الإمبراطور(صو جو مينغ) الذي حكم الصين سبع سنوات(756- 762م)، أن السفير قد ورد من خليفة بغداد، يحمل التحف والهدايا. فودعه بالتعظيم الوافر والإكرام الفائق"[11].

(11) العلامة كاركورن(تاريخ ممالك جين)، ص175، طبعة كلكتا.

المبحث الثالث عشر
الأديب «دو هوان»
أول من ذكر الإسلام في الصين

أقدم كتاب صيني ذكر الإسلام في الصين هو كتاب "مشاهدات في ديار الغربة" {经行记} من تأليف الأديب والمثقف الصيني دو هوان Du Huan {杜环} المولود في مدينة شيآن في شمال غرب الصين، وكانت تعرف قديمًا باسم تشانغآن (Chang An). ولا نعرف شيئًا عن تاريخ ميلاده أو مماته.

ولا مرية أن من الثمار اليانعة والنتائج الإيجابية التي ترتبت علي معركة تلاس التي وقعت في شهر ذي الحجة من عام 133هـ الموافق لشهر يوليو من سنة 751م- كان تأليف أول كتاب صيني يتحدث عن الإسلام والمسلمين حتي لم نجد له نظيرًا أو تضاهيه مؤلفات أخري ظهرت فيما بعد أسرة تانغ(618- 907م) التي عاش مؤلفنا في كنفها، وفي الأسرات الإمبراطورية الحاكمة: سونغ(960- 1279م)، ويوان المنغولية(1206- 1368) وصارت مادة الكتاب مصدرًا هامًا لدراسات تاريخ الإسلام في الصين.

وتذكر ترجمته الشخصية أن دو هوان كان بين الأسري الصينيين الذين أسرهم العرب في أعقاب معركة تلاس عام 751م، والذين تم إرسالهم إلي العراق. ومكث دو هوان في البلاد العربية اثني عشر عامًا تجول خلالها أقاليم آسيا الوسطي والعراق والجزيرة العربية. وعاد ادراجه إلي الصين في سنة 763م عن طريق البحر من الخليج العربي إلي مدينة كانتون في جنوب الصين، وكتب بعد عودته "مشاهدات من ديار الغربة". ويعد هذا الكتاب- في المقام الأول- جغرافيا ذكر مؤلفه فيه أسماء البلدان وأوصافها ومواقعها والجبال والأنهار حولها وحياة سكانها وعاداتهم وتقاليدهم وديانتهم.

فقد انخرط دو هوان في تدوين وتسجيل مشاهداته ومذكراته خلال فترة أسَرّه في بلاد العرب، وأصبح أول صيني تطأ قدماه القارة الأفريقية، كما يعد أول سائح في أرض العرب من الصينيين في تاريخ الصين القديم، وكتابه "مشاهدات في ديار الغربة" يعد قيمة كبيرة

ووثيقة هامة لدراسة التاريخ القديم في غرب آسيا وشمال أفريقيا، وتاريخ العلاقات بين الصين من جهة، وبين غرب آسيا وأفريقية من جهة أخري.

ويمكن اعتبار هذا الكتاب تحفة نادرة في تاريخ العلاقات الصينية- العربية لكونه أول كتاب عرَّف أبناء الشعب الصيني بالبلدان العربية والدين الإسلامي تعريفًا واضحًا ودقيقًا.

وذكر أن دو هوان كان عمه دو يو Du You(735- 812م) الذي كان يعمل كاتبًا في بلاط إمبراطور الصين، وهو أيضًا مؤلف كتاب "Tong Dian" (كتاب المراسيم في التاريخ) نقل كثيرًا في كتابه هذا من كتاب "مشاهدات في ديار الغربة" بعد أن ضاعت نسخته الأصلية التي شملت علي معلومات صحيحة ودقيقة حتي اليوم من الصلوات الخمس يوميًا، وصلاة الجمعة، وخطبة الإمام، وتحريم لحم الخنزير، والخمور وعقوبات المجرمين وغيرها.

ويعد كتاب "مشاهدات في تاريخ الغربة" -كما ذكرنا آنفًا- أول كتاب صيني يذكر الإسلام ويشرح تعاليم الإسلام، وأصبح مؤلفه دو هوان أول صيني يفهم الدين الإسلامي بصورة صحيحة. وعندما كان أسيرًا في بلاد العرب عاش فترة ازدهار وتقدم الدين الإسلامي وسجل بموضوعية العقيدة والتعاليم الإسلامية، والصلاة والمحرمات في الإسلام، ناهيك عن المؤكلات والمشروبات واللباس في الدين الإسلامي. ولعل من المفيد أن نقدم مقتطفات من نصوص الكتاب علي النحو التالي[1]:

ورد فيه ذكر دقيق عن الإسلام، وسماه "مذهب داشي" (مذهب العرب). وقد قال في تعريفه للعرب أو بلاد العرب، فكتب يقول:

---

(1) إقتباسات من "مشاهدات من ديار الغربة" في مادة(دولة واشي- العرب)- الجزء(193) من كتاب "Tongdiam".

"مناخها معتدل، وأرضها لا تري الثلج والجليد. والجمل فيها صغير الجسم مكتنز اللحم وحيد السنام والسريع منه يستطيع قطع ألف لي(نصف كيلو متر، والجمع الليات) في اليوم، وأن أرضها غنية بإنتاج اللوز والبلح والعنب وغيرها من الفواكه..."

"..... العاصمة اسمها الكوفة، والملك العربي اسمه مومين وهو تحريف للقب أمير المؤمنين. ويتحلي جميع الرجال والنساء بحسن الطلعة وطول القامة، كما أن ملابسهم لامعة نظيفة، وسلوكهم مهذب. وعندما تخرج المرأة إلي العلن عليها أن تغطي وجهها مهما كانت مكانتها الإجتماعية سواء كانت تنتمي إلي الطبقة الراقية أو كانت من بنات الطبقات المتواضعة. وهم يقيمون الصلاة خمس مرات يوميًا. ويأكلون اللحم ويصومون، ويعتبرون ذبح الحيوانات أمرًا صحيحًا، ويلبس الرجال حول أوساطهم أحزمة يعلقون بها خناجر من الفضة. ويحرمون شرب الخمر ويمنعون الموسيقي...

"ويحرم الخمر والموسيقي، وتقاليدهم أن يصلوا لـ (Tian) الله، ويحرموا علي أنفسهم الميتة والدم ولحم الخنزير، ومن عادتهم أن يمسحوا الشعر بزيت السمسم، وأن يحرموا لحم الخنزير والكلب... وتقاليد التازيان(العباسيون) أن يتعطلوا عن العمل يوم الجمعة"

وكل هذه الأقوال قدمت وصفًا حيويًا لصورة المرأة الإسلامية في دولة داشي(العرب) بأنها طويلة القامة زاهية الثياب هادئة السيماء رشيقة الحركة، والمرأة كلما خرجت من البيت لبست الحجاب، كما قدمت وصفًا دقيقًا للتقاليد والمحرمات الإسلامية، وتستأثر صلاة الجمعة وخطبة الجمعة بنصيبٍ وافرٍ من الوصف والملاحظات الدقيقة علي هذا النحو:

""وهناك قاعة احتفالات(يقصد المسجد الجامع) تتسع لعشرات الآلاف من الناس. وكل سبعة أيام يخرج الملك للصلاة(صلاة الجمعة)، ويرتقي منبرًا عاليًا ليلقي علي مسامع الجمع الحاشد خطبة يتناول فيها ما يتصل بالشريعة، فيقول: إن الحياة الإنسانية صعبة للغاية، وطريق الإستقامة ليس سهلًا، والزنا خطيئة، وليس هناك ذنب أكبر من

السرقة، أو النهب، أو غش الناس، حتي وإن كان في أتفه صورة، ولا ذنب أفدح من أن يضمن المرء لنفسه الأمان بأن يجلب علي غيره المخاطر، وليس بعد خداع الفقير وقهر المسكين ذنب. وكل الذين قتلوا في المعارك ضد الإسلام سوف يدخلون الجنة. فاقتلوا عدوكم وسوف تناولون السعادة التي تفوق الوصف".

وهنا إشارات "دو هوان" إلي صلاة الجمعة تتسق مع ما نعرفه من المصادر العربية عن أن الخليفة المنصور العباسي كان مشهورًا بخطبه البليغة التي كان يلقيها في صلاة الجمعة بالمساجد. ومن المثير أن نري هذا الصيني يهتم بما كان يرد في خطب الخليفة عن إدانة الغش والكذب والقهر والظلم من ناحية، والحث علي الجهاد وثواب الجنة للشهداء من ناحية أخري.

وتستطرد تلك المشاهدات في وصف المجتمع الإسلامي في العراق علي النحو التالي:

" لقد تغيرت الأرض عن بكرة أبيها، والناس يتبعون الدين الإسلامي مثلما يتبع نهر مجراه، ويجري تطبيق القانون بالحسني، أما دفن الموتي فيتم بأسلوب بسيط دونما إسراف وسواء كان الناس يعيشون داخل أسوار مدينة كبيرة أو في رحاب قرية، فإنهم لا يحتاجون إلي شئ مما تنتجه الأرض. إذ أن بلادهم محور العالم، حيث البضائع وافرة رخيصة، وحيث أقمشة القصب المطرزة الفاخرة، والآلئ والنقود تملأ الحوانيت، علي حين تمتلئ الشوارع والأزقة بالجمال والخيول والحمير والبغال. وهم يقطعون الأقصاب لبناء الأكواخ التي تشبه الأكواخ الصينية. وعندما يحتفلون بأحد الأعياد يجلب الأعيان عددًا لا يحصي من أواني الزجاج والأواني النحاسية

"ولا يختلف الأرز الأبيض والدقيق الأبيض هنا عنهما في الصين. ومن بين الفواكه عندهم الخوخ والتمور التي هي من زرع النخيل الذي يحملها منذ ألف سنة. واللفت عندهم كبير الحجم، مستدير وطعمه شهي جدًا، ولكن الخضروات الأخري لديهم تشبه الخضراوات في البلاد الأخري. وحبات العنب عندهم كبيرة في حجم بيض الدجاج. وأكثر

الزيوت قيمة بالنسبة لهم نوعان، أحدهما اسمه الياسمين، والثاني يسمي المُرّ. وقدعمل الصُناع الصينيون الأنوال الأولي لنسيج خيوط الحرير، كما كانوا أول من عمل في صياغة الذهب والفضة، وكانوا أوائل الرسامين.

"... وعندما يتشاجر الناس فيما بينهم لا يضربون بعضهم بعضًا... وتجري المحاكمة عندهم دون إقحام أقرباء الجاني في القضية"

فهذا يعني أن المحاكمة لا تشرك أهل الجاني وأقرباءه في تبعية الجريمة التي ارتكبها ابنهم أو قريبهم.

ولعل من نافل القول، إن كتاب "مشاهدات في ديار الغربة" تناول الفقه الإسلامي، وقدم معلومات تاريخية أولية لدراسة الإسلام في قارة آسيا بصفة عامة، وفي آسيا الوسطي بصفة خاصة، وفي الصين علي وجه الخصوص.

كما سجل الكتاب التضاريس الجغرافية من الأنهار والجبال، بالإضافة إلي العادات والتقاليد في كل من أوزوبكستان، والبلاد العربية، وإيران، والمملكة السنهالة(سيرلانكا).

وذكر الكتاب أيضًا المواقع الجغرافية والمناخ والإنتاج والعادات التقاليد في كل من داشي(العرب)، ودولة شان(الشام)، والإمبراطورية الرومانية (Fulin) التي كانت أجزاء من أراضيها تقع في آسيا الصغري، و(Mulin) بلاد مراكش. وإن دولة شان تقع في غرب داشي، وتمتد حدودها آلاف الليات. وبلاد مراكش تقع في الجنوب الغربي من دولة(Saluo) والمسيرة إليها ألف لي عبر الصحراء الكبري، وسكانها سود البشرة يعيشون حياة بسيطة إذ يشح فيها الأرز والقمح والعشب، فتعلف الخيل بالأسماك المجففة، ويتغذي الناس علي البلح.

وقد ذكرت الإمبراطورية الرومانية في هذا الكتاب بـ (Fulin) وورد ذلك في قوله: "إن Fulin تقع غرب دولة شان(الشام) وتبعد عنها عدة آلاف من الليات، وهي تدعي(Dagin) أيضًا، حيث أن سكانها شقرة البشرة، رجالهم يرتدون الثياب البيضاء، ونساؤهم يرتدين

الحرير والآلئ. وهم يحبون شرب الخمر ويفضلون الخبز. كما أنهم معروفون ببراعتهم في مختلف الأعمال ولاسيما الغزل والنسيج.

كما تناول الكتاب الطب العربي الذي بلغ شأنًا عاليًا آنذاك، وكان مركز الطب العربي في مصر وسوريا، وكان تدريس الطب العربي يحذي حذو الطب في الإمبراطورية الرومانية الشرقيةByzantine Empire (395- 1453).

وخلاصة القول، إن كتاب "مشاهدات في ديار الغرب" قد تناول ما يخص الإسلام من أركان الإيمان والصلاة والصيام والحج وما كان يتبع حينذاك من التقاليد والمبادئ الأخلاقية ولكن لم تتناول ذلك أية كتابات أخري قبله أو بعده بين السجلات التاريخية في أسرتي تانغ وسونغ[2]. وذلك يدل علي الأهمية البالغة التي يحملها هذا الكتاب في تاريخ العلاقات الصينية- العربية. وبعده، صدر "كتاب تانغ _ سجل داشي" بطبعتيه القديمة والجديدة، و"أحاديث بينغ تشو" بقلم تشو بوي، و"دليل ما وراء الجبال الجنوبية" بقلم تشو تشو، و"سجل البلدان" بقلم تشاو رو كوه، و"نوادر الكلام وغرائبه" بقلم بويه كه، وقد وردت في جميع هذه المؤلفات أحاديث عن أصول الإسلام، ولكن ليس بينها أي كتاب يضاهي "مشاهدات في ديار الغربة" اتساعًا ووضوحًا. وفي نهاية أسرة مينغ(1368- 1644) ومطلع عهد أسرة تشينغ(1644- 1911) نشر علماء الإسلام أنواعًا متعددة من الأعمال في الترجمة والتفسير مثل: وانغ داي يوي، وتشانغ تشونغ وغيرهما الذين عرّفوا الشعب الصيني بالإسلام تعريفًا ممنهجًا ومفصلًا، وحينذاك كان قد مضي علي صدور "مشاهدات في ديار الغربة" للأديب دو هوان نحو تسعمائة سنة[3].

---

(2) راجع كتاب "مخطوطات تاريخ الإسلام في الصين". دار الشعب للنشر، نينغشيا، ينتشوان، الصين الشعبية، عام 1982.

(3) مجلة(الصين اليوم) العدد مايو، عام 2003، (باللغة العربية).

وأهم ما يلفت النظر فيما كتبه "دو هوان" ذلك التوازن الذي يخلو من العداء، كما لا تشوبه الغرائبية التي تشوب مثل هذه الكتابات عادة. ومن ناحية أخري، فهو يشير إلي تأثير الصناع الصينيين علي بعض الصناعات في الدول العربية الإسلامية[4].

وكتاب "مشاهدات في ديار الغربة" سجل أيضًا تاريخ انتقال تقنية وفن صناعة الورق إلي الغرب، والذي يعد من الإختراعات الصينية الأربعة في العصر القديم. كان بين الأسري الصينيين الذين وقعوا في قبضة العرب بعد معركة تلاس، كان من بينهم الرسامين والفنانين، وصناع الورق، وعمال النسيج وسباكين، وهم يمثلون ثمار وإنجازات الصين في المجالات العلمية والفنية العالمية والمتقدمة في الصين. وهؤلاء الأسري نقلوا تقنية صناعة الورق وتم تأسيس أول مصنع للورق في سمرقند، ثم انتقل تدريجيًا إلي دمشق، والقاهرة، وبعض المدن في المغرب وأسبانيا. وكان الورق الصيني متناسقًا ومناسبًا وملائمًا لكتابة وحل محل الورق البردي في مصر الذي كان يستخدم علي نطاق واسع جدًا، وكذلك حل محل جلد الغنم ولحاء الشجر في الكتابة وحقق فائدة جمة لإحراز التطور والتقدم العلمي في الحضارة الغربية وفي الثقافة العالمية.

وكان من أهم نتائج معركة تلاس- علي الصعيد العلمي والثقافي والفني- أنه كان من بين آلاف الأسري الصينيين الذين أسرهم المسلمون، مجموعة من أمهر صنّاع الورق الصيني. ومن ذلك الدقة، وكانت صناعة الورق سرًا غامضًا لا يعلم عنه العالم شيئًا، واحتكرت الصين وقتها سر تصنيع الورق، بينما اعتمد سائر العالم علي استخدام الجلود وورق البردي من أجل الكتابة.

وذكرت المصادر التاريخية أنه تم نقل صناع الورق الصينيين إلي بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، وبقوا هناك لمدة عشر سنوات حيث تم تكليفهم بتعليم الصناع

---

(4) انظر: (إعادة قراءة التاريخ)، مصدرسابق، ص193.

العرب والمسلمين أسرار صناعة الورق وتقنياته المختلفة. وهذا أدي إلي انتشار صناعة الورق في جميع المناطق التي كانت خاضعة للخلافة العباسية، ومنها إلي أسبانيا والبرتغال اللتين كانتا تحت سيطرة الأمويين في ذلك الوقت، ومن ثم إلي باقي أنحاء أوروبا. ومع تقادم الزمن، انتشر العديد من المصانع في صناعة الورق في الكثير من المدن مثل سمرقند ودمشق والقاهرة وبغداد.

أن تعلم العرب صناعة الورق من أهل الصين بسمرقند من الحقائق التاريخية التي يتفق عليها علماء الشرق والغرب علي السواء، غير أن هناك بعض الخلافات في وجود مصنع للأوراق بسمرقند قبل هذه السنة. وكان من بين هؤلاء الأسري من يعرف صناعة الورق، فعلموها العرب وأهل سمرقند، فانتقلت منها إلي إيران ثم إلي مكة المكرمة. ومنها إلي صقلية ثم إلي أسبانيا وإلي أوروبا. وذكر الثعالبي في "لطائف المعارف" أن أولئك الصينيين الذين وقعوا أسري في يد زياد بن صالح وكان قائدًا لقوات العرب بما وراء النهر علموا العرب صناعة الورق بسمرقند، وكان ذلك في سنة 750م.

وقد قيل أن تساي لون اخترع الورق في أسرة هان الشرقية(25- 220) عندما سافر إلي مقاطعة جيانغتشي الواقعة في جنوب الصين، وذلك في سنة 105 ميلادية، ووضع الورق مستخدمًا لحاء الشجر وألياف المحاصيل، والخرق البالية وشباك الصيد. ومن المعتقد أن ذلك العصر- من الناحية التقليدية- شهد أنواع اختراع تقنية صناعة الورق، وليس من الضروري أن يدل ذلك علي أن صناعة الورق بدأ في تلك السنة. وتفيد الأدلة المادية والواقعية والوثائق أن الورق المصنوع من ألياف النباتات كان موجودًا قبل تساي لون. وفي السنوات الأخيرة، تم اكتشاف نُتف من الأوراق القديمة في شمال غرب الصين ويرجع تاريخها إلي قبل الميلاد بزمن طويل. ولذلك، فإن اختراع تقنية صناعة الورق يعود تاريخها إلي مئتي سنة قبل تساي لون علي الأقل أو أبكر من ذلك بكثير(5).

---

(5) انظر مجلة "الوثائق" سنة 2002، العدد الأول، ص ص 4- 11. (باللغة الصينية)

وطبعًا لا يمكن إغفال إنجازات تساي لون، فإن "فكرة تصنيع الورق" لديه قامت أساسًا علي استخدام مواد خام جديدة وتحسين عملية تصنيعه، وبذلك أصبح مصدر الورق معروفًا. وكان هناك نقص حاد في تمويل الخرق البالية والمواد الخام الثانوية الأخري المستخدمة في صناعة الورق. وقدم لحاء الشجر والألياف التي تم الحصول عليها من النباتات الحيوية مصدرًا جديدًا للمواد الخام المستخدمة في تلك الصناعة، مما جعل إنتاج الورق بكميات كبيرة وتلبية الإحتياجات المطردة عليه يومًا بعد يوم.

لقد مهر الصينيون في صناعة الورق وزاولوا الطباعة بواسطة الكتل الخشبية سنة 932. وفي سنة 980 أمر أحد أباطرة الصين بطبع كتاب شمل ما كان يعرف عن الصين في ذلك الوقت. وقد وصف ماركو بولو صناعة الورق في الصين، ويقول: "إن شجرة التوت التي تستعمل أوراقها في تغذية دودة القز يستعمل لحاؤها أيضًا في صناعة نوع خاص من الورق فيأخذون هذا اللحاء ويسحقونه في وعاء ثقيل ويخلطونه بالماء ثم يعالجونه ببعض المواد الأخري، فيصبح الخليط ورقًا أسود اللون، ثم يقطع إلي قطع مختلفة الأحجام تختلف قيمة كل منها بإختلاف حجمها، وأردف بولو أنهم يهتمون بهذه الصناعة اهتمامهم بصناعة العملة الذهبية والفضية"(6).

وعلي الرغم من أن الناس لم يصدقوا ماركو بولو وقتئذ، إلا أن الزمن بعد ذلك أثبت أن كل ما قاله ماركو بولو صحيح، فأصبح اسمه بعد سبعة قرون معروفًا في جميع أنحاء العالم كأعظم رحالة ظهر في القرون الوسطي.

وحسب الترتيب الزمني للعصور، فإن من المرجح أن القنب وأشباهه يعتبر أقدم مادة خام استخدمت في صناعة الورق ويرجع تاريخه إلي أسرة هان الغربية(206ق.م- 24م)،

(6) إبراهيم أسعد(ماركو بولو)- قصص الرحالة والمستكشفين رقم 9، دار المعارف، مصر عام 1965، ص6.

ثم استخدام لحاء شجر توت الورق في أسرة هان الشرقية(25- 220)، والخيزران منذ أسرة جين(265- 420)، والبامبو منذ أواسط أسرة تانغ(618- 906)، وسيقان الأرز والقمح منذ أسرة سونغ تقريبًا(906- 1280) ثم استمر استخدامها في الأسر الحاكمة المتتالية وكان القنب- بعد أسرة تانغ- يستخدم نادرًا في صناعة الورق، وأصبح إنتاج الخيزران لا يفي بالحاجة منذ أسرة سونغ فصاعدًا. وما زالت النباتات الأخري شائعة الإستخدام كمواد خام في صناعة الورق إلي الآن، باستثناء القنب والخيزران. والمواد الخام النباتية التي تستخدمها كل منطقة متشابهة جدًا، وتختلف باختلاف المكان في العادة. وأقدم كتاب يحتوي علي سجلات تفصيلية عن الورق هو "دليل كنوز الكتب الأربعة" لمؤلفه صو ابي جيان، وجاء فيه: "صناعة الورق في مقاطعة ستيشوان تستخدم القنب كثيرًا، وفي مقاطعتي جيانغتسو، وتشجيانغ تستخدم البامبو الطري، وفي شمال الصين لحاء شجر التوت، وفي مدينة شنشي الخيزران، بينما يستخدم سكان السواحل الطحالب، ويستخدم أهل مقاطعة تشجيانغ سيقان القمح والأرز وكانت هشة ورقيقة جدًا وكانت سيقان القمح والخيزران الأفضل والأحسن". والأحوال المذكورة أعلاه حقيقية ومؤكدة، وموثوق فيها سواء كانت في ذلك الحين أو في المراحل التالية[7].

ويرجع تاريخ اكتشاف المجتمع الصيني لفن صناعة الورق إلي عهد أسرة هان الغربية، حيث نجح بعض علماء الصين في ذلك العهد في ابتكار طريقة لصناعته من ألياف الحرير ثم من ألياف الكتان وذلك أثناء حكم الإمبراطور ليو تشه(Liu Che) أحد أباطرة هان الغربية الذي اعتلي عرش المجتمع الصيني خلال الفترة من(141- 78 ق.م) وكان هذا الورق المصنوع عبارة عن لفات طويلة في شكل بدائي حيث كانت صفحاته سميكة إلي حد ما وغير ناعمة الملمس ولا ناصعة البياض، وقد عُثر سنة 957 ميلادية علي كميات كبيرة

(7) تشيان تسوف شون (تاريخ الورق والطباعة في الصين)- دار نشر جامعة المعلمين في قوانغتشي- الصين، عام 2004، ص52. (باللغة الصينية)

من هذا الورق الباكر في أحد قبور منطقة(باتشياو) التي تقع في ضواحي مدينة شيآن(Xi-an) تم تصنيعه في القرن الثاني قبل الميلاد، ولذلك سمي هذا النوع من الورق باسم(باتشياو) واعتُبر أقدم ورق اكتشف في العالم حتي اليوم[8].

استمر علماء الصين في تطوير صناعة الورق إلي أن تحقق أكبر إنجاز عالمي في عهد أسرة هان الشرقية(25م- 220م) بعد أن نجح العالم الصيني "تساي لون" عام 105 ميلادية من تطوير خبرات العلماء السابقين في صناعة الورق وقام بابتكار طريقة أخري حديثة لصناعة الورق استخدم فيه لحاء الشجر وألياف النباتات وقطع القماش المهملة وعالجها كيميائيًا بأساليب فنية دقيقة حتي أصبحت في شكل عجينة وأنتج منها صفحات من الورق الجيد الناصع البياض والناعم الملمس والغير سميك، وفي صورة رائعة أذهلت وأبهرت كل من شاهدها في ذلك العهد. وهذا الإبتكار الجديد قد أحدث تقدمًا ملموسًا في مجال الثقافة خلال الفترة الأخيرة لأسرة هان الشرقية حيث تم تأليف كتب عديدة كتبت علي صفحات هذا الورق الجديد الذي ابتكره "تساي لون"[9].

إن العالم الصيني "تساي لون" من ضمن العشرة الأوائل في تاريخ البشرية وهم محمد ﷺ، وإسحق نيوتن، المسيح 'عليه السلام'، بوذا، كونفوشيوس، بولس الرسول، تساي لون، جوتنبرج، كولومبوس، اينشتين. وإن هؤلاء الرواد العشرة كان لهم أعظم الأثر في تاريخ البشرية ومسيرة الإنسان في ركب الحضارة... أن تساي لون الذي جاء ترتيبه السابع بين العشرة الأوائل في تاريخ البشرية هو مخترع الورق حيث قدم الإمبراطور الصيني "ليو جاو" (Liu- Zhao) ذات صباح في أحد أيام سنة 105 ميلادية نماذج من

(8) (لمحة عن الصين) – العدد 49- اختراعات الصين الأربعة العظيمة- مطبعة اللغات الأجنبية- بكين- الصين- مجلة الصين المصورة- ديسمبر 1984، ص 3 وما بعدها.

(9) (تاريخ الصين)- الجزء الأول- إعداد مجموعة من علماء التاريخ في الصين، ط الأولي عام 1986م، مطبعة اللغات الأجنبية- بكين، الصين، ص 43.

الورق الذي نجح في صناعته بأسلوب راقي ومتقن.... وبعد أن مرت قرون علي ذلك الصباح المعزق في القدم والذي سجل نقلة عظمي في مسيرة الإنسان الحضارية وفي تاريخ الكلمة المكتوبة علي أرض الصين(10).

والذي اخترع الورق هو "تساي لون" علي رواية مشهورة عند الصينيين وهو من أهل(هانغ جو)، عاش في القرن الأول للميلاد، وقد كثرت فيها أشجار التوت ويصنع من قشورها الورق. فعمت هذه الصناعة في بلاد الصين وانتفع أهلها بها، فلما حصل الإتصال السياسي بين الصين والعرب في آسيا الوسطي، تعلموها في سمرقند، ثم انتشرت سريعًا إلي البلاد الإسلامية الأخري حتي قيل ان الورق كان يباع في سوق بغداد في سنة 794م- 178هـ، فيها سوق خاصة لهذه التجارة، وتوجد في متحف باريس بعض النماذج للأوراق المصنوعة ببغداد لذلك العهد، عليها كلمات عربية، وعلي قطعة منها حلول لمسائل رياضة. ويرجع تاريخ هذه القطعة إلي سنة 170هـ من صناعة شيراز، ويحتفظ متحف لندن أيضًا ببعض نماذج من هذه الأوراق(11).

أما "اختراع الورق" فكان قد تم في الصين في إحدي فترات عهد سلالة الهان القديمة(206ق.م- 220م) واتسع نطاق استعماله في ظل سلالة تانغ(618- 907) ليشمل الوثائق الرسمية والكتب المطبوعة، فضلًا عن استعمالاته البيتية لكتابة الرسائل والملاحظات. وكان العرب قد تعلموا كيفية صناعة الورق من الصينيين، ربما في القرن التاسع الميلادي، ونقلوها إلي أوروبا حيث جري تصنيعه للمرة الأولي في أسبانيا أوائل القرن الثاني عشر. وقد كان معروفًا في إيطاليا في أوائل القرن الثالث عشر، رغم حظر استخدامه لكتابة الوثائق الرسمية عام 1221م بحجة أنه شديد الهشاشة بما يجعله

(10) د. سمير عبدالمنعم أبو العينين(التاريخ العام لأهم خصائص الحضارة الصينية القديمة)، طبعة عام 2005، لا توجد دارنشر، ص ص 262، 263.

(11) انظر مجلة كابل(سالنامه)- سنة 1913م، ص291.

غير قابل للدوام. أما مصنع الورق الأول في إيطاليا فقد تأسس في(فابريانو) بين عامي 1268و 1279، وبالتالي فإن الورق كان بالضرورة ما يزال سلعة نادرة حين كان ماركو بولو في الصين. وبما أن أوروبا كانت تشك بأمر الورق كمادة، فقد شكل العثور عليه مستخدمًا نقدًا أمرًا باعثًا بالضرورة، علي قدر استثنائي من الإندهاش[12].

والورق من اختراع تساي لون(57م- 121م) وكان موظفًا في البلاط الإمبراطوري الصيني في عهد أسرة هان الشرقية في الصين. وقد نقل إلي آسيا الوسطي من سينكيانغ(التركستان الشرقية) في أواسط القرن السابع[13]. ولعل مطلع القرن الخامس هو بدء تاريخ صناعة الورق في سينكيانغ التي كانت أول محطة في نقل الورق إلي الغرب، ووصل الورق إلي بلاد العرب في أيام بني أمية.

وبعض الأدبيات العربية مثل كتاب(رحلة إلي الويغور) الذي ألفه الكاتب العربي تميم بن بحر في النصف الأول من القرن التاسع، وكتاب(لطائف المعارف) للثعالبي، وكتاب(تاريخ الهند) للبيروني (973- 1050)- ذكرت أنه في عام 751م أسر العرب في حملة "تلاس" بعض الجنود الصينيين الماهرين في صناعة الورق، ونقلوا هذه الصناعة لديهم.

وأنشأ العرب مصنع الورق في سمرقند قبل أي مكان آخر[14] وفي عامي 793 و794 أنشأ هارون الرشيد أول مصنع ورق في بغداد، ثم تتابع إنشاء مصانع الورق واحد بعد الآخر في تهامة ودمشق وطربلس وحماة وغيرها من الأماكن. وكان الورق المصنوع في سمرقند يتمتع بشهرة عظيمة لجماله وخفة وزنه، لذلك ظل من أهم صادراتها إلي أوروبا

---

(12) فرنشيس وود(ماركو بولو هل وصل إلي الصين؟) ترجمة: فاضل جتكر، قدمس للنشر والتوزيع- سوريه- دمشق، ط. الأولي، 1991، ص 101.

(13) لوفير(الصين وإيران) ترجمة: لين جيون ين، دار الشؤون التجارية للنشر عام 1964، ص 393 (باللغة الصينية)

(14) "الفهرست" ص 32.

عدة قرون. وكان الورق الدمشقي جيد النوعية، وسمي في أوروبا " Ocena Charta damas"[15].

لقد هيأ العرب بإنشائهم مصانع الورق الظروف الملائمة لتعميم استعماله. وقد أصدر جعفر بن يحيي البرمكي وزير هارون الرشيد أمرًا لجميع الدواوين الحكومية باستعمال الورق بدل القراطيس البردية والرقوق. ومع انتهاء القرن العاشر، كان الورق قد تعمم، وحل محل القراطيس البردية والرقوق في العالم الإسلامي كله بسبب ثقل وزنها وتعذر الكتابة عليها أولًا وحفظها ثانيًا. وأقدم المخطوطات العربية المكتوبة علي الأوراق والتي لا تزال محفوظة إلي اليوم هي "غريب الحديث" الذي ألفه أبو عبيد الهروي، القاسم بن سلام في القرن التاسع، وهي محفوظة الآن في مكتبة جامعة ليدن[16].

نُقلت صناعة الورق إلي أوروبا عبر الشمال الإفريقي والقسطنطينية. وكان مصنع الورق في مصر قد أنشئ عام 900 تقريبًا، ثم أنشئ في المغرب عام 1100، وفي الأندلس عام 1150، وبعدها أنشأت مصانع الورق في مختلف الدول الأوروبية وأول مصنع ورق شهده العالم المسيحي هو ما أنشأه جان مونغرلفير الفرنسي في فيدالون عام 1157، وقد سبق لهذا الرجل أن وقع أسيرًا في يد العرب، وتعلم صناعة الورق في دمشق.

وقد انتشرت صناعة الورق من الصين إلي كوريا شرقًا في اواسط القرن الرابع الميلادي كما انتشرت إلي اليابان فيما بعد. وفي القرن الثامن انتقلت هذه الصناعة إلي بلاد العرب

T.F. Catter: (The Invntion of Printing in China and Its spread Westward), New York, 1955, P. 135. (15)

(16) ب. ك. هيتي(تاريخ العرب)- طبعة نيويورك 1974، ص 58- 59

P.K. Hitti “History of The Arab”, NewYork, 1974, P. 347.

غربًا. ومما يستحق الذكر أن ورشة صناعة الورق بمدينة جاتيقا الأسبانية التي أنشئت علي أيدي الصناع العرب في عام 1150 ميلادية هي الأولي من نوعها بأوروبا[17].

في إنجلترا عرفت صناعة الورق في القرن الرابع عشر ولا يزال الورق الذي صنع في تلك الفترة بالطريقة اليدوية طبعًا علي درجة عالية من الجودة كما لا تزال الطرق اليدوية لصناعة الورق علي حالها لم تتغير منذ تلك الفترة. وقد اخترعت أول ماكينة لصناعة الورق في أوروبا عام 1823م حيث قام بتركيبها صاحب الخبرة الفنية "فورد رينيه"- ثم أدخلت علي هذه الماكينة العديد من التطويرات والتحسينات إلا أن البناء الأساسي لتلك الماكينة ما زال قائمًا حتي يومنا هذا[18].

ولقد جاء ورق الصين إلي علم المسلمين في شكل آخر، في شكل أوراق مالية. ومن المعلوم أن الصينيين هم الأولون الذين قد أوجدوا أوراق المال. فنقلها المغول إلي إيران في سنة 1294م. فالأوراق المالية التي عملها الإيرانيون كانت علي شاكلة ما عملها قبلاي خان في الصين بلا أي فرق، عليها حروف صينية تدل علي قيمة الورقة المالية. وأغرب شئ يجب أن تلاحظه في هذا الأمر أن المطبعة الخشبية التي استعملها الصينيون من زمن قديم قد استعملت لأول مرة في(تبريز) في طبع الأوراق المالية في سنة 1294م[19].

وفي القرن الثالث عشر الميلادي كان الغربيون علي علم بالأوراق المالية التي كانت رائجة في الصين، والرحالة البندقي ماركو بولو كان عالمًا بصناعتها. ولقد شهد بعينيه في

---

(17) (لمحة عن الصين) بعدد 49- اختراعات الصين العظيمة- مطبعة اللغات الأجنبية- بكين الصين- مجلة الصين المصورة، ديسمبر عام 1984، ص 3 وما بعدها.

(18) مقالة (إنجازات تساي لون في اختراع صناعة الورق) – جريدة الجمهورية- العدد الصادر بتاريخ 1995/11/15م – الصفحة رقم 12.

(19) بدر الدين حي الصيني، مصدر سابق، ص 246.

الصين أن الخان الأعظم، كان يأمر الناس أن يأخذوا قشور التوت ويضعون منها الأوراق. ثم يقطعونها مربعة مستطيلة فيطبعونها فإذا هي أوراق مالية يشترون بها ويبيعون.

ووليم الربركي، هو الآخر، قام بوصف النقد الورقي الذي رآه في منغوليا قبل ماركو بولو بحوالي ثلاثين سنة، قائلًا: "النقد اليومي في كاتايا مصنوع من الورق، بطول الكف وعرضها، طبعت عليه خطوط كما علي ختم مانغو...."[20].

ويقول أمير الرحالة العرب ابن بطوطة: وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم، وجميع ما يحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعًا كما ذكرناه، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع(**كاغد**). كل قطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان، وتسمي الخمس والعشرون قطعة منها بالشت، وهو بمعني الدينار عندنا. وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلي دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها جُددًا ودفع تلك. ولا يعطي علي ذلك أجرة ولا سواها، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان، وقد وُكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء. وإذا مضي الإنسان إلي السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شئ، لم يأخذ منه ولا يلتفت إليه حتي يصرفه بالبالشت ويشتري به ما أراد[21].

وكان آخرون من علماء الإسلام غير أن ابن بطوطة علموا بصناعة الأوراق المالية ورواجها علي الصين مثل: **أحمد شهاب الدين** المتوفي سنة 1238 ميلادية بمدينة القاهرة. فإنه قد ترك لنا كتابًا جليلًا في "فن الجغرافية" يقع فى ثلاثين جزءًا، فذكر دراهم الكاغد كما سماه ابن بطوطة.

---

(20) **Peter Jackson, The Mission of Willian of Rubruck (London, 1995). P. 203.**

(21) **رحلة ابن بطوطة المسماة(تحفة النظار في غرائب الأمصار) شرح طلال حرب، دار الكتب العلمية- بيروت، عام 2011، ص 630- 631.**

قال "السيد تاج الدين حسن بن الخلَّال السمرقندي" في حديث له عن الصين في كتاب "نبذة عن الصين" الصادر بالقاهرة في عام 1318هـ/ 1898م- قال: إنه رأي فيها نقود من الورق قيمتها من درهم إلي أربعين ثم إلي خمسين ومائة، ورأي الصينيين إذا قدمت الأوراق يعطونها إلي الخزينة الإمبراطورية ويأخذون غيرها جديدة بعد خصم شئ من قيمتها في مقابل التبديل، وقد أيد "ابن بطوطة" هذا القول في رحلته(22).

وأقوي الشهادات التي تدل علي أن أصل الورق من الصين فانتشر إلي العالم الإسلامي، بعد واقعة تلاس، هي كلمة(كاغد) مستعملة الآن في اللغة الفارسية والعربية معًا.

---

(22) أتربي أبو العز وعبدالعزيز حمد " نبذة عن الصين"- مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة- مدينة نصر- القاهرة، 2014، ص 32.

المبحث الرابع عشر
«أبو دُلّف»
أول رحالة عربي يصل إلى الصين

أبو دلف... الأديب والشاعر والحكيم والرحالة، مؤلف كتاب "عجائب البلدان"، أطلق عليه ابن النديم لقب "الرحالة".

كان أبو دلف(؟- 390هـ/ ؟ - 1000م تقريبًا) من أعظم رحالة القرن الرابع الهجري، وكان شاعرًا وأديبًا، أمضي عمره في التجوال بين دول العالم، وترك ثروة معرفية هائلة في مجال الجغرافيا اكتسبها من مشاهدات وتجاربه الميدانية والإنصات إلي روايات الخبراء في الأقطار المختلفة. دوّن مشاهداته في كتابه "عجائب البلاد" وهو كتاب في الجغرافيا وقد جمع معلوماته خلال رحلته إلي الهند والصين وتركستان والتبت، وحمل في ثناياه أفكارًا جغرافية نادرة صحح فيها أخطاء وأفكار وقع فيها أسلافه من علماء العرب والإسلام.

يقول الأستاذ فران في(علاقات الأسفار) أن كتاب "عجائب البلدان" قد نُشر للمرة الأولي في ترجمة ألمانية ملحقًا بعجائب المخلوفات للقزويني في سنة 1845م.

ويقول السير إيليوت، ان القزويني يشير إلي أبي الدولف كثيرًا في كتابه المعروف "عجائب المخلوقات".

ينحدر أبو دلف الخزركي من قبيلة عربية عريقة، فنسبته تعود إلي الخزرج في المدينة المنورة، أما الينبعي فهو نسبه إلي مدينة ينبع علي ساحل البحر الأحمر، ويُوصف أيضًا بالينبوعي. جاء في(الروض المعطار في خبر الأقطار) للحميري تحت مادة ينبع.

"قالوا: ومنَ الجار إلي الينبع، وهو الوادي الذي فيه ضياع علي بن أبي طالب ’رضي الله عنه‘، أربعون ميلًا. ومنها أبو دُلف الخزرجي الينبعي، وذكره الثعالبي في كتابه "يتيمة الدهر".

وذكر محمد عبدالمنعم خفاجي في كتابه "أبو دلف الجزرجي، عبقري من ينبع" أن بديع الزمان الهمذانى قد تتلمذ عليه. وأن أبا الفتح الاسكندري الذي ينسب بديع الزمان

الهمذاني إليه إنشاء مقاماته إنما هو أبو دلف نفسه. ويعاود التذكير بأن رحلتيه كانتا كتابًا واحدًا يسمي "عجائب البلدان" حسب القزويني وياقوت وذكرهما بهذا الاسم بروكلمان، وكذلك كليمون هوارت عام 3091.

وتذكر "دائرة المعارف الإسلامية" إن مصاحبة بديع الزمان لأبي دلف الخزرجي قد أعطته فكرة المقامات.

1. أبو دلُف وآل السامان:

سافر أبو دلف إلي خراسان واتصل بآل سامان في القرن العاشر الميلادي. وله رحلات من خراسان إلي الصين. ويبدو أن أبي دلف كان يتردد علي بلاط السامانيين. ينحدر مؤسس السلالة سامان من أسرة الرهبان في الديانة الفارسية القديمة. منذ عام 819م أصبح أحفاده الأربعة ولاة من قبل الطاهرين علي كل من سمرقند وفرغانة والشاش وهراة. أعقب نصر الأول بن أحمد(874- 892م) أباه في الولاية علي سمرقند سنة 864م. بعد سقوط دولة الطاهريين سنة 874م أصبح واليًا علي ما وراء النهر من جانب الخليفة العباسي المعتمد الذي ولاه بلاد ما وراء النهر سنة 261هـ- 875م قبل أن يستقل بها، ليسيطر السامانيون في زمن نصر بن أحمد الساماني(الأول) علي أقاليم ما وراء النهر وخراسان وسجستان وطبرستان والري. وكان لنصر أخ يدعي(إسماعيل الساماني) ولاه الخليفة بخاري عام 279هـ/ 893م، مات نصر فقام أخوه إسماعيل(892- 907م) مقامه في بلاد ما وراء النهر، فوطد أمرها. وقضي علي دولة الصفاريين حتي سنة 903م ثم ضم إليه أفغانستان وأجزاء كبيرة من فارس مع خراسان. بلغت الدولة أقصي اتساعها أثناء عهد نصر الثاني(914- 943م) وامتدت من بغداد إلي كرمان ومازندان حتي تركستان وحدود الهند. بعد عام 945م أزاح البويهيون السامانيين عن ما وراء النهر وخراسان. أنهكت الدولة السامانية قواها في حروب طويلة مع القبائل التركية الضاربة علي حدود

الدولة الشرقية. استغل الغزنويون الفرصة فاستولوا سنة 994م علي خراسان ثم ضم القراخانات مناطق ما وراء النهر سنة 999م. قتل آخر الأمراء السامانيين سنة 1005م أثناء محاولته الفرار.

كان أبو دلف يتردد علي ابن إسماعيل الساماني، أبو الحسن نصر بن أحمد بن إسماعيل السامانى، أو نصر الثاني، الأمير بين السنوات(914- 943م). "وأوفده هذا الأمير إلي الصين حوالي سنة 331هـ(942م) مع بعثة كان أحد الأمراء في الصين قد أرسلها إلي البلاط الساماني ليخطب ابنة أمير بخاري. وقد زار أبو دلف بلاد الهند، وآخر نقطة كانت تصل إليها السفن الإسلامية"[1].

وفي القرن الرابع الهجري، توثقت الروابط بين العرب والصين عن طريق المصاهرة إذ أوفد الأمير المسلم نصر بن أحمد الساماني من قبله رسولًا إلي فالين بن الشخير ملك الصين يخطب ابنته لابنه الأمير نوح، فقبل أبوها وجهزها وأرسلها إلي خراسان ومعها مائتان من الخدم وثلثمائة من الجواري والخصيان، وتزوج منها نوح[2].

ولعل أبا دلف مسعر بن مهلهل الينبعي، هو أول العرب الذين كتبوا عن مملكة(كين) المعروفة في تاريخ الصين قبل أيام المغول. ثم نقل عنه ياقوت والقزويني، وأما أبو دلف هذا، فكان رئيسًا لبعثة رسمية أرسلها نصر بن أحمد الساماني إلي إمبراطور(كين) بسندابل، ومن كلامه أن ملك الصين واسمه(قالين بن الشخير) هو الذي بعث رسولًا إلي نصر بن أحمد أولًا، راغبًا في مصاهرته وطامعًا في مودته، وكان يريد أن يخطب ابنة نصر لابنه، فأبي ذلك نصر واستنكره لحظر الشريعة زواج المسلمة من غير مسلم، غير أن قالين استرضاه بتزويج بنته بابنه، وأجاب إلي ذلك فانتهز دلف هذه الفرصة وقصد بلاد

(1) انظر(الرحالة المسلمون في العصور الوسطي)- مصدر سابق، ص27.

(2) تاريخ ابن خلدون.

الصين علي رأس بعثة دبلوماسية لنصر بن أحمد إلي إمبراطور(كين)، فسلك بلاد الأتراك التي ذكرتها عندما تكلمنا عن تجارة البر إلي الصين، حتي وصل مع رفاقه إلي مدينة سندابل، وبها دار الملك قالين. فعرض الرسول عليه ما جاء لأجله وهو طلب يد بنت قالين لنوح بن نصر، فأجابه إلي ذلك، وأحسن مثوي أبي دلف ومن معه من الرجال، وأقاموا عنده ضيوفًا مدة، حتي أنجزت أمور المرأة وتم تجهيزها، فسلمها إليه يرافقها نحو مائتي خادم وثلثمائة جارية، فحملت إلي نوح بن نصر بخراسان فتزوجها[3] فتولدت عن هذا الزواج علاقة متينة بين دولة السامانيين وبين مملكة كين بشمال الصين.

ونظرًا إلي أن عهد حكومة نصر بن أحمد استمر من سنة 913 إلي 942م، وأن عهد حكومة نوح بن نصر كان من سنة 942 إلي 954، نعتقد أن هذا الزواج قد وقع بعد سنة 920م لأن تاريخ الصين قد ذكر وصول سفارة من الدولة السامانية في سنة 924م، ومن الجائز أن هذه بعثة الخطبة رغم سكوت تاريخ الصين عن هذا الأمر[4].

ولا نعرف شيئًا كثيرًا عن أبي دلف، فلم تذكر المصادر التاريخية سنة مولده، أو تفاصيل نشأته، ولكن ذكرت أنه عمل في بلاط السامانيين في بخاري ما بين سنة 301-331هـ. كما لم تذكر المصادر سنة وفاته أيضًا.

والكاتب والمؤرخ والشاعر السوري خير الدين الزركلي(1893- 1976) يقول: إن أبي دلف كان يتردد علي الصاحب بن عباد فيرتزق منه ويتزود كتبه. وهو الذي قدم إليه أبو دلف قصيدة طويلة في حيل بني ساسان وأساليب حياتهم. والمعروف أن اسم "بني ساسان" أطلق علي قومٍ من العيارين المستهترين والشطار المحالتين، كانوا يطوفون الأقاليم، ويتفننون في اختراع الحيل للحصول علي المال.

(3) ياقوت، الجزء (5)- ص 414.

(4) بدر الدين حي الصيني، مصدر سابق، ص 199.

وكان الثعالبي يضعه في كتابه "يتيمة الدهر" بين الشعراء والمثقفين الذين ترددوا علي مجلس الوزير الصاحب بن عباد البويهي(ت 385هـ/ 995م) ويسميه أبا دلف الخزرجي. وفي الجزء الثالث يقول عنه:

"شاعر كثير الملح والظرف، مشحوذ المدية في الكدية، خنق التسعين في الإطراب والإغتراب، وركوب الأسفار الصعاب، وضرب صفحة المحراب بالجراب، في خدمة العلوم والآداب، وفي تدويخه البلاء".

وأبو دلف هو صاحب "القصيدة الساسانية" المكرسة لفنون الكدية التي تشتمل علي مجموعة كبيرة من الكلمات الشائعة في عامية العصر العباسي، وقد أورد الثعالبي بعضها في كتابه "يتيمة الدهر" وأولها:

جفـــون دمعهـــا يجـــري   لطـــول الصـــد والبحـــر

والقصيدة ليس لها هدف سياسي، وهي في الحقيقة تتحدث علي لسان الشحاذين وأساليب الكدية التي تحقق حرية المكدي ونجاته. وننقل من كتاب الثعالبي الأبيات الآتية:

ومـــن كـــان مـــن الأحـــرا   ريســـلو ســـلوة الحـــر

ولاســـيما فـــي الغربـــة   أودي أكثـــر العمـــر

وشـــاهدت أعاجيبنـــا   وألوانـــا مـــن الدهـــر

فطابـــت بـــالنوي نفســـي   علي الإمســـاك والفطـــر

علي أني مـــن القـــوم الـــ   بهاليـــل بـــني الغـــر

فـــنحن النـــاس كـــل النـــا   س في البـــروفي البحـــر

أخـــذنا جزيـــة الخلـــق   مـــن الصـــين إلي مصـــر

إلي طنجـــة، بـــل في كـــ   ـــل أرض خيلنـــا تســـري

إذا ضـــاق بنـــا قطـــر نـــزل عنـــه إلي قطـــر
لنـــا الـــدنيا بمـــا فيهـــا مـــن الإســـلام والكفـــر
فنصـــطاف علـــي الـــثلج ونشـــتو بلـــد التمـــر

2. أبو الدُلف في التبت:

لم تكن التجارة هي الحافز الوحيد للعرب علي الإتصال بالصين، فإن الحضارة العربية التي علا كعبها في اليمن ورسخت قدمها في(حِمْيَر) أو (تُبَّع)، قد أخذت طريقها إلي الصين، في خطي ثابتة، عندما غزا تبع أسعد أبو كرب بألفي فارس من التبابعة، تلك الصحاري الشاسعة التي تعرف اليوم باسم(هضبة التبت)(5)، ويقول المؤرخ المسعودي في الجزء الأول من كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر". يقول:

"وبلاد التبت مملكة متميزة من بلاد الصين، والغالب عليهم حِمْيَر، وفيهم بعض التبابعة علي حسب ما ذكرنا من أخبار ملوك اليمن فيما يرد من هذا الكتاب، وذلك موجود في أخبار التبابعة، ولهم حَضَر وبدو، وبواديهم ترك لا تدرك كثرة، ولا يقاومهم أحد من بوادي الأتراك...

ولبلاد التبت خواص عجيبة في هوائها وسهلها ومائها وجبلها، ولا يزال الإنسان أبدًا ضاحكًا بها فرحًا مسرورًا، لا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار، ولا تحصي عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها"(6).

---

(5) محمد محمود زيتون(الصين والعرب عبر التاريخ)- سلسلة اقرأ- دار المعارف، القاهرة، عام 2016، ص22.

(6) انظر ص 168.

ويستطرد المسعودي قائلًا: "وكانوا يسمون ملوكهم(أي في التبت) تبَّعًا لإتباع اسم يتبع ملك اليمن ثم تغيرت لغاتهم عن الحميرية".

ونري من المفيد أنه نلقي- في عجالة- أضواء كاشفة علي **"مملكة حمير"**. والحمير أحد أشهر قبائل العرب، وهي من نسل سبأ وهم عرب من نسل قحطان وسلالتهم(التبابعة) العظام ملوك اليمن ومساكنهم باليمن، وكانوا قد حكموا أرض الجزيرة والشام، وكانت من أكبر القبائل تعددًا، وكانت لهم حضارة بعد مملكة سبأ سميت بحضارة(حمير) وهي باقية إلي يومنا هذا، وسكنت اليمن والحجاز ونجد والخليج والعراق وسوريا والشام بشكل عام ومصر والسودان، وانتشروا بالمغرب العربي، وما زالت مساكنهم وحضارتهم الأصلية باقية إلي يومنا هذا في أرض اليمن. ومن قبائل حمير قضاعة التي تشعبت قبائل منها: جهينة التي منها أغلب عرب صعيد مصر خاصة في محافظتي أسيوط وسوهاج بمصر.

وتجدر الإشارة إلي أن "مملكة حمير" قد تأسست في القرن الثاني قبل الميلاد، وأقيمت في جنوب شبه الجزيرة العربية ما بين اليمن وعمان بعد انهيار مملكة سبأ. وهي مملكة قديمة عريقة نشأت في ظفار يريم واستطاعت القضاء علي ممالك اليمن القديم لأربعة وضمها وقبائلها في مملكة واحدة هي آخر مملكة يمنية قبل الإسلام، وكانت لهم علاقة وثيقة بمملكة كندة عن طريق تحالف بينهم يعود إلي القرن الثاني قبل الميلاد.

والحميريون بالأصل قبائل سبئية اعتنقت الديانة اليهودية، كانت تنتشر في مناطق: ريمة، تعز، إب، ذمار وأجزاء من صنعاء ومأرب. وعاصمتهم ظفار في محافظة إب. ولغتهم اللغة الحميرية وهي سامية ولكن ليست Sayhadic كانت مستخدمة في جنوب غرب جزيرة العرب حتي القرن العاشر. كما استعملوا لفظ "رحمن" كمرادف لكلمة "الله".

3. السبب في تسمية مملكة حمير بهذا الاسم:

حمير هو ابن سبأ بن يشجب، بن يعرب بن قطان، كان حمير قد استولي علي مملكة سبأ بعد أن توفي والده، وقد قيل عن حمير أنه أول شخص توج بالذهب واستمرت مملكته زهاء خمسين سنة، كما أن الملك(حمير) قد عاش ما يقرب من ثلاثمائة سنة وأنجب ستة أبناء تفرع منهم باقي مملكة حمير. والسبب وراء تسمية حمير بهذا الاسم أنها ترجع إلي اسم الملك الخاص بهم وهو(حمير). كما أن هذا الملك كان يرتدي حلة حمراء اللون علي رأسه، وهذا هو السبب الرئيس لتسمية هذه المملكة بهذا الاسم. كما جاءت بعد ذلك كلمة حمير في الكتابات المسندية، وكانت تعني التحالف القبلي أو الجمعي، وقد كان ملوك حمير يطلق عليهم(التبابة) لأنهم كانوا يتبعون بعضهم البعض في الحكم.

وقد سميت التبت بهذا الاسم إشارة إلي من ثبت فيها ورتب من رجال الحمير.

وأحد أبرز آثار الحميريين عبر تاريخ اليمن هو إقدامهم علي التخلي من الوثنية في اليمن القديم وعِبادة إله واحد هو الرحمن. كان الحميريون وثنيين وتبين في بدايتهم ثم تحولوا لليهودية واعتنقوا الإسلام في القرن السابع الميلادي.

وهنا نقول: أليس في وجود الزيدية بالتبت، دليل علي انتقال موجة من مهاجري اليمن- وهي موطن الزيدية- إلي تخوم الصين، حيث استقر آباؤهم من حمير منذ خمسة قرون علي الأقل؟[7]

وكان سفر أبي دلف مسعر بن مهلهل الينبعي المتوفي سنة 331هـ في حكم السلطان نصر بن أحمد المتوفي في سنة 943م، ويصفه قائلًا: "إنه عظيم الشأن كبير السلطان، يستصغر في جنبه أهل الطول، وتخف عنده موازين ذوي القدرة والحول، ووجدت عنده رسل(قالين بن الشخير) ملك الصين راغبين في معاهدته طامعين في مخالطته يخطبن إليه

(7) محمد محمود زيتون، مصدر سابق، ص24.

ابنته فأبي ذلك واستنكره...." فلم يقبل لأن الشريعة تمنع زواج مسلمة بكافر، وإن أصر علي ذلك طلبوا منه أن يسعوا في زواج ابنه من إحدي بنات ملك الصين فرضي. وكان الأمير نصر الثاني قد اختار أبي دلف لمصاحبة البعثة الصينية التي جاءت إليه لمصاهرته، وخرج معها وعرج علي العديد من القبائل والبلدان ووصفها علي النحو التالي:

"يقول: أنه وجد في إحدي مناطق التبت قبيلة تدعي البغراج يعملون في السلاح وكان لهم ملك قوي يدعي أن نسبه يعود إلي يحيي بن زيد... وكان لهذا الملك مصحف مذهب علي ظهره أبيات من الشعر في رثاء زيد... وبعد أقامته عندهم لمدة من الزمن، اكتشف أنهم يعبدون المصحف ويقولون أن زيد ملك العرب. وأن علي بن أبي طالب إله العرب. وكان الحكم عندهم وراثة في العلويين من نسل زيد... ولاحظ أبو دلف أنهم إذا استقبلوا السماء فتحوا أفواههم شاخصين أبصارهم بشكل مثير ويزعمون أن علي ينزل ويصعد إليها... وأن ملوكهم ذو أنوف قائمة وعيون واسعة ويأكلون لحم الضأن الخراف دون النعاج.

ويقول أيضا: "إنه التقي أثناء الرحلة بقبيلة أخري تدعي تبت... ولهم مدينة من القصب يعيش بها المسلمون والمجوس والنصاري وأنهم يعطون الجزية لملك البغراج... ونظام الحكم عندهم انتخابي ديموقراطي... ليس وراثي..."

ويحدثنا أيضًا عن منطقة أخري عرج عليها في طريقه تدعي(القليب) تقنطها قبائل عربية بدوية تختلف عن تبع الملك الذي يظن أنه غزا الصين منذ زمن طويل... القبائل ما زالت تعبد الأصنام وكان كلامهم بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها، ويكتبون الحميرية والحكم فيها وراثة ولهم قوانين وأحكام تربط حياتهم الإجتماعية والإقتصادية وتربطهم علاقة هدنة مع الصين.

[هذه هي الأمور التي نقلها الرحالة أبو دلف عن مشاهداته لمنطقة التبت المحادية للصين]

ويستنتج أبو دلف أن الغزو السكاني القديم القادم من اليمين للتبت، وكان منذ عصر الدولة الحميرية في اليمن وان عدة قبائل هاجرت من اليمن واستقرت بالتبت قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره. وكانت الزيدية، وهي طائفة دينية إسلامية، انتقلت إلي الحدود المتاخمة للصين بهجرة مجموعات سكانية تتخذ من هذا المذهب معتقدًا، ولكن تم تحريف المذهب لديهم مع تقادم الأيام.

ويعد أبو دلف أول من تطرق للموضوع بشكل مستفيض وعبر مشاهداته العينية. وإن كان ابن الفقيه الهمدانى قد سبق أبو دلف وأشارا إلي استيطان العرب للمنطقة في قوله عن سمرقند... (وخربها شمر بن أفريقيس فسميت شمركند وبناه بعده تبع ابن ابن شمر وردها إلي أفضل ما كانت وتوغل في أرض فقتل ملكها وبني مدينة(تبت) وأسكن بها جيشًا من أصحابه فهم اليوم بها...)[8].

وجاء المسعودي في القرن الرابع الهجري، وبعد الحموي في القرن السادس، والقزويني في القرن السابع، والدمشقي في القرن الثامن، والنويري من القرن التاسع فأعادوا سرد ما أخبر به أبو دلف أو بعضه. وكان المؤرخون والجغرافيون العرب القدامي اختلفوا حول مَنِ المسؤول الأول المنشئ للعلاقة بين تواجد القبائل العربية في التبت المتاخمة لحدود الصين.

وبري **النويري** أن القضية تعود قبل ذلك إلي القرن الثالث الميلادي... حينما زحف الملك الحميري ويدعي(شمر يرعن) بما يقارب من ثلاثمائة ألف جندي لغزو بلاد العجم وخراسان... فخرب الصغد وراء جيحون وبني مدينة تحمل اسمه والتي أصابها التحريف وهي سمرقند... واصل الملك الحميري شمر زحفه حتي بلغ بلاد الصين... فتعرض شمر لخدعة من وزير الملك الصيني الذي ادعي أنه مستعد في مساعداتهم لاجتياح الصين

(8) انظر (مختصر البلدان) ص 316.

بسبب خلافه مع الملك الصيني... فوثق الملك شمر بالوزير الصيني الذي قادهم إلي صحراء قاحلة... فأجهدهم السير واستبد بهم العطش والجوع فخر كثير منهم قتلي... وبذلك نجت الصين من حكم العرب الحميريين... ويرجح أن تلك المنطقة هي التبت وربما بقي بعض النجاة من جيش شمر فانصهروا في المجتمع التبتى فأسسوا اللبنة الأولي للقبائل العربية بالمنطقة.

ولعل من نافلة القول أن الحميريين الذين كانوا أهل حضارة قديمة في ذاك الزمن قد اسهموا في تأسيس حضارة للتبت التي كانت ترزح في البداوة القاحلة فقد تعلم أهل التبت الأصليين القراءة والكتابة وصناعة القسى والسهام للدفاع عن كيانهم من الأعداء.

ويرجح البعض أن كلمة(التبت) هي مصطلح مأخوذ من كلمة(ثبت) ويقصد هنا أن بعد أن غزا العرب المنطقة وهنا يقصدون الحميريين قد ثبتوا في المنطقة واستقروا فحرفت إلي التبت...

ويري المؤرخ القزويني: بأن أهل التبت ترك في أصلهم... وأن بهم نسل من حمير جاؤوا في زمن التبابعة...

ويري الدمشقي العربي(727هـ)... بأن أهل التبت حضر وبدو... ولغتهم التركية وكانوا يسمون من يملكهم(تبع) فصاروا يسمونه(خافان) وناحيتهم بين الترك والهند والصين، وهم أشبه بالعرب في الألوان والخلق وسائر الأمم.

ومن المرجح أن أهل التبت غيروا لغتهم العربية القديمة... إلي التركية.

4. رحلات أبي دُلَف:

لا نعرف لأبي دلف سوي رحلتين أو رسالتين: **الرحلة الأولي** تروي وقائع رحلة إلي الصين، والثانية(**الرحلة الثانية**) إلي آسيا الوسطي وأرمينيا. ان الرحلة الأولي قامت حوالي

331هـ/ 942-943م، أما الثانية فالشواهد تدل علي أنها كتبت عام 341هـ/ 952م أو بعدها.

الرحلة الأولي: إلي الصين والهند وقد وردت أخبارها إلي كتابات التي جمعها الجغرافيين العرب ومنهم ياقوت الحموي الذي نشر متنها كاملًا.

عكف أبو دلف علي دراسة المعلومات الجغرافية التي تتعلق بالحدود والمدن والمواصلات والمحاصيل الزراعية والتجارية والصناعية بدقة وإمعان، وصحيح معظم الأخطاء التي وقع فيها من سبقه من العلماء، وتمكن من استخلاص حقائق جديدة لم يسبقه إليها أحد ساهمت في تقدم علم الخرائط وامتدحه الثعالبي ووصفه بأنه: "من كبار الأدباء والشعراء الملهمين وله مكانة تاريخية"[9].

ولم تصل إلينا التفاصيل الكاملة لرحلته الأولي وعرضها ياقوت الحموي في معجم البلدان وابن النديم في الفهرست. فذكر ياقوت: "قرأت في كتاب عتيق ما صورته كتب أبو دلف مسعر بن مهلهل في ذكر ما شاهده ورآه في بلاط الترك والصين والهند قال: إني لما رأيتكم يا سيدي أطال الله بقاءك شغوفين بالتصنيف مولعين بالتأليف أحببت أن لا أخلي دستوركم وقانون حكمتكم من فائدة وقعت إلي مشاهدتها وأعجوبة رمت بي الأيام إليها ليروق معني ما تعلمناه السمع ويصبو إلي استيفاء قراءته القلب وبدأت بعد حمدالله والثناء علي أنبيائه بذكر المسالك المشرقية واختلاف السياسة فيها وتباين ملكها واقتران أحوالها وبيوت عبادتها وكبرياء ملوكها وسلوك قومها. ولما نأي بي وطني وحل بي السير إلي خراسان ضاربًا في الأرض أبصرت ملكها والمرسوم بأماراتها نصر بن أحمد الساماني".

نجح القزويني وابن النديم وياقوت في نقل وصف أبي دلف لرحلته في الصين، وأشادا بدقته وقدرته علي الملاحظة وتسجيل المشاهدات والمواقف والأحداث التي

(9) صحيفة الإتحاد الإماراتية الصادرة في 6 مارس 2013.

تعرض لها والأشخاص الذين صادفهم في أسفاره، وقد وصف أبو دلف طريقه إلي الصين قائلًا:

"فسلكنا بلد الأتراك فأول قبيلة وصلنا إليها بعد أن جاوزنا خراسان وما وراء النهر من مدن الإسلام قبيلة في بلد يعرف بالخركاه، فقطعناها في شهر، نتغذي بالبر والشعير، ثم خرجنا إلي قبيلة تعرف بالطخطاخ، وتغذينا بالشعير والدخن وأصناف من اللحوم والبقول الصحراوية فسرنا فيها عشرين يومًا في أمن ودعة، يسمع أهلها لملك الصين ويطيعونه ويؤدون الإتاوة إلي الخركاه لقربهم إلي الإسلام ودخولهم فيه وهم يتفقون معهم في أكثر الأوقات علي غزو من بعد عنهم من المشركين ثم وصلنا إلي قبيلة تعرف بالبجا فتغذينا فيهم بالدخن والحمص والعدس وسرنا فيهم شهرًا في أمن ودعة، وهم مشركون يؤدون الإتاوة إلي الطخطاخ ويسجدون لملكهم ويعظمون البقر ولا تكون عندهم ولا يملكونها تعظيمًا لها، وهو كثير التين والعنب والزعرور الأسود وفيه ضرب من الشجر لا تأكله النار ولهم أصنام من ذلك الخشب ثم خرجنا إلي قبيلة تعرف بالبجناك طوال اللي أولو أسبلة همج يغير بعضهم علي بعضٍ ويفترس الواحد المرأة علي ظهر الطريق ويأكلون الدخن فقط فسرنا فيهم اثني عشر يومًا وأخبرنا أن بلادهم مما يلي الشمال وبلاد الصقالبة ولا يؤدون الخراج إلي أحد، ثم سرنا إلي قبيلة تعرف بالحبكل يأكلون الشعير والحلبان ولحوم الغنم فقط ولا يذبحون الإبل ولا يقتنون البقر ولا تكون في بلدهم ولباسهم الصوف والفراء ولا يلبسون غيرهما، وفيهم نصاري قليلون وهم صباح الوجوه يتزوج الرجل منهم بابنته وأخته وسائر محارمه وليسوا مجوسًا ولكن هذا مذهبهم في النكاح يعبدون سهيلًا وزحل والجوزاء ونبات نعس والجدي ويسمون الشعري اليمانية رب الأرباب وفيهم دعة ولا يرون الشر وجميع من حولهم من قبائل الترك يخطفهم ويطمع فيهم".

قال ابن النديم فيما رواه عن أبي دلف الينبعي أن "أهل الصين إذا مات أحد منهم بقي في منزله في نقر من الخشب سنة. ثم يدفن في ضريح بلا لحد ويحزن عليه ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وثلاث ساعات واليوم الذي يحمل فيه الميت إلي قبره يزين الطريق بأنواع الديباج والحرير بحسب حال الميت وعظم قدره"[10].

ومن عادات الصين قديمًا، أن يوضع جسم الميت في صندوق طويل من الخشب ويختم بالشمع ويحكم غطاؤه بالجبس، حتي لا تخرج منه الرائحة الكريهة. فيبقي في البيت مدة طويلة تكون في بعض الأحيان أكثر من سنة، وكان الحزن عليه من أهله وأولاده إلي ثلاث سنوات أمرًا عاديًا. وكان هذا من العادات التي يمتدحها أدباء الصين ويرجون لها، وهذا هو السيرافي يقول أن الأدب الصيني يفيض بهذه العادة من قديم الزمان حتي الثورة الكبري في سنة 1911. فلما انقلب نظام الحكومة من الإمبراطورية إلي الجمهورية، ظهر التغير في أذهان الناس نحو هذه العادة الحسنة، فأخذت تختفي شيئًا فشيئًا من الحياة العامة، مستورة في أعماق وأوراق التاريخ والروايات[11].

والرحلة الأولي قامت حوالي عام 331هـ/ 942- 943م، وهي رحلة إلي الصين والهند، قد حققت ونشرت باللغة العربية مرتين: المرة الأولي في كتاب عنوانه "تحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق" لمؤلفيه الدكتور فهمي سعد والدكتور طلال مجذوب عن عالم الكتب، بيروت، عام 1993. والمرة الثانية قام بها مريزن سعيد مريزن عسيري تحت عنوان "الرسالة الأولي لأبي دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي: دراسة وتحقيق" صدرت عام 1995 عن جامعة أم القري في المملكة العربية السعودية.

وفي العام 1987، نشر فؤاد سزكين رسائل أبي دلف مصورة عنْ مخطوطة مشهد في مجلد طبع في ألمانيا جوار أعمال ابن الفقيه وابن فضلان وأعيدت طباعته عام 1994.

(10) ابن النديم "الفهرست" ص 491.

(11) بدر الدين حي الصيني، مصدر سابق، ص 93- 94.

ترجم المستشرق الألماني شلاوتزير Schloezert الرحلة إلي اللغة اللاتينية معتمدًا علي نصيّ القزويني وياقوت، وذلك في عام 1845 في برلين.

والمستشرق الاسكتلندي هنري يول Henry Yule فقد استخدم ترجمة شلاوتزير في كتاب "الخِطا والطريق الأبعد" الصادر بمجلدين عام 1866 في لندن والذي يجمع ما كتب عن الصين في القرون الوسطي وأشار فيه إلي رحلة ومسار أبي دلف ومروره في الصين.

وفي هذا الصدد نشير إلي الدراسة التي منحت أهمية كبيرة كانت للمستشرق الألماني جوزيف ماركوت Markwat المعنونة "حملة أوروبا الشرقية وشرق آسيا: جولة مسعر بن المهلهل قرب العاصمة الصينية" المنشور في سنة 1903.

وفي العام 1913 أنجز المستشرق الفرنسي غابرييل فرناد ترجمة وتحقيقًا وهو عمله الكبير المعنون بـ"روايات الرحالة والنصوص الجغرافية العربية والتركية المتعلقة بالشرق الأدني من القرن الثامن حتي القرن الثامن عشر" وفيه ترجمة لنقولات ابن النديم عن أبي دلف، وفيه أيضًا ترجمة للقسم الأول من الرحلة حسب رواية ياقوت الحموى. يستند فرناد الى ماراكوت في مواضع كثيره.

وتجدر الإشارة إلي أن معجم البلدان لياقوت يتضمن متن "الرحلة الأولي" وقد سبق للمستشرق الألماني فرناند وويسنفليد(1808- 1899) Ferdinand Wustenfeld أن ترجمه ضمن عمله الموسوعي بشأن معجم ياقوت المنشور في لايبزك بين الأعوام 1866-1873، انطلاقًا من مخطوطات المعجم يومئذ في برلين وسانت بطرسبرغ وباريس. ويبدو أن ويستنفيلد قد نشر الجزء المتعلق برحلة أبي دلف انطلاقًا من نقولات القزويني في بحث مستقل له منشور ضمن كتاب جماعي صادر عام 1842 عن جمعية الدراسات المقارنة في ألمانيا.

قام المستشرق الألماني الفريد فون رور ساوير Alfred Von Rohr- Souer بدراسة رحلة أبي دلف الأولي عام 1939 في رسالة دكتوراه طبعها وظلت مرجعية لوقت طويل، وإليها يعود كراتشوفسكي أحيانًا. متفقًا علي ما ورد في الكثير منها.

الرحلة الثانية:

تدل الشواهد أنها كتبت عام 341هـ/ 952م أو بعدها بقليل. وتقدم وصفًا وافيًا لأرمينيا وفارس والري وطبرستان وأفغانستان وبعض أنحاء جنوبي روسيا وغيرها من المدن والبلدان التي دخلها وعرض للحياة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والأدبية بها، ورصد دور العلم والمكتبات والمحافل والآثار والمعابد، وتضمنت قصائده إشارات إلي الرحلات والأسفار الطويلة التي قام بها. وقد نشر هذه الرحلة وحققها بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف، ترجمها وعلق عليها الدكتور محمد منير مرسي وصدرت في مصر عن عالم الكتب القاهرية عام 1970 بعنوان "الرسالة الثانية لأبي دلف" وكان هذا العمل العربي مصدره الأصلي كتاب صادر في موسكو عام 1960. وكان هناك عمل أساسي متقدمًا علي هذه الترجمة، قام بها مينورسكي إستخراج ما في معجم ياقوت الجغرافي.من مواد لأبي دلف من أجل أبحاثه الشخصية وما كتبه لدائرة المعارف الإسلامية ونشرتها جامعة القاهرة في عام 1955.

يذكر ابن النديم معطيات جديدة لا ترد في الرحلتين(الرسالتين). ويدل حديثه علي أنه التقي أبي دلف الذي روي له بعضًا من مشاهداته في أرض الهند والصين: "وقال لي أبو دلف، وكان جوَّالة" بينما يصفه القزويني بأنه كان "سياحًا". وتشير الشواهد أن ابن النديم وأبي دلف قد التقيا في بغداد غالبًا بين السنوات 953- 960م. لكن هناك اشارة أخري أكثر وضوحًا تشير إلي أن ابن النديم التقي براهب نجراني ورد من الصين عام 377/ 987- 988م واستفسر منه عنها واضعًا معطياته بالتوازي مع معطيات أبي دلف يوحي لنا أن لقاءهما لم يتم إلا في وقت لاحق نفترض أنه بين الأعوام 970 و987 ميلادية.

ولم يذكر اسم الراهب، بل أخبرنا بأنه عاد من الصين عام 377هـ/ 987م. وكان مرسلًا قبل سبع سنوات من طرف (الجاثلين) الذي سقط اسمه أيضًا من الفهرست. و(الجاثلين) لفظ يوناني يقصد به الرئيس الديني الأعلي عند الكلدان النساطرة ويقابله حاليًا (البطريرك).

يورد الراهب معلومات إضافية عن بلاد الصين ودياناتها وحيواناتها وأصنامها وغير ذلك. ثم يقع بينهما حوار نادر في أدبيات القرن العاشر الميلادي:

"قال الراهب: وسألت عن أمر هذا القرن، فذكر فلاسفة الصين وعلمائها، أن الحيوان الذي هذا قرنه إذا وضع الولد حصل في قرنه صورة أي شئٍ نظر إليه أولًا عند خروجه من الرحم.

قال: وأكثر ما يُصاب فيه الذباب والسمك

قلت له: فيُقال إنه قرن الكركدن.

فقال: ليس كما يُقال، هو دابة من دواب تيك البلاد.

قال: وقيل لي أنه دابة من بلد الهند وهذا هو الصحيح".

وبعد قليل يستمر الحوار:

"وقال لي: والله يا أبا الفرج أن لو عظم أحدنا، من النصاري واليهود والمسلمين، الله جل اسمه تعظيم هؤلاء القوم لصورة ملكهم فضلًا عن شخص نفسه، لأنزل الله له القطر، فإنهم إذا شاهدوها، وقع عليهم الأفكل والرعدة والجزع حتي ربما فقد الواحد عقله أيامًا.

قلت: ذلك لاستحواذ الشيطان علي بلدهم وعلي جملتهم يستغويهم ليضلهم عن سبيل الله.

قال: يوشك أن يكون ذلك".

وأثناء هذا الحوار، يتذكر ابن النديم، تقريرًا لملاحظة أوردها الراهب، شخصًا صينيًا اسمه "جيكي الصيني" ذكر له شيئًا مماثلًا في سنة 356هـ/ 966- 967م.

ويتحدث ابن النديم في أسرار هذا القرن فيما عرفه من الراهب النجراني الذي دخل الصين، فيقول إن(البشان) أفخر حلية لمقابلة الملوك في الصين، وهو القطع التي عليها صور مرسومة من غير رسام علي القرن، ولما كان ثمنه غاليًا للغاية، أمر الملك بإبطاله والإستعاضة عنه- في المثول بين يديه- بمناطق الذهب وما يشبهه، وعلم الراهب مما سمعه من علماء الصين وفلاسفتها أن الأنثي عند المخاض ترسم علي قرن وليدها أي صورة تراها عند الوضع مباشرة، ذلك الحيوان مما يوجد بالصين وهو غير الكركدن.

وكان ابن بطوطة قد حدثنا عن حيوان الكركدن ـ كما شاهده في رحلته ـ ببلاد السند وكيف يصاد، فإن ابن خرداذبة قد وافانا بفكرة عن أهمية "قرن الكركدن" بالنسبة لأهل الصين، فيقول إنه إذا شق قرن الكركدن من أوله إلي آخره ظهرت منه صورة بيضاء في صورة إنسان أو دابة أو سمكة أو طاووس أو أي طائر آخر، فيتخذه أهل الصين مناطق(أي أحزمة جمع نطاق أو منطقة) ثمن الواحدة منها يتراوح ما بين ثلاثمائة دينار أو أربعة آلاف دينار.

إن هذا الأديب الرحالة كان دقيق الملاحظة، وحسبنا مثلًا أنه فطن إلي أن الخزف الصيني كان يقلد في بعض البلاد الأخري، ولاسيما في إيران وملبار، ولكن الأواني الصينية كانت تفضل في الأسواق علي كل ما يصنع تقليدًا لها. وقد انتشر هذا الوصف سنة 1845 ومعه ترجمة لاتينية بعناية المستشرق فون شلوزر Von Schloezer ثم ترجمه المستشرق فراند في مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية التي نشرها عن الشرق الأقصي[12].

---

(12) (الرحالة المسلمون في العصور الوسطي) مصدر سابق، ص 28- 29.

المبحث الخامس عشر
في مسجد شيآن
أقدم كتابة إسلامية باللغة الصينية
منقوشة على الحجر

1. العلاقات الودية بين أقدم إمبراطورية وأحدث إمبراطورية:

لا مرية أن موقعة القادسية سنة(636م) كانت بداية النهاية لدولة الساسانيين، كما أن عروش الأكاسرة قد تقوضت إلي الأبد علي إثر موقعة نهاوند سنة(642م)، وكان يزدجرد آخر عنقود في دولة بني ساسان، ففر إلي الصين مستنجدًا بإمبراطورها(تانغ تائي جونغ) الذي اعتذر له، وقد أحس بالنفوذ العربي الإسلامي في زحفه نحو الشرق الأقصي كأنه الطوفان الجارف.

أثبت التاريخ أن الصين أدت دورًا معينًا في تاريخ الفتوح الأولي فعندما هوت البلاد الفارسية تحت قبضة الإسلام لاذ بالفرار يزدجرد إلي سلطنة فرغانة، ومن هناك يطلب نجدة ملك الصين العظيم "تاي جونغ" لاستعادة ملكه. ومات يزدجرد دون أن تصل له مساعدة الصين. وفي نفس الوقت الذي كان ملك الصين يتأمل في هذا الحادث الذي هوي بعرش الأكاسرة، جاءه مندوب من قبل قيصر الروم ينقل له خبر استيلاء العرب علي معظم الإمبراطورية الرومانية، فرأي ملك الصين أن الأمر أخطر من أن يندب له -إن أراد- قوة بوليسية تتنزه نزهة عسكرية في غرب آسيا فقرر أن يتابع درس هذه الحركة الجديدة.

وتولي خلقه فيروز المطالبة بعرش الأكاسرة، وأرسل إلي الصين يطلب نفس النجدة الني طلبها والده، فإذا بملك الصين الشهير مات، وتولي مكانه ابنه الذي اعتذر عن تقديم هذه المعونة. ولكنه قرر في نفس الوقت أن يوفر بعثة إلي المدينة المنورة تنقل له الخبر اليقين عن أمر النبي محمد وهذا الدين الجديد. فجاءته البعثة في عهد أمير المؤمنين عثمان 'رضي الله عنه'، ولقيت عنده الخبر اليقين. ورد أمير المؤمنين علي هذه السفارة بمثلها، وفي سنة650 ميلادية كانت مدينة تشانغان (عاصمة الصين حنيذاك)

تشهد اسنقبال رسل الخليقة، والحضارة الفائقة التي أعدها لهم عاهل الصين في عاصمته[1].

وهكذا بدأت الصلات الودية ين أقدم إمبراطورية وأحدث إمبراطورية في ذلك الوقت.

ويذكر "الطبري" أن يزدجرد، ملك الفرس أوفد بعد هزيمته في معركة "نهاوند" مبعوثه إلي ملك الصين، وعندما عاد سألوه عما وراءه فقال: لما قدمت علي ملك الصين بالكتاب والهدايا كافأنا بما ترون (بهدايا مماثلة) ثم قال لي: قد عرفت أن حقًا علي الملوك إنجاد الملوك علي من غلبهم، فصف لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإني أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشر فيكم. فقلت: سلني عما أحببت. فقال: أيوفون بالعهد! قلت: نعم، قال: أوما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم! قلت: يدعوننا إلي واحدة من ثلاث: إما دينهم، فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة أو المنابذة، قال: فكيف طاعتهم أمراءهم! قلت: أطوع قوم لمرشدهم. قال: فما يحلون وما يحرمون! فأخبرته. فقال: أيحرمون ما حلل أو يحلون ما حرم عليهم؟ قلت: لا، قال: فإن هؤلاء قوم لا يهلكون أبدا حتي يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم. ثم قال: أخبرني عن لباسهم، فأخبرته، وعن مطاياهم فقلت: الخيل العراب(الأصلية) - ووصفتها فقال: نعمت الحصون هذه. ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها، فقال هذه صفة دواب طوال الأعناق[2].

وكتب إمبراطور الصين إلي يزدجرد: "انه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي. ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم

(1) محمد صبيح (شيناج كاي- شيك) -كتاب الشهر- دار احياء الكتب العربية، القاهرة، عام1944 ، ص 39- 40.

(2) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ 4 ص 167.

لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو خلي سربهم أزالوني ما داموا علي وصف، فسالمهم وارض منهم بالمساكنة، ولا تهيجهم ما لم يهيجوك!".

وبين ذلك أن العلاقة السياسية المباشرة بدأت عندما كان الأمراء الساسانيون يلتجئون إلي عاصمة الصين.

والمستشرق البريطاني توماس أرنولد(1864- 1930) يسجل رواية أخري حول أول اتصال بين المسلمين وإمبراطور الصين، وذلك في كتابه "الدعوة إلي الإسلام" فكتب يقول: "إن الذي استنجد بإمبراطور الصين هو فيروز بن يزدجرد بعد وفاة أبيه مهزومًا وشريدًا، فبعث الإمبراطور إلي فيروز يعتذر عن نجدته بحجة بعد الشقة بين بلاد الصين والفرس، وأن الإمبراطور أرسل بديلًا عن ذلك مبعوثًا إلي خليفة المسلمين للدفاع عن قضية الأمير الهارب فيروز. ولا يستبعد آرنولد أن يكون إمبراطور الصين قد طلب من مبعوثه أن يتقصي أحوال هذه القوة الجديدة. وفي عودته أرسل عثمان بن عفان أحد قادة المسلمين ليرافق مبعوث إمبراطور الصين، فأكرم الإمبراطور وقادته[3].

وتذكر المصادر الصينية أن المبعوثين العرب وفدوا إلي الصين طوال حكم أسرة تانغ 37 مرة[4]. وقد دام حكم هذه الأسرة حوالي ثلاثة قرون، وهي فترة تغطي عهد الخليفتين عثمان وعلي، والعصرين الأموي والعباسي.

ويدلنا تاريخ الصين أن 15 وفدًا وصلوا إلي الصين من بلاد الإسلام زمن الأمويين وقد أسماهم الصينييون وفود العرب أصحاب الملابس البيضاء، و17 آخر جاءوا منها زمن العباسيين ودعوا وفود العرب ذوي الملابس السوداء ولابد أنكم تتذكرون شعار الأمويين والعباسيين بهذه المناسبة[5].

---

(3) توماس آرنولد(الدعوة إلي الإسلام) ترجمة د. حسن إبراهيم ود. عبدالمجيد عابدين، ص 332.

(4) عبدالرحمن ناجونغ(مختصر تاريخ العرب) من مطبوعات معهد اللغات الأجنبية في بكين، 1978م.

(5) سعيد لنجو نمن(نبذة عن الصين)- مصدر سابق، ص41- 42.

وأبرز السفارات العربية في تلك الفترة هي بغير شك تلك التي أوفدها القائد العربي العظيم **قتيبة بن مسلم الباهلي** فاتح أواسط آسيا، الذي وصلت قواته إلي كاشغر علي حدود الصين وقتئذ، واستولت عليها الصين فيما بعد، (وهي جزء منها الآن)، وكان ذلك في عام 96 هجرية، أي في أواخر عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك.

ففي سنة 96هـ(715م) وباسم دولة بني مروان، وبأمر من الوليد بن عبدالملك، تحرك البطل الإسلامي والقائد المظفر قتيبة بن مسلم بقوة جديدة من العرب إلي خراسان، ثم إلي ما وراء النهر، ثم أعد جنوده بالمرو وزحف بهم أولًا إلي بيكند(Beikand) وقد فتح في طريقه إلي كاشغر، أدني مدن الصين، مدينة الصغد ورامتين وبخاري وواردن وكش وسمرقند، وكان أول عمله بعد دخول سمرقند، أن صلي ركعتين شاكرًا لله سبحانه وتعالي بعد انتصاره علي المشركين، ثم أصدر أمرًا بإنشاء أول بيت لله في هذه المدينة الوثنية بعد أن حطم أوثانها، وتقدم بغزواته إلي الشرق الأقصي. ولما فتح قتيبة بخاري للمرة الثالثة مكث يفكر في وسيلة يستعين بها علي إسلام أهلها وتبديل معتقداتهم من أصلها. فأسس في مدينة بخاري جامعًا معروفًا باسم(جامع قتيبة) في سنة 714م، وما زال باقيًا إلي يومنا هذا. وكان يمنح عطاء قدره درهمان لكل مصلٍ جديد في هذا الجامع يوم الجمعة. ولما فرغ قتيبة من تنظيم سمرقند وبخاري ووحد دعائم الإستقرار في تلك الولايات النائية عن مركز الخلافة، زحف بجيوشه نحو خوقند وفتحها بلا مقاومة في سنة 95هـ، ثم توجه إلي شطر الشرق عند مضيق(ترك) حتي دخل كاشغر فاتحًا لها، وسقطت في أيدي الجيوش العربية الحصون المنيعة مثل بارقند وختن الواحد تلو الآخر، وتقدم العرب حاملين لواء النصر حتي وصلوا إلي مدينة طرفان... متوغلين في أرجاء الصين.

ويرسل قتيبة وفدًا مع رسالة منه إلي إمبراطور الصين يوانغ جونغ(713- 755م) يطلب منه الطاعة والجزية.

ويقدم لنا المؤرخان الكبيران: ابن الأثير والطبري تفاصيل تلك الواقعة:

يقول ابن الأثير: (إن قتيبة بعث جيشًا مع كبير بن فلان- أحد رجاله- إلي كاشغر. فغنم وسبي سبيًا. فختم في أعناقهم وأوغل حتي بلغ قريب الصين. فكتب إليه ملك الصين: ان ابعث إلي رجلًا شريفًا يخبرني عنكم وعن دينكم فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح. فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشي وغير ذلك، وخيول حسنة. وكان معهم هبيرة بن المشمرج الكلابي. فقال(قتيبة) لهم: إذا دخلتم عليه فاعلموه أني قد حلفت أني لا أنصرف حتي اطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم)(6).

يضيف الطبري: (فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم. فدخلوا الحمام ثم خرجوا، فلبسوا ثيابًا بيضاء تحتها الغلائل، ثم مسوا الغالية وتدخنوا ولبسوا النعال والأردية، ودخلوا عليه، وعنده عظماء مملكته، فجلسوا فلم يكلمهم الملك، ولا أحد من جلسائه، فنهضوا...)

" فلما كان الغد أرسل إليهم فلبسوا الوشي وعمائم الحر والمطارف وغدوا عليه... فقيل له: ارجعوا فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح وتنكبوا القسي وركبوا خيولهم وغدوا. فنظر إليهم صاحب الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة، فلما دنوا ركزوا رماحهم، ثم أقبلوا نحوهم مشمرين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا ارجعوا.. فلما أمسي أرسل اليهم الملك أن ابعثوا إلي زعيمكم وأفضلكم رجلًا فبعثوا إليه هبيرة، فقال له حين دخل عليه: قد رأيتم عظيم ملكي وأنه ليس أحْد يمنعكم مني وأنتم في بلادي وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي، وأنا سائلك في أمر فإن لم تصدقني قتلتكم، قال: سل، قال: لم صنعتم ما صنعتم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث؟!؟

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الخامس، ص5.

قال: أما زينا الأول فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا.. قال: ما أحسن ما دبرتم في دهركم فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه. قال له: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ (إشارة إلى مدينة الزيتون بالصين) وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرًا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا أجالًا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه، قال: فما الذي يرضي صاحبك؟ قال: إنه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويُعطي الجزية، قال: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم(رمزًا للأسر) ونبعث إليه بجزية يرضاها. قال: فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمة وردهم، ووطىء التراب!(7)

وقد ذكر تلك الواقعة الشاعر المولود في بادية اليمامة ويدعي **سوادة بن عبدالملك السلولي** في ثلاثة أبيات وهي جزء من بيان ابن الأثير عن علاقة العرب السياسية بالصين مباشرة، فيقول سوادة:

لا عيـــب فـــي الوفـــد الـــذين بعثـــتهم ... للصين ان سلكوا طريق المنهج

كسروا الجفون علي القذي خوف الردي ... حاشي الكريم هبيرة بن مشمرج

أدي رســـــالتك التـــــي اســـــترعيته ... فأتاك من حنث اليمين بمخرج

ويري المحققون في تاريخ الصين أن الوفد الذي وصل إلي عاصمة الصين سنة 715م، كما ذكر كتاب(كتاب أسرة تانغ الجديد) هو الوفد الذي بعثه قتيبة بن مسلم.

(7) **الطبري(تاريخ الرسل والملوك) الجزء الخامس، ص270.**

ولكن المصادر الصينية أغفلت ذكر هذه الواقعة الهامة، لنفس السبب الذي من أجله أسقطت سفارة ملك الصين إلي الخليفة الإسلامي عثمان بن عفان. ودواعي الإغفال هنا أشد لأن الموقف أكثر حرجًا. فثمة قائد عربي زاحف بجحافله يدك الحصون وتعسكر قواته علي أبواب الصين.

قتيبة يرضي بما أهداه به إمبراطور الصين لأن الخبر قد وصل إليه في هذا الوقت عن وفاة الوليد بن عبد الملك وبيعة أمراء دمشق لسليمان الذي تولي الخلافة الأموية والذي عندما تقلد مقاليد الخلافة عزل قتيبة عن ولاية خراسان وولي عليها وكيعا بدلًا من قتيبة، ونشب قتال هائل بين الجماعتين وأصيب قتيبة في المعركة ولقي حتفه. وكان ذلك إيذانًا بوقف الفتوحات الإسلامية في الشرق الأقصي واضعاف في الإسلام فيما وراء النهر وإثارة الخلاف والشقاق بين صفوف العرب والمسلمين. وأما هبيرة بن مشمرج الذي كان يرأس الوفد العربي إلي إمبراطور الصين بعد عودته إلي ما وراء النهر، فأوفده قتيبة إلي الملك الأموي وليد. لكنه لقي حتفه في طريقه إلي دمشق، في قرية بفارس. فرثاه سوادة بهذه الأبيات:

لله درهبيرة بن مشمرج	ماذا تضمن من ندي وجمال
وبديهة تزهي بها أبناؤها	عند احتفال مشاهد الأقوال
فسقي بقرية حيث أمسي قبره	غـريـرجن بمسيل هطال
كان الربيع إذا السنون تتابعت	والليث عند تكعكع الأبطال
بكت الجياد الصافنات لفقده	وبكاه كل مثقف عسال
وبكته شعث لم يجدن مواسيًا	في العام ذي السنوات والأمحال

وبوصول هذا الوفد، بلغ صوت الإسلام مسمع الإمبراطور وأهل العاصمة، وكان ذلك أمرًا بدهيًا لا يحتاج إلي أي دليل عقلي أو نقلي، ولو لم تكن هذه الوفود، فالمسجد الذي

أسس في سنة742، في عاصمة الصين(تشانغآن) حينذاك، يشهد بأن المسلمين قد وصلوا هناك علي الأقل في أواخر القرن السابع الميلادي فكثر عددهم حتي احتاجوا إلي إنشاء مسجد جامع لكلمتهم في منتصف القرن التالي، وفي هذا المسجد لوحة حجرية لا تزال موجودة بالحروف المنقوشة فوقها، وإن كانت لا تقرأ إلا بعد التدقيق والإمعان، إلا أنها دليل علي ما نقول[8].

2. مدينة شيآن (xi - An - 西安市)

تم تأسيس هذا المسجد في مدينة شيآن في سنة742 ميلادية، وأصبح معروفًا باسم "مسجد شيآن الكبير".

وتقع مدينة شيآن في مقاطعة شانشي Shaanxi الواقعة في شمالي الصين. وشيآن هي المدينة التي ترمز إلي استمرارية الحضارة الصينية العريقة، والتي تتمتع بتاريخ ثلاثة آلاف سنة ونيف، كما كانت عاصمة لإحدي عشر أسرة صينية حاكمة عبر 1080 سنة، وكانت أهم مدينة في عهد تلك الأسر الحاكمة: جو zhou (القرن 11ق.م- 221ق.م) وتشين Qin (221ق.م- 207ق.م)، وهان Han (206ق.م- 220م)، وصوي Sui (581- 618)، وتانغ Tang (618- 907).

وتقع مدينة شيآن عند نهاية الحافة الشرقية لطريق الحرير، وكان يقطنها الكثير من التجار القادمين من آسيا الوسطي، وكان يقطنها أكثر من مليون نسمة في عهد أسرة تانغ. وتعد الآن من أهم المراكز الإقتصادية والثقافية في شمال غرب الصين.

ويقع مسجد شيآن في الجزء الشمالي الغربي من المدينة ويقطنه أغلبية مسلمة من قومية هوي المسلمة الصينية، ويعتقد أنه تم بناؤه في عهد أسرة تانغ، وخضع للعديد من

---

(8) بدرالدين حي الصيني(العلاقات بين العرب والصين) مصدر سابق، ص 169.

مرات الترميم والإصلاح والصيانة، والمبني القائم حاليًا قادم لنا من أسرة مينغ(1368-1644).

ويقول ميسو تيرسان دابري صاحب كتاب(المحمدية في الصين) باللغة الفرنسية، يقول: "إن المسجد كان يحمل اسماء شتي في عصور مختلفة: اسم "تسنغ جيو تزي"(معبد الدين الطاهر) ثم غير إلي اسم "تانغ منغ تزي"(معبد النور المشرق). لكن السيد الأجل الذي رمم هذا المسجد في سنة 1315م بإذن الإمبراطور، بدل هذا الاسم إلي "تسنغ جين تزي"(معبد الدين الطاهر الحقيقي)".

وعلي أية حال، المسجد معروف الآن باسم هوا جيوه شيانغ(hua jue xiang - 化觉巷清真大寺) وهو الأكبر والأقدم والأكثر اكتمالًا في مدينة شيآن العتيقة. وكان يطلق علي المسجد عدة أسماء أخري مثل: مسجد شيآن الكبير، ومسجد دونغدا. ويعد واحدًا من المساجد الأربعة الكبري في الصين، والمساجد الثلاثة الأخري تشمل: مسجد نيو جيه(البقرة) في بكين، ومسجد تونغ شين في نينغشيا، ومسجد عيد كاه في كاشغر بمنطقة شينشجيانغ(تركستان الشرقية).

ويعد مسجد هوا جيوه شيانغ في شيآن هو الأقدم وتم بناؤه في أسرة تانغ الحاكمة في عهد الإمبراطور(تيان باو) في عام 742 ميلادية، ولذا يتمتع بتاريخ عريق يبلغ زهاء 1300 سنة تقريبًا.

إن الترميمات قد وقعت في هذا المسجد التاريخي عدة مرات علي النحو التالي: أجري ترميم هذا المسجد لأول مرة في سنة 1127 في عهد أسرة سونغ(960- 1279) علي نفقات الأمير عبدالله، المرة الثانية والثالثة في عهد أسرة يوان Yuan(1271- 1368) فكانت إحداهما علي نفقة السيد الأجل في سنة 1315م، وأما المرة الرابعة فكانت في عهد أسرة مينغ إذا كانت الصين تحت حكم الإمبراطور هونغ- وو Hong- Wo علي نفقة الحاج جهان الخصي الشهير عند هذا الإمبراطور.

ويشمل هذا المسجد علي لوحة حجرية لأقدم كتابة إسلامية باللغة العربية منقوشة علي الحجر يقال أنها كتابة تذكارية لتأسيس جامع(شيآن) سنة 742م.

وتقدم في السطور التالية مكونات تلك الكتابة وترجمتها إلي اللغة العربية وقد جاءت علي النحو التالي:

أقدم كتابة (Inscription) إسلامية باللغة الصينية منقوشة في الحجر. يقال أنها كتابة تذكارية لتأسيس جامع(شيآن) سنة 742م.

1- صدر الكتابة: "تذكار لتأسيس المسجد".

2- السطر الأول من اليمين "كتابة التذكار لتأسيس المسجد"

3- السطر الثاني من اليمين: إختار نصوص الكتابة (وانغ كونغ)Wang Kung الدكتور في القانون، ورئيس إدارة المالية والإحصاءات.

4- وأما نصوص الكتابة فكما يلي:

" الذي لاشك فيه إلى الأبد، هو الحق، والذي يحس به في كل وقت هو القلب. فكان الأنبياء متفقين على الحق باتفاق شعور قلوبهم، فيجمعون على عدم التصديق للمشرك وإن اختلفت عصورهم، أما الأنبياء، فقد بعثوا في كل مكان، فيعرفون بتأكيدهم لكلمة الحق ودعوتهم إلى فهمه بالعقل، ومن المعلوم أن ظهور محمد النبي العربي ﷺ قد وقع في بلاد العرب، بعد(كونفوشيوس) بزمن بعيد وفى مكان قاص، في بيئة غريبة، ولغة غير مفهومة عندنا. لكن ما هو السبب الذي جعلهما متحدين في المبادىء، وما هو الداعي الذي قد دعا إلى توافق تعاليمهما إنما ذلك هو اتحاد شعور القلبين وفي رفع لواء الحق كانا متفقين. لقد صدق القائل في سالف الزمان - إذ قال أن قلب الأنبياء لا يختلف بكثرة الأشخاص، والحق لا يتفاوت بتفاوت الأزمان.

لاريب أن زمنه قد مضى، وشخصه قد فني: لكنا نعرف من الكتاب والأحاديث أنه ولد عالمًا على خوارق العادة،عارفًا بدقائق ما تحت الأرض وما فوق السموات، وحقائق التخليق وأحوال الكائنات، مطلعًا على أسرار الحياة والممات، ضليعًا بمعلومات عن فوائد طهارة الأبدان ومبادئ تربية الأخلاق، فيعلم الناس قتل النفس الأمارة بالصوم، وإظهار الإخلاص بإيفاء العهود، وقهر الشهوات بأفعال الخيرات، وتطهير القلوب بشعور مصير المخلوق، والتعاون بالزواج والتعاطف بالإشتراك في الأحزان والمآتم.

حاصل الكلام أن شؤون الحياة، كبيرة كانت مثل مسائل الأخلاق، أو صغيرة مثل حركات المأكل والمشارب، كلها موضوعة في نظام مقيدة بحكم ديني، نظرًا إلى الخوف من غضب الله ورجاء رحمته.

نعم هناك بعض التفاصيل يتفرع من هذا التعليم، لكنها تسوق إلى غاية واحدة - إجلالًا لله خالق الكائنات والموجودات، كفا بهذا الدين الذي لا يدعو إلا إلى كلمة الوحدة، ويرشد العقول إلى فهمه، فإن أصوله توافق قول الإمبراطور(يو- Yao) "هللوا للسماء الأعلى"، وقول الإمبراطور (شانغ Shang) أصلحوا امور دنياكم بالعبادة، وقول(وين وانغ Wen Wang)، إنما العبادة للخالق، وقول(كونفوشيوس). "أين لدعاء من إغاظة السماء"، فواضح أن هذه الأقوال من منبع واحد، فإن الأنبياء يتحدون في الشعور والإيمان.

ولا يخفى على القارئ أن إيمان الأنبياء لا يتفاوت، وشعورهم لا يتباين، فتجد في تعليم أحدهم تعليم الآخر، غير أن تعاليم محمد ﷺ التي شاعت في بلاد العرب، لم تكن مسموعة "عند الصينيين"، فوصلت إلى الصين في عهد(كائي وانغ)، ثم انتشرت في جميع أرجائها حتى عهد(تيان باو- Tian Pa)، فلما رأي دين النبي العربي ﷺ يتفق مع ديانات وحكماء الصين في إرشاد الناس إلى صراط مستقيم، أمر رئيس المهندسين واسمه(لو تيانجو) في عمل الترتيب لتأسيس مسجد يجمع شمل عامة المسلمين، كما أمر بدر الدين

أن يدير أمور الدين فيه وهو عالم ضليع بالعلوم، فقبل وظيفة الإمامة في المسجد للجماهير في الصلاة والعبادة.

لقد بدأ العمل في يوم مبارك من الشهر الثالث في السنة الأولى لعهد(تيان باو) وتم بناؤه في اليوم العشرين من الشهر الثامن، ثم اقترح الإمام بدر الدين نصب لوحة حجرية تخليدًا لذكرى هذه الأعمال الخالدة لكيلا تكون نسيا منسيا بمرور الزمان، ولكي يستطيع الباحثون أن يهتدوا إلي معرفة أحوالها السابقة وحقيقتها الغابرة.

.... منصوبة في فصل الخريف سنة742م(9).

كتابة عربية علي ظهر الكتابة الصينية، السابقة الذكر بجامع(شيآن) وهي شاهد للشيخ الإمام بدرالدين بن شمس الدين السوكاكي المتوفي سنة 952هـ- 1542م

ويقول الأستاذ محمد صبيح: "سمعت من الأستاذ الثعالبي(10) رحمه الله أن في الصين عقيدة شائعة، وهي أن أول مسجد أسس في الإسلام إنما أسس في الصين، واسمه مسجد سعد بن أبي وقاص، وذلك لأن سعدًا رحل إلي الصين، ودعا ملكها وقومها بدعوة الإسلام، فأقبل عليه كثيرون وأسسوا مسجدًا، وفي نفس مكانه يقوم الآن مسجد بهذا الاسم رأيت صورته معه. وكما قلت، فنحن لا نعلم أن سعدًا كان من بين رسل النبي إلي الملوك. ولكننا نعلم أنه ليس هناك ما ينفي أن يكون النبي قد فكر في ملك الصين، فمملكته كانت أكبر ممالك الدنيا في ذلك العهد"(11). .

---

(9) بدرالدين حي الصيني(العلاقات بين العرب والصين)، مصدر سابق، ص ص 170- 173.

(10) الزعيم الإسلامي الرحالة السيد عبدالعزيز الثعالبي(1874- 1944) وهو الزعيم السياسي والديني والمصلح والداعية الى الإصلاح والتجديد، ولد في تونس وتخرج في جامعة الزيتونة، وكان من أكثر أعلام العصر الحاضر شغفًا بالرحلة والتنقل، وقد زار جميع بلاد الإسلام ومنها الصين.

(11) محمد صبيح(شيانج كاي- شيك)، مصدر سابق، ص ص 38- 39.

وقد حدثني شخصيًا الدكتور مصطفي الأمير الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية- بعد عودته من الصين حيث كان يعمل بجامعاتها أستاذًا للدراسات المصرية القديمة- أن أول مسجد أسس خارج الجزيرة العربية كان مسجد في الصين علي مدخله لوحة تذكارية، مكتوب عليها باللغة العربية أن مؤسسه(ابن وقاص)[12].

(12) محمد محمود زيتون(الصين والعرب عبر التاريخ)- سلسلة (اقرأ)- دار المعارف- القاهرة- 1964، ص42.

المبحث السادس عشر
«أخبار الصين والهند»
أول كتاب باللغة العربية
عن أحوال الصين

1. العرب أسبق الأمم كتابة عن الصين:

يقول المستشرق والجغرافي الإسكتلندي Sir Henry Yule(1820 -1889) إن: "أقدم الكتابات الوصفية لشهود عيان أجانب عن الصين كانت جميعها، بإستثناءات قليلة جدًا، عربية"[1].

وكلام العرب عن الصين، وقد كُتب منذ سلالة تانغ فصاعدًا، استند إلي صلة وثيقة، لأن التجار العرب والفرس، منجذبين بالإنتاج الوفير والثقافة العجيبة، أقاموا في مدن الصين وموانئها الرئيسة الأكثر انشغالًا بتصدير البورسلين والحرير مثل تشانغآن (عاصمة الصين آنذاك)، وكانتون، وكوانجو، وفوجو. وكتاب بول بليوت عن مفردات ماركو بولو وفرة من الإشارات إلي مراجع وأصول فارسية وعربية. وكذلك هربرت فرنكه، ليس فقط جريًا وراء سراب العثور علي ما يشير إلي ماركو بولو، بل إنطلاقًا من احتمال أن يكون ماركو بولو هذا قد اعتمد علي كتاب إرشاد فارسي كمادة مرجعية رئيسة اعتبر معاينة المصادر العربية والفارسية أمرًا بالغ الأهمية[2].

إن الرحالة العرب كانوا يمتلكون تراثًا أعرق من المعرفة عن الشرق الأقصي. فقد حاول المقدسي أن يثبت من القرآن أن في العالم بحرين هما: بحر الروم، والبحر الصيني، مستندًا إلي سورة الرحمن آية(19) وما بعدها، حيث يقول الله تعالي: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ۝٢٢﴾ [الرحمن: 19-22]؛ ويقول أنه لقي أبا علي بن حازم بساحل عدن، وكان الشيخ من أعلم الناس بالبحر الصيني، لأنه إمام التجار، ومراكبه أبدًا تسافر إلي أقاصية،

(1) Colonel Sir Henry Yule, Cathay and the Way Thithez(London, 1916), P. 125.

(2) Herbert Franke, "Sino- Western relations Under the Mongol Empire", Jour nal of the Royal Asiatic Society Hong Kong Branch, 6, Hong Kong, 1966, P. 54.

فسأله عن صفة بحر الصين، فمسح الرمل بكفه، ورسم صورة البحر أمام المقدسي، وبيَّن له معارجه المتلسنة وشعبه الكثيرة[3].

وزعم ابن حوقل أن الرمل المعروف بالهبير يمتد من وراء جبلي طئ غربًا مارًا بمصر والمغرب، حتي ينتهي بالمحيط وغانه، وكذلك يمتد شرقًا إلي الصين والمحيط، وهو يزعم كذلك أن جبال الصين تمتد إلي التبت وفارس وأرمينية، حتي تتصل بجبال الشمال وجبال المقطم وجبال المغرب. ولعل أول من ذهب إلي ذلك ابن خرداذبة.

وفي القرن الرابع الميلادي قويت عزيمة الإستطلاع العلمي، وكان الناس يصغون متشوقين لما يقصه عليهم البحريون من مشاهداتهم وتجاربهم ومن أخبار الهند والصين. (أخبار الصين والهند) طبعة رينو Reinaud مارس 1811م. وحوالي منتصف القرن الثالث الهجري أرسل الخليفة الواثق بعثة برية إلي سد يأجوج ومأجوج. وكذلك حكي أبو دُلف خبر رحلته إلي بلاد آسيا الوسطي والشرقية حوالي 333هـ/ 944م.

إن من دواعي الفخر حقًا... أن يكون العرب أسبق الأمم كتابة عن الصين... وأغزرها مادة، وأدقها وصفًا، وأعمقها إدراكًا، وأبعدها نظرًا، وأصدقها رواية وشهادة، فلا عجب إذا كانت "العربية" أول مصدر للمعرفة الحقيقية عن هذه البلاد السحيقة... المفعمة بالأساطير، المليئة بالعجائب والغرائب[4].

ولا تنحصر أهمية السبق العربي في الكتابة عن الصين فقط، وإنما تتسع هذه الميزة أيضًا حتي تجعل من الثقافة العربية سجلًا وافيًا، يمكن أن يستقي منه كل دارس- في أي ميدان من ميادين المعرفة- عناصر قوية للكشف عن نواحي التطور الإجتماعي لأي جزئية دقيقة من جزئيات العلوم والفنون والآداب.

---

(3) كتاب المقدسي ص11.

(4) محمد محمود زيتون(الصين والعرب عبر التاريخ)، مصدر سابق، ص 86- 87.

لقد بدأ العرب يكتبون عن الصين منذ وطأت أقدامهم أرضها... ولكن لم نستطع الوقوف علي ما كتبوه عنها إلا علي يد تاجر عربي من البصرة، رحل إلي الصين فكتب معلوماته في العام التالي لرحلته أي سنة 237هـ/ 851م... ومع ذلك كان هذا التاجر واسمه(**سليمان التاجر البصري**)... أول من كتب عن الصين حتي الآن، فلا عجب إذا استحق منا كل تقدير وإعجاب، إذا أصبح رائدًا لجميع المؤلفين الذين جاؤوا بعده، وأغلبيتهم العظمي أيضًا من العرب أمثال: المسعودي والقزويني والحموي وابن الأثير وغيرهم.

سليمان التاجر هو من قدامي الرحالة الذين عرفوا برحلاتهم الغريبة ورواياتهم الطريفة عن البلدان التي زارها، ولا نعرف شيئًا عن حياته، سوي ما وصل إلينا من الرواية التي ذكرها عن رحلته، وهي ترجع في الغالب إلي حوالي سنة 237هـ، وقد سافر مرارًا بغرض التجارة إلي الهند والصين، وقد محص ما ورد عنه وتابع خطواته علي ضوء الخرائط الحديثة المستشرق الفرنسي(**فيرن**) فوجدها من حيث الدقة والأمانة بمكانة تذكر له، يقول:

"وهو خير مثال للتجار العرب والفرس الذين توجهوا إلي الصين، وقد أبحر من(سيراف) إلي(مسقط) علي الخليج العربي، ومن هناك إلي(كلم) علي ساحل مليبار، ثم مر بمضيق(بالك) شمال جزيرة(سيلان) ثم عبر خليج البنغال فوصل جزيرة(لنجبالوس) (إحدي جزر نيكوبار) ثم تقدم إلي(كله بره) علي ساحل الملايو الغربي، ومر هناك إلي جزيرة(تيومن) الواقعة إلي الجنوب الغربي من(ملقا) ومنها إلي رأس القديس يعقوب قرب(سايجون) ومن هناك إلي جزيرة(هاينان) فعبر المضيق الذي يفصلها عن أرض الصين ليصل إلي مينا(خانفو) أو (كانتون) الحديثة بالصين".

ورحلة **السيرافي** هي رحلة سليمان التاجر إلي الصين والهند تلقاها مؤرخ جغرافي هو أبو زيد السيرافي ونقلها عنه ومحص رواياتها وأضاف إليها معلومات كثيرة حول الصين

نقلها عن ابن وهب القرشي الذي سافر إلي الصين في سنة 257هـ/ 870م. ويبدو أن أبا زيد وضع اسم **(أخبار الصين والهند)** علي مدونات السيرافي بعد إضافة معلومات ابن وهب. فقد عاش سليمان السيرافي في منتصف القرن التاسع الميلادي بالعراق، وكتب كتابه الأشهر(أخبار الصين والهند) في سنة 851م، وأضاف إليه أبو زيد الجزء الثاني في سنة 880م.

وكان أبو زيد- ولو لم يذهب إلي الصين وقد اعترف بذلك علانية في كتابه- مواظبًا علي الإشتغال بتكميل ما كتب سليمان عن الهند والصين. وربما قد سأل كثيرون من الذين سافروا إلي تلك البلاد عن أحوالها وأهلها. فجاء بمعلومات أفيد مما رواه سليمان من جهة تاريخ الإسلام في الصين. وهو أول من ذكر مهمة ابن وهب القرشي إلي عاصمة الصين فنقل عنه المسعودي في كتابه الشهير "مروج الذهب ومعدن الجوهر". والمشاهدات والمعلومات القيمة التي ذكرها سليمان تتحلي بالأهمية العلمية الكبيرة في نظر المحققين لأنها من التجارب ومبنية علي الحقائق لم تشوهها التعليلات المنطقية. وما أضافه أبو زيد من المعلومات لا يقل أهمية من ناحية العلم والتاريخ مما كتبه سليمان وخاصة فيما يتعلق بموقف إمبراطور الصين من الإسلام.

وتحدث عالم البحار والكاتب المصري البارز في أدب الرحلات الدكتور حسين فوزي(1900- 1988) - تحدث عن هذه الرحلة وقال إنها "تعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن التاسع. وربما كانت الأثر العربي الوحيد الذي يتحدث عن سواحل البحر الشرقي الكبير والطريق الملاحي إليها علي أساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه إلي أحاديث تاريخية وغيرها مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب؛ وإذا رأينا فيما بعد ابن خرداذبة وابن الفقيه والأصطخري وابن حوقل والمسعودي يتكلمون علي أساس من المعرفة الشخصية

لبعض المواضع التي يذكرونها، فإنهم أيضًا ينقلون الكثير عن ذلك الأثر العربي الأول بلفظه ومعناه في بعض الأحيان، وبما يكاد يكون لفظه ومعناه في البعض الآخر"[5].

ذلك الأثر العربي هو مخطوط فريد لا عنوان له، عثر عليه الأب رينودو Renaudot سنة 1718 ميلادية في إحدي مكتبات باريس الخاصة، التي انتقلت فيما بعد إلي دار الكتب الأهلية، ونشر ترجمته بعنوان "أخبار قديمة من الهند والصين أوردها اثنان من الرحالة المسلمين سافرا إلي هناك في القرن التاسع الميلادي" ثم جاء المستشرق رينو فنشر الأصل العربي والترجمة في سنة 1845؛ وقد ظهر أن الأب رينودو أخطأ في وصفه المخطوط بأنه أخبار اثنين من الرحالة المسلمين، إذ لم يكن هناك سوي رحالة واحد، هو تاجر اسمه سليمان، ألف شطرًا من المخطوط، أما صاحب الشطر الثاني واسمه أبو زيد حسن السيرافي، فكان هاويًا جغرافيًا يتسقط المعلومات عن الهند والصين من ألسنة التجار البحريين بسيراف، وهو لا يدعي لنفسه السفر إلي تلك البلاد، بل هو معترف صراحة بأنه جمع بعض المعارف وبوبها وضم فصولها إلي مذكرات التاجر سليمان وكان قد مضي علي كتابتها ستون عامًا[6]. وأضاف عليها أبو زيد حسن السيرافي معارفه التي جمعها بالسماع، بعد أن أيد أغلب ما ذكره سلفه، وحكي حكايات ورد بعضها في "مروج الذهب" لأبي الحسن المسعودي، مما رجح الظن عند رينو بأن أبا زيد التقي بأبي الحسن وتبادلا معارفهما، ومن أهم ما اشتركا في سرده حكاية رجل من قريش يعرف بابن وهب من ولد هُبا بن الأسود خرج من البصرة عندما خربها الزنج فوقع إلي سيراف، وسافر منها يريد بلاد الصين، ثم نزعت به همته إلي قصد ملك الصين الأكبر، وهو الملقب بالبغبور[

(5) د. حسين فوزي(حديث السندباد القديم)- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، عام 1943، ص 21- 32.

(6) انظر المرجع السابق.

بغ : معناها سماء، بور: معناها ابن] فسار إلي حاضرته حمدان، وهي مقدار شهرين من خانفو وسعي إلي مقابلته كما بينا في الصفحات السابقة.

وزبدة القول، إن كتاب (أخبار الصين والهند) يُعد مستندًا هامًا جدًا لفهم المعارف البحرية عند كُتاب العربية في القرون الوسطي. واتفق علماء الغرب علي أن الكتاب يعتبر من الكتب العربية التي يجب علي الباحث أن يستند إليه أو يراجعه إذا أراد البحث عن علاقة العرب بالصين أو كتابة شئ عن هذه الناحية، كما يجب عليه أن يراجع المسعودي والبيروني في البحث عن أحوال الممالك الشرقية الآسيوية في القرون الوسطي.

ومخطوطة رحلة أبي زيد السيرافي التي وصلتنا في نسخة فريدة وحيدة هي الموجودة بمكتبة باريس الأهلية، وقد أضاف إليها النساخ مقدمة لا علاقة لها البتة بمحتويات الكتاب، وزاد المشكلة تعقيدًا أن المخطوطة تحمل عنوانًا غير مناسب علي الإطلاق، ولا يتفق مع موضوع الكتاب، هو عنوان(سلسلة التواريخ) وقد صدرت طبعة رينو سنة 1811 تحمل هذا العنوان.

يلاحظ المستشرق الفرنسي **أندريه ميكيل(1929-...)**: أن الأخبار في كتاب الصين والهند مأخوذة من التجار لا البحارة، ودليله علي ذلك أن البحارة يعرفون البحر والساحل: شواطئه ومرافئه، في حين أن التجار يرون داخل البلاد التي يقيمون فيها سنوات طوالًا أحيانًا، بعد اجتيازهم البحر وواجهات القارات المينائية... وهكذا أصبحت أخبار الصين والهند علي نطاق واسع مصدر معلومات عن التنظيم السياسي والإقتصادي والإجتماعي والثقافي في البلاد المجتازة... كما يفسر الإهتمام بالمجتمعات الغريبة في جميع أخبار الصين والهند بقدرة هذه المجتمعات علي التذكير - تماثلًا أو تناقضًا- بالمجتمع الذي ينتمي إليه مصنف الكتاب، علي نحو الحديث عن العادات

الغذائية. وفي أحيان أخري تأتي مصاغة بألفاظ شتي- دون وعي الكاتب- بذهنيته أو كما نقول اليوم بأيديولوجيته[7].

كما يبدي أندريه ميكيل ملاحظة ذكية حين يقول: انه في العهد الذي كانت فيه الحركة التجارية كثيفة في الاتجاهين، لا يرد في(أخبار الصين والهند) إلا ذكر المواد المجلوبة إلي العراق، كالعنبر والكافور والحجارة الكريمة والمعادن والخشب الثمين... وغيرها من المواد، وبالتالي تستغني هذه الرؤية عن فكرة التبادل الإقتصادي، ويحل محلها مفهوم الحاجة الوحيدة الإتجاه[8].

ترجمات الكتاب: يحظى الكتاب بثلاث ترجمات إلي اللغة الفرنسية

الترجمة الأولي: هي ترجمة معها النص الأصلي بجزأيه وهي ترجمة رينو عام1845. وكانت بداية هذا النص ثمة سطور لا تمت بصلة بموضوع الكتاب، ولكنها أقحمت عليه لتغطية ما فقده النص الأصلي ولذا سُمي تسمية خاطئة علي الكتاب وهي: "سلسلة التواريخ". ووضع أبو زيد حسن السيرافي حدًا لهذا اللغط حيث يستهل السطور الأولي من الجزء الثاني الذي أضافه إلي الكتاب، حيث كتب: أنه الكتاب الثاني من "أخبار الصين والهند". ومؤلفا الكتاب(سليمان التاجر، وأبو زيد حسن السيرافي) كانا من أهل سيراف الواقعة حاليًا في إيران والتي كانت تعد من أشهر موانئ الطرق الملاحية بين الخليج العرب يوشرق آسيا.

الترجمة الثانية: ترجمة جابرييل فيران Grabriel Ferrand عام1922.

الترجمة الثالثة: ترجمة جان سوفاجيه Jean Saunaget عام1948.

(7) أندريه ميكيل(جغرافية دار الإسلام البشرية حتي منتصف القرن الحادي عشر) ترجمة: إبراهيم خوري، وزارة الثقافة السورية، دمشق، جـ1، صفحات 213- 214.

(8) المصدر السابق، ص215.

وتوجد الترجمات الفرنسية الثلاث ونصان عربيان مطبوعان للمخطوط في مدينة الإستشراق الهولندية(لايدن).

والجدير بالذكر أن المستشرق لانجليه `Langles قد طبع النص العربي للكتاب عام 1811م، ثم ترجم المستشرق رينو الكتاب وأعاد طبعه مع مقدمة ونشره عام 1845م.

وابن الفقيه حوالي سنة 290هـ/ 903م- أي بعد نصف قرن- يؤكد نسب الكتاب صراحة إلي سليمان التاجر ليبدد الشكوك التي أثارها بعض المستشرقين حول أحقية ونسب الكتاب إلي صاحبه سليمان التاجر، حيث يقول **كراتشكو** في الحديث عن نسبة تلك الرحلات إلي سليمان التاجر. ونظرًا لعدم وجود معلومات عن سليمان نفسه فإن بعض كبار(الصينيات) مثل يول، وبليو قد تشككوا في نسبة القصص إليه. كما ظهر رأي آخر يري أن هذه القصص لعربي زار الهند. غير أن المستشرق الفرنسي(**فيرن**) لفت الأنظار إلي أن ابن الفقيه ينسب القصص صراحة إلي سليمان.

وقد ترجم هذا الأثر إلي الفارسية تحت عنوان "سلسلة التواريخ" أو "أخبار الصين والهند" بواسطة الدكتور حسين قرجانلو وطبع في سنة 2003م.

ولا غرو أن يصبح الكتاب من المصادر الأجنبية الهامة التي تحدثت عن الصين. ولأهمية رحلة التاجر سليمان، فقد استوقف هذا الأثر أنظار كبار المستشرقين في القرن الثامن عشر وظهرت له منذ عام 1718 ترجمة فرنسية بقلم ريناندو Abbe Renandot.

وتكمن أهمية الكتاب أيضًا في أنه من أوائل الكتب التي رصدت خبرات الملاحين العرب والجغرافيين العرب والرحالة العرب في المحيط الهندي حتي القرن الثالث الهجري(القرن التاسع الميلادي). ويقدم الكتاب صورة عن الطرق البحرية التي سلكها العرب آنذاك في المحيط الهندي غربًا في شمال أفريقيا الشرقي، وحتي ميناء كانتون في الصين؛ فالكتاب "بوصلة" لمن يريد ارتياد تلك الطرق البحرية، ويحقق متعة لقراءاته ككتاب في أدب الرحلات، وأهميته كمرجع مبكر في تاريخ الملاحة العربية.

الكتاب تم تأليفه- الجزء الأول من الكتاب في العام 237هـ/ 851م. وصاحب الجزء الثاني هو أبو زيد حسن السيرافي الذي يذكر ويستهل الجزء الثاني بذكر التمرد الذي وقع في الصين والذي حدده المسعودي في مروجه بعام 264هـ. ويدلنا ذلك أن أبا زيد حسن السيرافي أضاف الجزء الثاني في رواية القرن الثالث الهجري أو أوائل القرن الرابع الهجري.

وقام أبو زيد حسن السيرافي في سنة 916م بمراجعة هذا الكتاب وتحقيقه وأدخل عليه إضافات استند فيها إلي ملاحظات بعض الناس وأخرجه في ثوب قشيب تحت عنوان "أخبار الصين والهند" ورد في هذا الكتاب ذكر(9):

- **تقديم الأخبار الواقعية عن علاقة الصين بالمسلمين في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) حيث يصف المجتمع التجاري الإسلامي في مدينة(خانفو) كانتون، وتولية رجل مسلم منصب الحكم في الصين، وكتب يقول:**

"إن بخانفو(كانتون) وهو مجتمع التجار رجلًا مسلمًا يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلي تلك الناحية بتوخّي ملك الصين ذلك. وإذا كان في العيد صلي بالمسلمين، وخطب ودعا لسلطان المسلمين. وأن التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئًا في أحكامه وعمله بالحق، وبما في كتاب الله عز وجل وأحكام الإسلام".

- **الوصف الجغرافي للطريق البحري للسفن الصينية في الخليج العربي:**

"إن أكثر السفن الصينية تُحمل من سيراف وأن المتاع تُحمل من البصرة وعُمان وغيرها إلي سيراف، فيعبي في السفن الصينية بسيراف، وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه.... وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف(ساحل البحر) بني الصفَّاق وجزيرة أبركاوان. وفي هذا البحر جبال عمان، وفيها

(9) يوسف الشاروني(أخبار الصين والهند)- مرجع سابق.

الموضع الذي يسمي الدردور، وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية.... فإذا جاوزنا الجبال صرنا إلي موضع يقال له صُحار عمان فنستعذب الماء من مسقط من بئر بها، وهناك فئة غنم من بلاد عمان".

- **شيوع لبس الحرير في الصين صيفًا وشتاءً. وإن اختلف نوعًا عند الملوك والعامة:**

" ولباس أهل الصين الصغار والكبار الحرير في الشتاء والصيف: فأما الملوك فالجيد من الحرير، ومن دونهم فعلي قدرهم. وإذا كان الشتاء لبس الرجل السراويلين والثلثة والأربعة والخمسة وأكثر من ذلك علي قدر ما يمكنهم، وإنما قصدهم أن يدفئوا أسافلهم لكثرة الندي وخوفهم منه. وأما الصيف فيلبسون القميص الواحد من الحرير ونحو ذلك، ولا يلبسون العمائم".

- **عادات الصين في الطعام والشراب:**

"وطعامهم من الأرز وربما طبخوا معه الكوشان(يخنه) فصبوه على الأرزّ فأكلوه. فأما الملوك منهم فيأكلون(الحنطة) القمح واللحم من سائر الحيوان ومن الخنازير وغيرها".

"ويأكلون الميتة وما أشبهها مما يصنعه المجوس فإن دينهم يشبه دين المجوس".

"والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه، فيضربون هامته حتى يموت".

- **الطهارة في الصين:**

"وليس لهم نظافة ولا يستنجون بالماء إذا أحدثوا، بل يمسحون ذلك بالقراطيس الصينية".

"وأهل الصين يلوطون بغلمان قد أُقيموا لذلك بمنزلة زواني البددة".

"ولا يختتن الهند ولا الصين".

- **الفواكه في الصين:**

"ولهم من الفاكهة التفاح والخوخ والأترج والرمان والسفرجل والكمثرى والموز وقصب السكر والبطيخ والتين والعنب والقثاء والخيار والنبق والجوز واللوز والجلوز والفستق والإجاص والمشمش والغبيراء والنارجيل...

وليس لهم فيها كثير نخل إلا النخلة في دار أحدهم. وشرابهم النبيذ المعمول من الأرز، وليس في بلادهم خمر ولا تُحمل إليهم ولا يعرفونها ولا يشربونها، ويعمل من الأرز الخل والنبيذ والناطف وما أشبه ذلك".

- **النساء والزواج في الصين:**

"ونساؤهم يكشفن رؤوسهن ويجعلن فيها الأمشاط فربما كان في رأس المرأة عشرون مشطًا من العاج وغير ذلك. والرجال يغطون رؤوسهم بشيءٍ يشبه القلانس، وسُنتهم في اللصوص أن يُقتل اللص إذا أُصيب".

"ونساؤهم مكشفات الشعور، والرجال يغطون رؤوسهم. وبها قرية يقال لها تايو في الجبل فيهم قِصَر، وكل قصير ببلاد الصين يُنسب إليها، وأهل الصين أهل جمال وطول وبياض نقي متشرب حمرة. وهم أشد الناس سواد الشعور، ونساؤهم يُجزين شعورهن".

- **الزواج في الصين:**

"وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانئوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول. وهديتهم من المال على قدر الإمكان. وإذا أحضر أهل الرجل منهم إمرأة فبغت فعليها وعلى الباغي بها القتل في جميع بلاد الهند. وإن زنى رجل بإمرأة اغتصبها نفسَها قُتل الرجل وحده، فإن فجر بامرأة على رضى منها قُتلا جميعًا ".

- **مكانة ملك الصين بين ملوك الدنيا:**

"أهل الهند والصين مجمعون علي أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة. فأول من يعدون من الأربعة ملك العرب وهو عندهم إجماع لا اختلاف بينهم فيه أنه ملك أعظم الملوك وأكثرهم مالًا وأبهاهم جمالًا، وأنه ملك الدين الكبير الذي ليس فوقه شئ. ثم يعد ملك الصين نفسه بعد ملك العرب ثم ملك الروم ثم بلهرا ملك المخرمي الآذان".

- **الملوك المحليون في مدن الصين البالغ عددها مائتين، والأبواب الأربعة التي لكل مدينة:**

"ويقال إن لملك الصين من أمهات المدائن أكثر من مائتي مدينة، ولكل مدينة ملك وخصي، وتحت كل مدينة مدائن. فمن مدائنهم خانفو وهي مرسي السفن تحتها عشرون مدينة. وإنما تسمي مدينة إذا كان لها جادم، والجادم، مثل: البوق ينفخ فيه وهو طويل،.... ويذهب صوته نحوًا من ميل. ولكل مدينة أربعة أبواب فعلي كل باب منها من الجادم خمسة تنفتح في أوقات من الليل والنهار، وعلي(باب) كل مدينة عشرة طبول تُضرب معه، وإنما يُفعل ذلك لتُعلم طاعتهم للملك، وبه يعرفون أوقات الليل والنهار ولهم علامات ووزن للساعات".

" واسم ملوكهم علي قدر الجاه وكبر المدائن. فما كان من مدينة صغيرة يسمي ملكها طوشي، ومعني طوشي(محافظ، حاكم) أقام المدينة. وما كان من مدينة مثل خانفو فاسم مالكها ديغو. والخصي يدعي طوقام وخصيانهم منهم مسلولون. وقاضي القضاة يقال له لُقشي صامكون شي، ونحو هذا من الأسماء مما لا نضبطه".

"وليس يملك لأحد منهم لأقل من أربعين سنة. يقولون: (قد حنكته التجارب)".

"والملوك الصغار إذا قعد أحدهم في مدينته علي كرسي في بهو عظيم وبين يديه كرسي وتُرفع إليه الكتب التي فيها أحكام الناس، ومن وراء الملك رجل قائم يدعي لنجون".

"فأما الملك الأكبر فلا يُري إلا في كل عشرة أشهر. يقول: "إذا رآني الناس استخفوا بي، والرئاسات لا تقوم إلا بالتجبر، وذلك أن العامة لا تعرف العدل فينبغي أن يُستعمل معهم التجبر لنعظم عندها".

- **الشاي في الصين:**

"ويختص الملك من المعادن بالملح وحشيش يشربونه بالماء الحار ويباع منه في كل مدينة بمال عظيم ويقال له إلساخ. وهو أكثر ورقًا من الرطبة وأطيب قليلًا وفيه مرارة، فيغلي الماء ويُذر عليه فهو ينفعهم من كل شيٍ. وجميع ما يدخل بيت المال الجزية والملح وهذا الحشيش".

يري مصطفي الشهابي في كتابه "الجغرافيون العرب" أن المقصود بهذا الحشيش هو الشاي، وأن هذه أول إشارة لمؤلف غير صيني عن هذا النبات.

وسليمان السيرافي أول من عرف من العرب أن عند الصينيين شرابًا، يؤخذ من نوع من الحشائش يقال له(الساخ). وما كلمة(الساخ) إلا محرفة من أصلها الصيني(تشا). فدخلت في الفارسية والأردية والتركية والروسية وبعض اللغات الأخري في سورة(جائه) وفي العربية في صورة(شاي)، وطريق صنعها قديمًا وحديثًا هو كما وصفه سليمان وبينه في كتابه. والحقيقة أن الشاي من أهم مشروبات الصينيين. ومن أهم الإيرادات لخزانة الحكومة في القديم والحاضر[10].

وقد كان سليمان **أول من ذكر أن لباس أهل الصين الكبار والصغار الحرير**، في الشتاء والصيف، وهو القائل إن ثياب الصينيين شبيهة كثيرًا بثياب العرب، وربما أيضًا **كان أول من تحدث عن الشاي** الذي لم يكن العرب يعرفونه، والذي وصفه بقوله: إنه

(10) (العلاقات بين العرب والصين)- مصدر سابق، ص91.

حشيش يشربونه بالماء الحار، ويباع منه في كل مدينة بمال عظيم، ويقال له "الساخي"... وهو أكثر ورقًا من الرطبة وأطيب قليلًا، وفيه مرارة، فيغلي الماء ويذر عليه، فهو ينفعهم في كل شئٍ[11].

- **العبادة في الصين:**

كان سليمان السيرافي **أول من تكلم في ديانة الصين من العرب، حيث قال:**

"أهل الصين يعبدون الأصنام ويصلون لها ويتضرعون".

"وأهل الصين والهند يزعمون أن البددة(الأصنام) تكلمهم وإنما يكلمهم عبادهم".

"وليس لأهل الصين علم وإنما أصل ديانتهم من الهند، وهم يزعمون أن الهند وضعوا لهم البددة وأنهم أهل الدين، وأهل كلا البلدين يرجعون إلي التناسخ، ويختلفون في فروع دينهم".

- **وصف الصين:**

"وبلاد الصين أنزه وأحسن، وأكثر الهند لا مدائن لها. وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة. وبلاد الصين أصح وأقل أمراضًا وأطيب هواء: لا يكاد يُري بها أعمي ولا أعور ولا من به عاهة هكذا......

وأهل الصين أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب في اللباس والدواب، وهم في هيئتهم وفي مراكبهم شبيه بالعرب: يلبسون الأقبية....

ولأهل الصين أيضًا طب وأكثر طبهم الكي، ولهم علم بالنجوم وذلك بالهند أكثر، ولا أعلم أحدًا من الفريقين مسلمًا ولا يتكلم العربية. وللهند خيل قليلة وهي للصين أكثر وليس للصين فيلة ولا يتركونها في بلادهم تشاؤمًا بها.

(11) (الإسلام في الصين)- عالم المعرفة- مصدر سابق، ص71.

والهند لا يأتون النساء في الحيض ويخرجونهن عن منازلهم تقززًا منهن، والصين يأتونهن في الحيض ولا يخرجونهن. وأهل الهند يستاكون ولا يأكل أحدهم حتي يستاك ويغتسل، وليس يفعل ذلك أهل الصين.

وأكثر أهل الصين لا لحا لهم خلقة لأكثرهم.

والنمور والذئاب ببلاد الصين جميعًا، فأما الأسد فليست بكلا الولايتين.

ويُقتل قاطع الطريق.

وفي بلاد الهند مفاوز كثيرة والصين كلها عمارة".

- **عادات الصين في دفن الموتي:**

" وإذا مات الرجل من أهل الصين لم يدفن إلا في اليوم الذي مات في مثله من قابل(أي في اليوم المماثل لوفاته من السنة التالية) يجعلونه في تابوت ويخلونه في منازلهم ويجعلون عليه النورة(حجر الكلس) فتمص ماءه ويبقي. والملوك يجعلون في الصبر والكافور. ويبكون علي موتاهم ثلث سنين ومن لم يبك ضُرب بالخشب، كذلك النساء والرجال يقولون: "إنه لم يحزنك ميتك؟" ويدفنون في ضريح كضريح العرب ولا يقطعون عنه الطعام ويزعمون أنه يأكل ويشرب، وذلك أنهم يضعون عنده الطعام بالليل فيصبحون ولا يجدون منه شيئًا فيقولون: "قد أكل"....."

وفي الجزء الثاني من الكتاب(أخبار الصين والهند) يدحض أبو زيد الحسن السيرافي مزاعم الصينيين من أن الميت يأكل ويشرب، ويقول: "ووجدت جميع ماحُكي في الكتاب علي سبيل حق وصدق إلا ما ذُكر فيه من الطعام الذي يقدمه أهل الصين إلي الموتي منهم، وأنه إذا وُضع بالليل عند الميت أصبحوا فلم يوجد، وادعوا أنه يأكله، فقد كان بلغنا هذا حتي ورد علينا من ناحيتهم من وثقنا بخبره فسألناه عن ذلك فأنكره، وقال: هي دعوي لا أصل لها كدعوي أهل الأوثان أنها تكلمهم".

- **انتشار الخط والكتابة لا فرق في ذلك بين غني وفقير:**

"وفي كل مدينة كُتاب ومعلم الفقراء، وأولادهم من بيت المال يأكلون".

"والفقير والغني من أهل الصين والصغير والكبير يتعلم الخط والكتابة".

- **أجراس الشكوي والمظلمة في المدن الصينية:**

"وفي كل مدينة شيء يدعي الدَّار وهو جرس علي رأس ملك تلك المدينة مربوط بخيط مادّ علي ظهر الطريق للعامة كافة، وبين الملك وبينه نحو من فرسخ، فإذا حُرك الخيط الممدود أدني حركة تحرك الجرس. فمن كانت له ظلامة حرك هذا الخيط فيتحرك الجرس منه علي رأس الملك فيؤذن له بالدخول حتي يُنهي حاله بنفسه ويشرح ظلامته، وجميع البلاد فيها مثل ذلك".

- **السفر داخل مملكة الصين:**

"ومن أراد سفرًا من بعضها إلي بعض أخذ كتابين من الملك ومن الخصي، أما كتاب الملك فللطريق باسم الرجل واسم من معه وكم عمره وعمر من معه ومن أية قبيلة هو: وجميع من ببلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لابد لهم أن ينتموا إلي شيء يُعرفون به. وأما كتاب الخصي فبالمال وما معه من المتاع، وذلك لأن في طريقهم مسالح(نقاط تفتيش) ينظرون في الكتابين......."

وذكر الكتاب بعض **"العجائب والغرائب"** نذكر منها:

- **قتل البشر شرط ضروري للزواج**

قال سليمان في وصف بعض جزائر المحيط الهندي أن لأهلها ذهبًا كثيرًا "وأكلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدهنون، وإذا أراد واحد منهم أن يتزوج، لم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم، فإذا قتل إثنين زُوج إثنين، وكذلك إن قتل خمسين زُوج خمسين إمرأة

بخمسين قحفًا وسبب ذلك أن أعداءهم كثير، فمن أقدم على القتل أكثر كانت رغبتهم فيه أوفر".

- **جزائر العراة**

"جزائر تُدعى لنجبالوس وفيها خلق كثير عراة الرجال منهم والنساء، غير أن على عورة المرأة ورقًا من ورق الشجر".

"هناك جزيرتان بينهما بحر يقال لهما أندامان وأهلهما يأكلون الناس أحياء. وهم سود مفلفلو الشعور مناكير الوجوه والأعين، طوال الأرجل. فرج أحدهم -يعني ذكره- مثل الذراع: عراة ".

- **سمك يبتلع البشر**

"وهذا البحر -أعني هركند- إذا عظمت أمواجه تراه مثل النار يتقد. وفي هذا البحر سمك يدعى اللُّخم، وهو سمك يبتلع الناس".

- **الكحل من سرطان نهري**

"... وذكروا أن في البحر حيوانًا يشبه السرطان، فإذا خرج من البحر صار حجرًا. قال: ويُتخذ منه كحل لبعض علل العين".

- **جبل سرنديب هبط عليه آدم**

"... وفي أرضها (جزيرة سرنديب) جبل يُدعى الرهون وعليه هبط آدم عم وقدمه في صفا رأس هذا الجبل منغمسة في الحجر: في رأس هذا الجبل قدم واحدة. ويقال: إنه عم خطا خطوة أخرى في البحر. ويقال: إن هذه القدم التي على رأس الجبل نحو من سبعين ذراعًا".

- **جبل النار**

" وذكروا أن بقرب الزابج جبلًا يسمى جبل النار لا يُقدر على الدنو منه، يظهر منه بالنهار دخان وبالليل لهب نار، ويخرج من أسفله عين باردة عذبة وعين حارة عذبة".

وفي الجزء الثاني من كتاب "أخبار الصين والهند" الذي كتبه أبو زيد حسن السيرافي يسلط الأضواء على الأوضاع السياسية والإجتماعية التي شهدت القلاقل والزعازع إبان إندلاع تمرد وعصيان أطاحا بالإمبراطور الصيني وأحدثا دمارًا وخرابًا في المدن الصينية. كما بيَّن دور الجيوش العربية في مساعدة الإمبراطور الصيني وإستعادة عرشه والأمن في البلاد - وكتب يقول:

"السبب في تغير أمر الصين عما كان عليه من الأحكام والعدل وأنقطاع الجهاز إليه من سيراف أن نابغا نبغ فيهم من غير بيت الملك يعرف ببانشوا، وكان مبتدأ أمره الشطارة والفتوة وحمل السلاح والعبث وإجتماع السفهاء إليه، حتى اشتدت شوكته واستحكم طمعه، فقصد خانفوا (كانتون) من بين مدن الصين، وهي المدينة التي يقصدها تجار العرب وبينها وبين البحر مسيرة أيام يسيرة، وهي على واد عظيم وماء عذب فامتنع أهلها عليه فحاصرهم مدة طويلة، وذلك في سنة أربع وستين ومائتين إلى أن ظفر بها فوضع السيف في أهلها، فذكر أهل الخبرة بأمورهم أنه قتل من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس سوى من قتل من أهل الصين مائة وعشرون (وعشرين) ألف رجل كانوا تبوؤا بهذه المدينة فصاروا بها تجارًا، وإنما عُرف مقدار عدد هذه الملل الأربع لتحصيل أهل الصين بعددهم (فرض ضرائب على كل أجنبي)، وقطع ما كان فيه من شجر التوت وسآير الأشجار، وذكرنا شجر التوت خصوصًا لإعداد أهل الصين ورقة لدود القز حتى يلف الدود، فصار سببًا لإنقطاع الحرير خاصة عن بلاد العرب،... ".

يحدثنا أبو زيد هنا عن تمرد وعصيان آنلوشان AnLushan Rebellion في الفترة من 16 ديسمبر إلي 17 فبراير 763م، ففي العام 754م كانت الصين- في الحقيقة- تواجه ثورة هائلة داخل أروقة الإمبراطورية وكادت أن تقوض دعائمها وتنذر بزوال أسرة تانغ الحاكمة في ذلك الوقت، لولا مساعدة الأواغر والمسلمين لهما. والأواغر قوم جدد تفرعوا عن التتار في أوائل القرن الثامن الميلادي. ولعل هذا هو السبب الذي جعل(الصين) لا

تتدخل في الأمور السياسية في آسيا الوسطي، واضطرها إلي تحسين علاقاتها وتعزيز روابطها مع العرب والترك الذين دخلوا الإسلام في آخر عهد بني أمية. والتجأ الإمبراطور الصيني(سو جونغ) إلي طلب مساعدتهم في قمع عصيان آنلوشان.

وكان هذا الثائر يدعي(آنلوشان) الذي رفع لواء العصيان والتمرد ضد الحكم القائم في سنة 754م، وكان تولي منصب المحافظ في إحدي الولايات في السنة التي انقرضت فيها الدولة الأموية وتدشين الدولة العباسية في الإمبراطورية العربية في عام 750م. وكان تقدم إلي الإمبراطور الصيني(يونغ جونغ) بطلب للحضور إلي العاصمة وتقديم ثلاثة آلاف من الخيول إليه. ولكن الإمبراطور توجس خيفة من نواياه بعد أن عرف ما يضمره في قلبه وحقيقة الأغراض التي أراد أن يحققها بحضوره إلي العاصمة، ولكن آنلوشان قد عزم علي العصيان ومهاجمة العاصمة الشرقية لوايانغ(في مقاطعة خونان حاليًا) وامتد نفوذه إلي العاصمة الغربية تشانغآن(في مقاطعة شانسي حاليًا) واستطاع أن يفتحها وقتل عشرات من أفراد الأسرة الحاكمة، ونادي بنفسه إمبراطورًا للصين.

واضطر الإمبراطور الجالس علي عرش البلاد آنذاك(يونغ جونغ) إلي الفرار إلي مدينة(باوآن)، بينما كان ولي العهد يمكث في مدينة بين ليانغ وسافر إليه الوزراء للتشاور للخروج من المأزق، واتفقوا علي تنصيبه إمبراطورًا وخلعوا عليه لقب(سو جونغ). وكان ذلك في العام 755م. ويقرر الإمبراطور الجديد الإستنجاد بالدول الصديقة المتاخمة لحدود الصين وسافر أحد وزرائه إلي بلاد الأواغرة في تركستان مستغيثًا بأمرائها وطلب منهم أن يزحفوا علي طريق شيآن. وفي أواخر عام 755م وصلت قوات الأواغرة قوامها خمسة آلاف محارب، ودارت رحي الحرب واشتبكت مع جيوش آنلوشان الثائر لمدة سنتين. وانتهت المعركة بإلقاء القبض علي آنلوشان زعيم الثورة وأردوه قتيلًا، وتمت السيطرة علي العاصمة الغربية(تشانغآن)، ودخل جيش المسلمين العاصمة الشرقية(لوايانغ) مع قائد صيني فاتحين منتصرين ووضعت ثورة آنلوشان أوزارها، وتم

تطهير البلاد من رجسه، وتمكنت الصين أن تتمتع بالأمن والنظام مرة أخري، واستطاعت أسرة تانغ أن تستمر في الحكم حتي منتصف القرن العاشر الميلادي.

ويروي المؤرخ الكبير موسيو دابري مؤلف كتاب "المحمدية في الصين" أن إمبراطور الصين قد طلب الإغاثة العسكرية من الخليفة أبي جعفر المنصور في قمع ثورة (آنلوشان). ويذكر الشيخ بيرم التونسي المتوفي في عام 1889م في كتابه "صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار" أن أصل في الصين وهم ينيفون علي الستين مليونًا من السكان ومن العساكر المسلمين الذين جلبهم إمبراطور الصين في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، حيث ثارت عليه رعاياه، فاستنجد بالخليفة علي أن يؤدي معلومًا إذا أنجده فأرسل إليه أربعة آلاف من صناديد المسلمين وقهر بهم رعاياه، وجازاهم علي ذلك بجواز الإقامة في مملكته.

والمستشرق المشهور بدراسات تاريخ وجغرافيا آسيا الوسطي وآسيا الغربية من القرن الثالث عشر إلي القرن السابع عشر والمعروف باسم(بريتخ نائدر) يستند في كتابه(علم الصينيين القدماء عند العرب) إلي المصادر التاريخية مثل كتاب(كتاب أسرة تانغ) وكتاب(كتاب تاريخ أسرة تانغ) إلي أن إمبراطور الصين قد استرد عاصمتيه الشرقية والغربية وقمع ثورة آنلوشان بمساعدة الجيوش التي بعثها الخليفة أبو جعفر المنصور في سنة 757م[12].

إن ثورة آنلوشان قد قمعت في سنة 757 نهائيًا، وكان ذلك بفضل أولئك الأواغر والعرب الذين جاؤوا إلي مساعدة الإمبراطور(سو جونغ). وبعد ذلك خيرهم بالعودة أو الإقامة. فقد عاد من عاد بعدما لقي من الحفاوة والإكرام من أمراء الصين الذين عاونوهم في تثبيت أركان الدولة ورد الحكم إلي ذويه. وأقام من فضل الإقامة فيها[13].

(12) Breitachneidez: The Ancient Chinese Knowledge on the Arabs, P. 9.

(13) (العلاقات بين العرب والصين)- مصدر سابق، ص 41.

ويروي الشيخ بيرم التونسي الذي قد تقدم ذكره، أنهم أقاموا علي شروط وهي استقلالهم في إدارتهم الخصوصية وعبادتهم وشعائرهم فأجاز لهم مطالبهم. لكن فرقهم علي المدن العظيمة في مملكته. وصار في كل مدينة، مدينة مستقلة بالمسلمين علي حسب كثرتهم وقلتهم مستقلين في أحكامهم الخصوصية متمسكين بالدين وأجاز لهم أيضًا التزويج ببنات السكان ومصاهرة الأعيان فكثروا في مدة وجيزة وانتشروا. ومن ذلك الحين، ازداد الود بين أسرة تانغ ورؤساء الأواغرة من جهة، وكثرت السفارات بين الصين والعرب من جهة أخري[14].

كما يقدم الجزء الثاني (الملحق) وصفًا لـ "ديوان الزواني" علي هذا النحو:

"وفيهم نساء(من أهل الصين) لا يردن الإحصان ويرغبن في الزنا، وسبيل هذه أن تحضر مجلس صاحب الشرط فتذكر زهدها في الإحصان ورغبتها في الدخول في جملة الزواني وتسأل حملها علي الرسم(أي وتعلن الإلتزام المفروض علي أمثالها) في مثلها، ومن رسمهم فيمن أراد ذلك من النساء أن تكتب نسبها وحليتها(أوصافها) وموضع منزلها، وتثبت في ديوان الزواني، وتجعل في عنقها خيطًا فيه خاتم من نحاس مطبوع بخاتم الملك، ويرفع إليها بمنشور يذكر فيه دخولها في جملة الزواني وأن عليها لبيت المال في كل سنة كذي وكذي فلسًا، وأن من تزوجها فعليه القتل، فتؤدي في كل سنة ما عليها ويزول الإنكار عنها.

فهذه الطبقة من النساء يخرجن بالعشيات عليهن ألوان الثياب من غير استتار، فيصرن إلي من طرأ إلي تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد وأهل الصين، فيقمن عندهم وينصرفن بالغدوات.....".

(14) انظر كتاب(صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار)- الجزء الأول- ص23.

- **مهارة الصانع الصيني:**

قد أجمع أشهر الرحالة المسلمون أن أهل الصين من أمهر أهل الأرض في مجال الصناعة والحرف كلها، لما شاهدوا في مختلف الصناعات كصناعة الأقمشة والفخار والسفن وفنون التصوير والنحت وغيرها، فيذكر السيرافي في مطلع القرن الرابع الهجري أنهم "أحذق خلق الله كفا بنقش وصناعة وكل عمل يقدمهم فيه أحد من سائر الأمم والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه"(15)."

وعُرف عن أهل الصين أنهم أحذق الناس بالصنائع المهنية ولا يدانيهم أحد من الأمم وبالرغم من براعة أهل الروم في نفس المجال ولهم فيها يد عالية إلا أنهم لا يبلغون فيها مبلغ أهل الصين، ويقولون إن الناس كلهم عميان في الصناعة، إلا أهل الروم فإنهم يبصرون بعين واحدة يقصدون بذلك أن الروم أدركوا نصف تقنيات المهارات الحرفية التي لم يتمكن منها إلا الصينيون(16).

---

(15) انظر كتاب(صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار)- الجزء الأول- ص 23.

(16) المروزي: رحلات العرب والفرس ، ص3.

المبحث السابع عشر
الشيخ بيرم التونسي
أول عالم إسلامي ذكر اسم
«هوي هوي»

" فجبت بحارًا وقفارًا ومدنًا وأمصارًا علي حسب ما يسره المقدور، وساعفت الوسائل علي الوصول إلي مشاهدته المعمور ورأيت بعيني البصر والبصيرة أمورًا عجيبة خطيرة".

(محمد بيرم التونسي)

الشيخ بيرم التونسي هو عالم دين ورحالة ومؤرخ وكاتب وصحفي وإصلاحي تونسي، وهو أيضًا جزء من الحركة الإصلاحية في القرن التاسع عشر ومن رواد المنافحين عن فكرة الحداثة.

محمد بيرم الخامس بن مصطفي بن محمد الثالث من بني بيرم، عالم رحالة مؤرخ من علماء تونس، وُلد في مارس 1840م/ 1256هـ بمدينة تونس، وتوفي بحلوان(مصر) في ديسمبر 1889م/ 1307هـ. قدم إسهامات بارزة في إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، وسافر إلي أوروبا، ولما استولي الفرنسيون علي تونس هجر بلاده متجهًا إلي الأستانة ومكث فيها فترة من الزمن حتي توجه إلي مصر عام 1302هـ، وهناك أنشأ جريدة "الاعلام" منذ عام 1885 ميلادية، وهي التي استمرت نحو أربعة أعوام، وتوقفت بتوليه منصب القضاء في محكمة مصر الإبتدائية الأهلية، وودع دنيانا في حلوان ودفن بالقاهرة.

وكان عالمًا فاضلًا كاملًا متضلعًا من العلوم الشرعية بأنواعها مطلعًا علي أحوال الأمم وله الباع الطولي في فنون التاريخ القديم والحديث وكان من ذوي الأقلام البليغة فيما يريد كتابته من المواضيع وقد ألف رسائل كثيرة في الأحاديث والأصول والأحكام الشرعية والجغرافيا التاريخية والسياسية وغيرها، وكلها تدل علي غزارة مادته وسعة تفننه في المعارف والعلوم وكان كثير الإستشهاد بأحوال الأمم الغابرة والحاضرة في كتاباته وأقواله وله قوة حاضرة في إقامة الدليل والبرهان كما يشهد بذلك المقامات الإفتتاحية التي كان ينشرها في جريدة "الاعلام".

وكتبت جريدة "الوقائع المصرية"- وهي جريدة الحكومة المصرية الرسمية- في العدد رقم(145) الصادر في21 ديسمبر1889 ميلادية- كتبت تنعية جاء فيها:

"إنا لله وإنا إليه راجعون في آخر ليلة الخميس الماضي انتقل من هذه الدار الفانية إلي الدار الآخرة المرحوم الشيخ محمد بيرم أحد قضاة المحكمة الإبتدائية الأهلية بمصر، وصاحب جريدة الاعلام العربية. وكانت وفاته-رحمه الله- بمدينة حلوان عقب اشتداد الداء العصبي الذي مُني به من عدة سنين ولم ينجح فيه علاج الأطباء".

1. أهم آثاره: كتاب "صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" [1]:

يهدف هذا الكتاب إلي تقديم رؤية لواقع البلدان التي رحل إليها الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي من زوايا علمية تناول جمع حقائق السياق المجتمعي الذي عاش فيه، والمشكلات التي واجهته والتي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بمنهجية عمله، لذا كان هذا البحث الذي أسهم فيه المؤلف في إثراء تراثنا التاريخي من واقع ظروفه، وبيئته المتطورة سياسيًا واجتماعيًا، والذي نجح فيه أنه ترك مصدرًا عريقًا جديرًا بكل اهتمام ورعاية.

ويأتي الكتاب عرضًا لحصيلة ما قد توصل إليه المصنف في مجال التاريخ، وذكر فيه البلدان التي رحل إليها من أوروبا وآسيا وأفريقيا، وتوسع في مواضيع شتي الكتاب، وأرخ فيه للقطر التونسي في زمن الفتح الإسلامي إلي حين دخول فرنسا فيه، وبلاد الجزائر أيضًا وحروب فرنسا فيها كذلك الديار المصرية والثورة العرابية وغير ذلك من الفوائد التاريخية التي أثرت بحق المكتبة العربية.

وقد تجول المرحوم الشيخ محمد بيرم في كثير من أنحاء القطر المصري وكان يكتب أثناء تجوله في ذهبية بقية "صفوة الإعتبار" فأتم الجزء الرابع وأول الخامس ولم يمهله

---

(1)* محمد بيرم الخامس التونسي "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" الناشر: دار الكتب العلمية، يناير 1997.

الأجل لإتمامه، فإنه كان يقصد التوسع في الكتابة عن بلاد النمسا وسويسرا وألمانيا ورومانيا والبلغار والصرب واليونان وهي البلاد التي شاهدها. ولكن ما كتبه إجمالًا عنها في الجزء الأول يمكن أن يغني القارئ عن التفصيل والإسهاب. وكان ينوي كتابة خاتمة "صفوة الإعتبار" علي نمط مقدمة "تاريخ ابن خلدون" و" أقوم الممالك" فلم تمكنه صحته ولا أجله من إخراجها من حيز الفكر إلي قوة العمل.

وتجدر الإشارة إلي أن الكتاب طبع مرتين في القاهرة، كانت الطبعة الأولي في القاهرة في سنة 1302 هجرية، ويقع الكتاب في أربعة مجلدات ضخام، وفي الجزء الأول منها تكلم فيه عن الإسلام في الصين. أو بالأحري في الفصل الحادي عشر الذي جاء بعنوان(المملكة الحادية عشرة) الصفحات من 79- 84 التي تناول فيها النقاط الرئيسة التالية:

(1) وصف الصين وأحوالها.

هي مملكة الصين وهاته المملكة هي أكثر ممالك العالم سكانًا وأغناهم لاحتوائها علي أقاليم مختلفة، ففيها جميع انواع النبات والمعادن، وتجارتها متسعة مع جميع الأقطار، ولأهلها شهرة قديمة في الصنائع، وأهمها: صناعة الخزف فإنها اشتهرت بإتقانه علي جميع النواحي فيتنافس الناس في اقتناء أواني الخزف الصيني تنافسًا كليًا، وبعضهم يبلغ به درجة خارقة للعادة والإعتدال، سيما في أوروبا حتي تجد الواحد منهم يزين بيته بترصيف تلك الأواني التي تتكلف عليه بمئات الألوف، وكذلك ملوك الهند يتنافسون في اقتناء الرفيع من أواني ذلك الخزف، وقد يبلغ بعض الناس اشتراء صحن واحدٍ بألف فرنك فما فوق.

(2) العلوم والمعارف عند الصينيين.

فالظن أنهم كانت لهم في القديم فنون كثيرة وبقيت فيهم الدعوي فقط، بحيث يرون أنفسهم أعلم أهل الأرض، لكن في الواقع ليس لهم إلا شئ من الحكميات والنجوم

مغرمون باستخدامه في علم الغيب وأشباهه مما لا طائل تحته، وحدث فيهم أخذ بعض الطبيعيات عن الأوروبيين واستخدموها في منافعهم كالنجار والكهرباء، لكن لم يتجاوزوا إلي الآن المقدار الذي أخذوه ولم يخترعوا شيئًا فيه، وقد كانوا اكتشفوا بيت الإبرة وقد أثبت بعض المؤرخين أنها من اختراع العرب. كما أن أهل الصين اخترعوا البارود ولم يعرف أنهم استعملوه في حرب قبل استعماله فيها عند غيرهم، وإنما كانوا يستعملونه للإصلاح كدك التلال وغيره، وإن وجد من آثار سلاحهم قديمًا ما يدل علي أنهم كانوا يستعملونه فيه، وأول ما عرف البارود في جهاتنا من العرب سنة(737) هجرية.

(3) جغرافية الصين.

موقع هاته المملكة من مبدأ الشطوط الشرقية من آسيا علي المحيط الشرقي إلي أن تتصل بأملاك آسيا، ومن الجهة الجنوبية تبتدئ من جبال هملاي إلي سيبيريا من جهة الشمال فهي حينئذ تحاد الهند من شماليه وما والاه من الممالك الشرقية منه، وعدد سكان هاته المملكة نحو الثلث من سكان العالم كله وهم علي ما تحرر في سنة(1286هـ-1869م) قريبًا من خمسمائة وسبعة وثلاثين مليونًا من النفوس، وهذا المقدار يساوي نحو الضعف من سكان أوروبا كلها، ومع هاته الكثرة التي هم عليها كانوا في السالف لا تكاد تجد منهم خارج مملكتهم إلا النادر القليل لإعجابهم بأنفسهم، ولأن اصطلاحات أحكامهم تمنع الخروج من الوطن إلا بإذن خصوصي مع التشدد فيه حتي يتبين وجه أكيد لمريد السفر، ثم مع ذلك إذا غاب المسافر عن وطنه مدة ثلاث سنين يمنع من العودة إليه والدخول فيه، كما أن من أحكامهم منع دخول الأجنبي إلي أرضهم إلا برخصة مخصوصة.

(4) الصين تحظر إقامة الأجانب والسفراء.

وكانوا(الصينيون) يمنعون إقامة نواب الدول الأجانب في مملكتهم، فضلًا عن قاعدتها، وحيث كانت دول أوروبا في هاته القرون الأخيرة لهم مزيد الإعتناء باتساع تجارتهم طلبوا من تلك الدولة الإذن لتجارتهم بالإشتغال في المملكة والإقامة بها كما يقيمون سفراء لهم عندها، وبعد مشقات شديدة حصلوا علي الرخصة في وفود تجارتهم لكن بخصوص مراسي معلومة علي البحر، وكذلك السفراء، علي شرط أن لا يبيت أحد منهم في البلد أو في البر، وإنما يبيتون في سفن حول الشاطئ.... فتعصبت حينئذ دولتا إنكلترا وفرنسا علي محاربة الصين، وحاربوهم فما كانت بضع أشهر حتي وصلت عساكر أوروبا إلي قاعدة المملكة وعقدوا صلحًا علي نحو ما طلبوا....

(5) أثر الأفيون في إضعفاف قوة الصين.

لو كانت الصين علي كثرة سكانها لها الإستعداد الحربي مع الرجولية في السكان لأمكن لهم الفيضان علي جميع العالم فضلًا عن المدافعة عن نفسها، وكان السبب في عدم اقتدارهم كثرة استقبال الأفيون الذي هو مصيبة عامة فيهم وتبلغ ببعضهم مبالغ نسأل الله تعالي منها اللطف والحماية.

(6) وصف السور العظيم.

ومن عجائب مملكة الصين السور العظيم الذي يبتدئ من الشطوط الشرقية ويمر ممتدًا بوسط المملكة إلي حيث العرض أربعين درجة شمالية والطول تسعة وتسعين شرقيًا، فمجموع طوله نحو ألف ومائتين وخمسين ميلًا، وسمكه من الأسفل نحو خمسة وعشرين قدمًا ومن أعلي نحو خمسة عشر قدمًا، وارتفاعه ما بين خمسة عشر إلي عشرين قدمًا، وفي أماكن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضها إلي أربعين قدمًا، وهو مبني

الحجارة والآجر والقرميد وبعض أماكن طين فقط، بناه بعض ملوكهم قبل التاريخ المسيحي بنحو مائتي سنة وعشرين سنة قاصدًا به ردّ المهاجمات علي المملكة الصينية الأصلية من المنغول والقبائل الشمالية ولم يجده نفعًا إذ هم الذين تسلطوا علي المملكة والسور الآن خراب في جهات كثيرة...

(7) الديانة في الصين.

إنهم ليسوا علي دين واحد بل علي ثلاثة أقسام كبري:

أولها: وأقدمها الدين الذي أسسه حكيم المسمي عندهم "بو" وقيل انه كان أول سلطان في عائلة "هيا" وذلك قبل هذا التاريخ بنحو أربعة آلاف سنة، وعقائد هذا القسم وفروع عبادته لهم فيها تآليف يعتبرونها كأنها كتبت سماوية، وفي القرن السادس عشر قبل التاريخ المسيحي هذب لهم تلك الديانة حكيمهم المسمي "كونفوشيوس" ومضمون العقائد الإقرار بالخالق سبحانه وتعالي وبالحشر، ومن أخلاقهم السماحة ولا يغصبون علي ديانتهم أحدًا ولا يحتقرون ديانة من خالفهم.

القسم الثاني: هو الدين الذي أسسه حكيمهم "لاوتسي" ومضمون عقائدهم القول بالتناسخ، وعدد أتباع هذا الدين نحو مائة مليون.

القسم الثالث: الدين الذي أسسه حكيم " فواو صاكيا" ويعرف بالمذهب البدهي، وكان أول ظهوره أواسط القرن السابع قبل الميلاد، وعندهم من الكتب تآليف عديدة.

كما أنه يوجد أقسام أخري من الديانات كالبراهمة(2)، وغيرهم من عبدة الأصنام أو النصاري واليهود والديانة الغالبة فيهم هي البوذية، وهي نوع من الوثنيين.

---

(2) البراهمة: (برهمن) اسم لأعلي الطوائف عند الهندوس وهذا النظام يعتمد علي المهنة وأن طبقة الكهنة الذين كرسوا أنفسهم للفكر والعلم تطور إلي البرهمية، ويطلق هذا الاسم أيضًا علي الكاهن والمعلم الديني عند الهندوس.

(8) الإسلام في الصين.

كما أن فيهم قسمًا عظيمًا من المسلمين يبلغ إلي ما ينيف عن الستين مليونًا، فمن هؤلاء نحو أربعين مليونًا متفرقين في الممالك أصلهم من الأهالي، ومن العساكر المسلمين الذين جلبهم ملك الصين في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور حيث ثارت عليه رعاياه، فاستنجد بالخليفة علي أن يؤدي إليه معلومًا إذا أنجده، فأرسل له أربعة آلاف من صناديد المسلمين وقهر بهم رعاياه وجازاهم عن ذلك بجواز الإقامة في مملكته مع جواز التزوج ببنات الأهالي ومصاهرة الأعيان وإعطائهم ما يحتاجون إليه، فأقاموا علي شروط وهي استقلالهم في إدارتهم الخصوصية وعبادتهم وإشهارها، فأجاز لهم مطلبهم لكن فرقهم علي المدن العظيمة في مملكته، وصار في كل مدينة مدينة مستقلة بالمسلمين علي حسب كثرتهم وقلتهم مستقلين في أحكامهم بالخصوصية مشهرين لشعائر الدين، ولهم قضاة وأئمة بحيث لا يتداخل فيهم الحكم الصيني إلا في عموم السياسة.

ومنهم في مدينة "باكين" قاعدة المملكة نحو عشرين ألفًا ولهم جامع ضخم قديم حسن جدًا، ويسمونه بلغتهم "**هوي هوي**" (回回) ومساجد أخري نحو العشرين منها اثنان لأهل الشيعة حيث حدث فيهم هذا المذهب في القرون الأخيرة، وأغلبهم أهل سنة عن مذهب أبي حنيفة وكذلك بقية المسلمين في الصين مثل ما ذكر من القسمين.

(9) عادات المسلمين في الصين.

ومن عادات هؤلاء المسلمين أن ينشروا في رأس كل سنة تقارير تشتمل علي بيان أوقات الصلاة مكتوبًا بأعلاها من أركان الإسلام الخمس كلمة الشهادة والصلاة والزكاة والصوم، ولا يذكرون الركن الخامس وهو الحج. قال بعضهم: إن علمائهم أسقطوا ذلك لعدم تحمل مشقة الطريق لبعد مسافة الحج عندهم، وأظن أن عادة منع الخروج من ممالكهم هي الباعث علي ذلك، وإلا فليست مملكة الصين بأشق من السفر من أهالي

"سمطر" وأقصي الغرب ودواخل السودان، فجرت علي ذلك عادتهم ولو بعد انتفاء المانع وسهولة السفر بحرًا في البواخر.

ومن عادتهم أيضًا أن يكتبوا علي أبواب الجوامع **"خوي خوي تانغ"** أي محل**(الجماعة الإسلامية)**، وأن يكتبوا **"تسين جسن سواي"**"معبد الإله الحقيقي، ويسمون علمائهم **"لاو جو فو" أي (المعلم الأكبر)**، وأما أهل الصين فيسمون **جوامع المسلمين "ليطاسوا" أي محل العبادة الأسبوعية**، وحيث كان الدين الإسلامي لا يجوز مناكحة المشركين أسلم كثير من نسائهم بل وعائلات النساء وتزوج بهن المسلمون وتناسلوا إلي أن بلغ عددهم نحو الأربعين مليونًا في هذا العصر، ولم يزالوا علي الإستقلال الإداري حتي حكي طرفًا منه ابن بطوطة وهم عليه إلي الآن.

(10) ثورات المسلمين في الصين.

ومن المسلمين أيضًا: أقسام في الجهة الغربية والغربية الشمالية من المملكة، فمنهم المجتمع والمتفرق، وتسلطت علي. ممالكهم دولة الصين ولا يزالون ينتهزون الفرص للخروج عنها فتارة يتمكنون من ذلك وتارة تعود للإستيلاء عليهم، مثل مملكة "كاشغر" في الجهة الشمالية الغربية فقد استقلت تحت ملك في عشرة الثمانين ومائتين وألف. وهو الأمير يعقوب خان الذي ولد في جوار "تشقند" وحصّل العلوم في "سمرقند"، واشتهر في أعظم مدارس بخاري مع مهارة في السياسة أهلته لأن يكون مشيرًا مطاعًا عند أمير "خوقند"، وأرسله حاميًا لمهاجمات الروس علي قلعة "اكمتشيت" ثم توجه إلي "كاشغار" للحرب مع الصينيين وحصل علي انتصار عظيم أورث له شهرة وثقة من المسلمين به هناك، وطمع في تعويض مملكة سلطنة الصين بمملكة إسلامية وكسر لهم جيشًا فيه أزيد من مائة ألف مقاتل واستولي علي جهات معتبرة حتي ارتعدت منه مملكة الصين في سنة(1293م).

وحيث كان بين عددين مال إلي مسالمة الروسيا وعقد معها معاهدة تجارية وارم احتكام وحدة الإسلام، فبايع بالخلافة للسلطان العثماني وتلقبه الدولة العثمانية بالأمير أدبًا مع الخليفة، وجلب هو من قاعدة الخلافة معلمين للفنون الحربية والصناعات الهندسية ونظم الجيوش فاخترمته المنية قبل رسوخ المملكة وتناحر بنوه وقسموا المملكة فانتهزت دولة الصين الفرصة واستولت علي الجميع وإلي الآن أحوالها مخضرمة.

وكلام الشيخ التونسي في هذا الموضوع، ليس مثل ما قاله غيره من العلماء من قبل أنك لا تجد في كتابه حديثًا عن مدن الصين والمسافة بين كل مدينة وأخري، أو أحوال التجارة وأسماء المصانع التي كانت تصدر من الصين أو تستورد من الخارج. وإنما تجد فيه نوعًا آخر من البيان- عن دخول الإسلام في الصين، ومذاهب المسلمين فيها. وهو(الشيخ التونسي):

1) أول عالم إسلامي، ذكر اسم "هوي هوي" (回回) أي المسلم باللغة الصينية، و(خوي خوي تونغ) (回回堂)، أي معبد المسلمين، و(لاو جو فو) (老师夫) أي المُعلم، و(ليطاسوا) (礼拜寺) أي المسجد، و(تسين جسن جو) أي الدين الطاهر الخالص.

2) وهو أول عربي أتي في كتابه بأخبار عن ثورة يعقوب بيك في تركستان الشرقية.

3) وهو أول عربي تكلم عن ثورة محمد سليمان 杜问秀 في مقاطعة يونان.

أولًا: قومية هوي هوي 回回(3)*

يطلق لقب قومية "هوي هوي" علي الذين اعتنقوا الدين الإسلامي وعاشوا ردحًا طويلًا في مقاطعتي قانصو Gansu (في شمال غربي الصين وعاصمتها لانجو) وتشينغهاي

(3)* انظر كتاب(إشكالية قومية هوي هوي) تحرير جمعية دراسات إشكاليات القوميات، دار القوميات للنشر، ط. الثانية، عام 1982، بكين. (باللغة الصينية)

(في شمال غرب الصين، في الجزء الشمال الشرقي بهضبة التبت)، وكذلك في منطقة نينغشيا لقومية هوي ذات الحكم الذاتي(في شمال غربي الصين وتحدوها منغوليا الداخلية في الشمال) وعلي غيرهم من الذين آمنوا بالدين الإسلامي واستقر بهم المقام في المقاطعات الصينية الأخري.

وترجع النشأة الأولي وأصل قومية هوي إلي العرب والفرس وغيرهم من المسلمين الذين انتقلوا إلي الصين في عهد أسرة يوان- Yuan Dynasty(1271- 1368)، وذلك كما جاء في المصادر الصينية التاريخية والسجلات القديمة التي ذكرت إن المسلمين من بلاد(داشي) جاؤوا إلي الصين في عهد أسرتي تشن(557- 589)، وصين(581- 618) واستقروا في مدينة كانتون في جنوب الصين وشرعوا في بناء المساجد ودور العبادة(انظر قاموس اللغة الصينية النموذجية (正字通) وبعد أسرتي جين(936- 946) ويوان بدؤوا في الإنتشار التدريجي في الصين واليوم ينتشرون في كافة الأنحاء. وكان الصينيون في عهد أسرتي تانغ(618- 907) وسونغ Song(960- 1279) يطلقون اسم(داشي) علي بلاد العرب والفرس وآسيا الوسطي.

وقبل أسرة تانغ لم نجد في التاريخ الصيني لقب "هوي هوي" ولم يطلق الصينيون علي العرب (داشي) لقب هوي هوي. وقد شهد عهد الأسر الخمس(907- 960) أو أسرة سونغ الشمالية (960- 1127) انتشارًا للاسم هوي- هوي، ولكن لا تذكره الكتب التاريخية الصينية. وعندما اعتلت أسرة يوان سُدة الحكم، نجد أن السجلات التاريخية التي سردت أحداث أسرة لياو الغربية(916- 1125) ومنغوليا بدأت تستخدم اسم هوي- هوي في إشارة إلي بلاد العرب والفرس علي نطاق واسع، وذلك كما جاء في المذكرات التاريخية للإمبراطور لياو تيان زو أحد أباطرة أسرة سونغ الشمالية.

ونستطيع أن نقول أن هوي- هوي لقب أطلقته القوميات التي كانت تقطن شمال الصين مثل: شي دان ومنغوليا علي العرب والفرس وغيرهم من المسلمين. وقد تُرجم هذا

اللقب كما هو(هوي هوي) في اللغة الصينية. وانتشرت هذه التسمية في الصين مع زيادة قدوم المسلمين(هوي هوي) من بلاد العرب وفارس، بل أصبح هذا اللقب وتلك التسمية يطلق علي المسلمين الصينيين أنفسهم واستمر إلي الآن.

وفي عهد أسرة لياو الغربية(4) وأسرة يوان كان لقب هوي هوي يشير إلي العرب والفرس وغيرهم من المسلمين الذين يعيشون خارج حدود الصين. وبعد أسرة يوان إلي الآن، أصبح هذا اللقب يشير إلي القوميات المسلمة في الصين الذين يعيشون داخل الأراضي الصينية.

ومن ثم، فإن الأجداد الأولين لقومية هوي- هوي هم من العرب والفرس الذين انتقلوا واستقروا في الصين. وجميع المسلمين في كافة أنحاء الصين يدعون أن أجدادهم الأولين قد جاؤوا من الأقاليم الغربية(بلاد العرب وفارس).

غير أن المسلمين باتوا يعرفون منذ ثمانية قرون تقريبًا باسم "هوي" أو "خوي" طبقًا للنص الصيني، ولهذه التسمية قصة رواها لي أحد الباحثين الصينيين المهتمين بتاريخ الإسلام والمسلمين. ذلك أن الوجود المبكر للمسلمين في قلب الصين كان محدودًا، فضلًا عن أن أكثرهم كانوا تجارًا متمركزين في وسط البلاد وجنوبها، وكانت كلمة "داشي" كافية للتعريف بهم. ولكن الكتلة السكانية الكبري للمسلمين كانت في غرب الصين في منطقة تركستان التي كانت تسكنها قبائل "ويغور" التي اعتنقت الإسلام في وقت مبكر. كان الويغور هم أهل منطقة الغرب وأبناؤها، أما الـ "داشي" فلم يكونوا سوي غرباء، يروحون ويجيئون. وعندما استقر المسلمون "داشي"، واستوطنوا مع غيرهم من القادمين مناطق الجنوب والوسط، أطلق عليهم الصينيون اسمًا مشتقًا من قومية الغرب ذوي الأصول

---

(4) هي الدولة القراخطائية أو كاراخيتاي، أو لياو الغربية، أو لياو العظمي هي إمبراطورية منغولية ذات طابع صيني كانت تقع في آسيا الوسطي، وكانت تحكمها عشيرة خيتان يلو، وعاصمتها بلاساغون، وقد تأسست في سنة1124 واستمرت حتي سنة 1218.

التركية(ويغور) علي اعتبار أن الجميع مسلمون وينتمون إلي ملة واحدة وكان هذا الاسم هو: هوي(المقطع الأول من ويغور) التي كانت تنطق هويغور في العصور القديمة[5].

والسؤال الذي يتبادر إلي الذهن متي عرفت الصين لقب هوي هوي؟ وكيف تطور حتي أصبح هناك ما يعرف بقومية "هوي هوي" المسلمة داخل الصين؟

منذ زمن بعيد، وفي عهد أسرة تانغ Tang Dynasty(618- 907) جاء إلي الصين العرب والفرس الذين اعتنقوا الدين الإسلامي، ولم يطلق عليهم في ذلك الوقت لقب هوي-هوي، بل كانوا يعرفون بأسمائهم العرب والفرس، وذلك كما جاء في السجلات التاريخية لأسرة تانغ.

الإستقراء التاريخي لأسرة تانغ يبيّن أن العرب والفرس أتوا إلي الصين في عهد تلك الأسرة من خلال طريقين: إحداهما الطريق البحري الذي سلكوه التجار وتركزت نشاطاتهم في جنوب شرق الصين، وثانيهما الطريق البري الذي سارت عليه بعض الجيوش والسفارات العربية وتركزت في شمال غربي الصين، وخاصةً في عاصمتي أسرة تانغ: العاصمة الغربية(تشنغآن) والعاصمة الشرقية(لوا يانغ) في ذلك الحين. ولم تذكر المصادر التاريخية لأسرة تانغ بصورة جلية الأماكن التي استقر فيها التجار العرب والفرس والجنود، ولكن تذكر أن أعدادهم زادت بصورة مطردة يومًا بعد يوم.

وحسب ما ذكرته تلك المصادر أنه في عهد الإمبراطور شي زونغ(881 تقريبًا) أحد أباطرة تانغ، قام جيش هوانج تشاو بانتفاضة ضد أسرة تانغ وأطاح بها ونصب نفسه إمبراطورًا وقتل 120 ألفًا من أتباع الدين الإسلامي، وهم كانوا من العرب والفرس، لأن في أسرة تانغ يكاد لا يوجد من يعتنق الإسلام في القومية الصينية هان(Han) أكبر القوميات الكافرة في الصين. وهذا يقودنا إلي القول بأنه في أواخر أسرة تانغ وصل عدد العرب

(5) فهمي هويدي(الإسلام في الصين) مرجع سابق، ص37.

والفرس في الصين إلي حوالي 100 ألف زاد عددهم في الصين نتيجة الهجرة والإنتقال المستمر والتدفق إلي الأراضي الصينية، ناهيك عن أنهم تزوجوا صينيات واستقر بهم المقام في الصين.

كما تذكر السجلات التاريخية في أسرة تانغ- في فصل "سيرة العرب" - تذكر بأن العرب والفرس الذين جاؤوا إلي الصين في عهد أسرة تانغ كانوا من المسلمين، كما أن سجلات المساجد ودور العبادة التي شيدوها في كانتون تؤكد ذلك. ولذا نستطيع القول ان الإسلام دخل الصين أولًا في عهد أسرة تانغ من خلال التجارة مع الصين.

في عهد أسرة **سونغ**، زاد عدد الفرس والعرب في الصين بصورة أكبر عن أسرة تانغ. وذكر مصادر تاريخية في ذلك الحين: "إنه بحلول عهد أسرة سونغ ازدهرت التجارة الخارجية يومًا بعد يوم. وكانت كانتون، وتشوان تشو(الزيتون)، وهانتشو وغيرها من الموانئ التجارية التي شهدت ازدهار ورواج التجارة الخارجية، وقام العرب آنذاك بتشييد مساكن خاصة بهم في كل ميناء تجاري، حتي كان هناك قانون خاص يعالج شؤون التجارة الخارجية".

وفي أواخر أسرة تانغ، وفي الأسر الخمسة حتي أسرة سونغ، كانت هناك عدة قوميات مثل: لياو، وجين، وشيا، وهوي- هوى، وتوفان وغيرها تقطن شمال غربي الصين وسرعان ما احتدم الصراع والتناحر بين تلك القوميات، مما شكل صعوبة كبيرة في طرق المواصلات، ولا نعثر علي سجلات تاريخية تتعلق بأنشطة العرب والفرس في تلك الفترة بالصين. ولكن وعلي الرغم من أن العرب والفرس الذين جاؤوا إلي الصين في عهد أسرتى تانغ وسونغ استقروا في الصين، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بأن هؤلاء يشكلون النواة الأولي والرئيسة لنشأة قومية هوي هوي المسلمة في الصين. وفي أوائل أسرة **يوان** تدفق إلي الصين أعداد غفيرة من المسلمين وأصبحوا يشكلون العنصر الأساسي والرئيس في تكوين وتنشأة قومية هوي هوى في الصين.

في أواخر أسرة سونغ شهدت ظهور دولة المغول القومية واستطاع القائد المغولي جينكزخان أن يقود جيشًا جرارًا ويلتهم الدول المتاخمة لمنغوليا، واندفع بقواته يلتهم اليابس والأخضر حتي دقت أبواب مدينة بغداد في سنة 1258م. وبذلك، استطاع جيش المغول السيطرة علي أواسط آسيا وعلي كل القوميات المسلمة هناك وجعلها تذعن وتنصاع لأوامره. كما دحرت قوات المغول الدول الإسلامية وقهرت المسلمين العرب أيضًا، ناهيك عن سيطرتها علي أوروبا وآسيا. وأصدر القائد المغولي وثيقة استدعي فيها كل القوميات لتكوين جيش قوامه أكثر من ثلاثة ملايين جندي، وأطلق عليه "جيش الأقاليم الغربية وتربطه رابطة الدم"، وقام بغزو الصين بدءًا من الشمال الغربي ثم شمال الصين، ثم جنوبها الغربي وجنوبها الشرقي تباعًا.

وتشير سجلات أسرة يوان التاريخية أن جيش المغول الذي غزا الصين كان يضم أكثر من24 من القوميات والعشائر والأجناس المختلفة. وكانت عشيرة "هوي- هوي" تمثل جزءًا رئيسًا من تكوين الجيش. كما أن جيش المناطق الغربية الذي "استُدعي لغزو الصين" كان يضم كل القوميات، وكان "جيش هوي- هوي" يتمتع بالقوة والبأس داخل نطاق "جيش الأقاليم الغربية".

والمصدر الرئيس لقومية هوي هوي في الصين يرجع إلي "العشائر وجماعات هوي- هوي المسلمة" التي أُجبرت علي الإستسلام لجيش المغول ودخلت الصين مع المغول في عهد أسرة يوان. وكانت عشائر هوي تشكل الجزء الأكبر من القوة العسكرية المغولية التي قامت بغزو الصين. وكان جيش "هوي- هوي" يتألف من "مدفعية هوي- هوي"، و"قوات هوي هوي البحرية"، و"ضباط هوي هوي"، و"جنود هوي هوي". وبسبب أن جيش هوي هوي اشترك في الحرب ضد الصين وتغلغل داخل الأراضي الصينية، فإن حين المغول عندما احتل الصين، قام بتوزيع جيش هوي هوي في كافة أنحاء الصين لزراعة الأرض، ولذا فإن جيش هوي هوي استقر به المقام وانتشر في أصقاع الصين واشتغل بالزراعة.

والمسلمون الذين دخلوا الصين في أسرة يوان؛ منهم جزء كبير دخل ضمن جيش المغول عن طريق البر، ونظرًا لأن جيش المغول قام بغزو شمال غربي الصين أولًا(مقاطعات قانصو، تشينغهاي، نينغشيا، شينجيانغ) فإن الجزء الأكبر منهم أقام في تلك المقاطعات واشتغل بمهنة الزراعة.

وبناء علي ما تقدم نؤكد أن المسلمين في الصين يتكون الجزء الأساسي منهم منذ عهد أسرة يوان من "جيش المسلمين" و"الحرفيين المسلمين" و"الجنود المسلمين" و"كبار الشخصيات الإسلامية" و"التجار المسلمين" و"العلماء المسلمين" وغيرهم.

وذكرت سجلات أسرة مينغ أن المسلمين انتشروا في كافة أنحاء الصين في عهد أسرة يوان، وكان أغلبهم يقطن مقاطعة قانصو. وبعد التطورات التي حدثت في أسرتي مينغ وتشينغ حتي اليوم، فإن مقاطعات قانصو ونينغشيا وتشينغهاي والمناطق المجاورة لها تمثل أهم مناطق تمركز قومية هوي في الصين.

وقد انتشرت مقولة مفادها: "في أسرة يوان انتشر مسلمو هوي هوي في كافة أنحاء الصين". وفي مطالع أسرة مينغ، شكل أبناء هوي هوي جماعة قومية، وتحول الإسلام من الإعتقاد الفردي في الأصل إلي اعتقاد جماعي قومي، واتسع نطاق قاعدته الإجتماعية اتساعًا كبيرًا، وأصبح جزءًا لا يتجزأ من الإعتقاد الديني في الصين.

وعندما تأسست الجمهورية الصينية(1912- 1949): ظهرت بعد الآراء والنظريات التي تستبعد أن يكون أصل نشأة قومية هوي- هوي ينتمي إلي الفرس والعرب وغيرهما من المسلمين الذين حضروا إلي الصين، كما استبعدت أن تكون قومية هوي مستقلة ومتفردة بذاتها، بل هي جزء من قومية الهان. وذكر أصحاب تلك النظريات أن قوميتي الهان وهوي نشأتهما واحدة، وإن الهوي جزء من الهان، ولكن عقيدتهما الدينية مختلفة. وجاء في تعليق صحيفة(شي جينغ بينغ) الصادرة في2 فبراير1927 أن: "إخواننا الذين يعتنقون دين هوي(الدين الإسلامي) وأبناء قومية الهان ينتمون إلي قومية واحدة

وأسلافهم ينحدرون من أصل واحد. وان دين هوي(الإسلام) قد جاء من آسيا الوسطي، ولذا كان أكثر الذين يعتنقون الدين الإسلامي يتمركزون في الشمال الغربي، ومن الطبيعي أن يشكلوا عصبة واحدة".

وهذا الرأي لا تؤيده الأدلة والأسانيد التاريخية في الماضي والحاضر علي حد سواء. وعلي الرغم من أن هناك من اعتنق دين هوي(الإسلام) من أبناء قومية الهان، وأن بعضهم يشكلون جزءًا من قومية هوي. ولكن لا نستطيع القول أن أصل نشأة قومية هوي- هوي ينبثق من قومية الهان، بل ولا يمكن البتة القول بأن قومية هوي تتألف من أبناء قومية الهان الذين اعتنقوا الدين الإسلامي.

والأجدر بنا في هذا الصدد أن نذكر أن المسلمين من العرب والفرس الذين قدموا إلي الصين في عهد أسرة يوان يشكلون مصدرًا مهمًا لنشأة قومية هوي في الصين، ولكنهم ليسوا المصدر الوحيد، نقول فقط أنهم مصدر رئيس ومهم، وذلك للأسباب التالية:

1- ذكرنا آنفًا أن المسلمين العرب والفرس جاؤوا إلي الصين منذ عهد بعيد في زمن أسرة تانغ، وذلك عبر الطريق البحري والبري، وكان معظمهم من التجار، كما أن بعضهم كان ضمن الجيوش التي غزت الصين، ومكثوا واستقروا في الصين. وفي أسرة يوان، زاد عددهم بصورة كبيرة ومارسوا الأعمال المهنية والحرفية مثل التجارة والزراعة.

2- تشتمل قومية هوي علي بعض أبناء قومية الهان جراء التعايش والإختلاط والتزاوج والتبادلات بين القوميتين أدت إلي أن بعض أبناء الهان اعتنقوا الدين الإسلامي عن طيب خاطر، ناهيك عن أن أبناء هوي يمكنهم أن يتزوجوا من فتيات الهان، إن أبناء الهان يمثلون عنصرًا مهمًا إلي حد كبير داخل قومية هوي. ولكن ذلك لا يقودنا إلي القول بأن قومية الهان هي مصدر أساسي لنشأة وتكوين قومية هوي، أو نقول أن أبناء الهان اعتنقوا الإسلام، ومن ثم نطلق عليهم لقب هوي- هوي.

3- ومن المرجح أن تشتمل قومية هوي علي جزء كبير من أبناء قومية(هوي خو). ففي أسرتي تانغ وسونغ كان يقطن بعض أبناء قومية(هوي خو) في مقاطعات الصين الشمالية الغربية، وعندما دخل المسلمون هناك، فإن المستوطنين من أبناء قومية هوي خو عاشوا معهم وانصهروا في صفوف المسلمين من قومية هوي واندمجوا معهم وأطلقوا عليهم أيضًا لقب هوي- هوي.

وزبدة القول، والرأي الأقرب أن المصدر الرئيس لقومية هوي في الصين يرجع إلي المسلمين الذين دخلوا إلي الصين في أسرة يوان، وقد استوعبت قومية هوي- في مسيرة تطورها- أعداد كبيرة من أبناء قومية الهان، بالإضافة إلي- من المرجح- بعض أبناء قوميتي هوي خه، وهوي خو أيضا.

والمسلمون في الصين عامة من أهل السنة ويتبعون مذهب الإمام أبو حنيفة. ويسمي المسلمون باسم(هوي) وهي تسمية تختلف عن تسمية قومية(هان Han) الذين هم غالب أهل الصين من الكفار. كما أن المسلمين ينتمون إلي عدة عرقيات مثل: **التتار، والويغور، والأتراك، والقازاق وغيرها**[6].

وقد تكون هذه التسمية(هوي- هوي) تحريفًا للضمير(هو) مكررًا، كإشارة إلي عقيدة التوحيد التي هي جوهر الإسلام، حسب نص سورة الإخلاص: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾. وعلي كل حال، فهذه الكلمة الصينية تبدو وكأنها ترجمة لكلمة "المسلمين"[7].

ومن يبحث عن أصول المسلمين في شمال غرب الصين، يجد هناك ثلاثة أجناس من المسلمين، الأول: جنس فيه الدم العربي، والثاني: جنس يجري في عرقه دم الأواغر(شعب

---

(6) جمال محمد العبد المنعم(المسلمون في الصين- الملف الضائع)- لجنة الدعوة الإسلامية، الطبعة الأولي، دولة الكويت، عام 1995.

(7) محمد محمود زيتون(الصين والعرب عبر التاريخ)- سلسلة اقرأ- دار المعارف، القاهرة، العدد رقم(253)، عام 2016، ص50.

من التتار وقد أسلم بعد غزو قتيبة بن مسلم لآسيا الوسطي)، والثالث: جنس يجري فيه دم المغول، ويلاحظ أن أحسن هذه الأجناس صورة وأطولهم قامة هم الذين ينتمون إلي العرب، ثم الذين يمتزجون بدم الأواغر، ويتميز هؤلاء بطول القامة، وقوة الأعضاء، وشموخ الأنف، واستطالة الرأس، وكثافة اللحية، واتساع العيون والجبين، وهم أقرب شبهًا بسكان شمال الهند، وأفغانستان، وبخاري(بجمهورية أوزبكستان) وهم أشد هذه العناصر تمسكًا بأحكام الإسلام، وأكثرهم حبًا للغة العربية، ويوجد بينهم العلماء الكبار الذين يجيدون فهم الحديث والفقه[8].

وقد وصل بعض المسلمين الأوائل من أهالي تركستان الشرقية إلي مواقع هامة في الدولة العباسية منهم أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر عام 254هـ/ 868م، فقد كان من التغزغز أي الأويغور[9].

ثانيًا: الشيخ بيرم التونسي أول عربي ذكر أخبار ثورة يعقوب بيك في تركستان الشرقية.

- **تُركستان:**

يقول ياقوت الحموي المتوفي عام 626هـ/ 1229م في تعريفه لتركستان: "هو اسم جامع لجميع بلاد الأتراك... وأوسع بلاد الترك بلاد التغزغز. وحدهم الصين والتبت والخرلخ والكيماك والغزو البجناك والبذكش وخفشاق وخرخيز"[10].

---

(8) الدكتور فوزي درويش(الشرق الأقصي- الصين واليابان)- مطابع غباشي بطنطا، عام 1994، ص 25.

(9) بارتولد(تاريخ الترك في آسيا الوسطي) ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة، 1981م، ص51.

(10) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دارصادر- بيروت(المجلد الثاني) ص23.

ويقول عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفدا صاحب حماة المتوفي عام732هـ في كتابه "تقويم البلدان" ذكر أن: "كاشغر قاعدة تركستان... وأهلها مسلمون"(11).

وأول رحلة عربية سُجلت عن هذه المنطقة كانت رحلة تميم بن بحر المطوعي إلي بلاد الأويغور فيما بين760- 800م، وقد نقل عنه ياقوت الحموي وابن الفقيه والخرداذبة وغيرهم معلوماتهم عن الأويغور وبلادهم.

وعلي الجملة، تركستان بلاد تركية يسكن فيها شعب تركي ويتكلم سكانها اللغة التركية فهذه أقدم عصور التاريخ، ويعتنق الجميع الدين الإسلامي، ويتفقهون علي مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان-رحمه الله- (ما عدا.. آذربيجان) التي تضم أكثرية شيعية(جغرافية إمامية)، ويجري في أراضيها أنهار أهمها: جيحون وسيحون في تركستان الغربية، وإيلي وتاريم في تركستان الشرقية.

تمتد تركستان من بحر قزوين ونهر أورال غربًا إلي سد الصين شرقًا، ومن سيبيريا ومنغوليا شمالًا إلي بلاد إيران وأفغانستان والهند والتبت جنوبًا، أي أن مساحتها اكبر من مجموع مساحة أفغانستان + إيران + تركيا + العراق + السعودية جميعًا - مساحتها أكثر من خمسة ملايين كم^2.

تركستان مثلت أقدم دور في المدينة وأقدم حضارة:

وقد أثبت الباحثون من علماء الآثار والتاريخ أن "تركستان" أول بلاد اكتشفت فيها زراعة الحبوب، تُؤلُف فيها الحيوان، وكان سكانها يعرفون الزراعة قبل التاريخ، وهم الذين اقتادوا الخيول والأغنام والمواشي وغيرها أول مرة تحت إدارة الإنسان.

---

(11) أبو الفدا: تقويم البلدان، باريس، 1840، ص504.

وشهد العالم الأثري الأمريكي رئيس بعثة الحفائر والتنقيب الأمريكية سنة 1941م بومبلي Pumpelly - شهد بأن مدينة العصر الحجري(الحديد) قامت وعاشت في تركستان قبل تسعة آلاف سنة من الميلاد قبل ميلاد المسيح، كما أن تربية الحيوان وجدت بها قبل ثمانية آلاف سنة من الميلاد. والصناعات المعدنية قبل ستة آلاف سنة. وبالإضافة إلي ذلك، تدل مجموعة الآثار في شرقي بحر "قزوين" قريبًا من مدينة "عشق آباد" تدل علي أن "تركستان" اضطلعت بدورٍ حيوي وهام في حضارة الإنسانية[12].

ويعرف الجزء الغربي، الذي يحتله الإتحاد السوفياتي بـ "تركستان الغربية"، ويبلغ مساحته (3.993.400 كم^2) ويشكل خمس مساحة الإتحاد السوفياتي الإجمالية، وكان يعرف رسميًا بولاية تركستان إبان الإمبراطورية القيصرية، ولكن بعد الثورة الشيوعية في روسيا قسمت تركستان الغربية في عام 1924 إلي خمس جمهوريات هي:

1- جمهورية أوزبكستان وعاصمتها تاشقند.
2- جمهورية تركمانستان وعاصمتها عشق آباد.
3- جمهورية تاجيكستان وعاصمتها دوشنبه.
4- جمهورية قازاخستان وعاصمتها ألما آتا.
5- جمهورية قيرغستان وعاصمتها فرونزه.

أما الجزء الشرقي، الذي تحتله الصين الشعبية، فيعرف باسم **"تركستان الشرقية"** ويبلغ مساحته 17.34.750 كم^2، وهو بذلك يكون أكبر من مساحة تركيا بمقدار 205 مرة، وأكبر من ألمانيا أربع مرات، ومن باكستان ثلاث مرات، ومن أندونيسيا بمرتين. ويشكل سدس مساحة الصين الإجمالية بما فيها التبت ومنغوليا الداخلية ومنشوريا، وفي

---

(12) انظر كتاب(تركستان بين الدب الروسي والتنين الصيني) قسم البحوث والدراسات- دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع- ط الأولي 1993م، الإسكندرية، ص13.

عهد الإمبراطورية الصينية المانشورية أصدر الإمبراطور زاي تيان(載湉 Zai Tian) (1871- 1908) مرسومًا بتاريخ 1884/11/18 بضم تركستان الشرقية إلي الصين وتسميتها(شينجبانغ) ومعناها "المستعمرة الجديدة"، وبعد الإحتلال الشيوعي لتركستان الشرقية، سماها الصينيون الشيوعيون "منطقة شينجيانغ الويغورية ذات الحكم الذاتي" وكان ذلك في 1955/10/10.

- **الإسلام وتركستان:**

السكان في تركستان تجمعهم وحدة الدم، ووحدة اللغة، ووحدة المذهب، فالأكثرية الساحقة علي مذهب الإمام أبي حنيفة، عدا آذربيجان كما ذكرنا آنفًا.

بعد معركة "نهاوند" التي عُرفت في تاريخ الإسلام بفتح الفتوح، استولي العرب المسلمون علي بلاد إيران كلها سنة 642م، وهرب يزدجرد آخر الأكاسرة الساسانية إلي تركستان، والتجأ إلي الأتراك، وأقام في مرو فتعقبه المسلمون حتي وصلوا إلي حدود تركستان، والتقوا بالأتراك لأول مرة، وعلي أثر ذلك أصبحت فارس كلها ضمن الدولة الإسلامية، واعتنق الفرس الإسلام، واختلطوا بالعرب وصاهروهم وأصبحوا عنصرًا إسلاميًا هامًا.

وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان استولي المسلمون علي خراسان التي كان أكثر سكانها أتراكًا، واستقروا فيها، واستولوا علي مدينتي بلخ وهرات، ووصلوا إلي نهر جيجون.

وفي عهد معاوية صارت خراسان قاعدة حربية للتقدم إلي داخل تركستان، ومكث فيها خمسون ألفًا من مهاجري العرب من الكوفة والبصرة، واستغلوا النزاع بين ملوك تركستان، واتجهوا إلي طخارستان وما وراء النهر، واستمرت الحرب من ذلك الحين إلي عهد الخليفة عبدالملك.

وفي عهد عبدالملك بن مروان الذي عين الحجاج بن يوسف الثقفي في ولاية خراسان، بدأت الحرب بين الترك والمسلمين على أشدها، وأرسل الحجاج قواته المشهورين لفتح تركستان، ولما رأي عدم نجاحهم ولي الحجاج البطل الإسلامي "قتيبة بن مسلم الباهلي" علي خراسان سنة 86هـ.

فلما وصل قتيبة إليها استعرض جيوشها ونظم شؤونها، ثم شمر للجهاد علي رأس جيش جرار وسار هو يعبر النهر إلي داخل تركستان، وترامي إلي مسامع الملوك في تلك الأقطار بجيوش قتيبة وأدركوا أنهم لا قبل لهم بقتال المسلمين، بيد أن بعضهم اعتزم المقاومة والحرب. وبذلك بدأت الحرب علي أشدها ونجح المسلمون في هذه الحروب الطاحنة الدامية التي استمرت نحو اثنتي عشرة سنة متوالية، ورسخت قواعد الإسلام بعد ذلك، حتي امتد النفوذ الإسلامي "كاشغر" في تركستان الشرقية، ثم بدأ المسلمون ينشرون الإسلام بين ربوعها بجد ونشاط(13).

بعد أن انتهي المسلمون العرب من فتح بلاد فارس وخراسان، قاموا بأربعة فتوحات علي تركستان الغربية في سنة 94هـ، ثم اتجه الجيش العربي المسلم في سنة95هـ تحت قيادة قتيبة بن مسلم الباهلي نحو الشرق حتي وصلوا إلي كاشغر عاصمة تركستان الشرقية وفتحوها في سنة 95هـ. وفي نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي في القرن الثالث للهجرة، وفي سنة 232هـ تشرف الخاقان سلطان (ستوق بغراخان) مؤسس الدولة القاراخانية، بالدخول في الاسلام وتبعه أبناؤه وكبار رجال الدولة. ومنذ ذلك الحين أصبح الإسلام دينًا رسميًا للدولة وتمت ترجمة معاني القرآن الكريم وشيدت المساجد بدلًا من المعابد، وتم بناء 300 مسجد في مدينة كاشغر وحدها.

---

(13) عبدالعزيز جنطكيز خان(تركستان قلب آسيا)- مركز الحضارة العربية- القاهرة ط الأولي، عام 2010، ص31- 32.

وبقيت تركستان الشرقية دولة مستقلة إسلامية حوالي تسعة قرون[14].

نشبت معارك دامية في عام 1759م بين المسلمين في تركستان الشرقية والأسرة المانشورية الصينية، وراح ضحيتها أكثر من مليون مسلم، وفرضت سيطرتها علي تركستان الشرقية من عام 1862. وقد شهدت تلك الفترة تمرد شعب تركستان الشرقية ضد الاحتلال الصيني 42 مرة، وفي آخر تمرد عام 1863 نجح الشعب التركي المسلم في دحر الغزاه الصينيين من وطنهم وأقاموا دولة مستقلة اسلامية تحت زعامة (يعقوب بيك) الذي دام حكمه 13عامًا. ولكن نظرًا للتوسع الروسي خلال عهد التسارست فقد تخوف البريطانيون وقوع تركستان الشرقية تحت الاحتلال الروسي، فقدموا النصيحة والأموال لحكام المانشو الصينيين باحتلال تركستان الشرقية مرة ثانية، واستطاعت الجيوش الصينية مهاجمتها واحتلالها مرة أخري في عام 1879م، ومنذ ذلك التاريخ تم تسمية تركستات الشرقية باسم شينجيانغ(تعني باللغة الصينية"المستعمرة الجديدة") وفي 18 نوفمبر تم ضمها داخل حدود إمبراطورية المانشو الصينية وأصبحت تابعة لها[15].

يقول أحد المسؤولين الصينيين: "إن مسلمي تركستان الشرقية أصبحوا كمن يتسول وفي يده وعاء من ذهب وتركستان الشرقية غنية بكل شئٍ وتستخرج سلطات الاحتلال الصيني 80% من المواد الخام الضرورية من هذه المنطقة وتنقلها إلي داخل الصين".

---

(14) تبلغ مساحة تركيا الشرقية حوالي 2 مليون كيلو متر مربع، وبذلك تكون مساحتها ضعف مساحة مصر تقريبًا، وأكبر من مساحة ألمانيا بأربعة مرات، ومن باكستان بثلاث مرات، ومن تركيا مرتين ونصف، ومن الكونغو بخمس المرات، ومن الأردن بخمس وعشرين مرة، وهي تشكل سدس مساحة الصين كلها بما فيها من مستعمرات مثل: التبت ومنغوليا ومنشوريا.

(15) بدر الدين و.ل. حيّ (تاريخ المسلمين في الصين في الماضي والحاضر) دار الانشاء للطباعة والنشر، طرابلس- لبنان- الصفحات من 80-85.

يعقوب بيك والحركة الاستقلالية التي قام بها بين 1865 و1877م:

وُلد يعقوب بيك في سنة 1825 ببلدة (بيشقند) من ضواحي خوقند ونسب نفسه إلي آل تيمور من ناحية الأم، وتزوج من أخت أمير طشقند، وانخرط في أمور السياسة الخوقندية في عنفوان شبابه، وقاتل الروس بجنب الخوقنديين في مدينة(آقمسجد) في سنة 1853م، وبات من الساسة المرموقين.

إن قصة مجئ يعقوب بيك إلي كاشغر قد بدأت بدعوة من(صادق بيك) الذي كان أميرًا علي مدينة المسلمين بكاشغر وواليًا عليها، وذلك لمساعدة أهل الكاشغرية في تحقيق آمالهم والسيادة علي بلادهم. يعقوب بيك يقرر السفر إلي كاشغر بمرافقة برزك خان(هو ابن أخ ولي خان حاكم كاشغر سابقًا)، وغادرا قشطند في صيف1864، ودخلا كاشغر بصورة سلمية.

برزك خان ينصب نفسه أميرًا علي ولاية كاشغر وأصدر أمرًا إلي يعقوب بيك ومنحه حرية كاملة في اتخاذ التدابير لمواجهة أي موقف قد يحدث من جراء استيلائه علي الحكم. وبعد استقرار الأمور هناك، وفي نهاية سنة 1865 أصبح يعقوب بيك مالكًا مطلقًا علي كاشغر، وفي مدة أقل من سنة واحدة وضع أساسًا لمملكة واسعة حكمها 13 سنة فيما بعد(من1865 إلي1877) وكان آخر المعارك التي خاض فيها في هذه المنطقة ضد الحراس الصينيين في مدينة(يانغحصار) حيث قضي فيها علي نحو ألف صيني، وأسر ثلاثة آلاف من الجنود الصينيين وأرسلهم إلي كاشغر.

وتجدر الإشارة إلي أن العناصر المسلمة التي قادت الثورات التي انتشرت في كافة الأرجاء الشمالية الغربية للصين، وفي مناطق آسيا الوسطي، والتي أثمرت عن تأسيس إمارة "كاشغر"(1869- 1872) علي يد القائد المسلم محمد يعقوب بيك(1820-1877م).

يعقوب بيك يحكم قبضته علي مقاليد تلك الأمور في هذه البقعة من الأرض واستحكمت سلطته، فأبعد ان قام بإقصاء سيده (برزك خان) عن مسرح السياسة وكان ذلك ببعثته إلي مكة المكرمة حاجًا. ثم تقلد هو نفسه بلقب(أتاليك غازي) اللقب الذي أنعم به عليه أمير يخاري الذي كان في حاجة إلي مساعدته في مجابهة الخطر الروسي الزاحف نحو بخاري[16].

في عام1965 تمكن يعقوب بيك من السيطرة علي غرب التاريم ثم حل محل "بزرك خان" في قيادة تركستان الشرقية وتمكن من الإستيلاء علي آكسو وخون وأرميتشي وعزز سيطرته علي أرجاء تركستان الشرقية وأعلن استقلالها عن الصين[17]، وطالب القوي الدولية بالإعتراف به وباستقلال تركستان الشرقية عن الصين وقد اعترفت به أفغانستان وأقامت معه علاقات دبلوماسية، كما اعترفت به الدولة العثمانية وضرب العملة في تركستان الشرقية باسم السلطان عبدالعزيز وقرأت الخطبة في المساجد باسمه كما أرسل السلطان عبدالعزيز المساعدات العسكرية والمستشارين العسكرين لتدريب جيش يعقوب بيك مما أثار ترقب واهتمام كلًا من روسيا وبريطانيا اللتين اعترفتا به أيضًا وكان اعترافهما به نتيجة موقفهما المضاد تجاه الصين وبدافع من المصلحة الذاتية لكلا الدولتين[18].

بدأت علاقات تركستان الشرقية بالقوي الدولية تزداد في منتصف القرن التاسع عشر عندما أخذت بريطانيا في التحرك تجاه الشرق والشمال من مستعمرتها في الهند

---

(16) انظر المرجع السابق.

(17) owen Lattimor: "Pivot of Asia Sinkiang and the Inner Asian frontiers of Chima and Russia", New York, Amo pres, 1975, P.33.

(18) عيسي يوسف ألبتكين(قضية تركستان الشرقية) ترجمة إسماعيل حقي شن كولر، إستانبول، دار الحكمة والنشر، 1987، ص 90- 91.

نتيجة لزيادة قلقها تجاه التوسع الروسي البريطاني بتركستان الشرقية يتزايد بثبات منذ عام1850- 1860 وبلغ ذروته في عام1870 أثناء ثورة يعقوب بيك والذي بدا لهم أنه نجح في إقامة مملكة قوية بين القوي العظمي في المنطقة[19].

نظر الروس بشكل مغاير تجاه يعقوب بيك، فقد كانوا ينظرون إليه علي أنه عدو قديم حاربهم بعنف قبل مغادرته تركستان الغربية وفي تصورهم أن نظام حكمه يمكن أن يمثل نقطة البداية لمسلمي آسيا الداخلية كلها للتمرد علي سيطرة روسيا القصرية، إذ سوف يكتسب تعاطفهم ويثير الرغبة لدي الدول المسلمة الضعيفة للحصول علي استقلالها وأيضًا السكان المسلمين في المقاطعات التي غزاها الروس، وفي ظل المحاولات البريطانية لجذب تركستان الشرقية في جانبها اهتم الروس بتأمين أوضاعهم التجارية والإستراتيجية في تركستان الشرقية[20].

وعلي الرغم من تنازلات يعقوب بيك تجاه الروس، فإن السياسة الروسية تجاهه كانت ملتوية، فبينما كان القيصر الروسي يستقبل سفير تركستان الشرقية في بطرسبرج ويقيم وليمة لإكرامه كانت هناك مباحثات سرية بينه وبين الصينيين قام الروس فيها بتحريض الصين لإعادة احتلال تركستان الشرقية وإنهاء استقلالها[21].

بحلول عام 1876 أصبح موقف يعقوب بيك صعبًا للغاية فالتهديد الروسي يقف في الشمال والغرب وفي الشرق القوات الصينية بقيادة الجنرال(تسو تسونغ تانغ) والتي تعززت قواتها بعد تلقيها مساعدات روسية مولت من القروض التي تلقتها الحكومة المانشورية الصينية من البنوك البريطانية، وأدرك يعقوب بيك أنه لا يستطيع أن يوقف تقدم هذا العدد الهائل من الجيش الصيني المسلح، وفقد الثقة من أن ينال تأييد رعاياه

(19) Owen Lattimot: OP. cit, P.24.

(20) Ibid: P. 35, 36.

(21) عيسي يوسف ألبتكين، المرجع السابق، ص95.

في النزاع مع الحكام المانشوريين، ولذا خسر المدن في مملكته الواحدة بعد الأخري، وضعفت فيه روح المقاومة ودب اليأس في نفسه، وتناول جرعة من السم وانتحر في مدينة (كورلا) ودفن جثمانه في مدينة كاشغر.

تعددت التفسيرات لأسباب الوفاة المفاجئة ليعقوب بيك والأرجح أنه مات مسمومًا علي يد طاهيه الخاص بتحريض من نياز حكيم بك الياركندي حاكم ولاية ختن الذي أجري اتصالات مع قائد الجيش الصيني وخشي عقب ذلك ألا يستطيع الصينيون القضاء علي يعقوب بيك أو أن تنجح السفارة التي كانت بينهما للصلح ومن ثم أقدم علي التخلص من يعقوب بيك[22]. وأما زوجة يعقوب بيك فقد اعتقلت مع ثلاثة من أبنائه وثلاثة من أحفاده وماتوا جميعًا تحت سيف الغاشمين وقتل معهم 1266 شخصًا من المسلمين بأيدي الكفار. وبإعدام أعضاء عائلة يعقوب بيك في نهاية سنة1877، أسدل التاريخ ستاره علي حياة اتاليق غازي(يعقوب بيك) الذي تولي الحكم في الكاشغرية نحو13 سنة. فختم تاريخ المسلمين في سينجيانغ في عهد الإمبراطورية المانشورية بالصين بدم شهداء هذه العائلة الكريمة ومن اتبع يعقوب بيك في حركته الإستقلالية من المؤمنين[23].

ثالثًا: الشيخ بيرم التونسي أول عربي تحدث عن ثورة محمد سليمان في مقاطعة يوننان الصينية

شهد القرن التاسع عشر عدة انتفاضات وثورات إسلامية في الصين شملت مقاطعات: يونان وقانصو وتركستان. وكانت تلك الثورات تقابل بقمع شديد وصل إلي حد المذابح والإبادة أحيانًا، وكان من أهمها ثورة السلطان محمد سليمان في يوننان.

---

(22) محمد قاسم أمين (تركستان الشرقية في عهد الملوك الطوائف وفي الوقت الحاضر)- دارتكلامكان الأويغوري، إستانبول، عام 2000، ص 176.

(23) بدر الدين و. ل. جّي، المرجع السابق، ص85.

مقاطعة يونان Yunan تقع في جنوب غرب الصين وتحدها قويجو وقوانغشي من الشرق، وفيتنام ولاوس في الجنوب، وبورما في الغرب، والتبت وسيتشوان في الشمال، ويقطنها ثلثي قومية الهان الكافرة، وثلث الأقليات. وفي عبارة أخري، يقيم في يونان نحو نصف أكثر من خمسين قومية في الصين، وتبلغ مساحتها 350 ألف كم^2، وعدد سكانها حوالي33 مليون نسمة، وعاصمتها كونمينغ Kunming.

كانت مقاطعة يونان لا يقطن فيها أي شخص ينتمي إلي قومية الهان الصينية الكافرة. وكانت السلطة تتركز في أيدي زعماء القبائل والعشائر. وعلي الرغم من الإعتراف بسيادة الإمبراطورية الصينية، فإن المقاطعة ظلت بصورة كبيرة بمنأي عن مجال النفوذ الصيني. وفي أسرة تانغ، ظهرت إلي حيز الوجود إمبراطورية نانجاو Nanzhao (738- 902)، ثم خلفتها دولة دالي Dali(937- 1253) في القرن العاشر الميلادي. وشهدت الأوضاع في يوان ثمة تغيرات هائلة في بداية الأسرة الحاكمة يوان؛ حيث اجتاح المغول الأراضي الصينية وتوغلوا إلي داخل المنطقة التي تسمي اليوم "يوننان"، ودمروا دولة دالي في عام 1253، وأسسوا مقاطعة يوننان وضموها إلي أراضي الإمبراطورية المنغولية. وانتقل المسلمون من شمال غرب الصين إلي داخل المناطق التي كانت محرومة من سكانها جراء نشوب المعارك بصورة مطردة. وفي عهد أسرة مينغ Ming(1368- 1644) دعمت الحكومة المركزية هجرة أبناء قومية الهان الكافرة إلي يوننان[24].

لقد ظهرت ثورة المسلمين في مقاطعة يوان للمرة الأولي في سنة1818م بسبب تخريب مسجد أدي إلي نشوب نزاع بين المسلمين ضد الجيش الحكومي الصيني الذي أخمد الفتنة وقطع أعناق الزعماء المسلمين.

---

(24) Petra Haring Kuan, Yu- chien Kuon (Magnificent China- A Guide to its Cultural Treasures)- Joint Pullising co. (HK) 1987, P. 367, 368.

وفي الفترة بين1826- 1828 وقع المزيد من الإضطرابات، فقد شهدت السنوات بين1834 و1840 سلسلة من الأحداث الدامية المرعبة حيث تأججت الفتنة من جديد وراح ضحيتها ستمائة عائلة من المسلمين، وتدخل الحاكم في بكين، مما أدي إلي أن الفتنة خمدت أوارها وهدأت الأوضاع زهاء 27 سنة. ولكن بحلول عام 1855 حدثت حركة العصيان للمرة الثالثة في مدينة(يوننانغو) واستمرت حتي عام 1873. وكانت هذه أكبر حركة ثورية وأشدها فتكًا قام بها المسلمون ضد السلطة المانشورية الصينية(أسرة تشينغ Qing- 1644- 1911) الحاكمة في بكين.

وفي19 مايو سنة 1856م حدثت مجزرة للمسلمين في مدينة(نينغ تشو) حيث قُتل ثلاثمائة من عائلات المسلمين وأحرقت بيوتهم ومساجدهم بعد قتلهم. وزاد الطين بلة حدوث مجزرة بشعة في مدينة (يوننانغو) بصورة فجائية والتي ذهبت بمئات من الأسر المسلمة ضحية لها، واشتعلت نار الثورة بين المسلمين للمرة الثانية. وكانت المجازر المتعاقبة والمتتالية كانت مخيفة ومريعة للغاية، وأصيب الصينيون وحكامهم بفزع وهياج كلما اندلعت ثورة للمسلمين. وقدر الكاتب الفرنسي(روشر) وكان حاضرًا في تلك المقاطعة في ذلك الحين- قدر عدد القتلي بما لا يقل عن مليون نسمة قد قتلوا في تلك المجازر الدامية، وفرار آلاف الألوف من الناس إلي المناطق المجاورة.

وهناك تفاصيل عن تلك الثورات والمجازر والمعارك التي شهدتها مقاطعة يوننان الصينية بقلم كاتب فرنسي يسمي(روشر) الذي أصدر كتابًا باللغة الفرنسية معنونًا بـ "ولاية يوننان الصينية". وكان روشر يخدم في إدارة الجمارك البحرية بتعيين من قبل البلاط المانشوري، وكان شاهد عيان لتلك الحركة الثورية المؤلمة وزار كبار رجال الدولة والأماكن الهامة التي وقعت فيها تلك الأحداث الفظيعة.

ظهر- في خضم الثورات الدامية- زعيم مسلم اسمه(دو رين شيوي) والذي تلقب بالسلطان (سليمان)، وكان يحظي بشهرة عظيمة ونشاط كبير في أواسط المسلمين،

فاستولي علي مدينة(تاليفو) التي اختارها مركزًا للعمليات والتحركات العسكرية، ونصب نفسه الزعيم الأكبر لجميع المسلمين في مقاطعة يوننان، وأضاف إلي صفوفه أكبر عدد من المسلمين المحليين الذين استعدوا للإنتقام من الكفار الصينيين، وكانت لديه رغبة في تجنيد المسلمين من التبت، فأصدر نداءًا اشتمل آيات من القرآن الكريم يدعو به إلي القيام بالدفاع عن حقوق المسلمين وإسقاط الحكم المانشوري وإنشاء دولة إسلامية في يوننان، وتكون عاصمتها تاليفو. وكانت هذه الوثيقة التاريخية مكتوبة باللغة العربية الجميلة.

لم تستطع الحكومة المانشورية في بكين أن تعالج الأمور المستعصية والمعقدة في مقاطعة يوننان القاصية، حيث انكبت علي نفسها في مجابهة ثورة البوكسر وحرب الأفيون، ناهيك عن أن قوات يعقوب بيك بدأت تتعاظم في شينجيانغ علي نحو ما ذكرناه في الصفحات السابقة.

ولذا اضطرت تلك الحكومة أن تفوض الحكام المحليين في يوننان بمعالجة الأمور وإيجاد الحلول الملائمة لها.

قائد عام القوات المانشورية الإمبراطورية يوجه ضربة قاصمة ويفرق شمل المسلمين وتقسيمهم إلي مجموعتين متناحرتين، وكرستا جهودهما علي تدمير بعضها البعض بدلًا من مجابهة الجيوش الإمبراطورية المانشورية بقلب واحد وروح واحدة. وفي عام 187م وقعت مدينة تاليفو تحت حصار شديد فرضه عليها الجيش المانشوري ونفذ مجزرة عامة بين المسلمين، يحدثنا فيها الكاتب روشر قائلًا:

"إن آلاف الألوف من السيدات المسلمات قد انتحرن بإلقاء أنفسهن وأولادهن في الآبار. كانت هناك حوالي خمسة آلاف من النساء المسلمات اللواتي امتنعن عن الإنتحار أو قتل النفس يعانين أعنف الإعتداء من رجال الجيش عليهن..."

وأردف قائلًا:

"كانت المدينة تتعرض للسلب والنهب كليًا. وانه من غير الضروري أن نذهب إلي سرد التفاصيل عن القصص المؤلمة التي تعاقبت سقوط مدينة بعد أخري. إننا لنري أروع كارثة علي المسلمين وأوحشها عندما سقطت مدينة تاليفو"(25)

واستمر روشر قائلًا:

"إن المدينة كانت فيها نحو خمسين ألف من المسلمين وقد لاقي من ثلاثين ألف منهم حتفهم علي أيدي الجزارين المانشوريين في أبشع صورة. وبعد مجزرة عامة بعث الوالي تحليلًا لنجاحه وافتخارًا لانتصاره، بأربعة وعشرين سلة-24- مليئة بالآذان الآدمية مصحوبة برؤوس الزعماء المسلمين ووجاءهم إلي العاصمة بكين كدليل علي نصره العظيم الذي أحرزه في يوننان...."

وتبلغ المأساة ذروتها عندما نستعرض اللحظات الأخيرة في حياة البطل الإسلامي سليمان(دو وين شيوي) الذي ظل سلطانًا علي نصف ولاية يوننان لحوالي 16 عامًا، فلما وجد نفسه في النهاية مهجورًا من المؤيدين، رضي بتسليم نفسه إلي الوالي إذ تمكن بذلك من إنقاذ أغلب افراد المؤمنين. **فقام بتسميم ثلاث زوجاته وخمس بناته قبل أن لبس أفخر ما عنده من الثياب وأخذ طريقه نحو القيادة العامة للقوات الإمبراطورية المانشورية في15 يناير سنة 1873م، وكان محمولًا علي هودج أصفر رمز لعظمته السلطانية. وقبل دخوله قاعة الإستقبال بلع جرعة من الأفيون، وعلي رواية أخري بلع وريقة من الذهب. وعندما تمثل أمام القائد العام للقوات الإمبراطورية المانشورية طلب كأسًا من الماء وعندئذ قال لعدوه اللدود: ليس عندي أي طلب. وكل**

(25) مارشال بروم هال(الإسلام في الصين)- ص140.

ما أريد أن أقوله هو: "أرجو ألا تهدر دماء الناس الأبرياء كثيرًا". وبعد ذلك شرب الماء فخر جثة هامدة علي الأرض. فقطع رأسه وبعث به إلي البلاط المانشوري في بكين[26].

وكان انتحار السلطان سليمان إيذانًا بإسدال الستار علي قصص وحكايات المجازر الفظيعة والثورات الدامية للمسلمين في مقاطعة يوننان إحدي مقاطعات الصين في عصر أسرة تشينغ أي العصر الإمبراطوري المانشوري.

---

(26) بدر الدين و. ل. حَي، مصدر سابق، الصفحات 94- 95.

المبحث الثامن عشر
أحد أباطرة الصين تحول إلى الإسلام
وإمبراطور ينظم قصيدة في مدح النبي ﷺ

1. إمبراطورية مينغ Ming (1368 -1644):

بعد غزو بكين سنة 1368 ميلادية، أسس الإمبراطور جو يوان جانغ (Zhu- Yuan -Zhang 朱元璋) (1328 -1398) الأسرة الإمبراطورية الحاكمة "مينغ"، واتخذ من مدينة نانجينغ Nanjing عاصمة للصين، وفرض سيطرته وهيمنته وقبض علي زمام مقاليد السلطة بصورة حازمة وصارمة لم نعهدها لدي أي إمبراطور صيني؛ حيث تولي بنفسه الشؤون السياسية والعسكرية وقتل خصومه والمتآمرين ضده، واستمر عهده الزاخر من سنة1368- سنة 1398. وبعد وفاته، بعد أن امتدت حياته من1328- 1398، أصبحت بكين- مرة أخري- عاصمة للصين تحت قيادة خلفائه.

وقد استمر حكم أسرة مينغ التي تأسست بعد آل قبلان خاي، زهاء ثلثمائة سنة، وتولي الحكم فيها أربعة عشر إمبراطورًا. وكانت إمبراطورية مينغ في كامل ازدهارها لمدة ستين عامًا. وبلغت أوج قوتها، عندما قام الرحالة والبحار المسلم الصيني جينغ خه(郑和 -Zheng He) (1371- 1435) أحد خصيان البلاط الإمبراطوري- بسبع رحلات بحرية بإسطوله الكبير إلي جزر البحر الجنوبي والمحيط الهندي حتي سواحل شرق أفريقيا، وأقام علاقات تجارية وثقافية مع تلك المناطق.

وتجدر الإشارة إلي أن التجارة الخارجية وصلت إلي مستوي رفيع في السنوات الأولي لإمبراطورية مينغ؛ فقد وصلت السفن التجارية البرتغالية إلي قوانغ دونغ في سنة1216؛ وكان ذلك إيذانًا بافتتاح خط بحري بين الصين وأوروبا، ثم جاء التجار الأسبان في سنة1557، وتلاهم الهولنديون في سنة1606، فالإنجليز في سنة1637، وبعد ذلك توافدت البعثات التبشيرية، ففي سنة1581 وصل المبشر اليسوعي الإيطالي مايتو ريتشي(1552- 1610) إلي قوانغ دونغ للتبشير بالمسيحية، ثم تبعته بعثات كاثوليكية عديدة إلي الصين.

وفي الوقت نفسه، وفي عهد الإمبراطورية مينغ، دخلت العلوم الغربية إلي الصين مثل: الرياضيات والفلك والتقويم والري والميكانيكا والجغرافيا والفسيولوجيا. وبدأ بعض العلماء الصينيين دراسة هذه العلوم.

ومع بدايات الرأسمالية في عهد مينغ، ظهرت ثقافة جديدة تتواكب مع العناصر الإقتصادية الجديدة. وأحرزت إنجازات جديدة في مجال الأدب، وكانت ملامح الأدب المميزة في تلك الفترة هي كتابة الروايات باللغة الحديثة مثل: "قصص الممالك الثلاث" و"الحج إلي الغرب" و"تقديس الآلهة" و"اللوتس الذهبي"(1).

لم تنعم الإمبراطورية مينغ بالسلام والهدوء كثيرًا، حيث كانت تتعرض دائمًا لغارات التتار والمغول مما أدي إلي حدوث القلاقل والزعازع في الجنوب والشرق، ناهيك عن أن اليابانيين كانوا يشنون هجمات قاسية علي المقاطعات الساحلية. بالإضافة إلي سيطرة الخصيان علي البلاط الإمبراطوري مما أثار حفيظة المثقفين، ونشوب الصراع بين صفوف الطبقة الحاكمة، وتفاقم حدة الوضع السياسي وتدهوره، وانفجار عدة انتفاضات فلاحية بدءًا من عام1628، وانتشار المجاعات والأوبئة، مما ساعد علي تفكيك أوصال وتكسير عظام أسرة مينغ الحاكمة، ولاحت في الأفق إرهاصات تأسيس إمبراطورية تشينغ Qing والتي استمرت في الفترة 1644 إلي سنة 1912 إبان تأسيس الجمهورية الجديدة تحت قيادة الزعيم الوطني صن- يات- صن.

2. ازدهار الإسلام في إمبراطورية مينغ:

وهذا هو العصر الذي ازدهر فيه الإسلام في الصين فظهر أثر هذا الازدهار في كل ناحية من النواحي. في ناحية العلم والتفكير، وفي ناحية الأمور السياسية والخارجية، وفي

(1) جيان بوه تسان وآخرون(موجز تاريخ الصين)- دار النشر باللغات الأجنبية- بكين الصين الشعبية، ط الأولي، عام1985، ص60- 61.

ناحية الصناعة والفن، والناحية التي تهمنا هنا هي ناحية العلاقة الدبلوماسية مع الدول الإسلامية... ونظرة خاطفة إلي الأمور الخارجية لهذا العهد، تكشف لنا أن علاقات أسرة مينغ بالدول الإسلامية قد اتسعت إلي أكبر حد لم يبلغه أي عصر من العصور السابقة لأن دائرة علاقات(تانغ) و(سونغ) كانت منحصرة في الخلفاء بدمشق وبغداد وفي أمراء العرب بما وراء النهر وخراسان، كما كانت علاقات(يوان) منحصرة في ملوك المغول بإيران وأواسط آسيا؛ وأما علاقات مينغ التي نبحث عنها الآن فكانت تتصل بمصر وعدة إمارات بشرق أفريقيا، فضلًا عن الرابطة التي قامت بينها وبين الممالك الإسلامية، وإن الشواهد التاريخية من المصادر الفارسية تنطق بوجود علاقة ودية ورابطة دبلوماسية بين أسرة مينغ والدولة التيمورية ومؤسسها(تيمور كوركان) وبنيه، فقد تبودلت عدة سفارات بين ملوك مينغ وآل تيمور في سمرقند وهرات[2].

وكما ذكرنا آنفًا أن مؤسس إمبراطورية مينغ الإمبراطور(جو يوان جانغ) جعل مدينة(نانجينغ) عاصمة للإمبراطورية الجديدة وأطلق عليها اسم(يينغ تيان) وكان ذلك في العام 1368. ولكن ابنه- في عام 1421- نقل عاصمة الإمبراطورية إلي بكين(بيجين)، وأصبحت نانجينغ(العاصمة الجنوبية) العاصمة الثانية للبلاد.

وقد شهدت العاصمة نانجينغ في أوائل الإمبراطورية مينغ زيادة سريعة ومطردة في عدد المسلمين، ويرجع السبب الرئيس لتلك الزيادة هو هجرة المسلمين إليها القادمين من المناطق والمقاطعات الأخري. وكان من بين هؤلاء المهاجرين المسلمين ضباط وعسكر الذين أسقطوا أسرة يوان وقد استوطنوا في نانجينغ بعد الحرب، ومنهم كذلك أسري من جيش مملكة يوان خضعوا لمملكة مينغ. وخلال الحرب التي أسقطت أسرة يوان حقق الكثير من الضباط والعسكر المسلمين انتصارات كبيرة وتولوا مناصب عالية في حكومة مملكة مينغ. وفي بداية تأسيس تلك المملكة تولي كثير من أبناء قومية هوي مناصب

(2) بدرالدين حي الصيني، مصدرسابق، ص209.

الأمراء والأشراف. أما الأسري المسلمون الذين استوطنوا نانجينغ. وجاء في كتاب "السجلات المحفورة لإنشاء مسجد جينغ جيوه" الذي ألفه وانغأو- جاء فيه: "إنه في عام1389 أمر الإمبراطور(جو يوان جانغ) بإنشاء مسجد جينغ جيوه(净觉寺) ليسهل علي الأسر من قومية هوي أداء الصلاة والصيام، وفي الوقت نفسه، أمر بأن لا يشارك أحد منهم في الشؤون السياسية، ويكرسوا أنفسهم لدراسة الكتب الإسلامية وتأدية الصلاة" [3]

هناك قصة شائعة بين مسلمي نانجينغ، تقول إن بعض الإشراف من قومية هوي كانوا يصلون في مسجد(جينج جيوه) دائمًا، وذات يوم، هم الملك جو يوان جيانغ بدخول المسجد لمقابلتهم في قاعة الصلاة. عندما جاوز الملك عتبة قاعة الصلاة للدخول أتاه حارس المسجد ليمنعه من الدخول مرتديًا الحذاء، تطبيقًا للشريعة الإسلامية التي تمنع دخول المسجد بالحذاء. الملك سحب قدمه التي تجاوزت العتبة وقرر منح مسجد(سان شان) إسمًا جديدًا هو(جينغ جيوه) ويعني "الطاهر"[4]

وتجدر الإشارة إلى أن مسجد(جينغ جيوه) يعد أضخم وأقدم مسجد في جنوب مدينة نانجينغ عاصمة مقاطعة جيانغصو(Jiangsu) التي تقع على الساحل الشرقي للصين والتي تأسست في سنة 1667 ميلادية. وقد تم بناء المسجد في أسرة مينغ في العام 1388 بأمر من الإمبراطور(جو يوان جانغ)، وقد التهمته النيران ودمرته في سنة 1430. واستطاع البحار المسلم الصيني(جينغ خه) من قومية هوى المسلمة أن يحرض أسرة مينغ على إعادة بناء المسجد من الأموال القومية، وقد تحقق طلبه في عهد أسرة تشينغ في

---

(3) مي شوجيانغ(الإسلام في الصين) ترجمة وانغ ماو، دار وو تشو للنشر، الصين الشعبية، بدون تاريخ، ص27- 28.

(4) مي شو جيانغ(الإسلام في الصين)- مرجع سابق، ص30.

سنة1877. ولكن للأسف تحول المسجد إلى مصنع أثناء إندلاع الثورة الثقافية في الصين والتي استمرت عشر سنوات(1967-1977).

3. الإمبراطورية التيمورية والعلاقات مع الصين:

نعلن -باديء ذي بدء- أن الإمبراطورية التيمورية قد تأسست خلال الفترة من سنة 771هـ إلى سنة 906هـ في مدينة "سمرقند" وعدد ملوكها ثلاثة عشر ملكًا.

وقد اتخذ تيمور لنك "سمرقند" عاصمة لملكه ونقل إليها الصناع وأرباب الحرف لينهضوا بها فنيًا وعمرانيًا، وفي القرن التاسع عشر استولى الجيش الروسي على بلاد ما وراء النهر ومنها مدينة سمرقند - ثاني أكبر المدن في أوزبكستان.

وأسس تيمور لِنك الإمبراطورية الكبيرة والتي امتدت مساحتها من الهند إلى السواحل السورية والأناضولية وشن هجمات آتت بغنائم كثيرة كانت كلها من السلب والنهب.

تيمور باللغة الجغتائية: تيمور يعني "**حديد**". وبموجب أقوي الروايات فإن "تيمور" ولد في سنة 736هـ/1336م في بلدة "كش" التابعة لـ "بخاري"، أنه عاش لمدة ثماني وستين عامًا؛ وقد توفي في سنة 807هـ/1405م.

وقد استولي تيمور علي حكم دولة "آل جنكيز" التي كانت علي وشك الانهيار سنة 771هـ /1369-1370م، وقد دام حكمه ست وثلاثون سنة.

كان "تيمور" الفاتح التركي المغولي الذي أسس الإمبراطورية التيمورية في أفغانستان الحديثة وإيران وآسيا الوسطي وما حولها، وأصبح أول حاكم من السلالة التيمورية، كونه قائدًا لم يُهزم، ويعد علي نطاق واسع أحد أعظم القادة العسكريين والتكتيكيين في التاريخ. كما يعد "تيمور" أيضًا راعيًا عظيمًا للفن والعمارة إذ كان علي صلة وثيقة مع المثقفين مثل: ابن خلدون وحافظ آبرو. وبدأ في عهده عصر النهضة التيموري. وقاد حملات عسكرية واسعة النطاق عبر غرب وجنوب ووسط آسيا والقوقاز وجنوب روسيا،

وبرز بصفته أقوي حاكم في العالم الإسلامي بعد أن هزم القبيلة الذهبية والدولة المملوكية في مصر وسوريا والإمبراطورية العثمانية الناشئة وسلطنة دلهي المتداعية في الهند. أسس تيمور الإمبراطورية التيمورية عبر هذه الفتوحات، لكنها أنقسمت بعد وفاته بوقت وجيز.

ويرد اسم "تيمور" في المصادر الشرقية علي هذا النحو: **"تيمور كوركان"**، و**"تيمور لنك"**، و**"تيمور آقساق" أي ""تيمور الأعرج"**. ولفظة "كوركان" تعني في اللغة المغولية عن الصهر أو النسيب، وذلك لان تيمور قد تزوج "كوركان خاقون" ابنة الأمير حسن، من امراء ما وراء النهر. أما "لنك" فهي كناية عن "عرج تيمور" الني تقابل كلمة "آقساق" الفارسية. كان تيمور من أصل تركي ومنغولي، ومن غير المرجح: أن يكون سليلًا مباشرًا من كليهما، لكنه يمتلك سلفًا مشتركًا مع جنكيز خان من جهة والده، في حين اقترح مؤلفون آخرون أن والدته قد تكون من نسل خان. وقد تصور تيمور استعادة المجد التاليد لإمبراطورية جنكيزخان المغولية، بل ووصل به الأمر إلي محاولة إعادة حكم سلالة يوان في الصين.

كانت جيوش تيمور متعددة الأعراق تمامًا وذات رخبة في جميع انحاء آسيا وأفريقيا وأوروبا، وأدت حملاتع إلي تدمير أجزاء كبيرة منها. يقدر العلماء ان حملاته العسكرية تسببت في مقتل17 مليون شخص، أي ما يقارب نحو 5% من سكان العالم آنذاك. كانت خوارزم أكثر المناطق المحتلة معاناة بسبب حملاته، إذ ثارت ضده عدة مرات.

وقد أصبح "تيمور" وزيرًا في الإدارة المغولية بعد أن دخل معترك الحياة السياسية واستولي علي مقاليد الحكم في البلد سنة 771هـ، وتصرف في إدارة البلاد باسم الحاكم المغولي الذي لم يكن في حقيقة الأمر سوي "ألعوبة" في يد "تيمور".

كان "تميور" جد السلطان التيموري وعلام الفلم والرياضيات(أولوخ بيك) الذي حكم آسيا الوسطي بين عامي1411 و1449م، والجد الأكبر لبابر(1483-1530م) الذي

يعد مؤسس إمبراطورية مغول الهند التي حكمت بعد ذلك كامل شبه القارة الهندية تقريبا.

وكان والد تيمور يدعي(طرقاي)، كان رجلًا وديعًا، مصونًا بركامته وشرف مكانته ومقامه ومحتده. وكان منهمكًا في الاستماع إلي دروس الفقهاء، وأصغي مقنعا إلي شروحاتهم وتفاسيرهم، ثم انخرط في حياة العزلة منعزلًا كناسك ضيفا علي إحدي التكايا، وقد قال لابنه تيمور:

"هذه الدنيا ليست بأفضل من إناء ذهبي ملئ بالعقارب والثعابين. أنا متعب منها وكاره لها".

وكان من عادة الأب(طرقاي) أن يحاضر ابنه(تيمور) في ماضي اجداده وأمجادهم، وهم الذين كانوا أسيادًا علي الجبال المطلة علي صحراء غوبي. كان يحدصه عن الأميرات الصينيات اللواتي كن يرسلن كزوجات لخانات الصحراء مع عربات محملة بالحرير والعاج المصنع وكان يروي له أيضًا قصصًا عن احتفال هؤلاء الخانات بالنصر وعن شربهم لحليب الأفرس في جماجم أعدائهم وقد بطنت بصفائح من الذهب الخالص.

كما كان يسدي النصح دائمًا إلي ابنه قائلًا:

"ولكني أود، يا بني، أن لا أراك تحيد عن صراط شريعة الله التي جاء بها رسوله، نبينا محمد عليه وعلي آله الصلاة والسلام. احترم السادة الفقهاء، وآسع إلي نيل بركة الدارويش. خذّ العزم والقوة من أركان الشريعة الأربعة: الصلاة، الصيام، الزكاة، والحج. وهذه وصيتي إليك".

ويذكر أن "تيمور" عاد من الأناضول إلي عاصمته "سمرقند"، بعد أن خطط لفتح الصين، وشن حملة لتحقيق هذا الفتح وتوجه إلي حدود الصين بجيش قوامه بلغ مائتي ألف جندي في جمادي الأول807هـ/1404م، ومكث في مدينة "أوترار" بغية جمع وحشد أكبر عدد ممكن من الجيوش، بيد أنه أصابه مرض عضال، حيث كان الجو شديد

البرودة، وعاند نصائع اطباءه واستمر بحملته، وعاني جيشه قسوة البرد والثلج، ولم تتحمل صحته هذا الجو القارس، فأصيب بالحمي التي أودت بحياته ويقال انه مات بفعل مستحضر معمول من تقطير الخمر صنعه له أطباءه بناء علي أوامره ليقاوم البرد حيث ذاب كبده في18 فبراير سنة 1405م بعد أ، دانت له البلاد من "دلهي" إلي دمشق ومن بحيرة آرال إلي العراق، وكان هذا حده في طرفي جزيرة العرب الشمالي، وبعد وفاتع نقل جثمانه إلي سمرقند حيث دفن هناك في ضريحه المعروف بـ"كور أمير" أي(مقبرة الأمير) في أوزبكستان. وفي تلك الاثناء، كان يحكم الصين الإمبراطور(جو ديون وين) الذي مكث في حكم الصين أربع سنوات فقط بعد وفاء الإمبراطور (جو يوان جانغ) في أسرة مينغ، ووفاة تيمور لنك قد نجت هذه الإمبراطورية من كارثة ماحقة.

تذكر المصادر التاريخية في أسرة مينغ أن سمرقند وبخاري وهرات وكشمير، كانت ترضغ للإمبراطورية الصينية، فكان أصحابها يرسلون الأوتاة والخراج والهدايا إلي الإمبراطور الصيني (جو يوان جانغ). وتصنيف تلك المصادر أن صاحب سمرقند كان في ذلبم الوقت هو(تيمور كوركان)، وقد أرسل في حياته ثلاث سفارات إلي الصين:

السفارة الأولي:

كانت في سنة 1387م، برياسة مسلم كبير معروف باسم (ملا حافظ) قد سافر إلي الصين ومعه هدايا تشتمل علي15 جوادًا وناقتين لإمبراطور الصين جو يوان جانغ الذي أكرمه وأنعم عليه بثمانية عشر مثقالًا من الذهب الأبيض، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا ظل تيمور كوركان يقدم الهدايا لإمبراطور مينغ من الخيول والإبل سنويا.

السفارة الثانية:

ذكرت المصادر التاريخية في امبراطورية مينغ ان تلك السفارة كانت في سنة 1392م، وكانت هداياها عبارة عن ست قطع من البرنيان، وتسع قطع من ثياب الصوف وشالين

أحمرين، وآخرين أخضرين، وكمية كبيرة من التبر والسيوف والسكاكين وآلات حديدية أخري.

السفارة الثالثة:

وصلت الصين في سنة 1397م، وأحضرت هدية إلي امبراطور الصين آنذاك جو يوان جانغ، وكانت عبارة عن مائتي جواد[5]، ومعها رسالة من تيمور كوركان إلي الإمبراطور، عُرفت باسم "رسالة الإشادة" ويعترف فيها الأول بسيادة الصين عليه. **وكان نص الرسالة علي هذا النحو:**

"نتبرك بالملك الأعظم(دائي مينك)، الذي وحد بأمر الله، الجهات الأربع، ووسع علي الأنام الخير والنعمة، وأنعم علي العوام اللطف والرحمة الذي يدين له الملوك بالسمع والطاعة، والذي ينظر إليه السلاطين بالإجلال والاحترام فالحق الأعلي الذي أراد تأمين الدنيا ونصب لواء السلم مرفرفًا علي أهلها، قدر للملك المعظم، أن يكون قطبًا للجماهير يدور حوله كل قريب وكل بعيد، ونبراسًا لأهل البلاد الشاسعة، ينير كالشمس، جميع أرجائها الواسعة.

فأنا تيمور الذي يقطن بعيدًا بعشرة آلاف ميل فيما وراء الجبال، قد سمعت عن عظمة لطف صاحب الجلالة، وسعة كرمه كأنه السيل يجري علي الوضيع والرفيع أو كأنه فيضان يعم القريب والبعيد لا حد له ولا قيد وليس له في الزمان نظير.

فالسعادات التي كاڽ الملوك القدماء محرومين منها ومعدومة لدي سلاطين هذا الزمان كلها موجودة عند صاحب الجلالة، حاضرة والبلاد التي لم تكن خاضعة لحكم الصين، قد سلمت نفسها، إطاعة للملك الأعظم وخضوعًا لحكمه.

(5) Blochet: introducation a l'Histoir des Mongols de Fadllah Rochideddine.

وكانت هناك بلاد نائية انقطعت علاقتها بالصين؛ وجهات متوحشة، غاص أهلها في الظلام والجهالة، أصبحت الآن كلها منيرة مستأنسة تحت رعاية جلالتك فلا أحد من الشيوخ إلا وله نصيب من السعادة والهناء؛ ولا فتي من الفتيان؛ إلا وله حظ من غبطة وسرور في الحياة، كما لا أحد من أهل الخير إلا نال أوفر جزاء ولا عامل من ذوي الشر، إلا اتعظ بعذاب النكال.

وعلاوة على كل هذه، قد تفضل جلالتكم بإكرام الغرباء، غاية الإكرام. فالأجانب الذين صاروا إلى بلاد الصين، تجارًا، أو طلابًا للعيش وكسب المال لقوا من ذاتكم الكريمة عناية فائقة فأطلعتموهم على العواصم والمدن التي فيها ابتسامة الحضارة وزهرة الحياة. ما أكبر سرورهم، عند ما رأوا عظمتها، وما أعظم غبطتهم، حين مشوا بين ابتسامات أزاهيرها. لقد اعتقدوا أنهم قد خرجوا من الظلمات فرأوا نور الشمس على جبين السماء. ثم الكتاب الذي وجهه جلالتكم إلى التجار، لم يكن إلا نورًا من العطف السامي، يتجلى عليهم ففتحت الطرق واتصلت المواصلات فأهل البلاد القاصية مغتبطون لهذا العطف الكريم متعطشون إلى مزيد فيض من القلب الجلالي الذي يكشف كل ما في الخفاء، كمثل كأس جمشيد لا يخفى عليه العالم وما فيه.

بنور كرمك اهتدينا إلى هناء وسعادة، وبلطف عطفك، عدنا إلى رفاهة ونعمة وأما القبائل التي في مملكتي فعندما سمعوا هذا الخبر السار، رقصوا طربًا وفرحًا وأما أنا عبدك الضعيف، فليس عندي شيء أقابل به هذا الإنعام السامي غير الدعاء لذات الجلالة الملكية بالتمتع بأطول العمر وأوفر حظ من السعادة وأقصى حد من السرور والنعمة".

نفهم- من تلك الرسالة- أن تيمور لم يكن مستقلًا بالحكم في سمرقند حتي سنة 1394م، فاضطر إلي الإعتراف بسيادة الصين عليه، حين أرسل إليه للمرة الثالثة، ويؤكد هذه النظرية المصدر الفارسي. لأن الأستاذ بلوشيه Blochet ذكر في مقدمته: أن هناك

رسالة محفوظة في كتاب "مطلع السعدين" لعبدالرزاق السمرقندي، تدل علي عدم استقلال تيمور في بلاده.

عبدالرازق السمرقندي(816- 887هـ/ 1413- 1482) هو المؤرخ الفارسي والرحالة الجغرافي، ولد في هراة، ولكنه نسب سمرقند لإقامته الطويلة بها. كان والده قدم خدم في بلاط تيمور لنك وابنه(شاه رخ) تأمام وقاص. ومن أهم آثاره باللغة الفارسية كتاب **"مطلع السعدين ومجمع البحرين"** الذي يتناول تاريخ آسيا الوسطي وسيرة الملكين جنكيزخان وتيمور لنك، فقد كان المؤلف معاصر لغالب تلك الأحداث. وقد قامت مكتبة طروس بطباعة هذا المصدر التاريخي الفارسي بعد أن ترجمه الدكتور أحمد رياض عز العرب.

وردًا لهذه السفارة، بعث ملك الصين في سنة1395، سفيرًا اسمه(فوآن) مع هدايا من الحرير والثياب إلي تيمور كوركان. فعرضها عليه حين قابله علي ضفة نهر جيجون.

كان خضوع تيمور لم يصدر عن نفس طيعة، فلذا نراه يخرج علي ملك الصين عندما قوي وفتح إيران وجزءًا من جنوب روسيا. فقبض علي تركستان وعزم علي غزو الصين عن طريق بيش بالق. فعلم بإمبراطور الصين ذلك وأمر حاكم قانصو، بالإستعداد للدفاع. لكن تيمور مات في سنة 1405م، قبل تحقيق غرضه، وانقسمت دولته إلي قسمين بين ابنه **الرابع(شاه رخ)** وحفيده **(السلطان خليل)**[6].

4. شاه رخ يدعو إمبراطور الصين(جو دي) إلي الإسلام:

شاه رخ(1377- 1447) هو أحد سلاطين الدولة التيمورية تولي العرش بعد وفاة أبيه تيمور لنك سنة 807هـ/ 1405م، واستمر في الحكم إلي سنة(850هـ- 1447) فعاشت البلاد في عهده أفضل فترات الحكم، حيث لم يسلك طريقة والده الطاغية تيمور لنك، إذ

(6) بدر الدين حي الصيني، مصدرسابق، ص213.

كان محبًا للعلم والعلماء، مهتمًا بالثقافة، كما كان عادلًا تقيًا ورعًا، فاشتهر بحسن السلوك والسيرة الطيبة بين الرعية، وأقام بإصلاحات كثيرة وشيد المباني وبني المدارس الكثيرة في بخاري وسمرقند، وأنشأ مرصده الشهير، وتوفي شاه رخ سنة 850هـ/ 1447م.

5. شاه رخ يعني حرفيًا بالفارسية "وجه الملك":

إن شاه رخ الذي تمكن من التربع علي كرسي الحكم في هراة، كان يرسل بين الجيش والجيش، سفيرًا إلي ملك الصين، فكانت علاقته مع الصين قوية وثيقة ويظهر أنه قد أرسل سفارات إلي ملك الصين، أكثر مما بعث أبوه إليه. ويذكر المصور أن: الصيني واللفارسي، أن البعثة الأولي من شاه رخ إلي الصين كانت في سنة1408م، والثانية في سنة 1409م، فالتمس برسالة دفعت إلي ملك الصين يد المودة والصداقة التي كانت موجودة بينه وبين أبيه تيمور كوركان، فرد الإمبراطور "جو دي" هاتين السفارتين، ببعثة خاصة من بكين في شهر المحرم سنة 815هـ- 1412م مع رسالة إمبراطورية إلي شاه رخ بهرات، ولهذه الرسالة ترجمة فارسية، نجدها محفوظة في كتاب "مطلع السعدين" وها هي ذي ترجمتها إلي العربية[7].

"أن الله قد خلق جميع الخلائق، ثم خلق ما بين السماء والأرض، ليكون كل واحد منها مستريحًا في النعيم ورافلًا في الرفاهية مع تأكيد من أمر الله".

"لقد سخر الله لى ممالك على وجه الأرض، أحكم عليها مطيعًا لحْكم الله، أني لست رجلًا "يفرق بين القريب والبعيد أو النسيب والغريب، بل أنظر إلى جميع الناس بعين المساواة والمحبة.

(7) المصدر السابق، ص214- 215.

"لقد سمعت أنك حسن السيرة عالي الهمة، كامل العقل، مخلص النية، أعلى من أقرانك، وأرفع من أترابك، حتى جعلت طاعة الله والعطف على الرعايا، والعناية بالعساكر والإحسان إلى الزملاء وصلتهم، سببًا للسعادة، ووسيلة إلى الهناء، فإذا أرسلت سفارة خاصة لتلبسك "خلعة من الكمخاب".

"لقد عظمت سفيري، عند ما أرسلته للمرة الأولى، فأكرمته لديك، بعد وصوله إليك وأظهرت الولاء نحوى ففرح الكبار والصغار في قصرى، ثم بعثت، ردًا لسفارتي، بعثة في وقتها، أتت بالهدايا، والتحف من جياد وأمتعة نفيسة من ديارك، فأرى في كل هذه علامة مودتك وآية صداقتك".

"نعم، لقد وقع في مسمعى المدائح العاطرة، والثناء البالغ من عواهل مغول منهم والدك فوماتيمور، الذي قد قبل إطاعتي بأمر الله.

"فهمت من الهدايا المقدمة إلى ذاتي المحروسة، ومن ورود السفارات منك إلينا بين حين وآخر، أن أهل بلادك كلهم في راحة ورفاهية وجميع الأشخاص رافلون في النعيم والهناء، وأنك لتخطو خطوة أبيك الجليل، همة وعملًا، وأما أنا فمن جانبي أرسل اليك "سوجو"، و"دانك جينك"، و"سون قونجى" لإبلاغ تهنئتي إليك، والباسك خلعتي من الكمخاب، وما هي إلا رمز من رموز الصداقة ومظهر من مظاهر المودة، فأبعث بعد هؤلاء أناسًا آخرين لتقوية الروابط بالبعثات، ومد الصلات وفتح طرق النجارة وتوثيق العلاقات إلى ما يرام.

وأما السلطان خليل فهو ابن أخيك، فعليك أن تربيه تربية حسنة لا ثقة وتؤدى واجبك نحوه، بصفة أنك أخ لأخيك، كما عليك أن تطيعني بالإخلاص وصدق النية- وإليك هذا.

من هذا السند التاريخي الذي حفظ حفظه لنا عبدالرزاق السمرقندي في كتابه "مطلع السعدين" يتضح لنا، أن ملك الصين "دائى منك" كان يعتبر تيمور كوركان وابنه

شاه رخ، من تابعيه، فلذا قال لشاه رخ أن أباه قد أطاعه، فيجب عليه أيضًا أن يطيعه كما فعل أبوه[8]".

ويتضح لنا من الأسانيد التاريخية الواردة في كتاب "مطلع السعدين" التي سردها عبدالرازق السمرقندي- يتضح لنا الككثير من الشواهد نذكر منها:

1) إن إمبراطور الصين "جو دي" كان يعتبر تيمور كوركان وابنه شاه رخ، ومن تابعيه، فلذا قال لشاه رخ أن أباه قد أطاعه، فيجب عليه أيضًا أن يطيعه كما فعل أباه.

2) أن شاه رخ لم يرض بأن يكون تابعًا لحكم الصين إلي الأبد، فأعلن استقلاله ولعل هذا بعد سنة 1410م، لأن الرسالة التي بعثها إمبراطور الصين إلي شاه رخ في سنة 1419م كانت في غاية اللين والتواضع. ولا نجد فيها التوبيخ الذي كان يزجره بها في الرسائل السابقة، أو حاكم أعلي يعاقب من تحته من التابعين، بل علي العكس ذلك نري فيها كلمات التفخيم والتعظيم.

3) وبعد إعلان الإستقلال، أرسل شاه رخ رسالتين إلي إمبراطور الصين، إحداهما باللغة العربية والأخري بالفارسية. فشرح فيها عقائد الإسلام ومزاياه، ثم إسلام آبائه. وكان قصده بهاتين الرسالتين دعوة إمبراطور الصين إلي اعتناق الإسلام.

وقد نشر الرسالتين عبدالرازق السمرقندي في مؤلفه(مطلع السعدين ومجمع البحرين). والرسالة المكتوبة بالعربية مشحونة بالصيغ البلاغية المنمقة، التي تكاد تطغي علي الهدف الأساسي من إرسالها. وهو ما أشارت إليه في سطريها الأخيرين، وهذا نصها[9]:

"بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله الا الله، محمد رسول الله. قال رسول الله محمد عليه السلام: لايزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا ينصر من خذلهم ولا يطاع من

---

(8) **Blocheit: P. 248.**

(9) فهمي هويدي(الإسلام في الصين)- مرجع سابق، ص83.

خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته، قال: كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لاعرف، فعلم أن حكمته جلت قدرته، وعلت كلمته، من خلق نوع الإنسان، إيثار العرفان، وإعلاء أعلام الهدى والإيمان. وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، ليعلم الشرائع والأحكام، وسنن الحلال والحرام. وأعطاه القرآن المجيد معجزة، ليفحم به المنكرين، ويقطع لسانهم عند المنازعة والخصام، وأبقى بعنايته الكاملة، وهدايته الشاملة، آثاره الى يوم القيامة، ونصب بقدرته في كل حين وزمان، وفرصة وأوان، في أقطار العالمين، من الشرق والغرب والصين، ذا قدرة وإمكان، وصاحب جنود مجندة وسلطان، ليروج أسواق العدل والإحسان، ويبسط على رءوس الخلائق أجنحة الأمن والأمان، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر والطغيان. ويرفع بينهم أعلام الشريعة الغراء، ويزيح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد في الملة الزهراء. فوفقنا الله تعالى بوابق لطفه، ولواحق فضله، أن نسعى في إقامة قوانين الشريعة الطاهرة، وإدامة قواعد الطريقة الزاهرة، وأمرنا بحمد الله أن نفصل بين الخلائق والرعايا، في الوقائع والقضايا بالشريعة النبوية والأحكام المصطفوية، وتبني في كل ناحية المساجد والمدارس، ونعمر الخوانق والصوامع والمعابد، كي لا يندرس اعلام العلوم ومعالمها، وينطمس آثار الشريعة ومراسمها، ولأن بقاء الدنيا الدنية وسلطنتها، واستدامة آثار الحكومة واىالتها بإعانة الحق والصواب وإماطة أذى الشرك والكفر عن وجه الارض، لتوقع الخير والثواب. فالمرجو والمأمول من ذلك الجناب وأركان دولته أن يوافقونا في الأمور المذكورة ويشاركونا في تشييد قواعد الشريعة المغمورة".

أما الرسالة الثانية: فهي ليست فقط أكثر وضوحًا في دعوة إمبراطور الصين إلي "العمل علي تطبيق شريعة محمد رسول الله، وتقوية الإسلام لنيل سلطان الآخرة بدلًا من سلطان الدنيا"، ولكن الرسالة تضمنت أيضًا معلومات مفيدة عن أمراء المغول الذين

دخلوا الإسلام مع اعتبار أن "الخلاص والنجاة في يوم القيامة والسلطان والدولة في الدنيا، سببها إيمان الفرد وإسلامه وعناية الله تعالي".

يقول الشاه رخ في رسالته إلي إمبراطور الصين:

" لما خلق الله الأعظم، بحكمته البالغة وقدرته الكاملة، آدم 'عليه السلام' جعل بعض أبنائه أنبياء ورسلًا. وأرسلهم إلى الخلق يدعونهم إلى الحق. وأنزل على بعض هؤلاء الانبياء كإبراهيم وموسى وداود ومحمد 'عليهم السلام' كتابًا وعلمهم شريعة، وأمر أهل زمانهم أن يتبعوا شريعة كل منهم ودينه. ودعا هؤلاء الرسل جميعًا الناس إلى دين التوحيد وعبادة الله، ونهوا عن عبادة الشمس والقمر والنجوم، والملوك والأصنام، ومع أن كلًا من هؤلاء الرسل كانت له شريعة خاصة، فإنهم كانوا جميعًا متفقين على توحيد الله الأعظم. ولما صار أمر الرسالة والنبوة إلى محمد المصطفى ﷺ نسخت كل الشرائع الأخرى. وهو نبي آخر الزمان ورسوله، وواجب على العالم بأسره - أمراء وسلاطين ووزراء وأغنياء وفقراء وصغارًا وكبارًا- أن يعملوا بشريعته، وأن يتركوا كل الملل والشرائع السابقة. هذه العقيدة الصادقة الصحيحة تسمى الاسلام. ومنذ سنوات خلت تهيأ جنكيزخان للقتال، وأرسل أبناءه الى بلاد وممالك مختلفة- فأرسل جوجى خان الى حدود سراى، وقرم ودشت قفجاق، حيث أسلم بعض الشاهات، من أمثال أوزبك وجانى خان وارس خان، وعملوا بشريعة محمد 'عليه السلام'، وأصبحوا بذلك مسلمين، وانتقلوا إلى الدار الآخرة سعداء بشرف الإسلام، ومن هؤلاء الملك الصادق غازان وألجايتوا سلطان والشاه سعيد الحظ ابوسعيد بهادر وغيرهم بعدهم حتى ولى العرش والدي المكرم أمير تيمور كوركان. وقد عمل والدي كذلك بشريعة محمد 'عليه السلام' في كل البلاد التي حكمها، ونعم المسلمون طوال عهده برخاء شامل. والآن وقد انتقلت إلى يدى، بلطف الله وفضله، ممالك خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها وغيرها، فإن حكم البلاد في كافة أرجاء المملكة بموجب الشريعة المطهرة النبوية: أمر بالمعروف ونهي عن المنكر. وأبطل "يرغو" وزالت قواعد

جنكيزخان. ومنذ ذلك الحين صار يقينًا ومحققًا أن الخلاص والنجاة في يوم القيامة، والسلطان والدولة في الدنيا، سببها إيمان الفرد وإسلامه وعناية الله تعالى، ومن الواجب علينا أن نعامل رعيتنا بعدل وإنصاف، وإني لارجو بفضل الله تعالى وكرمه أن تعملوا أنتم أيضًا بشريعة محمد رسول الله 'عليه السلام' وأن تقووا الإسلام فتنالوا بدلًا من سلطان الدنيا سلطان الآخرة.

ويعقب توماس أرنولد على هاتين الرسالتين بقوله: إنه ليس ببعيد أن تكون الرسالتان قد خلقتا القصة التي نشأت في عصر متأخر والتي روت أن أحد أباطرة الصين قد تحول الى الاسلام. وقد روى هذه القصة- مع غيرها من القصص- تاجر فارسي مسلم يدعى سيد علي أكبر، قضى سنوات قليلة في بكين، في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، ويتحدث عن عدد كبير من المسلمين الذين كانوا قد استقروا في الصين، فكان في مدينة كنجنفو عدد كبير يبلغ ثلاثين الف أسرة من المسلمين، فلم يؤدوا الضرائب، وتمتعوا بكرم الإمبراطور الذي منحهم هبات من الأرض، ونعموا بالحرية المطلقة في إقامة شعائر دينهم الذي كان الصينيون ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير، وترك أمر التحول إلى الإسلام حرا، وكان في العاصمة نفسها أربعة مساجد كبيرة، وما يقرب من تسعين مسجدًا غيرها في الولايات الأخرى من الإمبراطورية، وقد بنيت كلها علي نفقة الإمبراطور[10].

وفي أسرة تانغ، وفي عاصمة الصين القديمة تم إقامة نصب تذكاري حجري في سنة 742م داخل أروقة الجامع الأعظم الذي بُني بأمر الإمبراطور شوان جونغ Xuan Zhong (685- 762) الذي حكم البلاد زهاء أربعين عامًا في العصر الذهبي لأسرة تانغ. وقد حُفر علي ذلك النصب التذكاري مذكرة لمراقب البلاط الإمبراطوري(وانغ هونغ) جاء فيها:

(10) انظر المرجع السابق، ص 86.

"إن حكيم العرب محمد ﷺ ولد بعد حكيم الصين "كونفوشيوس" ونشأ في جزيرة العرب فكانت الفترة بينهما طويلة والمسافة بين القطرين بعيدة فما اتفقت سنتاهما مع اختلاف لغتيهما إلا لأن قلبيهما متحد فاتحدت سنتاهما وقد مضي الحكيم ولكن آثاره ما زالت باقية علمنا منها أنه ولد عبقريًا يعلم أسرار السماوات والأرض وأخبار الدنيا والآخرة وعلَّم أتباعه أن يطهروا أبدانهم بالوضوء والغسل ويربوا أرواحهم بكسر الشهوات ويروضوا نفوسهم بالصيام ويجتهدوا في الخير ويبتعدوا عن المنكر ويعاملوا الناس بصدق النية والوفاء ويتعاونوا علي عقد الزواج وتشييع الجنازة وبالجملة ما من أصل من أصول المجتمع الإنساني إلا وقد أثبته وما من قاعدة من قواعد الصحة والأخلاق إلا وقد شيدها[11]".

والإمبراطور الأول في أسرة مينغ ويدعي(جو يوان جانغ) والملقب بـ (تاي زونغ . 太宗) قد أمر في سنة **1389** ميلادية ببناء جامع في مدينة نانكين(Nanking)، ونظم هو قصيدة مكونة من مائة كلمة في مدح النبي محمد ﷺ معناها الحرفي الآتي:

"ولد في جزيرة العرب النبي الأعظم الذي كتب اسمه في اللوح المحفوظ وتلقي من الملِك العلي كتابًا منقسمًا إلي ثلاثين جزءًا وبعث رحمة للعالمين فكان ملكًا مربيًا للخلق كافة وسيدًا كريمًا للرسل والأنبياء أجمعين وكاشفًا للفيض الأُقدس حاميًا للرعية يصلي كل يوم خمس مرات داعيًا للعالم بالأمن والسلام ويخاف من الملك الحق ويشفق علي الفقراء والمساكين ويعين علي الشدائد ويعلم أسرار الدنيا والآخرة ويشفع للأرواح وينقذها من النار فقد غمر العالمين بفضله وبهر المتقدمين والمتأخرين بسنته

(11) محمد مكين(نظرة جامعة إلي تاريخ الإسلام في الصين وأحوال المسلمين فيها) المطبعة السلافية ومكتبتها- القاهرة، 1353هـ، ص21- 22.

وجمع الأديان فهذبها حتي صار دينًا طاهرًا حقًا وأن محمدًا لأفضل الأنبياء" هذا مصداق قوله تعالي:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ..﴾[12].

أما الإمبراطور وو زونغ(Wu Zong ـ 武宗) (1506- 1521) في إمبراطورية مينغ قد انتقد أديان الصين قائلًا لخدمه وحشمه:

" أن الكونفوشيوسية تكفي معالجة المصالح في عالم الشهادة وتقصر عن كشف الأسرار في عالم الغيب وأما البوذية والطاوية فكأنهما تكشفان حجب الغيب ولكن لا تفيدان الرجوع إلى الفطرة فإن كل واحد من هذه الأديان منحرف إلى جانب واحد بخلاف الإسلام فإنه دين يعرف به الخالق وينبني على القواعد المعقولة فلا جرم أن يبقى ما دامت السماوات والأرض"

قد وصل فهم الصينيين غير المسلمين للإسلام إلى هذه الدرجة واعترفوا بفضله على الأديان صراحة ولم تكن هناك دعاية اسلامية قط وما زال الإسلام في الصين درًا مكنونًا لو كشف للناس جميعه لسطع نوره على قلوب الذين لم يتدينوا بدين سماوى ولدخلوا في دين الله أفواجا"[13].

(12) انظر المرجع السابق، الصفحات 22- 23.

(13)انظر المرجع السابق، الصفحات 22- 23.

المبحث التاسع عشر
تعداد المسلمين في الصين
«أعقد من ذنب الضب»

1. الدين والتدين ونظرة الصيني إلي الحياة:

"إذا فكرنا في الدين بالمعني المفهوم في الهند، بدا أن الصين لا دين لها علي الإطلاق: ولكننا إذا عرّفنا الغريزة الدينية علي أنها تلك التي تكون لها الغلبة علي غرائز قوية مثل غرائز الجنس والبقاء، لكان الصينيون بكل تأكيد في عداد من هم عميقو التدين. وكان أجساد الأجداد، علي سبيل المثال، تدفن في قطعة الأرض الخاصة بالأسرة، وعادةً ما تكون تلك البقعة صغيرة، ولكن كان يخصص للأجداد أخصب جزء منها باعتبار أن ذلك أمر مفروغ منه"[1] (أ.ف. توملين)

الصين تختلف عن كافة الدول الأوروبية والدول في غرب آسيا، ونشأ الدين فيها منذ العصر البدائي، وتشكل دين الطاوية، وشهدت الصين البوذية والإسلام تباعًا، ولكن لم يظهر فيها أبدًا ثمة دين من الأديان يسيطر علي وعي وأحاسيس الشعب بأسره، بل لم يتشكل فيها ما يطلق عليه "دين الدولة". ولذلك تعايشت فيها جميع الأديان جنبًا إلي جنب، فضلًا عن عبادة تعدد الآلهة، فالأديان مرتبطة ومختلطة ويستوعب كل منها الآخر، حتي دينك يحوي ديني، وديني يشتمل علي جزء من دينك، وأي دين يدخل الصين يخضع للتصيين ويتحلي بملامح الصين وخصائصها بغض النظر عن ماهيته وموطنه الأصلي. ويتضح ذلك بجلاء في البوذية، كما يبرز للعيان مقدرة الثقافة الصينية القوية الفريدة علي الدمج والإنصهار، وكان الحاكم الإقطاعي في العصور المتلاحقة لا يعارض انتشار كافة الأديان ووجودها ما دام مؤسسو هذه الأديان لا يهددون مكانة "ابن السماء" الإمبراطور ويعترفون بمكانته الشرعية حتي ولو كان لا يؤمن بأي دين. وطبعًا هناك بعض

(1) أ. ف. توملين(فلاسفة الشرق) ترجمة عبدالحميد سليم، دار المعارف- القاهرة، ط الثانية، ص280.

الحكام الذين يذكرهم التاريخ بأنهم دمروا الأديان، ولكن يعتبر ذلك موجة في نهر كبير. وأكثر ما يحرص عليه عامة الشعب في الصين المنفعة الحقيقية، وبغض النظر عن ساكيا موني(مؤسس البوذية)، والإله بوذا أو الإمبراطور اليشمي(إله الطاوية)، فإنهم يسجدون ويقدسون أي إله ما دام يضطلع بإغاثة المحتاجين ومواساة المنكوبين، ويغدق عليهم السعادة ويقاوم الكوارث. وفي الواقع، إن السواد الأعظم من الصينيين يعبد إله المال وإله الأرض، وآلهة الرحمة التي تمنح النساء الإنجاب، ويكون أكثر ورعًا وإيجابية وقوة عند تقديس إله السماء، والإله الطاوي أو عبادة مؤسسي البوذية في الأجيال الثلاثة.

ويقول الفيلسوف الصيني لين يوتانغ: توكيد أهل الصين أن هذه الحياة الأرضية جميلة، وحبهم العارم لهذه الحياة. ليس هذا فحسب، بل أنها تدل علي فهم فني للفلسفة أيضًا، وهي تفسير لنا حقيقة لا ريب فيها وهي أن نظرة الفيلسوف الصيني إلي الحياة هي في جوهرها نظرة الشاعر إلي الحياة، وأن الفلسفة في الصين تعترف بالشعر، لا بالعلم كما هي الحال في الغرب. والثمرة الأخيرة لهذه الثقافة والفلسفة هذه: في الصين يعيش المرء، إذا قيس بأهل الغرب، حياة أقرب إلي الطبيعة وأقرب إلي الطفولة، حياة يطلق فيها العنان للغرائز والإنفعالات ويؤكد عليها من دون حياة العقل، مع مزيج غريب من التعبد للجسد والتباهي بالروح، ومن الحكمة العميقة والبهجة المخبولة، ومن المخادعة البالغة والسذاجة الصبيانية. ومن استطيع القول أن هذه الفلسفة تتميز أولًا بالنظرة إلي الحياة كلها نظرة فنية. وتتميز ثانيًا برجعة واعية إلي البساطة في الفلسفة، وتتميز ثالثًا بمثل أعلي من الإعتدال في العيش. ومن عجب أن النتاج الأخير لهذا كله هو تقديس الشاعر، والفلاح، والمتشرد[2].

(2) لين يوتانغ(فلسفة من الصين)- سلسلة علّم نفسك رقم(9) – دار العلم للملايين- بيروت- عام 1953م، الصفحات من 14- 17.

وهذه فلسفة الحياة تمثل وجهة نظر الشعب الصيني جملة... أنها فلسفة ليس لها، بالمعني الجيد، أو بالمعني الردئ، نظير في العالم كله. ذلك بأننا ههنا أمام نظرة إلي الحياة مختلفة جدًا عما نألف، صادرة عن ضرب من العقل مختلف جدًا عما نألف أيضًا. وليس يختلف اثنان في أن ثقافة الأمة هي ثمرة عقلها[3].

فالصيني فيلسوف متواضع- يقول ديورانت- يعرف ألا شئ في هذا العالم محقق ومؤكد، ويقول في نفسه، لعل رجال الدين علي حق، ولعل هناك جنة كما يقولون، وخير ما يفعله الإنسان أن يتقبل كل هذه العقائد، ويستأجر كثيرًا من الكهنة من ديانات مختلفة ليتلوا الصلوات علي قبره. ثم إن المواطن الصيني لا يعبأ كثيرًا بالآلهة ما دام الحظ يبتسم له، فهو يعظم أسلافه، ولكنه يترك هياكل الطاوية والبوذية في رعاية الكهنة وعدد قليل من النساء![4]

علي غرار جُلّ سكان آسيا الشرقية، كان بوسع الصينيين عبادة آلهة متعددة من أديان مختلفة، دون أن يسبب لهم هذا أية مشكلة، ذلك لأنهم يرون في الوظيفة العملية للدين عنصرًا أساسيًا، وليس انتماء المؤمن لدين ما. تعد البوذية والطاوية مثالين علي الدين المؤسسي، وذلك لأنهما يمتلكان تنظيمًا كهنوتيًا، وعبادات، وعقائد خاصة بهما. ومع هذا، غلبت السمة العملية علي تلك النظرية في هذين الدينيين كذلك.... فالصيني يذهب إلي حد الإفتراض أن السماء أو الله نفسه كائن منطقي، وأنك إذا عشت عيشًا منطقيًا معقولًا، فليس ينبغي لك أن تخشي شيئًا، وأن راحة الضمير هي أعظم الهبات جميعًا، وأن الإنسان ذا الضمير المطمئن خليق به أن لا يخاف حتي الأشباح.

وكما يفكر الإنجليز بواسطة جلدهم الذي ينضح صحة كذلك يفكر أهل الصين بواسطة أمعائهم. وتلك حقيقة مقررة في الصين. فنحن الصينيين نعلم علم اليقين أننا

(3) انظر المصدر السابق، ص5.

(4) فهمي هويدي(الإسلام في الصين) مصدر سابق، ص234.

نفكر من طريق أمعائنا. فنزعم أن لفلان "ملء جوف من الأفكار" أو "من الشعر والأدب"، ونقول "ملء جوف من الأسي" أو "من الغضب" أو "من الشوق". والعشاق الصينيون الذين تفرق ما بينهم الأيام يدبجون الرسائل الغرامية قائلين: "إن الفراق قصم أحشائهم"(5).

لقد بات "كل ما يحتاجه المرء في هذه الدنيا الفانية، هو قبعة وحفنة من الأرز"، كما يقول المثل الشعبي الصيني. غطاء يؤمن له الحماية من قسوة الطبيعة، وكسرة من خبز الدنيا، هذا كل ما يحتاجه الصيني. أنه يريد أن يعيش "مستورًا" فقط كما نقول، وذلك غاية ما يطمح إليه الفرد في بلد مكدس بملايين البشر منذ الأزل.

والأدهي من ذلك، أن مفهوم "الدين" و"العبادات والعقائد" و"الآلهة" في الصين شهد تغيرًا هائلًا وتحولًا خطيرًا في الذهنية الصينية إبان اقتحام الماركسية معاقل الصين وانتصار الثورة الشيوعية واعتلاء الشيوعيين سُدة الحكم في بكين في الأول من أكتوبر سنة 1949، ولكي ندرك ذلك بجلاء ننصت باهتمام بالغ إلي الحوار التالي الذي جري بين Alain Peyrefitte مؤلف كتاب "Quande Le Chine S'eveillera... Le Mond tremblera"

(يوم تنهض الصين... يهتز العالم)- مؤلف الكتاب وأحد مسؤولي الحكومة الصينية في مدينة شانغهاي، وقد جاء ذاك الحوار علي النحو التالي(6):

[لماذا نظامكم كما سائر الأنظمة الشيوعية، لا ينضوي بأي دين؟ مم يخشي؟ وإذا كانت نجاحاتكم أكيدة وثابتة، فلا داع للتنكر من أية عبادة....]

---

(5) لين يوتانغ (فلسفة من الصين)، مصدر سابق، ص80.

(6) انظر كتاب (يوم تنهض الصين... يهتز العالم)- منشورات عويدات 1978/1/529، المطابع البولسية، جونيه، لبنان، عام 1978، ص 326.

[الثورة الصينية ليست احتلال هواة... فهي لا تتوجه إلي قسم من الفرد أو جزء من السكان. إنها تحيط بالفرد كاملًا، وبالمجموعة في مجملها، وتفرض الإنصياع إليها دون تعليق. والواقع، لا يمكن أن يكون ثوريًا متدينًا في آن، لأن ذلك يعني إيمانه بديانتين مختلفتين]

[هكذا، لا ترضي الثورة الصينية بخضوع متقلقل، ولا بإيمان غير عميق، بل تفرض تعبدًا صحيحًا، ودراسة فلسفة ماوتسي تونغ، عبادة كلها تقوي، عبادة لها تعليمها الديني، وكتابها الطقسي، وتراتيللها، وكهنتها، وليتورجيتها الخاصة. فكيف' إذا، التعبد لديانات أخري؟]

بهذا، صار الشعب هو الله، وصار ماو نبيه المرسل والماركسية الصينية دين الشعب. صار، للمسيرة الطويلة كما موسي، الناطق الملهم، والقديس البار، يعني، في الوقت نفسه، الخادم والحاكم، قائد شعب الله، وخادم شعب الله، ويقوم، بهذا، بدور وسيط مزدوج.

قبل1911، كان للإمبراطور لقب ابن السماء، وكان الوسيط بين الأ(ض والسماء، يضرع السكان إليه كي يتضرع إلي الله فيُبعد التجارب والبلايا والكوارث الطبيعية. وكانت الإمبراطورية الأخيرة "تسوهسي"، قد أوصت بصلوات عامة من أجل استدراك فترة مرت من الجفاف وانحباس المطر. ولما تغيرت أحوال الطقس، هرع إليها رئيس وزرائها قائلًا: "لقد انهمر المطر، فما أعظمك يا صاحبة الجلالة. إن السماء استجابت للصلوات". فكأنما كانت هي السماء. وفي الواقع، ألم يكن ماو، بنظر شعبه، وسيطًا لدي السماء، والسماء استجابت لدعواته؟[7]

بادئ ذي بدء ينبغي الأخذ في الإعتبار أن السياسة الدينية لم تكن تعترف بإنفصال شؤون المقدسات، واستقلالها عن المجال السياسي، ذلك علي أنه كان يجري الإعتراف

(7) انظر المرجع السابق، ص42.

ببعض المسائل الدينية(العبادات، والآلهة، والقرابين، والشعائر، ورجال الدين) ويجري تناولها علي نحو خاص بشكل واضح[8].

2. عود علي بدء: ما مفهوم الدين في الصين؟

لا نستطيع أن نجزم بأنه كان يوجد دين محدد معروف في الصين، وكان الصينيون، شأنهم شأن سائر الأمم الأخري في جاهليتها الأولي- يعتنقون الأديان القائمة علي أساس الخرافات والأوهام، وكانت أفكار الأسر الحاكمة- ومفكريها في العصور القديمة غامضة ومبهمة، واستخدم الصينيون- في البداية- كلمات مثل: "تعاليم" و"مدرسة" إشارة إلي الدين.

ونجد في التاريخ الصيني القديم بعض الآراء حول الكون ومكانة الإنسان في هذا العالم المحيط بنا. إذ يعتقد الفكر الصيني أن الكون عبارة عن قدر من الإنسجام والنظام. والكون غير ساكن أو متجمد، بل هو في حركة دائمة ومستمرة، وحركة الكون تأتي وتندثر، تتناقص ويتسع نطاقها، وتدور وتندمج مع بعضها لتشكل الكون وتجعله في حركة دائمة.

والطريق المستقيم(الطاو- 道) هو منظم الأحداث وتجعله في حركة دائمة، وهناك قوتان تنبثقان من الطاو هما: الين واليانغ ويعتبران مصدر أصل الأشياء في الكون. والين واليانغ طريقتان أو وسيلتان للفعل المتبادل وتبديل الأشياء، باعتبارهما المصدر الأصلي للأشياء في الكون، كما أنهما قطبان متناقضان في كل الأشياء التي يمكن تصنيفها مثل: الأبيض والأسود، الضوء والظلام، الليل والنهار، الحياة والموت، الذكر والأنثي، والخير والشر. هلم جرا. كما كانت هناك أيضًا تعاليم العناصر الخمسة وهي: الخشب والنار

---

(8) باولو سانتا نجيلو (إمبراطورية التفويض السماوي- الصين ين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر) ترجمة د. ناصر إسماعيل، مشروع كلمة، أبو ظبي، عام2015، ص528.

والأرض والمعادن والماء، وتلك العناصر غير ثابتة أو متجمدة أيضًا، ولكنها مثل الين واليانغ، قوي أساسية التي تستجاب للفعل المضاد من القوة الأخري وتحدث عملية الحركة في الطبيعة. وتركز النظرية الصينية للكون ومصدر الحركة ومظاهر الحياة فيه علي الطاو، والين واليانغ، والعناصر الخمسة.

وكان الصينيون يتخذون الأجسام السماوية والظواهر الطبيعية معبودة لهم غير معتقدين بخالق جبار تحت تصرفه كل شئ من الموجودات والكائنات، فتعددت آلهتهم وتفرق طريق عباداتهم.

3. عبادة المخلوقات الطبيعية[9]:

قبل مليون سنة تقريبًا وفي المجتمع البدائي الصيني وقبل تأسيس أسرة شيا(القرن 21 ق.م.- القرن 16 ق.م.) عاش الأجداد الأوائل للأمة الصينية الحياة البدائية حيث العمل المشترك والإستهلاك المشترك، ولا يوجد استغلال ولا توجد طبقات إجتماعية. وعزز العمل الجسماني الشاق القدرة علي التفكير والمعرفة لدي البشرية بصفة عامة، وقاموا بإعادة تشكيل الطبيعة لأنهم خاضوا كفاحًا طويلًا مع العالم الطبيعي. وعلي الرغم من أن الصينيين الأولين كانوا في الكومونة البدائية يخضعون بصورة كاملة تقريبًا لقوة العالم الطبيعي العفوية، لكنهم أحرزوا تقدمًا علي طريق معرفة القوة الطبيعية بصورة مستمرة والسيطرة عليها والإنتقال من معرفة اللاشئ إلي معرفة بعض الشي عن الطبيعة وأصبح لديهم المعارف المتواضعة المتعلقة ببعض الظواهر والقوانين البسيطة في العالم الطبيعي، ومن ثم استطاعوا التصدي للعالم الطبيعي بصورة كبيرة وانفصلوا عن هذا العالم وتحرروا من رقبته، فقد أدركوا أن العالم الطبيعي لا يعتمد عليهم وأنه قائم بذاته

(9) انظر كتاب (المسلمون في الصين) من تأليف د. عبدالعزيز حمدي، كتاب اليوم، القاهرة عام 2005.

وبصورة مستقلة، وفي الوقت نفسه عرفوا السيطرة علي طبيعة هذا العالم تدريجيًا، وتولدت لديهم روح قهر الطبيعة وإخضاعها. وجسدت الأساطير الصينية تلك التطلعات، وبات إيمان الإنسان الصيني بقدرته علي قهر الطبيعة بمثابة إرهاصات توالد الفكر اللاديني في العصور القديمة.

4. عبادة السماء:

للسماء عند الصينيين معان خمسة: (1) القبة الزرقاء المحيطة بالأرض (2) الآلة (3) القضاء والقدر (4) سير الطبيعيات (5) أصول الكون. ثم غلب عليها المعنيان الأوليان، فإذا أراد بها الصينيون الذات فهي القبة الزرقاء أو تجريدها من هذه الذات فهي تكون بمعني الآلة. وقد عبدوا السماء وكما رأوها بعين الفكر، فرأوا فيها قوة معنوية لها كل السلطان والصولجان علي جميع الموجودات والمخلوقات في السماء والأرض وما بينهما. وكانت عبادة السماء من العبادات الشرفية الراقية الخاصة بالملوك والأباطرة الذين كانوا يستمدون قوتهم من السماء، لذلك كان إمبراطور الصين يلقب بـ "ابن السماء"، فإذا ظلم، أو أهمل مصالح الرعية صبت السماء عليه جام غضبها وخلعته عن العرش[10].

ويقول الأستاذ فهمي هويدي: لقد كان الصينيون يطلقون علي ملك الصين أو إمبراطورها في الزمن القديم "ابن السماء" أو "البغبور" كما ذكر سليمان التاجر وهو ابتكار يعبر عن المواصفات المطلوبة لقيادة شعب في حجم ربع سكان البشرية، إذ لابد أن يقف وراءه قوة خارقة ليباشر هذه المهمة الضخمة، طالما أنه حاكم فرد، لابد أن يكون ابن السماء، لأن أبناء الأرض متوافرون بكثرة، من الواحد حتي عشرات الملايين.

---

(10) محمد تواضع(الصين والإسلام)- دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، 1364 هجرية، ص25.

5. عبادة "كوي- شين":

كان الصينيون من أقدم العصور من عبدة الأرواح الخفية والقوي الغامضة التي يشاهدون آثارها دون أن يدركوا كنهها، وهذه الأرواح المعبودة علي نوعين: أرواح الموتي من آباء وأجداد وتسمي عندهم "كوي" وأرواح القوي المعنوية ذوات القدرة التامة التي تملك الخير والشر وتسمي عندهم "شين". وكان الملوك والأباطرة يراعون في حكمهم إرضاء هاتين القوتين من خلال العدل في حكم الرعية والإهتمام بشؤونها حتي لا تغضبا عليهم فيثور الشعب ويعلن العصيان ويسقطون من عروشهم، ثم انحطت هذه العقيدة، فقام شخص يدعي مي تي(500 ق.م.- 420 ق.م.) بدعوة الناس إلي عبادة الأرواح من جديد حتي يستقيم ما إعوج من أمورهم ويسود الأمن بعد فترة طويلة من الإضطرابات والقلاقل.

6. عبادة الأصنام:

كان سليمان السيرافي أول من تكلم من العرب عن ديانة الصين، وذكر أن: "أهل الصين يعبدون الأصنام، ويصلون لها ويتضرعون". فقد كان الصينيون يعتقدون أن السماء من القوات السماوية، كما أنهم يؤمنون بأرواح الآباء والأجداد، فكانوا يعملون لها تماثيل من الأحجار والأشجار والحديد والذهب والفضة. وبيَّن المسعودي في كتابه "مروج الذهب ومعدن الجوهر" هذه المعتقدات لدي الصين وذكر أن: "كثير من أهل الصين يعتقدون أن الله جسم وأن الملائكة أجسام لها أقدار، وأن الله وملائكته احتجبوا بالسماء فدعاهم ذلك إلي اتخاذ التماثيل والأصنام علي صورة الباري وبعضها علي صورة الملائكة، مختلفة القدور والأشكال، ومنها علي صورة الإنسان وعلي خلافها من الصور يعبدونها ويقربون لها القرابين وينذرون لها النذور لشبهها عندهم بالباري".

كما ذكر المسعودي في موضوع آخر ان دين الصينيين مثل دين قريش قبل مجئ الإسلام يعبدون الصور والأصنام ويتوجهون نحوها بالصلوات واللبيب منهم يقصد

بصلاته الخالق ويقيم التماثيل من الأصنام مقام القبلة. والجاهل منهم يعبدها ظنًا منه أنها تقربه إلي الله زلفي.

7. عبادة الأجداد والأسلاف:

شكلت عبادة أرواح الأسلاف وعبادة المخلوقات الطبيعية المصدر الأول للأديان في الصين القديمة. فقد آمن الصينيون أن هناك روحًا تستطيع أن تنفصل عن أجسادهم، واعتقدوا أن التفكير والإحساس ليسا من أنشطة أجسادهم، بل إنهما من أنشطة روح فريدة تسكن الجسد وتفارقه عند الموت، وذلك جزاء أنهم لا يعرفون شيئًا عن التركيب الفسيولوجي لأجسادهم وعجزوا عن تفسير الأحلام. ومن هنا تولدت فكرة خلود الروح. وفي مقبرة إنسان الكهف العلوي في تشوكوديان علي مقربة من العاصمة الصينية بكين، تم اكتشاف ذخائر الميت، والصوان، والأواني الحجرية، والآلئ الحجرية، وأسنان الحيوانات المثقبة وغيرها من أدوات الإنتاج والحاجات اليومية.

وكانت عبادة الأجداد وتقديسهم في الصين متبعة منذ أقدم الأزمنة المعروفة وجاءت الكونفوشيوسية لتكرس هذا الواقع عبر تعاليمها وأوامرها التي استحدثها من التراث الصيني، ولذا أوصت باحترام القدماء والأجداد وعاداتهم التي عاشوا وماتوا عليها، وقد تحولت هذه الممارسات إلي دين قومي حقيقي.

وفي أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد، انتشرت عبادة الأسلاف والطبقة الاستقراطية رفيعة المقام. وطبقًا للمفاهيم والأفكار التي كانت سائدة آنذاك أن الأسلاف يعيشون مع الحاكم الأعظم في السماء. وإذا كانوا يشعرون بالرضا إزاء الخلف الأحياء فإنهم يدافعون عن الزمرة الحاكمة ويحمونها من الشرور ويقنعون الحاكم الأعظم أن يغدق عليهم ويصبغ عليهم بركاته.

كان خواص المملكة يعظمون الملك بالسجود فقلدهم العوام في هذه العادة حتي أصبحت جزءًا من معتقداتهم فيما بعد.

وبعد زمن الخرافات والأوهام والأساطير، ظهرت علي أرض الصين فلسفات تحولت إلي عقائد وأديان تغلغلت داخل نفوس الشعب الصيني، بالرغم من أن هذه الفلسفات لم تحدد أو ترسم ملامح الحياة الدينية للصينيين، ومن أهمها: الطاوية والكونفوشيوسية.

8. الطاوية Taoism:

ظهرت الطاوية في عهد الإمبراطور شون دي(125- 144م) في أسرة هان الشرقية(25-220)، وهي دين صيني خالص بزغ أصلًا في الصين ويتصف بالخصائص الصينية، وأفكارها موغلة في القدم ومتعددة ومتباينة، وتتحلي بعلاقات متواصلة وجليه من المعتقدات الدينية في العصر القديم من تعدد الآلهة وفنون السحر والتنجيم، واستوعبت الطاوية أفكار التهذيب العقلي والروحي السائد قبل أسرتي تشن(221 ق.م.-207 ق.م.) وهان(206 ق.م.- 24م)، كما استوعبت استحضار الأرواح والتنبؤ بالخير والشر من السحرة معلمي الكلاسيكيات القديمة، وبمقتضي تأثير البوذية تشكلت الطاوية وأصبحت دينًا له أفكاره ونظرياته وطقوسه وشعائره.

يعزي كتاب الطاوية: "الطاو- دي- تشنيغ"(الطريق إلي الاخلاق والفضيلة) إلي حكيم صيني غامض السيرة يدعي(لاو تزي) أي المعلم والحكيم العجوز- الذي عاش حياته خلال الفترة الواقعة بين أواسط القرن السادس وأواسط القرن الخامس قبل الميلاد. وقد مارس الكتاب تأثيرًا كبيرًا علي الحياة الفكرية والروحية للصين، وبما لا يتناسب وحجمه الصغير جدًا. وهو مكتوب بأسلوب مكثف ومختصر حتي بالنسبة للغة الصينية القديمة

التي تتميز عن الصينية الحديثة بشدة إيجازها وتكثيفها، الأمر الذي جعل منه نصًا إشكاليًا علي جانب كبير من الغموض رغم وضوح أفكاره الرئيسة[11].

وقد قدس الطاويون المخلوقات الخرافية، واتخذوا من العبادة التي تشمل الصلاة والتأمل سبيلًا لنيل الخلود والتخلص من آلام حياة الدنيا، رغم أنهم استخدموا الشعوذة والسحر كوسائل للخلود. وتمحور الدين الطاوي على البحث عن إكسير الحياة، تهذيب الذات، وتناول الدواء الناجع المطهر، ودراسة فن العمر المديد والخلود، وقد كانت التحولات التي شهدتها الطاوية البدائية تتناسب مع متطلبات وتطلعات الطبقية الإجتماعية الحاكمة، لأن الأسر الأرستقراطية والنبلاء كانوا يتطلعون إلى العمر المديد وأبدية متعة حياتهم من البذخ والترف والإستغلال.

وفي الأسرة الحاكمة الصينية جين (265م-420م) أصبحت الطاوية دينًا رسميًا خاصًا بالإمبراطور، يقوم على خدمة مصالح الأسر الأرستقراطية الحاكمة بهدف السيطرة على الطاوية بشكل أكبر واستغلالها كمخدر لخداع الشعب وتضليله. وفي أسرة وي الغربية(535م-556م) أعلن الإمبراطور تاي رو(423م-452م) أن الطاوية هي الدين الرسمي للدولة، وكوتشيان هو بطريرك الدولة وأمر بنشر تعاليم الطاوية وتشييد المعابد على غرار المعابد البوذية، وذاع صيت الطاوية - مثل البوذية - بفضل مؤازرة وتأييد الأسر الأرستقراطية الحاكمة في ذلك الحين.

إن تعاليم نبي الطاوية "لاو تزي" قد استمرت بكامل زخمها القديم من خلال بوذية الـ"تشي- آن" التي بدأت بالتشكل تدريجيًا منذ القرن السابع الميلادي، عن طريق التوفيق بين العناصر البوذية والعناصر الطاوية الحكموية في تركيب واحد. وما زالت هذه

(11) فراس السواح (كتاب الطاو- إنجيل الحكمة الطاوية في الصين)- منشورات دار علاء الدين، الطبعة الثانية عام2000، ص5.

الطريقة البوذية، التي تحمل طابع المعلم الأول للطاوية، منتشرة على نطاق واسع في اليابان والعديد من أقطار الشرق الأقصى تحت إسم بوذية الـ"زن"، والتي تلقى اليوم إهتمامًا واسعًا على النطاق العالمي وتنتشر مدارسها في أوروبا وأمريكا الشمالية[12].

وتوكيد الطاوية لوحدانية المرء man's oneness مع الطبيعة قد ألهم الفن الصيني، ومنح الشعب الصيني قدرًا كبيرًا من الاتزان الذي سمح لثقافتهم أن تدوم. وبتوكيدها العظيم للحكم الذاتي الشخصي Personal Autonoy وبتشككها العالمي وبمبدئها النسبي لكافة القيم، قد تعاونت بصورة لا يمكن حصرها في تطور الفردية individualism وفي الإصرار علي الوصول إلي حلول موفقة، وهي أمور تعد من بين أكثر عناصر الروح الصينية أهمية[13].

إن فلسفة(لاو تزي) تتمحور علي لفظ (الطاو) وهو الطريق/ الطريقة أي طريقة الطاوي للحياة الحكيمة، وهي طريقة للتفكير أو للإمتناع عن التفكير. ذلك بأن أصحاب الفلسفة الطاوية يرون أن التفكير أمر سطحي عارض لا يفيد إلا في الجدل المحاجة، وإثمه أكبر من نفعه، وإما(الطريق) ففيها السلامة. والسبيل إليها نبذ العقل وجميع مشاغله والعكوف علي حياة العزلة والخلوة والتأمل الهادئ في الطبيعة، والسير علي منوالها من أشياء تعمل بصمت وبلا صخب ولا ضجيج. فهي توحد وليس في حوزتها شئ، وتؤدي واجبها دون أن تطالبنا بحق من الحقوق. فكل شئ في هذا الكون يعمل عمله ثم يسكن ويخمد. والحكيم يمتاز بالخمود أو هو نوع من التعطل الفلسفي والإمساك عن التدخل في حركة الأشياء فهو يتروي بسكون. ويصبر علي ما أصابه دون أن يتمرد أو

(12) فراس السواح(كتاب الطاو)- مرجع سابق، ص20.

(13) هـ ج. كريل(الفكر الصيني من كونفوشيوس إلي ماوتسي تونغ) ترجمة عبدالحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، عام 1971، ص 169.

يعارض، فإن المرء ينال من النصر بالسكون أكثر مما يناله بالعمل، بل إن الأنثي تغلب الذكر علي الدوام بسكونها[14].

ولا يفوتنا في هذا المقام أن أذكر أن مؤسس الطاوية(لاو تزي) يعد أقدم فلاسفة العالم قاطبة. وترك هذا الفيلسوف العظيم من المأثورات والحكمة التي لا تضاهي في تاريخ الفكر الإنساني كله كما ذكر الدكتور ول يورانت في كتابه "قصة الحضارة". ولا يتسع المقام لسرد تلك المأثورات والأفكار الفلسفية والدينية، ولكن يكفينا أن نقدم شذرات ومقتطفات من أقواله:

- **إن كل ما في الطبيعة من أشياء تعمل وهي صامتة، وهي توجد وليس في حوزتها شيء.**
- **إذا لم تقاتل الناس، فإن أحدًا علي ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك. قابل الإساءة بالإحسان. أنا خير للأخيار، وخير أيضًا لغير الأخيار، وبذلك يصير الناس جميعًا أخيارًا، وأنا مخلص للمخلصين، ومخلص أيضًا لغير المخلصين، وبذلك يصير الناس جميعًا مخلصين... وألين الأشياء في العالم تصدم أصلبها وتتغلب عليها... وليس في العالم شيء ألين أو ألطف من الماء، ولكن لا شيء أقوي من الماء في مغالبة الأشياء الصلبة القوية.**
- **الهدف الأخير من الحياة هو سعادة البشر، وأن الموت قد يكشف لنا عن معجزة عظيمة يخفيها وهي الحياة مثل الليل الذي يكشف لأبصارنا عن معجزة النجوم التي يخفيها وهج النهار.**

---

(14) انظر كتابنا المتواضع لترجمة كتاب لاو تزي(الكتاب المقدس في الطريق والفضيلة)- دار الكتاب الحديث، القاهرة، عام 2020، ص 8-9.

9. الكونفوشيوسية Confucianism:

فلسفة أخلاقية واجتماعية تهدف إلي رسم السلوك الأمثل للإنسان في المجتمع، وهي مجموعة المعتقدات والطقوس الصينية المستندة إلي الكتب الكلاسيكية التي صنعها كونفوشيوس والتعاليم الأخلاقية والإجتماعية والسياسية التي أمر باتبعها والتي تنادي بنوع من السلطة المطلقة والتعلق بالقيم القديمة واحترام الأجداد والآباء والخضوع للحكام والأمراء والأباطرة.

وفي الواقع، أن تعاليم كونفوشيوس قد جاءت لترسيخ قبضة الدولة علي رعاياها محاولة التوفيق بين السماء والأرض "أي بين الديني والدنيوي" وبين العيني والمرئي. ومن هنا جاءت أهمية عبادة الأجداد والأسلاف في هذه الفلسفة الإمبراطورية "ابن السماء" المسؤول عن أمور الدنيا. وتعتبر الكونفوشيوسية أقل من ديانة وأكثر من نظام "أخلاقي" فهي بالنسبة للأمير فن للحكم وللمثقفين فلسفة أخلاقية وسياسية وللشعب أسلوب يعبر من خلاله عن إخلاصه للتقاليد وعن ولائه للسلطة الإمبراطورية.

والكونفوشيوسية أبعد ما تكون عن الإهتمامات الميتافيزيقية كما أنها ليست قائمة علي عقيدة مطلقة، ولا علي طبقة من رجال الدين، إنها تهتم قبل كل شيء بالأمور المحسوسة والعملية حيث تسعي إلي تحقيق الإنسجام في العالم من خلال تحقيق التوازن بين القوي المضادة "يطلق عليها في الفلسفة الصينية(الين واليانغ) وفرض الإنضباط والنظام الإجتماعي من خلال الفضائل العائلية والحب الأقوي وتعليم الشعب وتثقيفه. ويتبلور هذا الجانب العملي في الأخلاق الكونفوشيوسية من خلال دعوتها إلي أربع فضائل رئيسة هي: الإنسانية والعدالة وممارسة الطقوس والشعائر والمعرفة.

لقد فتح كونفوشيوس المجري الثاني للفلسفة الصينية بعد طاوية لاو تزي، ثم طغي عليه فصارت مدرسته هي الأولي: وسرعان ما تكاثر مريدوه في حياته وبعدها وتشكلت حلقات الدراسة وظهرت التآليف التي أصبحت من الجملة الأولي للمأثورات الفلسفية في

الصين. وقد لقيت أفكاره هذا الإهتمام الواسع علي حساب أفكار لاو تزي بفضل بساطتها وشعبيتها مسجلًا بذلك مفارقة فكر ينمو في سياق نمو الدولة ليكون من مفردات أيديولوجيتها الحاكمة لكنه شعبي اللغة والمضمون، مقابل فلسفة معقدة لكنها تستهدف الشعب لا الدولة، بحيث يمكننا الذهاب إلي واقعية كونفوشيوس/ علي الضد من طوباوية لاو تزي/ قد مكنته من النفاذ إلي الدولة والمجتمع معًا في اتساق مبرر مع مجريات تطور اجتماعي كابدته الصين قبل زمانه وواصلته ردحًا طويلًا من بعده(15).

وتربع كونفوشيوس علي عرش "الأيديولوجية" الصينية لمدة تربو علي ألفي سنة ونيف، وتلفعت الصين بـ "الوشاح الكونفوشيوسي" وتغلغلت تعاليمه وأفكاره داخل المجتمع الصيني بأسره، واعتبر الصينيون أفكاره هو تقليدهم الثوري. ويبلغ شدة إعجاب الشعب الصيني بآراء كونفوشيوس إلي درجة العبادة والتمجيد ونقشوا تعاليمه علي الحجارة وأشادوا له الهياكل والمعابد واعتبروا رسالته من رسالات السماء، وهو من الأنبياء. ولم يكن كونفوشيوس سوي فيلسوف منحته الطبيعة بعض الحكمة.

وهو ما أضفي علي كونفوشيوس وصف النبي إلي جانب الحكيم، بينما استمر لاو تزي حكيمًا خالصًا دون أن تنال من حكيمته حتي عبادته اللاحقة من جانب كهان الطاوية. ونبوة كونفوشيوس علي أي حال ليست حيوية من طراز نبوات الساميين، أو حتي من طراز نبوة بوذا ذات اللون الديني الغامق. وهو رغم موقعه من حركة الدولة والمجتمع في الصين بقي عند الناس حكيمًا ومعلمًا طيلة القرون الثلاثة التالية لظهوره، ولم يكتسب القداسة إلا حين صار مذهبه عقيدة رسمية لإمبراطورية الهان. ففي(195 ق.م.) قدم أول أباطرة الهان قرابين ضخمة إلي مُتعبد آل كونفوشيوس علي شرف المُعلم. وبعده

(15) هادي العلوي(المستطرف الصيني). دار المدي للثقافة والنشر- دمشق- سوريا، عام1994، ص73.

بحوالي القرن نظم الإمبراطور مونغ دي قرابين رسمية في جميع مدارس الإمبراطورية حيث خرج تقديس كونفوشيوس من حومة الأسرة ليتحول إلي مُعلم إلي قديس[16].

كانت فكرة الألوهية وإرادة الإله تتسمان بالتعقيد إلي حدٍ ما في الفلسفة الكونفوشيوسية. وكان كونفوشيوس يري أن السماء تتمتع بالسلطة المطلقة مثل الإله صاحب الإرادة والشخصية القوية أو مثل المهيمن والمسيطر علي كل شئ في الكون بما فيه من خير وشر، وسعادة وتعاسة الكائنات البشرية، وكان يردد دائمًا:

"السماء(إرادة الإله) تقرر انتشار المبادئ التي ادعو إليها، وتعزز فشل تلك المبادئ أيضًا". ويعني ذلك أن نجاح مبادئ كونفوشيوس وفشلها تقرره إرادة السماء، ان الناس لا حول ولا قوة لهم لتغيير تلك الإرادة أو إعاقتها، كما ذكر ذات مرة: **"لا أتذمر بالشكوي من السماء، ولا ألقي بالملائمة علي الناس لأن معرفتي متواضعة، إن عقلي يحلق عاليًا في السماء، إنها السماء التي تعرفني!"** كما كان يردد دائمًا أمام أتباعه ومريديه: **"من لا يعرف الحياة، لا يستطيع أن يعرف الموت"** ولم يتناول كونفوشيوس بالشرح والتحليل الطبيعة الإنسانية للإنسان وهل هي خيرية أو شريرة بالفطرة.

رغم أن ديانات كثيرة سادت في الصين إلَّا أنَّ الغلبة كانت للكونفوشيوسية وعبادة الأسلاف لأنها وفرتا للصينيين الإحتفاظ بالتقاليد القوية السامية التي أقامت الصين عليها حياتها، وقبل هذا وبعده كانت الأسرة هي الوسيلة الكبري لدوام هذا التراث الأخلاقي، فقد ظل الأبناء يتوارثون عن الآباء قانون البلاد الأخلاقي جيلًا بعد جيل، حتي أصبح هذا القانون هو الحكومة الخفية التي تتحكم بالمجتمع الصيني، وأثبت هذا القانون استمرارية وديمومة كانت الأقوي من كل النوائب والأعاصير السياسية التي تقلبت علي المجتمع الصيني عبر مراحل التاريخ المختلفة، ولذلك أطلق فولتير مقولته عن الشعب

---

(16) انظر المرجع السابق، ص73.

الصيني في هذا الصدد قائلًا: **"إن خير ما يعرفه الصينيون وأكثر ما يغرسونه في نفوس أبنائهم وما بلغ به ذروة الكمال، هو قانونهم الأخلاقي"** ويؤكد هذا الكلام ما قاله "كونفوشيوس" في المعني نفسه: **"إذا قام البيت علي أساس سليم أمن العالم وسلم"**(17).

ودامت عبادة الكونفوشيوسية حتي القرن العشرين، وبعد ثورة1911 جرت عدة محاولات فاشلة لتحويل الكونفوشيوسية إلي دين رسمي للدولة كما كان الحال في أسرة هان الإمبراطورية، حيث حاول بعض المفكرين الترويج لنظرية مؤداها أن الكونفوشيوسية لا تتعارض مع الحداثة والتقدم، ولكن لم يكتب لهذه النظرية النجاح بعد أن تعرضت لضربات قاصمة من جانب الفيلسوف الليبرالي هوشي، والأديب العملاق لوشون والزعيم الصيني ماوتسي تونغ الذي كان يكن عداء مستحكمًا للكونفوشيوسية وأخذ علي عاتقه أن يحرر الصينيين من قيودها وأصفادها.

كما شهدت الصين بعض الديانات الأجنبية التي تسربت إلي داخل أراضيها قبل الإسلام، وكان من أهم تلك الأديان:

(1) المانوية:

دخلت المانوية الصين في القرن السابع الميلادي عن طريق تركستان، لأن أكثر أهلها قد اعتنقوا هذا الدين قبل الإسلام، فانتشر في شمال الصين وأسست لها الهياكل والأصنام في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي في بعض المدن الشهيرة وكان لها العديد من المعابد في مقاطعات صينية كثيرة. وتشير الواقعة التي حدثت في عهد الإمبراطور وو جوانغ(841- 846م) الخاصة باضطهاد الديانات الأخري إلي مقتل 72 من

(17) الدكتور تركي صقر(عملاق... يستيقظ) الشادي للنشر والتوزيع- سوريا، ط الأولي، عام1993، ص111.

راهبات المانوية مما أدي إلي وضع نهاية لهذه الديانة بعد أن كان هذا الإمبراطور متعصبًا لآراء وأفكار مؤسس الديانة الطاوية لاو تزي.

(2) المجوسية:

ذكر كتَّاب العرب مثل سليمان السيرافي والمسعودي أن المجوسية دخلت الصين قبل الإسلام بقرن علي الأقل، بيد أنها لم تنتشر علي نطاق واسع، فلما فتح العرب بلاد إيران وقضوا علي دولة كسري، فر يزدجرد إلي الشرق ولجأ إلي عاصمة الصين، فأنشأ فيها معبدًا للمجوسيين، ثم جاء بعض علماء المجوسية وبثوا دعوتهم في شمال الصين، ولكن لم تحظ هذه الديانة بالقبول لدي الصينيين فالذين دخلوافي هذه الديانة قليلون جدًا ولا يستحقون الذكر، وقد محيث آثار هذه الديانة ومعتنقيها القلائل في عام 846م.

(3) البوذية:

نشأت البوذية في الهند، وبوذا مصلح ظهر في القرن السادس قبل الميلاد، ثم انتقلت البوذية من الغرب "الهند" إلي الشرق "الصين واليابان" عبر طريق الحرير، وترجمت الكتب البوذية إلي اللغة الصينية في أسرة هان الشرقية(25م- 220م)، كما تُرجم كتابا المذهبين البوذيين "هنا يانا" و"الماها يانا" إلي الصينية.

دخلت البوذية الصين في القرن الأول الميلادي تقريبًا، وبدأت تنتشر في القرن الرابع الميلادي حتي أصبحت الدين الأوسع انتشارًا تدريجيًا، وذلك لأن الإفلاس أصاب الأفكار الدينية الكونفوشيوسية، وبدأت الأسر الاستقراطية في أسرتي وي وجين(220- 420م) وفي الأسر الجنوبية والشمالية(420- 589) تشجيع الميتافيزيقا من تعظيم "الطبيعة" و"التعاليم الأخلاقية الإقطاعية". وشهدت أسرة سونغ الدعاية للبوذية(420- 479)

التي ساعدت علي غرس السلوكيات والعادات الحميدة في نفوس الشعب، ويعني ذلك أنه إذا اعتنق الشعب الديانة البوذية وامتثل لنظام الرهبنة البوذية، فإن الشعب المستعبد لا يعرف النهوض والتحرر، ويتمتع الإمبراطور بالتربع علي العرش، وهنا تكمن الأسباب وراء تشجيع الطبقة الإقطاعية الحاكمة للبوذية من أجل تعضيد قبضتها علي الحكم.

وبلغت البوذية الصينية ذروتها في أسرتي سوي وتانغ(581- 907م) واندمجت في الديانتين الكونفوشيوسية والطاوية. وتجذرت جذورها داخل أروقة المجتمع الصيني، ولذا تغلغلت العقيدة البوذية في أوساط الجماهير وأثرت أفكارها في الفلسفة والأخلاق والآداب والفنون وغيرها. وتلقي البوذيون الصينيون المساعدة من الحكام للتوسع في بناء المعابد وترجمة الكتب المقدسة وحفر الكهوف الحجرية. واعتنق عدد كبير من الأباطرة والنبلاء والأسر الاستقراطية الديانة البوذية. وكان الإمبراطور وو(حكم من502 إلي 549) من أسرة ليانغ(305- 945) من أشهر معتنقي البوذية والأكثر تشبهًا بأفكارها وجعلها الدين الرسمي للدولة، بالرغم من أنه بدأ حكمه كونفوشيوسيًا، واعتكف في المعابد البوذية وزهد الدنيا علي غرار النساك البوذيين، وأصدر أيضًا قرارات تحرم التضحية بالحيوانات لأنه عمل مناف للمذهب البوذي الذي ينادي بعدم الإضرار بشئ. وساعدت هذه الإجراءات علي تشييد العديد من المعابد البوذية وزيادة عدد النساك بصورة لم يسبق لها مثيل، وبلغ عددها آنذاك أكثر من ثلاثين ألف معبد تضم مليونين من النساك والراهبات.

ولا يغرب عن البال أن البوذية تمثل "الدين" الأكثر انتشارًا في الصين، وقد دخلت إلي الصين زمن الإمبراطور(تاي زونغ)(618- 709) حينما أرسل مبعوثًا إلي الهند ليأتي له بإجابة حول من "يمتلك الحقيقة" وعاد ومعه كميات هائلة من الوثائق البوذية. ورغم أن البوذية ذات نزعة رواقية علي خلاف الطاوية الصينية ذات النزعة الأبيقورية، فإن فكرة

التناسخ الروحي لدي البوذية شكلت عامل جذب مهمًا للصينيين. ويعتقد عدد من الباحثين اتساع قاعدة البوذية مستقبلًا في الصين[18].

ويذكر كريل في كتابه "الفكر الصيني من كونفوشيوس إلي ماوتسي تونغ"- ذكر أن: "البوذية انتشرت في الصين من الهند حوالي بداية العصر المسيحي، وكان هذا يعني أكثر من مجرد قدوم دين. لقد كانت البوذية تعني أسلوبًا جديدًا للحياة بالنسبة للصينيين. ولكنها كانت تعني بالنسبة لجميع الصينيين، سواء قبلوا البوذية أو نبذوها، أن العالم من الآن فصاعدًا يمكن أن يتطلع إليه بأساليب جديدة، وأن الكون يفهم علي أنه شئ مختلف تمامًا عما كان عليه. لقد تبدل كل أسلوب التفكير الصيني إلي حد ما، وسيطرت البوذية علي التفكير الصيني إلي حد بعيد، لفترة تصل إلي حوالي ألف سنة".

(4) المسيحية:

عُثر علي سجلات تاريخية نادرة في مدينة تشانغآن ذكرت أن المسيحية وصلت إلي الصين لأول مرة في عام 635م، وكان أول من جاء إلي الصين للدعاية إلي الديانة المسيحية "التي عرفت آنذاك النسطورية" رجلًا يدعي أولوبن **Olaben** الذي استقر في هذه المدينة واستوطن فيها وبني معبدًا للنسطوريين ضخمًا ضم واحدًا وعشرين راهبًا وكان رئيسًا لهم، ثم مالبث أن انتشرت هذه الديانة في المدن الصينية الأخري، وتم إنشاء المعابد فيها ونقشوا أعمالهم على ألواح ونصبوها في المعابد تخليدًا لهم، واستمر ذلك الحال زهاء 200 سنة حتى اضمحلت المسيحية هناك من تلقاء نفسها.

ولكن في عام 1245م توافد مبشرون من إيطاليا وفرنسا للتبشير بالمسيحية، ولم يحالفهم التوفيق بقدرٍ كاف ولم يكتب لهم النجاح طويلًا حيث لا تذكر المدونات

(18) وليد سليم عبدالحي(المكانة المستقبلية للصين في النظام الدولي)- مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية- أبو ظبي، ط الأولي، عام2000، ص241.

الصينية القديمة عنهم شيئًا فيما يتعلق باتباعهم وأثرهم الديني في الصين، وكان ذلك بمثابة الإندثار الثاني للمسيحية في الصين.

وفي عام 1582م جاء المبشر اليسوعي الإيطالي ماتيو ريتشي Matteo Ricci إلى الصين ووصل إلى بكين في عام 1601م. وأخذ بالدعاية للكاثوليكية ونشر المعارف الغربية في الطب والرياضيات والفلك، وقام بإنشاء الكنائس في بكين بعد موافقة الإمبراطور شن تونغ (1573م-1620م) في أسرة مينغ (1368م-1644م). إن وصول بعثة ماتيو إلى عاصمة الصين كانت مقدمة لحملات مكثفة للتبشير بالمسيحية في الصين، وجزءًا من الجهد الكبير الذي بذل في ذلك الحين لاقتحام المسيحية لمعاقل البوذية في آسيا.

وتجدر الإشارة إلى أن حكومة تشينغ الصينية أُجبرت على إلغاء قرار حظر أنشطة التبشير في أعقاب إقتحام أساطيل الدول الغربية الإستعمارية بوابة الصين أثناء حرب الأفيون في عام 1840، مما أدى إلى تغلغل المبشرين الأجانب في المناطق الداخلية وشيدوا الكنائس. وبعد إندلاع ثورة 1911، ازدهرت الكاثوليكية في الصين وزاد أتباعها ليصل إلى أكثر من ثلاثة ملايين نسمة في عام 1946م.

وفي العام 1957 تأسست "الجمعية الوطنية الكاثوليكية الصينية". وقامت الإبرشيات الصينية في الفترة من 1958-1962 بانتخاب الأساقفة وتعيينهم بنفسها. مما حول الكاثوليكية الصينية التي سيطر عليها الأجانب زمنًا طويلًا إلى قضية دينية خالصة يضطلع بشؤونها المتدينون الصينيون أنفسهم. كما تأسست لجنة الشؤون الكاثوليكية الصينية، ومجمع الأساقفة الذي ضم أساقفة من مختلف الابرشيات، ومهمته شرح ودراسة التعاليم الكاثوليكية وتحديد وسائل التبشير والدعوة وإقامة علاقات تعاون متبادلة مع الكاثوليك في البلدان المختلفة. كما تم إنشاء المعهد الكاثوليكي للاهوت والفلسفة في بكين في عام 1983 بهدف تخريج الإكسليروس المتخصصين في اللاهوت الكاثوليكي. ويوجد الآن في الصين أكثر من 4600 كنيسة وقاعة دينية للكاثوليكية.

10. البروتستانية في الصين:

انتقلت البروتستانية إلى الصين في القرن التاسع عشر عندما كانت الصين ترزح تحت وطأة التخلف والإقطاع، بينما كانت بعض الدول الإستعمارية في أوروبا تستغل قوتها الضخمة لإستعباد الشعوب والتوسع في البلدان الأخرى، حيث أجبرت تلك الدول حكومة تشينغ على إبرام معاهدات غير متكافئة من أجل توفير الحماية للمبشرين الأوروبيين، مما أدى إلى دخول 154 فرعًا من المسيحية إلى الصين في الفترة من 1842 إلى 1932.

وفي صيف عام 1950 نشر زعماء البروتستانية في الصين إعلانًا عرف بإسم "الإعتمادات الثلاثة على النفس" يدعو إلى الإعتماد على النفس في الإدارة، وفي التمويل، وفي التبشير، ولقى صدى إيجابيًا في أوساط البروتستانت الصينيين وأفراد الشعب الصيني على الصعيد السياسي والدفاع عن الوطن. وتأسست جمعية البروتستانت الصينية في عام 1980 لرعاية النشاط الديني للبروتستانت الصينيين، وأصدرت طبعة جديدة من الكتاب المقدس، وأعادت فتح معهد اللاهوت الذي بدأ قبول الطلاب الجدد في عام 1981 لإعداد الإكليروس الكنسي. وكان عدد البروتستانت في الصين قبل التحرير في سنة 1949 حوالي 700 ألف، ويبلغ الآن أكثر من مليون نسمة وفقًا لإحصاءات الكنسية البروتستانية، فضلًا عن 12 ألف كنسية للبروتستانية.

11. اليهودية:

نعلن -باديء ذي بدء- أن اليهودية لم تترك ثمة أثرًا في الحياة الدينية في الصين، بخلاف الديانتين المسيحية والإسلام اللتين تركتا بصماتهما وآثارهما الجلية في الحياة الدينية للصينيين، وكان لهما أتباعهما حتى الوقت الحاضر، فاليهودية دخلت إلى الصين مع قدوم اليهود ونزوحهم إلى الصين ولم يضطلعوا بالدعاية لنشر دينهم، فقد كان همهم

الأول والأخير البحث عن مأوى داخل الأراضي الصينية والبحث عن أسباب الرزق بعد أن تقطعت بهم السبل في العالم وأطلق عليهم اليهودي التائه، بل حتى المعابد اليهودية التي عرفتها شيدها اليهود بأنفسهم لممارسة شعائرهم الدينية، ولم ينخرط الصينيون في الأنشطة الدينية اليهودية بصورة جماعية أو حتى فردية، ولذا لم يكتب لها البقاء طويلًا ورحلت واندثرت في الصين مع رحيل آخر يهودي من الأراضي الصينية. ويدحض ذلك نظرية "**اليهود الصفر**" التي حاولت إسرائيل الترويج لها في الأونة الأخيرة.

وقد شهدت الصين في القرن السابع الميلادي تدفق أعداد غفيرة من اليهود القاطنين في آسيا الوسطى إلى جنوب غرب الصين وأُطلق عليهم "التركستانيون الصينيون".

وكانت مدينة كايفنج Kaifeng في الجزء الشرقي بالمقاطعة الصينية خنان Henan أول المدن الصينية التي وطأها اليهود واستقروا فيها. وشهدت كايفنج أول التجمعات اليهودية في الصين حيث استقر فيها لفيف كبير من اليهود لمدة طويلة وتقدموا للسلطات الصينية بطلب الحصول على تصريح الإقامة وتشييد المعابد اليهودية وتنظيم الطقوس والشعائر الدينية.

ويعتقد المؤرخون الصينيون والغربيون أن هذه المجموعة اليهودية هي أقدم التجمعات اليهودية التي دخلت الصين في أوائل أسرة سونغ الشمالية(960-1127). وفي العصور الوسطى اعتاد التجار اليهود في الشرق الأدنى الوصول إلى الشرق الأقصى حتى الصين. ويقول الدكتور نعيم زكي في كتابه "دور اليهود في تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب" ان الإحتمال الحقيقي يكمن في أن مجموعة من التجار الفرس اليهود الذين كانوا يقيمون في كايفنج فيما بين القرنين 10-12م، وجدوا في الصين مراكز إستيطان للتجار اليهود الذين عاشوا في هذه البلاد ومارسوا التجارة فيها وعند موتهم دفنوا بها.

وتعد جماعة ليفي Levi أول جماعة يهودية استقرت في كايفنج وقامت بتشييد أول معبد يهودي في الصين أثناء حكم أسرة جين(1115-1134) في عام 1163، والدليل على ذلك أن هذا المعبد يعد الأول من نوعه في الصين ولا يوجد نظير له قبل قدوم جماعة ليفي إلى الصين

لقد كان نبي الطاوية لاو تزي -بالفعل- حافظًا للأرشيف في مقاطعة خنان حيث كانت تعيش جالية يهودية هامة. لقد أُحرق وأُعيد بناء كنيس(كايفنج) عدة مرات. لقد ثبت أن أولئك اليهود في كايفنج كانوا أقرب إلى الطاوية منهم إلى الكونفوشيوسية. لقد تم العثور، على سبيل المثال، على النقش التالي بالعبرية: "كان موسى يعلم الكينغ قو(الإيمان الحقيقي) ومنه أن الطاو(الطريق) والدي(الفضيلة) كاملان"[19].

وتتوافر لدينا بعض المعلومات عن اليهود في الصين أثناء حكم أسرة يوان(1271-1368) حيث عاش اليهود آنذاك في بكين. وذكر الرحالة الإيطالي ماركو بولو(1254-1327) الذي زار الصين في نهاية القرن الثالث عشر أنه اجتمع في ذلك الحين مع اليهود في بكين بالبلاط الملكي للملك كوبلاي، وأن اليهود والمسيحيين والمسلمين كان يحتدم بينهم النقاش بغية إبراز مزايا ومحاسن دينهم.

وفي بداية القرن الثامن عشر، كان لا يوجد مجتمع يهودي في بكين، والسبب في ذلك أن الغالبية العظمي من اليهود الذين أقيموا في بكين انتقلوا إلي الدين الإسلامي، وهاجر اليهود الآخرون إلي معتقلهم في كايفنج للعيش مع أقرانهم من معتنقي الديانة اليهودية هناك. وعلي هذا النحو، لم تترسخ إقدام اليهودية في الصين، وظلت مرتبطة فخروج الأجانب، ولاسيما اليهود من الصين، ولم تتجذر جذورها في المجتمع الصيني في الماضي أو في المستقبل علي حد سواء.

---

(19) هـ. فان براج(حكمة الصين) ترجمة: موفق المشنوق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، الطبعة الأولي1998، ص42- 43.

الخلاصة:

وبعد أن قدمنا مسحًا شاملًا للديانات والعقائد التي عرفتها الصين قبل دخول الإسلام إلي الصين، تبقي حقيقة دينية سائدة في المجتمع الصيني ومفادها أن الرجل الديني من أهل الصين، هو مجموع لهذه العقائد والمبادئ التي ترجع إلي ديانات مختلفة، منها ما هو مبادئ كونفوشيوس، ومنها ما هو من عقائد لاو تزي، ومنها ما هو من الأصول البوذية، ومنها ما هو من البوذية، ومنها ما هو من المسيحية. فشخص واحد يمكن أن يعيش علي هذه العقائد المختلفة في مختلف أوقاته في الحياة بدون إحداث أي تصادم روحاني في حياته العقلية. فالصيني المتدين اليوم، هو بوذي مسيحي، كونفوشيوس طاوي في آن واحد أي أنه حر في عبادته الدينية يختار ذا أو ذاك متي شاء غير مقيد بدين. ولنا نري أن الدين الحقيقي في الصين هو **"التسامح الديني"**.

دخول الإسلام إلي الصين بين الحقائق والأساطير:

في الواقع، أن تأريخ دخول الإسلام إلي الصين يعد من أكثر الموضوعات تعقيدًا في تاريخ الدراسات الإسلامية الصينية، وينطبق عليه المثل العربي القائل " أعقد من ذنب الضب" حيث تعددت الآراء، وتباينت الأقاويل وتشعبت المصادر التاريخية في تاريخ وصول الإسلام إلي الصين، ولذا حار الكثيرون من الباحثين والمتخصصين أمام تلك الآراء والمصادر التي سردت لنا أكثر من عشرة تواريخ متباينة ومختلفة عن دخول الإسلام إلي الصين. والأدهي من ذلك، أن هناك بعض الأساطير التي نسجت خيوطها حول تاريخ الإسلام وانتشاره في الصين، وزادت الموضوع غموضًا والتباسًا لأن مضامينها تضمن حقائق سياسية واجتماعية كانت موجودة بالفعل في الصين آنذاك.

ولا يزال تأريخ الإسلام إلي الصين يكتنفه طبقات كثيفة من الغموض مما أدي إلي خلافات بين المؤرخين، وقد اتسم هذا الأمير بالأساطير علي نحو تكاد معه حقائق التاريخ

أن تفلت من بين أصابع المدقق المحقق، ويرجع ذلك إلي ندرة مصادرنا ومراجعنا في تقصي حقائق هذا الجانب بصورة خاصة. وزاد الطين بله، أن المصادر والمراجع التي تؤرخ لهذا الحدث الجلل يحوطها الإختلافات والخلافات وتتشابك خيوطها في التناقضات وعدم الإتفاق.

ونحاول هنا- علي نحو من الأنحاء- أن نشق طريقًا وسط الأساطير والحقائق، حتي يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الحق.

أولًا: في العام 587 ميلادية:

ورد في بعض الكتب التاريخية الصينية أن الإمبراطور الصيني الأول ويدعي الـ ون دي- 文帝 - Wen- Di في أسرة صوي Sui (581- 618) رأي في ليلة من الليالي نجمًا باهرًا فأمر رئيس الكهنة أن يتكهن له فوجد ذلك دليلًا علي ظهور رجل عظيم الشأن في بلاد العرب، فأرسل الإمبراطور رسولًا لتحقيق هذه القضية ووجد رسوله بعد سنة كاملة إلي رسول الله ﷺ وطلب منه أن يسافر بنفسه إلي الصين فاعتذر إليه وبعث معه أربعة من صحابته منهم خاله سعد بن أبي وقاص ′رضي الله عنه′، وكان ذلك في سنة 587م. وروي أن رسول الإمبراطور الصيني صور صورة لرسول الله ﷺ سرًا إذ رفض طلبه ولما رأي الإمبراطور صورته ′عليه السلام′ سرَّ بها كثيرًا وعلقها علي حائط بلاطه ليسجد لها، ولكن سعد بن أبي وقاص منعه عن عبادة الصور والتماثيل وأنه لا عبادة إلا الله الواحد القهار، فأعجب الملك بهذا المبدأ النزيه. وفي الكتب المعتمدة أن سعد بن أبي وقاص كان يعتذر إلي الإمبراطور بهذا الكلام نفسه إذا امتنع من السجود للإمبراطور وأمر ببناء جامع في كانتون في جنوب الصين ليسكن في أروقته وسماه جامع(الشوق إلي النبي) وهو موجود إلي الآن فيه منارة تناطح السحاب عليها مسحة من جمال الفن العربي. وأشرف علي بنائه وزير صيني من أسرة تانغ، وكان يحب النبي ′عليه السلام′ فسماه جامع(الشوق إلي النبي).

وقد قيل أن سعد قد اخترمته المنية في الصين ودفن في ضاحية مدينة كانتون، وهناك ضريح تحت قبة جميلة لا مثيل لها في الصين ينسب إلي سعد بن أبي وقاص، ولكن لم يذكر ذلك في كتاب الإصابة وأمثاله.

ولا مرية أن هذه الرواية التاريخية ضعيفة لأن النبي 'عليه السلام' لم يشرفه الله بالنبوة إلا بعد هذا التاريخ(سنة 587م) بثلاث عشرة سنة.

ويؤكد المؤرخون الصينيون المعاصرون أن مسجد(الشوق إلي النبي) الذي يقال إن سعد بن أبي وقاص قد أقامه في كانتون ويسميه أهل الصين(واي شن تزي).. لا يزال موجودًا.. وأن هناك شاهدًا علي قبر سعد خارج المدينة، عليه اسمه مكتوب بخط واضح وتاريخ بناء المسجد سنة 741م. وأن إمام المسجد الذي كان يعمل به فيما بعد يدعي بدرالدين السوكاكي(952هـ- 1545م).

ثانيًا: في العام 623م:

ورد في كتاب(كتاب أسرة مينغ- Ming Shu) إن مدينة الزيتون(تشوان جو) وفي جنوبها الشرقي يوجد جبل دُفن فيه شيخان من أهل المدينة، وهم أباء المسلمين. ويحكى المسلمون في تلك المدينة علي لسان الرواية السائدة أن المدينة كان بها محمد رسول الله ﷺ، فحكم عليها عشرين عامًا وهو صاحب الكتاب يحب الحسنات ويكره السيئات. ويدعو الناس إلي الحق بأمر الله، ينشر الإسلام علي حسب الوحي، وكان له أصحاب بعث منهم أربعة إلي الصين أيام الإمبراطور الصيني(وو دا Wu De 武德- 618- 626)، أستقر أحدهم في مدينة كانتون وقام بالدعاية للإسلام هناك، والثاني مكث في مدينة يانجتشو وكرس حياته لنشر الإسلام بها، وأما الثالث والرابع فقد سافرا إلي مدينة الزيتون فلما توفيا إلي رحمة الله، دفنا بذاك الجبل. ومن المشهور بين أهالي الزيتون أن صاحبي

المقبرتين كانا من العرب قدما إلي الصين في عصر أسرة تانغ. "وفي مدينة الزيتون تم إقامة مسجد تاريخ بنائه غير معروف بالضبط"[20].

وذكر الأستاذ هيرتت، عن، و. ف. مايرز W. F. Mayers وهو مستند إلي تاريخ مينغ(Ming Shu)، أن الإسلام قد وصل إلي الصين بحرًا بين 618 و626 لأن أربعة من الصحابة قد جاؤوا بدين الإسلام في غضون تلك السنوات، وواحد منهم كان يبث دعوته في كانتون، والثاني في مدينة يانغتشو والثالث والرابع في تشوان تشو (مدينة الزيتون)[21].

ثالثًا: في العام 628 ميلادية:

كانت السنة 628 توافق السنة الثانية لإعتلاء الإمبراطور الصيني قاو زونغ ـ 高宗) عرش أسرة تانغ الإمبراطورية الحاكمة في الصين وقد رأي الإمبراطور في تلك السنة في منامه حيوانًا مفترسًا يهاجمه، وبينما لا يجد منه مخلصًا، إذا برجل وقور يرتدي طيلسانًا ويلبس عمامة بيضاء، وبيده مسبحة قد أخذ يدافع عنه. ولما أصبح الصباح جميع الإمبراطور جميع وزرائه وأمرائه فقص عليهم رؤياه وطلب منهم تفسير ما رآه في منامه، فقال قائل منهم إن الحيوان المفترس يرمز إلي ثائر سيثور في البلاد والرجل الوقور هو نبي من الأنبياء قد وُلد في جزيرة العرب. ومعني الرؤية أن بلاد الصين لا يدوم أمنها وصلاحها بدون بركة هذا البنبي العظيم.

الإمبراطور الصيني يوفد وفدًا إلي النبي ﷺ يطلب منه أن يرسل إلي الصين من ينشر الإسلام وتعاليمه في الصين، فأجابه ’عليه السلام‘ إلي طلبه، وبعث مع الوفد ثلاثة من الصحابة الأفاضل وهم: قيس ووقاص وقاسم، فتوفي الأولان منهم في الطريق جراء مشقة

(20) Ancient china's Relation with the Arabs. P. 84.

(21) China Review Vol. 216., chao Ju- Klla: P. 15.

السفر. وحينما قابل ثالثهم إمبراطور الصين أكرمه وأحسن ضيافته وأرسل الإمبراطور(تاي زونغ) ثلاثة آلاف من جنود الصين إلي العرب مقابل ثلاثة آلاف من العساكر العرب، وبني لهم مسجدًا في العاصمة لنشر الإسلام، وكان نواة هذا الدين في مواطن بني الجنس الأصفر. وإن الإمبراطور(تاي زونغ) وصل إلي سُدة الحكم واستمر في الحكم في الفترة من627 إلي 644م. وعلي كل حال، المؤرخون لا يقيمون وزنًا لهذه الرواية. وفي الوقت نفسه، هناك مؤرخون يوافقون علي هذه الرواية بالأدلة التي منها قول المؤرخ الإنجليزي الكبير Colin Micheal Wells ويليس(1933- 2010) المتخصص في التاريخ الأغريقي والروماني، ومن أهم أعماله "العالم العربي ومنطقة السلاف"- ذكر في كتابه "تاريخ العالم"- ذكر أن: النبي محمد ﷺ بعث خطابًا إلي إمبراطور الصين(تاي زونغ) في سنة628 ليهديه إلي الإسلام.

وإذا كان تاريخ الهجرة يوافق سنة 622م، فهل يصدق عاقل أن الإسلام وصل إلي الصين بعد ست سنوات، حيث كان النبي مشغولًا بشؤون الدعوة بالمدينة، وقد هاجر إليها مستنصرًا بأهلها، وجمع كلمة المهاجرين والأنصار، استعدادًا للجهاد!

رابعًا: في العام 632 ميلادية:

مؤلف كتاب "علاقة الصين القديمة بالعرب" قد نقل متنًا مرسومًا، عن أسقف روسي اسمه "آرشيا ندريت بالاديوس (Archimandrite te Palladius) الذي اكتشف هذا المرسوم في بكين في سنة 1878م، وكان مكتوبًا باللغة الصينية وذكر الأسقف الروسي إن المرسوم الأصلي كان باللغة العربية، ثم تُرجم إلي اللغة الصينية. ومن هذه النسخة الصينية، نقله الأستاذ مورجان الإنجليزي إلي اللغة الإنجليزية ونشره في مجلة "ذي فونيكس" في عدد مارس سنة 1882م. وأما مؤلف "علاقة الصين القديمة بالعرب" فلم يعثر علي نسخة صينية الأصل.

وما يرد هنا منقول عن مجلة "ذي فوينكس" التي جاء فيها: "وقد ورد في السنة السادسة لعهد الإمبراطور(قاو زونغ)(627- 649)- في سنة 632م، وصل ابن حمزة- خال النبي ﷺ، إلي الصين مع نسخة من القرآن، وكان يصاحبه ثلاثة آلاف من الجند. وكان رجلًا متدينًا، جميل السيرة، جميل الأخلاق. فسر برؤيته الإمبراطور الصيني، وأكرم أصحابه جميعًا وأبقاهم في العاصمة(تشانغآن) وبني لهم جامعًا فيها. فكثر أتباعهم واتسع نطاق دعوتهم حتي تم إنشاء مسجدين آخرين في نانكين. ثم بحث ابن حمزة مع أصحابه في أركان الدين وأحكام الإسلام ونظامه وقوانينه[22].

خامسًا: في العام 651 ميلادية:

دخل الإسلام الصين في عصر أسرة تانغ(618- 907م). وقد قيل في عام 651م في عهد الإمبراطور قاو زونغ في هذه الأسرة، أرسل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رسولًا إلي مدينة تشانغآن للمثول بين يدي الإمبراطور الصيني وقدم له أحوال الإمبراطورية العربية والعقيدة الإسلامية. واعتبر باحثون وعلماء ذلك بداية تاريخ دخول الإسلام إلي الصين[23].

وقد أثبت هذا القول الأستاذ "ايساك ماسون"(Isaac Manson) الأمريكي قائلًا في كتابه "البحث عن دخول الإسلام في الصين" إن دخول الإسلام إلي الصين بدأ في سنة 651م، وربما دخل المسلمون في الصين قبل ذلك، ولكن شيئًا من ذلك لم يثبت بوجه قاطع.

(22) بدرالدين حي الصيني(العلاقات بين العرب والصين)- مرجع سابق، ص150.

(23) تشنغ يوي تشن(لمحة عن الثقافة في الصين) ترجمة د. عبدالعزيز حمدي، مشروع كلمة- أبو ظبي، ط الأولي، عام 2014، ص244.

12. ملاحظات ومشاهدات علي الحياة الدينية في الصين:

- كانت الكونفوشيوسية الديانة الرسمية للدولة، ويمكن اعتبارها، وما تتضمنه من رجال الدين، ومقرات كدين مدني أيضًا بالمعني الواسع للكلمة، وجرت السيطرة عليها كذلك من خلال المدارس، ونظام الإختبارات. من الناحية النظرية مارس الإمبراطور سيطرة مطلقة علي الكونفوشيوسية، والبوذية والطاوية وعلي عباداتها وشعائرها، بصفته السلطة الدينية العليا، والحامي للإيديولوجيا الرسمية.

- تعد الكونفوشيوسية عقيدة أخلاقية عملية بصورة رئيسة تسعي إلي تكريس إنسجام المجتمع، وطورت لهذا مجموعة من الطقوس التي تتناول بشكل أساسي العلاقات الإجتماعية المرتكزة علي ما يسمي بالمحاور الخمسة: الأب- الابن، الحاكم- الرعية، الأخ الأكبر- الأخ الأصغر، الزوج- الزوجة، الصديق- الصديق. وتتضمن الكونفوشيوسية أيضًا مجموعة من المراسم الخاصة بالأسلاف وصاغت نظرية تؤسس لمشروعية السلطة المستندة إلي التفويض السماوي التي تتمثل في تطابق الفعل السياسي مع الإرادة السماوية.

- قيمة المعلم القدير كونفوشيوس ليست في أنه بث تعاليمه تلك منذ 25 قرنًا، ولكن في أن هذه التعاليم أسهمت بقدر كبير في تشكيل التفكير الصيني طوال تلك القرون. وليس أدل علي عمق هذا التأثير من أن الرئيس ماو قرر- وهو يسعي إلي تحقيق الثورة الثقافية في الصين- أن يخوض معركة ضد تعاليم هذا الحكيم الصيني الذي مات قبل ألفين وخمسمائة عام.

- تُعدَّ الطاوية العقيدة الثالثة، وتسعي إلي تحقيق الإنسجام الداخلي المتآلف مع الكون بأكمله، ومن ثم بلوغ الخلود البدني. وخلافًا للكونفوشيوسية، لا تكترث الطاوية بالتنظيم الإجتماعي، بل تهتم بإعداد مجموعة من القواعد والطرائق التي تقود إلي

الإستنارة، وإلي التحرر من "الحيل المصطنعة" المخالفة للطبيعة. في القرن الخامس عشر جري تدوين "كتاب الطاو"، وذلك بفضل الدعم الإمبراطوري، وأظهر بعض الأباطرة إيمانًا خاصًا بهذه الديانة.

- لا ينبغي الخلط بين شعور التدين نحو الكون، ونحو النمو الأخلاقي الذي لاحظناه عند بعض المفكرين، وبين الإيمان ببعض الآلهة والأرواح. وبصورة عامة، اتخذ المتأدبون الكونفوشيوسيون موقفًا متشككًا من المعتقدات الشعبية التي كثيرًا ما اعتبروها بمثابة خرافات. بيد أنه في بعض الأحيان جري التسامح مع هذه المعتقدات، وتشجيعها بغرض الحفاظ علي النظام العام والتعايش الإجتماعي.

- تنافست البوذية مع الطاوية والكونفوشيوسية في الصين، إلا أنها كانت كذلك الزرادشتية في آسيا الوسطي والبراهماتية في الهند وجنوب شرق آسيا. وبعد عدة قرون وحين كانت البوذية قد أوشكت أن تختفي من معقلها الهند، كان هناك اعتناق جماعي للبوذية في التبت بالصين. أن قوة البوذية علي نشر أفكار عالمية وترويجها كان قد غير الثقافات المحلية وروح التجارة كأمر ثابت. كما غيرت آسيا وربطها بوسائل كانت لا تخطر علي بالٍ فيما مضي.

- في عام 1589 اليسوعي جانبيتر مافيّ Gianpietrs Maffei (1535- 1603) لفت الإنتباه إلي أن الصينيين ليسوا متدينين بشكل خاص، فقد أسهم اليسوعيون في الجدل حول الشعائر الصينية الذي ثار في الدوائر الكهنوتية، وبين المذاهب الدينية المسيحية تجاوز المسائل الدينية والتبشيرية، ليمس قضايا أوسع نطاقًا عن طبيعة الكونفوشيوسية، وإن كانت دينًا أو مبادئ أخلاقية، وموضوعات أخري مثل مفهوم الدين نفسه، والعلاقة بين الثقافة والعقيدة، ومفهوم الألوهية، ونسبية الأخلاق في المجتمعات المختلفة. لقد أخفقوا في تحقيق هدفهم في نشر المسيحية في البلاد، إلا أنهم

علي أية حال، اضطلعوا بوظيفة مهمة في التاريخ الفكري الأوروبي نفسه ويستحقون عن جدارة أن نعتبرهم مؤسسي الدراسات الصينية[24].

- **لا دين غريب في الصين:**

علي سبيل المثال، الصين تختلف عن كافة الدول الأوروبية والدول في غرب آسيا، ونشأ فيها الدين منذ العصر البدائي، وتشكَّل دين الطاوية، وشهدت الصين البوذية والإسلام تباعًا، ولكن لم يظهر فيها أبدًا ثمة دين من الأديان يسيطر علي وعي وأحاسيس الشعب بأسره، بل لم يتشكل فيها ما يطلق عليه "دين الدولة"، ولذلك تعايشت فيها جميع الأديان جنبًا إلى جنب، فضلًا عن عبادة تعدد الآلهة، فالأديان مرتبطة ومختلطة ويستوعب كل منها الآخر، حتى دينك يحوي ديني، وديني يشتمل على جزء من دينك، والإختلاف الديني ينطوي على التماثل، والتشابه يحمل في طياته الإختلاف. وأي دين يدخل الصين يخضع للتصيين ويتحلى بملامح الصين وخصائصها بغض النظر عن ماهيته وموطنه الأصلي. ويتضح ذلك بجلاء في البوذية، كما يبرز للعيان مقدرة الثقافة الصينية القوية الفريدة على الدمج والانصهار. وكان الحاكم الإقطاعي في العصور المتلاحقة لا يعارض انتشار كافة الأديان ووجودها ما دام مؤسسو هذه الأديان لا يهددون مكانة "ابن السماء" الإمبراطور ويعترفون بمكانته الشرعية حتى ولو كان لا يؤمن بأي دين. وطبعًا هناك بعض الحكام الذين يذكرهم التاريخ بأنهم دمروا الأديان، ولكن يعتبر ذلك موجة في نهر كبير. وأكثر ما يحرص عليه عامة الشعب في الصين المنفعة الحقيقية، وبغض النظر عن ساكياموني(مؤسس البوذية)، والإله بوذا أو الإمبراطور اليشمي(إله الطاوية)، فإنهم يسجدون ويقدسون أي إله ما دام يضطلع بإغاثة المحتاجين ومواساة المنكوبين، ويغدق عليهم السعادة ويقاوم الكوارث. وفي الواقع، إن السواد الأعظم من

(24) باولو سانتا نجيلو(إمبراطورية التفويض السماوي)- مصدر سابق، ص56.

الصينيين يعبد إله المال وإله الأرض، وآلهة الرحمة التي تمنح النساء الإنجاب، ويكون أكثر ورعًا وتقوى وإيجابية وقوة عند تقديس إله السماء، والإله الطاوي أو عبادة مؤسسي البوذية في الأجيال الثلاثة[25].

- حمل الإسلام أسماء مختلفة في المراحل التاريخية المختلفة: ففي أسرة تانغ (618-907م) سمي "**داشي**"، وفي أسرة مينغ(1368- 1644) سمي دين "**تيان فانغ**" **(أي الدين السماوي) أو دين "هوي هوي"**، وفي أواخر أسرتى مينغ وتشينغ(1616- 1911) سمي "**تشينغ تشين**"، وفي فترة جمهورية الصين(1912- 1949) سمي دين "هوي"، وبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية في عام 1949، أصدر مجلس الدولة بيانًا بعنوان: "إشعار حول اسم الإسلام في عام1956 جاء فيه أن: "الإسلام دين عالمي، والإسلام اسم متداول في العالم"، ولهذا يوقف استخدام مصطلح دين هوي واستخدام "**دين الإسلام**". فيما أصبح الناس يطلقون علي دين هوي اسم الإسلام في بر الصين الرئيس، ولكن في هونغ كونغ وميكاو وتايوان لا يزال اسم دين هوي مستخدمًا إلي الآن".

- ومن الآحجي- أن نقدم في هذا المقام- مزيدًا من الإستنارة لبعض أسماء الدين الإسلامي في الأسر الإمبراطورية في الصين، ففي عصر أسرة يوان(1271- 1368) استخدم العلماء الصينيون كلمة(تشينغ 清) وكلمة (جينغ - 净) إشارة الى الدين الاسلامى، وتعنى على التوالي : الطهارة، الحق، النظافة. وفي العام 1281 ميلادية كانت المساجد تسمي "معبد دين الطهر"، وسمي الصينيون الإسلام: تشينغ جينغ وتعني دين الطهارة والنقاء والصفاء، دين صاف لا تشوبه شائبة عبادة الأصنام ويلتزم بالتوحيد. كما سميت المؤلفات التي تشرح الإسلام "دليل ديانة الطهارة"، وأطلق علماء المسلمين علي أنفسهم "خادم الدين الحق، ومسن ديانة الطهارة". كما عُرف الإسلام باسم "الديانة المكية" في

---

(25) انظر كتابنا المتواضع(لمحة عن الثقافة في الصين)- مرجع سابق، ص169- 170.

أسرة مينغ، أما في أسرة تشينغ(1644- 1911) فقد استخدم مصطلح الديانة المكية وديانة الطهارة للدلالة علي الإسلام. كما أطلق علي القرآن الكريم اسم الكتاب المكي المقدس، وسميت الشعائر الإسلامية بالشعائر المكية، وسمي المتخصصون في العلوم الإسلامية أنفسهم بـ"خبراء علم المكيات".

وهناك أسماء أخري أطلقها المسلمون الصينيون علي الإسلام منها الدين القيم بناءً علي تسميته الواردة في القرآن الكريم، وديانة بداية الخليفة، والدين الأقدم، باعتبار أن الإسلام هو الدين الذي اعتنقه سيدنا آدم 'عليه السلام'.

- لم يصل الإسلام إلي الصين عن طريق بعثات تبشيرية أو استعمارية، وإنما وصل إليها مع امتداد الحركة التجارية وفي عهد الإمبراطور(تاي زونغ) ثاني الأباطرة في أسرة تانغ الحاكمة وأحد أعظم أباطرة الصين، وهو الذي وضع أطر المؤسسات الحكومية التي استمر العمل بها ألف سنة تالية.

- وصل الإسلام إلي الصين في وقت مبكر يرجع إلي أواسط الأمويين، لكنه لم يجد مهتدين صينيين شأن سائر الأديان الأجنبية، أما المسلمون الصينيون فهم ليسوا صينيين في الأصل وإنما رجال من العرب والترك والفرس تزوجوا من صينيات فصار لهم أولاد مسلمون وتشكلت بهذه الطريقة قومية هوي المسلمة، ولأبناء هذه القومية ملامح مشتركة صينية- عربية أو تركية أو فارسية وإن كان الغالب عليهم السحنة الصينية. ولغتهم هي لغة الهان. فهم ليسوا قومية بالمعني المضبوط للقوميات وإنما حملوا هذا الوصف لتمايزهم في الديانة عن سائر الصينيين، وهي تشير من بعيد إلي اعتبارهم أجانب في عيون مواطنيهم وقد اضطهدوا من جانب الشعب والدولة علي حد سواء. وسماهم مواطنوهم هوي زي للتحقير(يستخدم المقطع زي لأداة تصغير في الصينية). لكن انتمائهم إلي الصين لم يتزعزع. وهم في النهاية صينيون كونفوشيون بقدرٍ ما- أو أكثر من مما- هم محمديون، ولعل هذا هو السبب في أن القوي الإمبريالية التي غزت وحكمت

الصين منذ أواسط التاسع عشر لم تستطع استغلال الوضع الإقتصادي لهؤلاء المسلمين لاستدراجهم إلي التعاون معها. وقد انضمت عناصر فاعلة منهم إلي جيش ماوتسي تونغ وساهمت في التحرير.وهو السر في الوضع الجيد الذى نعموا به في الجمهورية الشيوعية التي أسست لهم الجوامع وأعطتهم الحرية الكاملة في مزاولة النشاط الديني.

13. تعداد المسلمين في الصين لماذا "أعقد من ذنب الضب"؟

الضب: حيوان بري من الحيوانات الزاحفة ويكثر في الصحاري. ولقد ضرب به المثل بالبخل. وضرب بذيله المثل بالتعقيد فيقال: أبخل من(ضب) ويقال أعقد من ذيل الضب. ويقال أيضًا: (أعق من ضب) لأنه رغم صبره علي الجوع إلا أنه أحيانًا يأكل أولاده وليس وفيًا لمن يطعمه ويرعاه، فاشتهر بالعقوق. كما أن ذكر الضب يقتل أنثاه بعد أن تضع بيضها.

ويضرب المثل العربي: "أعقد من ذنب الضب" للأمر المعقد الصعب الذي لا يمكن التغلب عليه، كما كان العرب يضربون ذلك المثل بعقد ذنب الضب التي تبلغ 21 عقدة إلي المشاكل والإشكاليات التي يصبح من الإستحالة الوصول لحلول لها.

"يقول الأستاذ فهمي هويدي: **كم عدد المسلمين في الصين؟**

ربما كان هذا هو أكثر الأسئلة شيوعًا، بين ما يطرح من استفهامات حول أوضاع المسلمين هناك، بل إن بيننا من ترك كل ما يحيط بمسلمي الصين من ملابسات وظروف، وانشغل بإحصائهم، وهل هم عشرة ملايين أو ثلاثون أو ستون؟

ورغم كثرة ترديد السؤال بين الكتاب والباحثين في الشرق والغرب، فإن أحدًا لم يستطع أن يعثر له علي إجابة محددة، حتي جاءت التقديرات متضاربة في كل مرة، بحسب اجتهاد كل باحث، وتفائله، أو تشائمه، ورما بحسب مصلحته وغرضه.

أزعم أن هذه الصفحة من ملف مسلمي الصين هي من أكثر صفحاته إبهامًا وغموضًا، وإن لم تكن أكثرها أهمية أو خطرًا. فثمة اعتبارات عملية تحول دون الوقوف علي حقيقة عدد المسلمين هناك"[26].

وحسبنا في السطور التالية- وحسب القارئ العربي- أن نسرد مقتطفات وشذرات عن إحصائية وتعداد المسلمين في الصين، مما يبرز للعيان مدي تعقيد وخطورة هذه الإشكالية في ملف المسلمين الضائع في الصين:

أولًا: (مجلة العرب الدولية) العدد 639- الصادرة في 6- 12 مايو(آيار) 1992، ص 47- جاء فيها:

"تقرير نشرته صحيفة "هيرالدتريبيون" في منتصف مارس من ذلك العام(1990) قالت فيه: نتيجة للأحداث في جمهوريات آسيا الوسطي السوفيتية يظهر المسلمون في الصين البالغ عددهم(**50 مليون نسمة**) إشارات لاضطراب متزايد تحت الحكم الشيوعي..."

ثانيًا: جريدة(اللواء الإسلامي) الصادرة في 26 محرم 1417هـ/ 13 يونيو 1996- ذكرت في الصفحة رقم13، تحت عنوان: الإنطلاقة الإسلامية ذكرت: "يشهد المجتمع الإسلامي في الصين والذي يضم(**130 مليون نسمة**) من المسلمين انطلاقة إسلامية واعية في كافة المجالات..."

ثالثًا: العالم المسلم الصيني في كتابه(الصين والإسلام)- دار الطباعة والنشر الإسلامية- القاهرة- جمادي الأول 1364هـ، ص 63:

يبلغ عدد سكان الصين 473,537,335 نسمة، وليس للمسلمين بينهم إحصاء مستقل دقيق، ولكن عددهم يبلغ نحو(**الخمسين مليونًا**) من بين سكان الصين في أصح الآراء،

(26) فهمي هويدي(الإسلام في الصين) مرجع سابق، ص 157.

وإن بالغ بعض الباحثين فجعلهم(ثمانين مليونًا)، بينما جعلهم آخرون**(ثلاثين مليونًا) فحسب.** ولقد أحس المسلمون بضرورة إجراء إحصاء دقيق، ولكن هذا الإحصاء لم يبرز إلي الوجود بصورة نهائية إلي الآن.

رابعًا: في مقدمة الكتاب السابق المذكور آنفًا نقرأ الآتي:

إن مصر دولة إسلامية وهي مركز الحضارة في العالم الإسلامي. والمسلمون في الصين يبلغ عددهم حوالي **الخمسين مليونًا.** ومن الواجب أن يرتبطوا تمام الإرتباط بإخوانهم في مصر.

خامسًا: الأستاذ رحمة الله أحمد رحمة في كتابه (التهجير الصيني في تركستان الشرقية)- رابطة العالم الإسلامي- مكة المكرمة- العدد93 - العام 1410هـ/ 1989م، ص 118- 119- جاء فيه:

وبالرغم أن عدد المسلمين كان 48,104,240 نسمة في الصين عام1935، فإن الصين الشعبية أعلنت عام1952 أن عددهم نحو عشرة ملايين مسلم واستمرت الحكومة الصينية والجمعية الصينية الإسلامية تصران علي أن عدد المسلمين عشرة ملايين نسمة، إلي أن بدأت سياسة الإنفتاح الحديثة في عام1980، وأعلن أن مجموع أفراد القوميات الإسلامية العشرة هو 13,152,200. ثم جاءت إحصائية عام1982 تفيد بأن عدد المسلمين 14,598,654 نسمة، وفي الوقت الذي وصل عدد سكان الصين من 574,000,000 نسمة عام 1952 إلي 1,081,175,288 نسمة أي الضعف تقريبًا(97%) في عام 1983م، نجد أن نسبة زيادة المسلمين لم تبلغ إلا 54% فقط في عام 1982م حسب إحصاء القوميات الإسلامية.

سادسًا: العالم المسلم الصيني محمد مكين في كتابه (نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين) -المطبعة السلافية- القاهرة- ربيع الثاني 1353هـ/ ص 61-62، جاء فيه:

ولا يعرف عدد المسلمين في الصين بالضبط لأنهم منتشرون في طول البلاد وعرضها ؛ أكثرهم في تركستان الشرقية وكافو ويونان وهانان وشانتونغ وهابي. ولم يكن لدينا إحصاء دقيق. وأما إحصاءات الأجانب فمتناقضة وما اختلفوا في ذلك وهم محققون مدققون إلا لأغراض خاصة سياسية أو دينية فمنهم من يقول **ستون مليونًا** ومنهم من يقول **عشرون مليونًا** ومنهم من يقول أقل من عشرة ملايين. وعلى تقديرنا أنهم **خمسون مليونًا** وهذا أقرب إلى الحقيقة فإن المسلمين متفرقون في أنحاء الصين فما من بقعة إلا ويوجد فيها مسلمون كثيرون أو قليليون وهم في بعض الولايات اكثرية وفي بعض الولايات نصف السكان تقريبًا.

سابعًا: عباس محمود العقاد(الإسلام في الصين) -المجلد السادس- دار الكتاب اللبناني -بيروت- الطبعة الأولى عام1974، ص258-259، ذكر الآتي:

ويختلف المقدرون لعددهم في الصين من خمسة ملايين إلى مائة مليون، فتقويم جوثا يقدرهم بثلاثين مليونًا وجلال نوري بك صاحب كتاب إتحاد المسلمين يقدرهم في داخل الحدود الصينية وفي منشورية وأنام وسيام والهند الصينية وفي الجزر التابعة لإنجلترا من أرخبيل ملقا بنحو ستين مليونًا، أما إحصاءات بعثات التبشير فهي تقدرهم بثلاثة ملايين وتارة أخرى بخمسة ملايين في داخل حدود الصين، ويرتفع الرحالة عبدالرشيد إبراهيم بعددهم إلى مائة مليون، ويقول هانوتو أحد وزراء الخارجية السابقين بفرنسا أنه "قد انبعثت شعبة منه في الصين فانتشر فيها فيها انتشارًا هائلًا حتى ذهب بعضهم إلى

القول بأن العشرين مليونًا من المسلمين الموجودين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء لساكياموني.."

ويعقب السيد توفيق البكري على هذا في رسالته عن مستقبل الإسلام فيقول إن تاجرًا بلوجيًا جاء القاهرة في هذه الأيام وكان قد ذهب إلى الصين مرارًا "يؤكد القول بأن مسلمي الصين يبلغون **ثمانين مليونًا** وأن علماءهم يهزأون بقول الأوروبيين إنهم أربعون مليونًا".

وقد تلقت الصحف الأوروبية برقية من الجماعة الإسلامية في الصين أرسلتها أثناء حرب الصين واليابان تقول فيها إنها تتكلم بلسان **خمسين مليونًا** من المسلمين.

فلا مبالغة -مع ملاحظة هذه الإحصاءات جميعًا- في تقدير مسلمي الصين اليوم بنحو **ستين مليونًا.**

ثامنًا: الشيخ بيرم التونسي في كتابه "صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" - الجزء الأول- الفصل الحادي عشر بعنوان: "المملكة الحادية عشرة" كتب يقول: كما أن فيهم(الصينيون) قسمًا عظيمًا من المسلمين يبلغ إلى ما ينيف عن **"الستين مليونًا"**.

تاسعا: الدكتور عبدالعزيز حمدي (المسلمون في الصين - أساطير.. حكايات.. وحقائق) - كتاب اليوم- -القاهرة، أكتوبر2005، ص 170-171، جاء فيه:

وتجسد ذلك بصورة جلية في كلمات الزعيم الصيني ماوتسي تونغ في عام 1937 إذ قال: "إن شعبنا الكبير يضم حوالي 30 مليونًا مسلم، ومهمتنا الكبرى الآن هي أن نكسبهم إلى جانبنا، ونحن بغيرهم لا نستطيع أن نقيم قواعد للدفاع والهجوم تمكننا من القضاء على الإستعمار الياباني...".

عاشرًا: الدكتور تركي صقر(عملاق... يستيقظ - موقع الصين في المشهد الدولي الجديد) دمشق - سورية، الطبعة الأولى 1993، ص139، ذكر:

عدد المسلمين في الصين يقارب 18 مليون نسمة وتعد الأقلية المسلمة واحدة من 56 قومية أقلية أكبر هذه الأقليات الويغور المسلمون ذوو الأصل التركي...

حادي عشر: محمود يوسف لي هوا: (المساجد في الصين) - دار النشر باللغات الأجنبية- بكين- 1989، ص/1 ذكر الآتي:

يبلغ عدد أبناء القوميات المسلمة **14**مليونًا و**279**ألف **نسمة** حسب الإحصاء الرسمي الثالث الذي أجري على نطاق البلاد عامة سنة 1982.

ثاني عشر: جمال محمد العبد المنعم (المسلمون في الصين... الملف الضائع) - لجنة الدعوة الإسلامية- الكويت -الطبعة الأولى 1995م، ص214 -جاء فيه:

لقد قدر عدد سكان الصين في سنة 1408هـ/1988م بحوالي(1100) مليون نسمة، ولما كانت حصة المسلمين حوالي 10% من السكان، لذا يقدر عدد المسلمين بحوالي(110) ملايين نسمة. وذلك كما جاء في المصدر الأصلي(المسلمون في المعسكر الشيوعي) للكاتب علي المنتصر الكتاني.

ثالث عشر: مِي شو جيانغ(الإسلام في الصين) ترجمة وانغ ماو، دار ووتشو للنشر، الصين الشعبية جاء فيه:

ويبلغ عدد المسلمين في الصين نحو عشرين مليونًا.

رابع عشر: رئيس وزراء الصين شواين لاي أعلن أثناء مناقشات المؤتمر الأفروأسيوي الذي عقد في باندونج بأندونيسيا عام 1954 أنه يتكلم بإسم **عشرة ملايين مسلم**، وكان

تعداد الصين وقتئذ 600 مليون نسمة. وإذا سلمنا بصحة هذا التقدير وقارنا بين نسبة الزيادة في أعداد المسلمين، وبين نسبتها في مجموع الصين، فإننا سنكتشف خللًا بحاجة إلى تصحيح.

خامس عشر: في كتاب(حاضر العالم الإسلامي) المجلد الثاني، الجزء الثالث - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط الرابعة، 1973، ص365:

يورد الأمير شكيب أرسلان بعض الإحصائيات عن المسلمين في الصين ويقول: أما مسلمو الصين فلا تزال الأقوال متضاربة في عددهم، فمن الجغرافيين من يحرزهم بعشرين مليونًا، ومنهم من يحرزهم بأكثر من ذلك بكثير. وفي هذه الأيام لما - وقعت الفتنة بين الصين واليابان من أجل منشوريا أبرقت الجمعية الإسلامية في الصين إلى أوروبة بتلغراف احتجاج على اليابان قالوا فيه أنهم يتكلمون بإسم خمسين مليونًا من مسلمي الصين. ثم ورد تلغراف من طوكيو يرد على مسلمي الصين زاعمًا أنهم 15 مليونًا لا 50 مليونًا. وفيه أن في منشوريا مليونين من المسلمين ينزعون إلى تحرير منشوريا. ومما لا شك فيه أن التلغراف الياباني بخس مسلمي الصين عددهم مما رأى من شدتهم على اليابان.

سادس عشر: في كتاب(المسلمون في العالم اليوم) الجزء الثالث- آسيا الإسلامية، القاهرة، عام1958 - ملحق إحصائيات بعدد سكان المسلمين في آسيا ص(150) - يذكر صاحب الكتاب د.عبدالرحمن زكي أن : عدد السكان المسلمين في الصين 14.984.000، وهونغ كونغ وفرموزا 14.000.

سابع عشر: الشيخ عبدالله قاسم سو جي يو آن في ورقته البحثية ضمن أعمال ندوة: "ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الصينية - تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل"،

بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة في الفترة من 21-24 ذو القعدة 1422هـ - ذكر في صفحة(15) إن: "الصين يسكن فيها أكثر من مائة مليون من المسلمين وبذا تزيد نسبتهم على أكثر من 10 بالمائة من مجموع السكان".

ثامن عشر: قال رئيس مصلحة شؤون الأديان في بكين(شاو شيان فا) وهو بدرجة وزير - إنه لا يوجد إحصاء دقيق لأتباع كل دين. ولكن ثمة تقديرات تقريبية مستقرة في أبحاث وعند خبراء شؤون الأديان، وهي تشير إلى أنه في الصين "خمسة أديان"، يمكن ترتيبها بحسب عدد أتباع كل منها على الحو التالي[1]:

- **البوذية:** وقد كانت أكبر الأديان أثرًا في القديم، منذ قدمت من الخارج (الهند). والبوذيون أرقامهم غير معروفة، ولكن عدد رهبانهم في الصين عشية التحرير كانوا نصف مليون راهب وراهبة.
- **دين الطاوية:** وهؤلاء أيضًا لا نعرِف لهم عددًا سوى أن كهنتهم عشية التحرير كانوا في حدود 8 آلاف كاهن وكاهنة. غير أن أعدادهم في تناقص مستمر.

والبوذية والطاوية هما - تقليديا - ديانتا قومية الهان، ذات الأغلبية الساحقة في الصين.

- الإسلام، والمسلمون وصل عددهم في سنة 1980 حسب تقريراتنا، إلى 13 مليونا نسمة.
- **الكاثوليكية:** وتشير إحصاءات عام 1949 إلى أنهم كانوا في ذلك الوقت 3 ملايين نسمة.
- **البروتستانية:** وأتباعها في تقديرات عام التحرير في حدود 700 ألف نسمة.

وأضاف مسؤول مصلحة شؤون الأديان في بكين إن اليهودية إندثرت من الصين ولم يعد لها وجود، وقد كان اليهود قلة من الأجانب لا تذكر متمركزة في شنغهاي، منذ كانت معتقلًا لرأس المال الأجنبي.

واستطرد قائلًا: إن 90% من سكان الصين بلا دين، ونظامنا يحترم الأديان ولكنه لا يؤمن بها، وتلك حقائق لا يريد البعض أن يفهمها. والتخريب الذي أحدثته "عصابة الأربعة" في التزامنا بخط حرية الإعتقاد ينبغي ألا يحسب على سياسة الحزب والدولة. ولكنه يجب أن يحسب على تلك العصابة الشريرة وحدها.

وأردف قائلًا: "الإيمان في القلب ولا يمكن احصاؤه"

المبحث العشرون
أول ثورة للمسلمين في الصين
سنة 1648م

شهد الإسلام في إمبراطورية مينغ التي حكمت الصين لمدة 275 سنة خلال تلك الفترة 1368-1643م إزدهارًا وتطورًا لم يسبق له مثيل في الصين، حيث أن الصينيين لم ينسوا أن المغول في إمبراطورية يوان(1277-1367م) أجانب وقاموا بطردهم قبل أن يتم لهم قرن في تولية مقاليد الحكم أثر ثورة ناجحة، وتأسست إمبراطورية مينغ، وكان أمبراطورها الأول(جو يوان جانغ) (1328-1398) وحكم الصين في الفترة من1368 إلى 1398 رأى إنتشار الإسلام في عهد (يوان) ورأى أيضًا بأم عينه الوزراء والقادة والمسؤولين والحكام المسلمين المخلصين لأسرة يوان، ويساعدونها كثيرًا فمال إلى الإسلام وأحب الإسلام والمسلمين، ونسرد هنا كلماته في الثناء على الاسلام:

"في أوائل خلق الكون كتب في السماء إسم النبي الكبير مبلغ الدين مولده في الغرب أستاذ الملوك رئيس الأنبياء، مساعد السماء ملجأ الناس، مصل في خمس أوقات مبتهل بسلامة العالم مخلص لله مشفق على الفقراء، منقذ المنكوبين، عارف للآخرة عالي الروح معصوم.من الآثام رحمته منتشرة في الدنيا، ودينه محتو على القديم والحديث مرشد الضال إلى الهدى فإسم دينه "تشينغ جين" - أي الإسلام- وإسمه محمد رسول الله" السنة الأولى للإمبراطور(جو يوان جانغ) سنة1368 ميلادية، ثم أمر مشايخ الإسلام والعلماء والكونفوشيوسيين بترجمة الكتاب العربي في علم الفلك في سنة 1382م.

وكان استبدال أسرة قوية جديدة بأسرة مينغ الضعيفة العاجزة مدعاة لتقوية الصين في وقت كانت له أهميته وخطورته، وذلك أن قبائل التخوم الشمالية أمثال المغول، قد أعلنت في أخريات عام أسرة مينغ خروجها علي سيادة الصين.وفضلًا عن ذلك خرجت عن الطاعة قبائل القلخان والإليوث وغيرهما من القبائل شبه المستقلة، وذلك علي حين أن الإقليم الهائل الذي عرف باسم سنكيانج كان مستقلًا استقلالًا مطلقًا. وقد أخذ

الروس يتحركون ليملأوا الفراغ القائم بسيبيريا فالذي حدث فعلًا أنه عندما بدأت أسرة تشينغ وهو الاسم الذي عرفت به أسرة **المانشو**- حكمها في بكين، كانت رقعة بلاد الصين قاصرة علي المناطق الواقعة جنوبي السور الأعظم، ولم تكن تضم سنكيانج ولا التبت. ولكن ملوك المانشو أحكموا قبضتهم علي مختلف أجزاء الإمبراطورية وأوقفوا التوسع الروسي عند حده علي نهر عامور، وتدخلوا بالقوة في بلاد التبت ووضعوا أسس مدعيات الصين فيها أيضًا. وكان القرنان التاليان مسرحًا لبسط سلطان الصين علي أوسع رقعة بلغتها: من التخوم الشمالية لكوريا شمالًا إلي كمبوديا ومن المحيط الهادي إلي جبال الهملايا وجبال قره قورم[1].

منشوريا **Manchuria** اسم أجنبي للعديد من المناطق التاريخية والجغرافية المتداخلة في شمال شرق آسيا أو منشوريا هي ببساطة شمال شرق الصين. ويشار إلي المنطقة عمومًا بـ(شمال شرق الصين) هذه المنطقة هي موطن تقليدي لشعوب التبابنى والخيتان والجورشين الذين أنشئوا العديد من السلالات الحاكمة في شمال الصين. المنطقة أيضًا هي موطن لقومية المانشو التي سميت منشوريا نسبة اليهم تعرف بالصينية 满足

وتقع منطقة منشوريا في شرق آسيا، وكان اسم منشوريا يستخدم للتعبير عن منطقة تقع بالكامل داخل الصين. أما اليوم فيشير إلي منطقة أكبر مقسمة بين شمال شرق الصين وأقصي شرق آسيا. وللتمييز بين الجزءين يسمي الجزء الروسي منشوريا الخارجية، والجزء الصيني منشوريا الداخلية. ومنشوريا هي وطن شعب المانشو الذي كان يعرف بشعب أرض التنين من قبل ملوك أيشي جيورو الذين كانوا آخر عائلة تحكم

---

(1) ك. م. بانيكار(آسيا الوسطي والسيطرة الغربية) ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، دار المعارف بمصر1962، ص77- 78.

مملكة جين الصينية. وعُرف سكان منشوريا باسم شعب(الجورش) ابتداء من عام1636 والذين كانوا جزءًا من شعوب التونغوسيك التي استولت علي السلطة في الصين في القرن السابع عشر مؤسسة سلالة تشينغ التي استمرت في الحكم حتي عام1912. واستخدمت حكومة تشينغ في الصين عبارة "المقاطعات الشمالية الشرقية الثلاث" رسميًا للإشارة إلي هذه المنطقة وأنشأ منصب نائب الإمبراطور في تلك المقاطعات وهي: هيلونغ جيانغ/ جيلين/ لياو لينغ. وبعد ثورة عام1911 التي أسفرت عن انهيار أسرة تشينغ التي أسستها المانشو، عُرفت المنطقة التي أنشأ فيها المانشو باسم "الشمال الشرقي" في الوثائق الرسمية في جمهورية الصين الشعبية المؤسسة حديثًا آنذاك.

وكان شعب المانشو أمة تقيم علي التخوم قبلت السيادة الصينية فيما مضي إبان فترات مختلفة، ولكن الصينيين لم يفتحوا بلادهم بالفعل قبل ذلك البتة. كانت تنظمهم عشائر، ولكنهم لا يعيشون في وحدة قومية، حتي ظهر بينهم زعيم اسمه **نورها تشي**(ولد في عام 1559م)، وكانت نفسه تضطرم بالرغبة في الثأر لمقتل أبيه وجده علي يد موظف صيني علي الحدود، فبدأ يجمع قبائل المانشو في اتحاد عام. وحاولت السلطات الصينية التهدئة من ثائرته بتعيينه حاكمًا علي المستنقعات ومنحه لقب "القائد الأفعوان النمر". ولكن ذلك لم يزد فورهان إلا هيبة ومكانة لم يلبث حتي استخدمها في تقوية سلطانه السياسي بين القبائل وفي إنشاء جيش قوي. وقبل1586 أصبحت مختلف قبائل المانشو تخضع لسلطانه واعترف به الجميع حاكمًا لإقليم منشوريا. وفي عام1580 ضم قبائل كثيرة إليه وأسس مملكة جين اللاحقة في سنة 1616م، وعدل اسمها فيما بعد إلي إمبراطورية تشينغ. ولم يلبث حتي بسط سلطانه رويدًا رويدًا علي منغوليا التي لم يعُد للصينيين في ظل آخر أباطرة مينغ وحكمهم الواهن الضعيف أي سلطان فعال عليها. وأعلن نورها تشي الحرب علي الصين في عام 1618م حتي عاجلته المنية في سنة 1626م.

وخلفه علي العرش ابنه الإمبراطور تاي زونغ، فاحتل منغوليا، ثم قام بعدة حروب استولي خلالها علي عدة مناطق ومدن في الشمال الشرقي. وحين دخل زعيم الفلاحين الثائرين(لي تسي تشينغ) إلي مدينة بكين، كانت قوات الإمبراطور تاي زونغ عند بوابة ممر شانها يقوان حيث يلتقي السور العظيم بالبحر. وارتكب(وو سان قوي) قائد قوات إمبراطورية مينغ في الممر خيانة عظمي بالسماح لقوات المنشوريين باختراق السور العظيم إلي داخل الممر. ثم توفي الإمبراطور تاي زونغ، وخلفه ابنه(فو لين). واستطاع المنشوريون بالتواطؤ مع الخائن وو سان قوي، دحر القوات الفلاحية التي يقودها لي تسي تشنغ. وبعد الإستيلاء علي بكين، نصب فولين نفسه إمبراطورًا عرف باسم(شي تسو) الذي تربع علي العرش من1644 إلي 1661م. واستسلم بعض القواد والموظفين في بلاط مينغ الإمبراطوري لحكام تشينغ، وبذلوا جهودًا كبيرة في خدمتهم وساعدوهم علي قمع مقاومة شعب الهان الصينيين.

وبعد حوالي قرن من حكم المانشو للصين إمتدت الإمبراطورية الصينية مرة أخري من المحيط الهادئ إلي جبال البامير ومن سيبيريا شمالًا إلي الجزر البعيدة عن الشاطئ جنوبًا، وفي الأقاليم النائية خاصة سنكيانج(تركستان الشرقية) ومنشوريا زرعت الأراضي واستُعمرت. وفي الجزء الأخير من القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر خضعت الإمبراطورية الصينية لحكم أباطرة المانشو الأكفاء الذين حققوا السلام والإستقرار الداخلي ونهضوا بأعمال الري والزراعة وصاروا رعاة للحضارة الصينية، وكان أبرز هؤلاء تشيين لونغ(1735- 1795) الذي كان عالمًا وشاعرًا في آن واحد.

1. الظلام تحت حكم المانشو

كتب الأستاذ فهمي هويدي تحت هذا العنوان يقول: بدأ عهد أسرة مانشو بداية لا تبشر بالخير من وجهة نظر المسلمين... فبعد4 سنوات فقط من تولي السلطة الجديدة

عام1648، أعلن مسلمو قانصو الثورة ضد الحكومة. ورفعوا- لأول مرة في تاريخ مسلمي الصين- السلاح ضد السلطة مطالبين بالحرية الدينية. والمعلومات المتعلقة بهذه الثورة الإسلامية الأولي شحيحة للغاية. إلا أن الحدث في ذاته يعنينا، من حيث وقوعه أولًا، ومن حيث الأسباب التي أدت إليه، التي كانت مؤثرًا لما هو قادم في المستقبل، وإن بعد نسبيًا[2].

2. أسباب ثورة المسلمين الصينيين ضد المانشو:

أولًا: كراهية المانشو للأجانب:

إن المسلمين في داخل الصين بما فيها من الولايات الساحلية والولايات الداخلية، وكذلك في الولايات الساحلية ومقاطعات الشمال الغربي وجنوب غرب الصين وشمالها كانوا أما من أبناء العرب أو الإيرانيين الذين استوطنوا في مختلف المدن والموانئ الصينية وأما من الصينيين الذين دخلوا حظيرة الإسلام مع مرور الزمن. فتناسلوا وتكاثروا حتي انتشروا في جميع المدن الكبيرة وتصينوا وأصبحوا غير متميزين عن الصينيين العاديين في المظاهر والتقاليد والعادات الإجتماعية، واحتفظوا بعقيدة إسلامية ثابتة وراسخة في قلوبهم تختلف مع عقائد الصينيين.

وعلاوة علي ذلك أن التقويم الهجري الذي كان له بعض الرواج في عصر مينغ قد بقي مستعملًا عند المسلمين في أسرة المانشو(تشينغ) للأغراض الدينية بالرغم من أنه قد أصبح ملغيًا رسميًا من قبل حكومة المانشو(المانشورية) كما أن المسلمين هناك يوجهون اهتمامهم إلي تعلم اللغة العربية والفارسية للأغراض الدينية ويتمسكون بالشعائر الإسلامية لأنفسهم فقط. لأنهم لا يشجعون غيرهم من الصينيين إلي حضور الإجتماعات والأعياد الدينية في المساجد.

(2) انظر كتاب(الإسلام في الصين) مصدر سابق، ص91.

إن تلك العادات والتقاليد والطقوس الدينية أوغرت صدور أسرة المانشو وخاصة الموظفين في الحكومة الذين باتوا يكنون حقدًا وضغينة ضد المسلمين في الصين وضد غيرهم من الأجانب المقيمين علي أرض الصين.

ففي مطلع القرن الثامن عشر كتب أحد موظفي المانشو في "كانتون" يقول: في أقصي الغرب يوجد أجانب غربيين ذوي شعر أحمر وهم أناس شديدو البأس وشرسين ويختلفون تمامًا عن البرابرة الآخرين في الجزر الغربية، ومن بينهم الإنجليز والمسلمين والفرنسيين والهولنديين والأسبان والبرتغاليين، وهم جميعًا أمم غاية في العنف والشراسة... وهم ذوو طبائع شريرة وخطيرة وغامضة، وأينما ذهبوا أرسلوا عيونهم في جميع الأنحاء بقصد الإستيلاء علي أراضي الشعوب الأخري(3).

وماتيو ريتشي Matteo Ricci (1552- 1610) أحد الشخصيات المؤسسة لبعثات اليسوعيين في الصين وأول أوروبي يدخل القصر الإمبراطوري في بكين بعد تلقيه دعوة من الإمبراطور وانلي- كان مما قاله أن: "الصينيين ينظرون إلي جميع الأجانب علي أنهم أميون وبرابرة ولا يشيرون إليهم إلا بهذه الكلمات... وغير مصرح علي الإطلاق لأحد في المملكة بأكملها التعامل مع الأجانب إلا في أوقات وأماكن معينة كما هو الحال في جزيرة(ماكاو) حيث أقيمت سوق تجارية مع البرتغاليين"(4).

ثانيًا: جهل أسرة المانشو بالدين الإسلامي

كان المنشوريون دخلاء في نظر الصينيين، وكان ينقصهم إدراك وفهم عام للعقائد الدينية وثقافات الشعوب الأخري مما كان يمتاز به أباطرة أسرة مينغ الذين امتدحوا

---

(3) هيلدا هو خام(تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتي القرن العشرين) ترجمة أشرف محمد كيلاني، المشروع القومي للترجمة، العدد477، عام 2002، ص 280.

(4) المصدر السابق، ص283.

الإسلام وأصدروا المراسيم المختلفة لضمانة حرية المسلمين في اعتناق الدين الحنيف وممارسة الشعائر الإسلامية السمحاء. بيد أن المانشوريين كان لهم عقلية غير العقلية الصينية المهذبة أنهم عرفوا نوعًا من العبادة وهي عبادة الأرواح والأسلاف.

وفوق كل هذا كان الموظفون الصينيون الذين وصلوا إلي الأماكن الحساسة في الحكومة المانشورية انتهزوا الفرصة بحكم وظائفهم وبعثوا بتقارير إلي الحكام لتحريضهم ضد المسلمين. وكانت تقاريرهم تكشف عن سوء نياتهم نحو المسلمين بوجه عام بغية حرمان المسلمين الأكفياء من الحصول علي الوظائف المحترمة كما كانت حالتهم في عصر المغول وعصر أسرة مينغ. والوقائع في السطور التالية تقدم لنا فكرة واضحة وجلية عن المتاعب والمشقات التي عاناها المسلمون في عصر تشينغ، نتيجة للتقارير المشحونة بالأكاذيب والإفتراءات علي المسلمين[5]:

(أ) في السنة الثانية لجلوس الإمبراطور(يونغ تسنغ) 1724م بعث(جن شيه كوانغ) المفتش العام لولاية(شانتونغ) بتقرير إلي القصر الإمبراطوري قائلًا:

..."يجب أن تمنع بتاتًا بحكم القانون مزاولة الأعمال المعوجة التي تشوه أذهان الناس وعقائدهم. ومن هذا النوع من الأعمال المعوجة ما تزاوله جماعة(هوى هوى) أي المسلمون. أن هؤلاء لا يعبدون السماء والأرض ويأبون أن يقدموا النذور إلى أرواح الأسلاف الصالحين. لقد أسسوا فرقة دينية خاصة بهم ويستخدمون تقويمًا غير التقويم الصيني. فكثر عدد هذه الجماعة بزيادة الأعضاء فيها وقاموا بدعوة الناس إلى أعمال الشر إفسادًا لنفوسهم وعقولهم. وعليه التمس من مقام القصر العالي إصدار أمر إمبراطورى بشأن إخراج هؤلاء المسلمين من عقائدهم وتخريب معابدهم ومساجدهم من الأساس..."

(5) بدر الدين و. ل. حي(تاريخ المسلمين في الماضي والحاضر)- مصدر سابق، ص47- 50.

(2) مثال آخر: في الشهر الخامس من السنة الثامنة لجلوس امبراطور يونغ تسنغ (1730م) قدم (لو كوه هوا)، رئيس الشرطة لولاية(آنهوى) تقريرًا إلى القصر قال فيه:

"...ان المسلمين المقيمين داخل البلاد يسكنون في كل مكان وحيث يشاؤون ويمارسون جميع أنواع الأعمال الحرة ويعيشون بين الناس بدون أي فرق وتمييز وعليهم طبعًا أن يتبعوا الناس في الحياة اليومية بمراعاة التقويم الذي تتبعه الأسرة الحاكمة في البلاد، لكن المسلمين لا يتبعون نظام تقويمنا الذي فيه أشهر كبيرة وأشهر صغيرة ولا يبالون بالسنة الكبيسة. فإنهم يستعملون تقويمًا خاصًا رأس السنة الجديدة حسب تقويمهم الخاص فيقيمون فيه حفلات ويتبادلون التهاني والتبريكات فيما بينهم.."

"ثم إنهم يلبسون فوق رؤوسهم كووفات بيضاء صباحًا ومساءً إذ كانوا يجتمعون في المعابد التي يسمونها(تسنغ جنغ تزي) أي المساجد. فلا أحد يعرف ما هي الأرواح التي هم يعبدونها وكذلك قد أقاموا نظامًا للصوم في شهر خاص.."

".. وبالنظر إلى أنهم من رعايا جلالة الإمبراطور العاقل الحكيم فإنه يجب عليهم أن يراعوا نظامًا موحدًا صحيحًا ويلبسون الألبسة المألوفة في البلاد ولا ينبغي أن يشذوا في عمل الحساب أو السجل باتباعهم نظام تقويمهم الخاص أو يلبسون الكوفيات البيضاء أو يسلكون طرائق غريبة في شؤون الحياة اليومية مخالفين لوحدة الشعار في البلاد..."

".. وبناء على ما ذكرته آنفًا أتوسل إلى جلالتكم بإصدار مرسوم يفرض عليهم مراعاة النظام الموحد الصحيح في تدوين الوقائع وتسجيل المعاملات وفي الزى واللباس. وأما مساجدهم فينبغي أن تغلق وأما أنفسهم فإذا أصروا على عدم الطاعة لحكم قانون البلاد يعاقبون وفق القانون الموضوع لمنع الأعمال المريبة ودفع الفتن. فأما الأشخاص من أهالي البلاد فإذا أظهروا عطفهم على المسلمين أو يعطون الملجأ لهم في البيوت. يحاكمون أيضًا وفقًا للقانون..."

كانت هناك حالات أخرى تشهد بالمواقف غير المنطقية التي اختارها المانشوريون ضد المسلمين المقيمين في الصين. فكرروا التماسهم لدى الإمبراطور بإصدار مرسوم لإخراج المسلمين من دينهم وتعطيل مساجدهم إغلاقًا أو تخريبًا.

ويستوقفنا في تلك المرحلة تقرير بعث به حاكم ولاية(قانصو) إلي الإمبراطور تشيان لونغ سنة 1773م، وهو يشير إلى أن المسلمين لم يتوقفوا عن الدعوة إلى دينهم بين الصينيين، حتى في ظل مرحلة يسودها التوتر والقلق، مثل حكم أسرة مانشو. وأن اشتغالهم بالتجارة والزراعة لم يلههم عن عملية التبشير بالاسلام في تربة الصين الوعرة.

وفيما يلي نص التقرير المقدم إلى الإمبراطور تشيان لونغ من حاكم قانصو:

"إن لي عظيم الشرف أن أحيط جلالتكم علمًا بأن مغامرًا يدعى هانفوين(الحنفي؟) من ولاية خوانشى قبض عليه بتهمة التشرد. فلما سئل عن عمله، اعترف بأنه قضى عشر سنوات يطوف بشتي ولايات الإمبراطورية كي يستطلع أحوال ديانته. وقد وجدنا في إحدي حقائبه ثلاثين كتابًا، كتب بعضها بنفسه، وكتب بعضها بلغة لا يفهمها أحد عندنا. وتمجد هذه الكتب ملكًا من ملوك العرب يدعي "محمدًا"، في أسلوب مسرف يدعو إلي السخرية وحين قدمنا هذا الضال الذي ذكرناه من قبل للتعذيب، اعترف أخيرًا بأن الغرض الحقيقي من رحلته أن يدعو بهذا الدين الزائف الذي يتعلمونه من هذه الكتب، كما اعترف بأنه قضي في ولاية شاني مدة أطول مما قضاه في أية ولاية أخري. لقد اختبرت هذه الكتب بنفسي فوجدت بعضها مكتوبًا بلغة أجنبية، ولهذا لم أستطع فهمها: أما بعضها الآخر الذي كتب باللغة الصينية فردىء جدًا، ويمكن أن أضيف إلي ذلك أنها كانت أيضًا تبعث علي السخرية بما فيها من مغالاة في مديح أشخاص، من المؤكد أنه ليسوا أهلًا لهذا المديح، لأني لم أسمع بهم حتي مجرد السماع(!) وربما كان هانفوين الذي تقدم ذكره أحد الثوار من قانصو. ولا شك أن ملكه يدعو إلي الريبة، إذ ماذا كان يريد أن يعمل في هذه الولاية التي طاف بها مدة السنوات العشرة الأخيرة من حياته؟ وإني عازم

علي بحث هذه المسألة بحثًا جديًا. وفي هذه الأثناء، التمس من جلالتكم أن تأمروا بإحراق صحائف الطباعة التي في حوزة أسرته، وبالقبض علي من حفروها وبالقبض أيضًا علي من ألفوا هذه الكتب التي أرسلتها إلي جلالتكم، رغبة في الوقوف علي ما ترونه في هذا الأمر"[6].

بيد أنه من حسن الحظ أن الإمبراطور جيان لونغ كان عاهلًا مثقفًا متنور الذهن إذ درس الثقافة الصينية وتعمق فيها إلى حد استطاع أن يكّون فكرة سليمة على أساس العدالة والتسامح فيما يتعلق بالأمور الدينية. ولذا لم يتخذ أي قرار نحو المسلمين رغم الطلبات والإلتماسات التي انهالت علي القصر الإمبراطوري من الحكام العاملين في الولايات. بل ردهم ردًا وجيزًا وقال: "إن المسلمين أخذوا يقيمون في الصين منذ قرون وانتشروا في كل مكان، إنكم لا تستطيعون أن تقتلوهم كلهم. أنهم ليسوا مجرمين بسبب عقيدتهم أو تقاليدهم الدينية. وهم من رعايا هذه الإمبراطورية ولا ينبغي أن يعاقبوا إلا إذا عملوا شيئًا مخلًا بالقانون أو أصبحوا عصاة في البلاد..."[7]

ثالثًا: العوامل السياسية والدينية:

لم يكن الجهل هو العامل الوحيد الذي دفع الموظفين المانشوريين إلي أن يشكوا في سلوك المسلمين ونياتهم إذ كانت هناك عوامل أخري اضطلعت بالعبث بأقدار المسلمين في الصين ومزقت أوصالهم. ولعل الأهم منها كان العامل السياسي الذي أثر في موقف الموظفين الحكوميين ضد المسلمين تأثيرًا مباشرًا. وقد بدأت المأساة عندما قام بعض القادة المسلمين تأييد ومؤازرة آخر الأمراء في أسرة مينغ الزائلة وساعدوه في ثورة فاعلة لإستعادة العرش المفقود من أيدي المانشوريين، كما حاولوا التحالف مع بعض قادة

---

(6) توماس أرنولد: الدعوة إلي الإسلام، المصدر السابق، ص339.

(7) فوتو هونغ(تاريخ المسلمين في الصين)- ص122- بدون تاريخ.

المسلمين في تركستان الشرقية للإطاحة بالأسرة الحاكمة الجديدة وهي تشينغ التي تمكنت من قمع ثورات المسلمين والتنكيل بهم علي أيدي الجيش المانشوري الذي كان يتفوق عليهم في السلاح والعتاد. ولا غرو أن حدوث تلك الوقائع قاد إلي فقدان الثقة في المسلمين من جانب الموظفين المانشوريين، ولذا قدموا التوصيات والإقتراحات إلي البلاط الإمبراطوري بتنفيذ بعض الإجراءات الصارمة ضدهم.

وبالإضافة إلي العوامل السياسية، كانت هناك عوامل دينية أيضًا. قد ساعدت علي زيادة الشكوك في نفوس المسؤولين بالنسبة لوفاء المسلمين وإخلاصهم للامبراطورية المانشورية. لقد تكونت هذه العوامل من عناصر ترتبط بالحركات الدينية أو النشاطات التي ظهرت باسم الدين في عصر أسرة تشينغ وعلي الأخص خلال حكم الإمبراطورين: جيان لونغ وجيا تشينغ(1736- 1819م).

وزبدة القول- وبناء علي هذه الوقائع التاريخية- تُعدّ أسرة تشينغ في الصين علي وجه عام أسرة مضطهدة للمسلمين وكانت تعمل بالإستمرار علي تطبيق سياسة جائرة عليهم. غير عادلة في حقهم في جميع أنحاء الصين. ولقد لاقي المسلمون في سينكيانج وشمال الصين الغربي ويوننان بصورة أخص أسوأ معاملة في تاريخ الصين علي أيدي حكام وأباطرة أسرة المانشوريين(تشينغ).

كانت المشكلة الأخري لأسرة مانشو هو انقسام إمبراطوريتهم وشعبهم إلي شمال وجنوب مع اختلاف في الجغرافيا والثقافة والعرق بين أهل الشمال وأهل الجنوب. لم يسترد الشمال قوته بعد الدمار الذي حدث له من جراء غزو المغول وامتداد الصحاري، وهكذا صار أهل الجنوب أكثر ثقافة وأوفر ثراء وأكثر عددًا، قاوم أهل الجنوب الغزاة الهمج بشراسة ولم يطلبوا رضاهم عنهم بخنوعهم وحسب معاملتهم لهم كان الأباطرة شديدي التمسك بالأصول الكونفوشيوسية كما كانوا يشعرون بمشاعر الشعب. أنفق

الأباطرة الأموال الطائلة حتي القرن التاسع عشر لإصلاح المعابد الطاوية والبوذية إرضاء للجماهير(8).

تجلي تفكك أسرة المانشو للجماهير الصينية وللعالم أجمع في انهيار الصين أمام بريطانيا في حرب الأفيون عام1840. ثم توالت القرائن علي هذا الضعف بنجاح هجوم الغرب علي بكين في عامي1860، 1900. بالإضافة إلي اندلاع ثورة وتأسيس دولة "تاي بين"(دولة السلامة السماوية) في سنة 1853م في نانكين، والتي أقامت أول حكومة حديثة علي النظام الغربي عرفتها الصين. وكانت مقدمة لما فعلته اليابان بعد خمسة عشر عامًا بواسطة إمبراطور ميجي الياباني.

وكانت تلك الثورة هي "ثورة تايبينغ" وهي أول عصيان جذري هز المجتمع الصيني منذ إنشاء الإمبراطورية. مات في الحرب ثلث عدد سكان الصين البالغ400 مليون نسمة آنذاك.

أسوأ أيام المسلمين في التاريخ الإسلامي الصيني هي أيام حكم الأسرة الملكية "تشينغ" المانشورية(1616- 1911)، هذه الأسرة تختص بها قومية "المان"- إحدي الأقليات القومية- وكانت هذه القومية تسكن في شمال شرق الصين، وأسست هذه القومية دولتها الذاتية في بلدتها ثم بعد ذلك سيطرت علي الصين كلها، ومن أجل السيطرة الكاملة وإضعاف قوة غيرها عملت هذه القومية الفاسدة الظالمة علي دق الإسفين وإثارة الفتن بين المسلمين وبين قومية "هان"- أكبر قومية في الصين-، حتي قتل بعضهم بعضًا ودمر الكفار بيوت المسلمين والمساجد وقتلوا الأبرياء منهم فاضطر المسلمون إلي القيام بعدة إنتفاضات في جنوب غرب الصين بقيادة الشيخ(دو وين شو)(1956- 1874) وفي شمال

(8) د. محمد صادق صبور(موجز تطور الحضارات الإنسانية)- دار الأمين للطبع والنشر والتوزيع- القاهرة، سنة2006، ص456.

الصين(1862- 1877) من مقاطعة قانصو، وشانغسي، ونينشانغ، وشين جان(تركستان الشرقية) وتشيانهاي، وعاشوا عيشة قاسية تحت الظلم والطغيان في أحلك فترات تاريخهم، ولجأ المسلمون إلي داخل الجبال والمناطق الفقيرة حتي أن بعضهم لجؤوا إلي قازاكستان وقتل الكثير من علماء المسلمين في هذه الفترة الظالمة السوداء، واستمرت هذه المصيبة طوال حكم هذه الأسرة الغاشمة ولم ينس أحد من أبناء المسلمين في الصين هذه الفترة العصيبة، وإن تاريخ الصين العام يصف هذه الفترة بعصر الإنتفاضات للمسلمين ومقاومة طغيان أسرة "تشينغ" قائلًا: إن المسلمين في عصر الأسرة الملكية "تشينغ" المانشورية يقودون تاريخ الصين إلي التطور والتقدم خلال مكافحتهم الأعداء والدفاع عن دينهم وأنفسهم، وقدموا لغيرهم من القوميات الأخري أسوة حسنة للدفاع عن النفس[9].

فقد رأي الصينيون هذه الأسرة الظالمة المنشورية تسير بالبلاد إلي الخراب والدمار. فقامت الثورات الكثيرة خاصةً ثورات المسلمين الكبيرة التي شبت خلال قرن واحد بسبب تعرضهم للإضطهاد والتعسف من جانب أباطرة المانشو وخرج إلي حيز الوجود ما يعرف بـ"عصر ثورات المسلمين الكبري" خلال مائة سنة في الفترة ما بين 1758 و1873، انفجرت خمس ثورات كبري لمسلمي الصين، نستطيع أن نتصور حجمها من عدد الكتب الرسمية التي صدرت عنها، مسجلة لكل التفصيلات التي وقعت، كمادة مؤرخي الأباطرة في الصين منذ الأزمنة القديمة ويمكننا حصر تلك الثورات في الأعوام التالية:

1- ثورة المسلمين في ولاية قانصو بقيادة(سوسي سان) في عام1758 وسجل تاريخها في عشرين جزءًا.

---

(9) الشيخ عبدالله قاسم سو جي يوآن- ورقة بحثية ضمن أعمال ندوة: "ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية- تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل"، بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة في الفترة 21- 24 ذو القعدة 1422هـ

2- نشوب ثورة في مقاطعة شينكيانج واستمرت سنتين من1825 إلي1827، وصدر في تأريخ وقائعها 80 جزءًا.

3- ثورة المسلمين في مقاطعة يوننان سنة1855 بقيادة(سليمان دوو شيوه) ودامت 18 عامًا، وسجلت في خمسين جزءًا.

4- اندلاع سلسلة من الثورات في كل من مقاطعة سينكيانج وقانصو وشنشي واستمرت 20 عامًا بقيادة البطل يعقوب بك، وقد سجلت أحداث هذه المرحلة في كتاب من 330 جزءًا.

5- ثورة "تابيينغ السماوية"- كما ذكرنا آنفًا- التي أسست دولة "السلام السماوية" في سنة 1853م في نانكين.

ثم قامت الثورة العارمة في سنة 1911 بقيادة الدكتور(صان- يات- صن) التي أطاحت بحكومة المانشوريين، وتنفس المسلمون الصعداء إذ سمعوا سقوط أسرة تشينغ في مستنقع الذبول والأفول، وتأسست الجمهورية في الصين لأول مرة واعتبرت المسلمين عنصرًا من العناصر الخمسة التي تتكون منها الأمة الصينية وهي: العنصر الصيني(الهان- أكبر العناصر)، والعنصر المانشوري، والعنصر المغولي، والعنصر الإسلامي، والعنصر التبتي.

وكان العلم الصيني الوطني مكونًا من خمسة ألوان: الأحمر والأصفر والأزرق والأبيض والأسود. وكان اللون الأبيض يشير إلي العنصر الإسلامي في الأمة الصينية.

المبحث الحادي والعشرون

هل يوجد أصغر وأخف مصحف في الصين؟

المصحف الشريف له مكانة مقدسة في نفوس المسلمين لما يتضمنه من كلام الله تعالي؛ لهذا فقد لقي رعاية بالغة منهم- عبر التاريخ- من ناحية الشكل والخط والتزيين. فضلًا عن المواد المستخدمة في ذلك، من صحف، وعسب، وورق، ولخاف- بعض أنواع الحجارة- وغير ذلك من مواد الكتابة وفنون التجليد، ورحلة الخط العربي في أرقي مستوياتها عكسها وأشعها المصحف الشريف عبر العصور، من خلال تنافس وتباري الخطاطين في كتابته ونسخه وإجادة خطه، وهي تخلد ذكراهم وتقربهم إلي الله تعالي.

لا غرو إذا اهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه، لأن عليه يتوقف دينهم ودنياهم، وأول أسباب حفظه تدوينه. والقرآن لم ينزل مرة واحدة، وإنما نزل تدريجيًا في أثناء عشرين سنة علي مقتضي الأحوال، من أول ظهور الدعوة إلي وفاة النبي، بعضه في مكة وبعضه في المدينة. فكان كلما تلا آية أو سورة كتبوها علي صحف الكتابة في تلك الأيام، وهي الرقاع من الجلود(الرقاع هي جمع رقعة، وهي القطعة من الجلد وهو غالب ما كتب عليه الوحي) والأكتاف(وهي جمع كتف وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان)، وعلي العسف وهي قحوف جريد النخل، واللخاف وهي الحجارة العريضة البيضاء. فتوفي النبي ﷺ سنة 11هـ والقرآن إما مدون علي أمثال هذه الصحف، أو محفوظ في صدور الرجال، وكانوا يسمون حفظته "القراء".

1. غزوة اليمامة:

وقعت معركة اليمامة أو معركة عقرباء سنة 11هـ من الهجرة/ 632م في عهد أبي بكر. واليمامة إحدي معارك حروب الردة. وكانت بسبب ارتداد بني حنيفة وتنبؤ مسيلمة الحنفي الذي ادعي أن النبي قد أشركه في الأمر، ومما قوي أمر مسيلمة شهادة الرجال بن عنفوة الذي شهد له- كذبًا- أنه سمع رسول الله يشركه في الأمر.

وكانت المعركة فاصلة ففيها انتصر المسلمون وهزم أعداؤهم بعد معركة- من أعنف المعارك قتل فيها مسيلمة وأربعة عشر ألفًا من قومه. وقد استشهد في اليمامة ألف ومائتا شهيد من المسلمين فيهم 700 من القراء. فلما بلغ ذلك إلي أهل المدينة فزعوا فزعًا شديدًا، وخصوصًا عمر بن الخطاب رجل الإسلام والمسلمين. حيث قال لأبي بكر الصديق: "إن القتل قد استحر بقراء القرآن يوم اليمامة، وإني أخشي أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها، وأري أن نأمر بجمع القرآن". وكان ذلك إنطلاقًا من حرص عمر بن الخطاب علي جمع القرآن لئلا يذهب منه شئ بموت أهله. ولكن أبا بكر تردد في البداية وقال: "كيف أفعل أمرًا لم يفعله رسول الله ولم يعهد إلينا فيه عهدًا؟". فما زال به عمر حتي أقنعه بجمعه. فأحضر أبو بكر(زيد بن ثابت) لأنه كان من كتبة الوحي وقال له: "إنك شاب عاقل لا نتهمك، قد كنت تكتب لرسول الله ﷺ الوحي فتتبع القرآن".

يقول زيد بن ثابت: "فتتبعت القرآن أنسخه من الصحف والعسب واللخاف وصدور الرجال. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ من ذلك". ومن هنا جمع المصحف علي صحائف من الرق، متشابهة في الطول والعرض متفقة في النوع، مرتبة بين دفتين بعد أن كان مدونًا علي قطع كبيرة وصغيرة من العظم والعسب والألواح واللخاف، وسلمه إلي أبي بكر، فظلت الصحف عنده حتي توفي سنة 13هـ، فلما تولي عمر تسلمها وظلت عنده حتي تولي عثمان سنة 23هـ، فانتقلت إلي بيت ابنته حفصة من أزواج النبي ﷺ.

وفي أيام عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر والشام والعراق وفارس وأفريقية، وفيهم القراء وعند بعضهم نسخ من القرآن، وقد رتبها كل منهم ترتيبًا خاصًا، ومع شدة عناية القراء في حفظ القرآن وضبطه لم يخلو من الإختلاف في قراءة بعض سوره.

وهناك اتفاق علي أن حذيفة بن اليمان كان في جملة من حضر غزو أرمينية وأذربيجان، فرأي في أثناء سفره اختلافًا بين المسلمين في قراءة بعض الآيات، وسمع بعضهم يقول لبعض: "قراءتي خير من قراءتك". فلما رجع إلي المدينة أنبأ عثمان بذلك وأنذره بسوء العقبي إن لم يتلاف الأمر، إلي أن قال: "أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصاري". فبعث عثمان إلي حفصة أن: "أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك" فأرسلتها. فدعا عثمان زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص وغيرهم وأمرهم أن ينسخوا القرآن، ويستعينوا علي القراءة بما حفظه القراء. وقال لهم: "إذا اختلفتم أنتم وزيد في شئ بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم" ففعلوا ذلك سنة 30هـ، وكتبوا أربعة مصاحف بعثها عثمان إلي الأمصار الأربعة: مكة، والبصرة، والكوفة، والشام واثنين أبقاهما في المدينة: واحد لأهلها، وواحد لنفسه وهو الذي يسمونه "الإمام"، ثم أمر بجمع ما كان قبل ذلك من المصاحف والصحف وأمر بإحراقه[1].

وأصبح المعول في المصاحف علي ما كتبه عثمان، واشتغل المسلمون في الأمصار إستنساخ تلك المصاحف، فنسخوا منها شيئًا كثيرًا في مدة قليلة، وذكر المسعودي في عرض كلامه عن واقعة صفين من رفع المصاحف: "ورفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف".

أما بالنسبة للمصحف الذي كان يقرأ فيه عثمان 'رضي الله عنه' عندما قُتل عام 35هـ فقد كان موجودًا في مطلع القرن الثالث الهجري كما يقول أبو عبد القاسم بن سلام المتوفي سنة222هـ: "رأيت المصحف الذي يقال له الإمام، مصحف عثمان بن عفان، استخرج لي من بعض خزائن الأمراء، وهو المصحف الذي كان في حجره حين أصيب".

(1) جرجي زيدان(تاريخ التمدن الإسلامي)- الجزء الثالث، دار الهلال- القاهرة، ص64- 65.

وتوجد أكبر وأروع مجموعات من المصاحف في العالم دون شك في مكتبة متحف بإستانبول، وهي المصاحف التي كانت في الخزانة الخاصة بالسلاطين من آل عثمان، كما توجد مجموعات أخري في إيران بقبة الإمام الرضي، ومجموعة ثالثة بدار الكتب المصرية بالقاهرة، وكذلك في الهند والقيروان. كما هناك مجموعات خارج العالم الإسلامي في المكتبة البريطانية بلندن، والمكتبة الوطنية بباريس، ومكتبة الفاتيكان بروما، ومكتبة شيستربتى بدبلن(2).

أما بخصوص الإجابة عن السؤال الذي يتصدر هذا المبحث ولب لباب موضوعنا في هذا المقام، فنري- علي نحو من الأنحاء- من الأحجي أن نسرد- في المقام الأول- التقارير التي جاءت في بعض الصحف الصينية مشفوعة بالترجمة العربية من ناحية، ومن ناحية أخري، نسرد مقتطفات ومقطوعات ذات الصلة بموضوعنا التي نشرتها بعض الصحف العربية، ونأمل من القارئ العربي إمعان النظر فيها وتدقيقها بشدة بغرض التوصل إلي إجابة صحيحة وصائبة لما طرحناه من أسئلة في مستهل هذا المبحث. ونسرد ذلك علي النحو التالي:

- **الصحيفة: "الأخبار - 新闻出版报"**

التاريخ: 1992/1/1

العنوان: العثور علي أصغر "مصحف" في العالم بمدينة تشينغدو

تم العثور- مؤخرًا- علي أصغر مصحف في العالم بمدينة تشينغدو عاصمة المقاطعة الصينية ستيشوان. وذكر متخصصون وخبراء في هذا الأمر أن هذا المصحف في حجم الجيب، ويتحلي بالقيمة العالية من متعة رؤيته، ناهيك عن القيمة العلمية التي تجسد تاريخ تطور الطباعة.

(2) موسوعة الحضارة الإسلامية، وزارة الأوقاف المصرية، الجزء الرابع، ص818، عام 2005م.

وهذا "المصحف" أكبر قليلًا من الإبهام، ويبلغ طوله 2,7 سم، وعرضه 2 سم، وسمكه واحد سنتيمتر، ووزنه 6 (ستة) جرامات، كما أنه أخف بـ 4 (أربعة) جرامات عن المصحف الذي عُثر عليه في سنة 1988 في مدينة بجايه الواقعة في شرق دولة الجزائر، وقد قيل أنه "أصغر مصحف في العالم" في ذلك الحين.

وتجدر الإشارة إلي أن المصحف الذي عُثر عليه في ستيشوان كان موجودًا لدي فلاح عجوز مسلم يبلغ من العمر 91 عامًا، ويقيم في بلدة (جين نيو) بضاحية مدينة تشينغدو. ويدعي هذا الفلاح (ماجيو وو).

وحسب ما ذكره ذلك الفلاح أن هذا المصحف يعد من النفائس الغالية التي توارثتها عائلته جيلًا بعد جيل، وكان محفوظًا في علبة حديدية أكبر قليلًا من الإبهام ويعلوها الصدأ، والوجه الأمامي للعلبة مزودة بعدسة مكبرة، وفي خلفها تصميمات زخرافية منقوشة باللغة العربية.

وعلي الرغم من أن المصحف عاني كثيرًا من كر السنين، إلا أنه ما زال يحتوي علي 30 جزءًا، و114 سورة، وأكثر من 6200 آية مطبوعة كلها مكتوبة باللغة العربية. وهوامش صفحات المصحف من الجوانب الأربعة مطلية بالذهب ولا تزال لامعة ومشرقة وتخطف الأبصار. ورغم أن طول الصفحات قصيرًا، وحروف اللغة العربية صغيرة وتشبه فرخ الضفدع، بيد أنها ما زالت براقة ومشرقة وواضحة ويمكن قراءتها بجلاء.

- **الصحيفة: صحيفة جينغ جوا المسائية 郑州晚报**

التاريخ: 1991/5/26

العنوان: "مصحف" وزنه ستة جرامات فقط

عُثر علي مصحف طباعته في حالة ممتازة لدي مزارع مسلم يدعي(ماجيو) البالغ من العمر تسعين عامًا ويقيم في قرية(تو شياه) في بلدة(جين نيو) التابعة لمدينة تشينغدو

عاصمة المقاطعة الصينية ستيشوان، وذلك في أثناء قيام مكتب القوميات والشؤون الدينية التابع للحكومة الشعبية في منطقة(جين نيو)- قيامه بجمع وترتيب الوثائق التاريخية الخاصة بالأقليات والأديان.

ويبلغ طول المصحف 2,7 سم، وعرضه 2 سم، وسمكه واحد سنتيمتر ووزنه 6 (ستة) جرامات، ومحفوظ داخل علبة مستطيلة حديدية يعلوها الصدأ ومزودجة بعدسة مكبرة. وذكر المزارع ماجيو أن هذا المصحف يعد من الكنوزز الثمينة التي تداولتها الأجيال المتعاقبة في أسرته.

وتجدر الإشارة إلي أن عقد مقارنة بين هذا المصحف، والمصحف الذي عُثر عليه في شرق الجزائر وطوله 2,2 سم، وعرضه 1,7 سم، وسمكه 1 سم، ووزنه عشر(10) جرامات ويعد أصغر مصحف في العالم، فإن المصحف(الأول) الذي عثر عليه في مقاطعة ستيشوان أخف منه بـ 4 (أ{بعة) جرامات، وأطول منه بمقدار 0,5 سم، وأعرض منه بنحو 0,3 سم.

- **الصحيفة: صحيفة بكين المسائية 北京晚报**

التاريخ: 1992/1/17

العنوان: العثور علي أصغر "مصحف" في العالم

تم العثور -مؤخرًا- على أصغر "مصحف في العالم في مدينة تشينغدو" عاصمة مقاطعة ستيشوان الصينية، يبلغ طوله 1.7سم، وعرضه2سم، وسمكه واحد سنتيمتر، ووزنه 6 (ستة) جرامات. وكان المصحف من مقتنيات المزارع الصيني (ماجيو وو) البالغ من العمر 91عامًا، ويقيم في قرية (توتشياو) التابعة لبلدة (جين نيو) بمدينة تشينغدو.

■ **الصحيفة: صحيفة "الإتحاد" الإماراتية**

التاريخ: 1993/8/4

العنوان: على ذمة صحيفة صينية العثور على أصغر مصحف في العالم

قالت صحيفة صينية أن أصغر مصحف في العالم عثر عليه مؤخرًا بمنزل فلاح عجوز في إقليم شينجيانج الواقع في أقصى غرب الصين. وقالت صحيفة شينجيانج ديلي في عددها الذي صدر في 26 يوليو تموز أن وانج وانشانج وهي من الأقلية المسلمة بمقاطعة يانكي تمتلك مصحفًا طوله 2,7 سنتيمتر وعرضه 1,3 سنتيمتر وسمكه سنتيمتر واحد. ويزن المصحف 4,9 جرام فقط وهو محفوظ جيدًا في صندوق صغير.

■ **الصحيفة: "الأخبار المصرية"**

التاريخ: 200/2/17

العنوان: أصغر مصحف في العالم

أصغر مصحف في العالم يملكه مواطن هندي من مدينة حيدر أباد الهندية طوله 30 ملليمترًا وعرضه 15 مم وسمكه 10 ملليمترات. هناك العديد من أبناء دول شرق آسيا ودول الخليج لديهم مصحف في نفس الحجم تقريبًا.

■ **الصحيفة: "الاتحاد" الإماراتية- العدد 6859**

التاريخ: 1993/10/18

العنوان: أصغر نسخة من القرآن موجودة بالهند

ذكرت وكالة الأنباء الهندية أن رجل أعمال هنديًا في أواسط عمره يقول انه يملك أصغر نسخة من المصحف الشريف كان قد أهداها إليه صديق قبل ثلاثين عامًا أحضرها من فرنسا.

والرجل اسمه عزيز الرحيم خان ويقول أن سمك النسخة يصل إلي أقل من سنتيمتر واحد وطولها 3,5 سم وتحتوي علي 735 صفحة.

- **الصحيفة: صحيفة "الاتحاد" الإماراتية- العدد 6398**

التاريخ: 1992/4/28

العنوان: أخف المصاحف يوجد بالصين

أعلن مسلم مسن يدعي ماتشي في التسعين من عمره بمقاطعة سيتشوان بجنوب غربي الصين أنه ورث عن أجداده أخف نسخة من القرآن الكريم وزنًا في العالم بطول 2,7 سم وعرض 2 سم وسمك 1 سم ووزن 6 جرامات..

ويذكر أنه تبلغ مساحة سطح أصغر النسخ حجمًا في العالم 2,2 في 1,7 سم ووزنها 10 جرامات.

- **الصحيفة: صحيفة "البيان" الإماراتية**

التاريخ: 1993/10/1

العنوان: ظهور ثالث أصغر مصحف في العالم

ظهر ثالث أصغر مصحف في العالم في مدينة كوم حمادة بمحافظة البحيرة المصرية.

ويمتلك المصحف الدكتور إسماعيل خليفة وورثه عن جده الذي كان أحد شيوخ الأزهر.

ويبلغ طول المصحف 2.7 سنتيمتر وعرضه 1.7سنتيمتر ووزنه 4جرامات فقط.

ويتضمن المصحف جميع سور القرآن الكريم ومزود بفهرست بأرقام الصفحات وأسماء السور.

كما يتضمن المصحف تاريخ صدوره منذ 317 عامًا حيث طبع في غرة شعبان 1097هجرية.

- **الصحيفة: صحيفة "الإتحاد" الإماراتية**

التاريخ: 1993/12/24

العنوان: أصغر مصحف في مكة المكرمة

قرأت كثيرًا في الصحف عن أصغر مصحف ولأنني أملك هذا المصحف الشريف الذي ورثته عن أبي والذي يعود تاريخه إلى قرن مضى... هكذا بدأ سرد حكايته الأستاذ حسن علي يوسف مدير مدرسة المنصورية بمكة المكرمة مضيفًا قوله:

فالمصحف الذي لدي طوله 1.7سم وعرضه 1.5سم وإطار البرواز الداخلي 1X2سم وهذا المصحف كامل ومقسم إلى أجزاء وبه فهرس وعلامات الوقف بأنواعها والفواصل ولا يمكن قراءته إلا لحاد البصر أو بالمجهر... ولدي أيضًا مصاحف كثيرة أكبر قليلًا من هذا الحجم وقد أورثني أبي حب جمع المصاحف والإعتناء بها وتطبيق ما أنزل فيها من هدي ولم نجد غير تصوير هذا المصحف الشريف كأصغر مصحف بمكة المكرمة.

- **الصحيفة: "البيان" العدد رقم 4411**

التاريخ: 1992/7/16

العنوان: أصغر نسخة من القرآن

قالت صحيفة إيرانية أن عالمًا إيرانيًا يسكن مدينة -جهرم- يملك أصغر نسخة من المصحف الشريف وزنها 6 جرامات ونصف وبحجم سنتيمتر في سنتيمترين.

وأشارت الصحيفة إلى أن النسخة مخطوطة قبل 318عامًا على يد أحد الخطاطين ويدعى حافظ عثمان وممهورة بأختام 10من علماء ذلك الزمان وموضوعة في إطار من 8 أضلاع من الفضة.

■ **الصحيفة: صحيفة "البيان"الإماراتية**

يدفع الفضول الكثير من الباكستانيين لشد الرحال إلى بلدة "شاجاي هيندكيان" الواقعة بالقرب من بيشاور ليشاهدوا نسخة من القرآن الكريم يقال أنها أصغر مصحف في العالم.

ويقل حجم المصحف المحفوظ في هذه البلدة الصغيرة بالأقليم الحدودي الشمالي الغربي بباكستان عن بوصة واحدة فيما يؤكد صاحب النسخة ويدعى سيد فياض علي شاه أنها بالفعل أصغر نسخة من القرآن في العالم منوهًا بالحاجة لتسجيلها ضمن موسوعة جينز للأرقام القياسية.

وقال الشاب سيد فياض البالغ من العمر 23عامًا أن المصحف الذي بحوزته أصغر كثيرًا من ذلك المصحف الذي ادعت مؤخرًا عائلة هندية أنه أصغر مصحف في العالم، مشيرا إلي أن حجم المصحف الذي تحتفظ به هذه العائلة الهندية يصل إلي بوصتين ونصف البوصة.

وكان مواطن باكستاني قد عرض علي شاشة تليفزيون إسلام اباد نسخة صغيرة أخري من القرآن الكريم لا يزيد حجمها علي بوصة وسبعة سنتيمترات ليثبت هذا المواطن الذي يعيش ببلدة تور واراسك بمنطقة بونير في الإقليم الشمالي الغربي أن المصحف الذي بحوزته أصغر من المصحف الذي تحتفظ به العائلة الهندية.

غير أن الشاب سيد فياض علي شاه يؤكد أن المصحف الذي ورثه عن جده هو الأصغر حجمًا علي الإطلاق في باكستان إن لم يكن في العالم كله. - أ. ش. ا

■ **الصحيفة: صحيفة "الاتحاد" الإماراتية- العدد 6309**

التاريخ: 1992/1/15

العنوان: أصغر مصحف يوجد في إيطاليا

ذكر في مدينة مونزا الإيطالية أن أصغر نسخة للقرآن الكريم في العالم توجد بحوزة أحد تجار العاديات النادرة بالبلدة خلافًا للإعتقاد السائد بأن أصغر نسخة للقرآن قد عثر عليها عدد من الباحثين الصينيين.ويبلغ طول النسخة 2,1 سنتيمتر وعرضها 1,6 سنتيمتر أي أصغر من النسخة التي وجدت في الصين. ويضم الكتاب ستمائة صفحة بها السور والآيات القرآنية كاملة.

ويعتقد آنجيلو جيتونيني تاجر العاديات الإيطالي أن هذه النسخة تعود إلي نهاية القرن التاسع عشر ومصدرها القسطنطينية ويعرض بيعه بسبعمائة وثمانية دولارات.

- **الصحيفة: صحيفة "تشينا ديلي" China Daily**

التاريخ: 1992/6/1

العنوان: أصغر مصحف

اكتشف علماء مؤخرًا مصحفًا دقيق الحجم في مدينة تشينغدو عاصمة المقاطعة ستيشوان الواقعة في جنوب غرب الصين. ويبلغ طول المصحف 2,7 سم، وعرضه 2 سم، وسمكه سنتيمتر واحد، ووزنه ستة جرامات فقط. وقد ورث هذا المصحف ماجيو وو، عمره 91 عامًا، وينتمي إلي القومية المسلمة هوي، ويقيم في قرية توشيباو في ضاحية مدينة تشينغدو. وذكر ماجيو لا أحد يعرف تاريخ كتابة هذا المصحف.

(الصورة من وكالة الأنباء الصينية الجديدة: شينخوا)

- **الصحيفة: صحيفة "البيان" الإماراتية**

التاريخ: 1993/9/7

العنوان: أصغر نسخة للقرآن الكريم في مزاد بدبي النسخة عمرها 336 عامًا وبحجم 4,2 سنتيمترات

العين- مكتب "البيان":

يستعد محمد محيي الدين محمد والذي يقيم بدولة الإمارات منذ أكثر من 17 عامًا لإقامة مزاد بدبي لبيع أصغر نسخة من القرآن الكريم بحجم 4.2 سنتيمترات وتقدر قيمتها بأكثر من 2.5 مليون دولار.

النسخة الأثرية طبعت عام 1077 هجرية وعمرها 336 سنة. وقد ورثها عن جده وأهديت له من والده الذي كان يهوي اقتناء الأثريات رغم أنه يعمل مهندسًا.

يقول محمد محيي الدين الذي نشأ في حي شبرا بمصر أن هواية الجد والأب أثرت فيه لدرجة أن لديه حصيلة كبيرة من العملات النادرة التي يحتفظ بها.

أما نسخة القرآن الكريم النادرة والتي يستعد لإقامة مزاد لها وسبق أن عرض عليه أن يقدمها بصالة "سوزبي" بلندن العاصمة، إلا أنه رفض خوفًا علي فقدها، تمثل بالنسبة له ثروة حتي أنه استأجر لها خزينة بأحد البنوك لحفظها.

ويضيف أن النسخة النادرة والتي يصل طولها 3 سنتيمترات وعرضها 2 سنتيمتر وبسمك 7 ملليمترات قام بجمعها حافظ عثمان وعلي ما وافق مصحف الشيخ المعروف- علي القاري- حيث تم جمعها في أوائل شعبان من سنة 1077 من الهجرة.

هذا وتحفظ النسخة التي زودت بعدسة صغيرة للقراءة داخل إطار من الفضة نقشت عليه زخارف إسلامية.

- **الصحيفة: صحيفة "الاتحاد" الإماراتية- العدد 6462**

التاريخ: 1992/7/12

العنوان: أقدم نسخة مطبوعة "للقرآن الكريم" في إيطاليا

اكتشفت باحثة إيطالية مؤخرًا نسخة من أول مصحف مطبوع في العالم ويرجع تاريخه إلي منتصف القرن السادس عشر الميلادي.

وقد عثر علي المصحف في أحد البيوت الأثرية بمدينة(فينيسيا) حيث استخدمت لطباعته آلة طباعة خاصة بالحروف العربية.

ويذكر أن الباحثين كانوا يعتقدون أن أول مصحف مطبوع ظهر في مدينة هامبورج الألمانية عام 1694 ولكن الإكتشاف الجديد يؤكد أن إيطاليا كانت الأسبق في طباعة المصحف.

- **الصحيفة: صحيفة "البيان" الإماراتية- العدد رقم 4407**

التاريخ: 1992/7/12

العنوان: أول مصحف مطبوع في العالم

اكتشفت باحثة إيطالية مؤخرًا نسخة من أول مصحف مطبوع في العالم ويرجع تاريخه في منتصف القرن السادس عشر الميلادي.

وقد عثر علي المصحف في أحد البيوت الأثرية بمدينة "فينيسيا" حيث استخدمت لطباعته آلة طباعة خاصة بالحروف العربية.

ويذكر أن الباحثين كانوا يعتقدون أن أول مصحف مطبوع ظهر في مدينة هامبورج الألمانية عام 1694 ولكن الإكتشاف الجديد يؤكد أن إيطاليا كانت الأسبق في طباعة المصحف.

- **الصحيفة: صحيفة "الاتحاد" الإماراتية**

التاريخ: 2000/5/8

العنوان: مصحف مذهب في الصين

بكين- أ ش أ: عثر مؤخرًا في مدينة يانتشو الواقعة غرب الصين علي طبعة نادرة للقرآن الكريم مذهبة بكيلو جرامين من الذهب وإجمالي طول صفحاته 600 متر. وقد

أنجز هذه الطبعة المذهبة الرسام الصيني المسلم ماتشيان بون واستمرت كتابته لها لمدة ثلاث سنوات. جدير بالذكر أن هذه الطبعة أثارت اهتمامًا بالغًا بين الأوساط الإسلامية والأدبية والفنية الصينية، ويعد هذا الإنجاز واحدًا من المساهمات المهمة للثقافتين الإسلامية والعالمية.

المبحث الثاني والعشرون
الرحالة المسلم الصيني
«ماهوان»

❋ أول صيني نقل كلمة "عربي" إلي أقرب المقاطع الصينية إليها

❋ أول صيني وصف "مكة المكرمة" بعد زيارة "الكعبة"

يقول ماهوان في إحدي قصائده:

وفد الإمبراطور المجيد تلقي أمرًا ربانيًا

اعتل أصوات الحرير وأطرق الأراضي البربرية

الرحالة والمستكشف المسلم الصيني ماهوان(马欢 MaHuang) (C. 1380- 1460) كان من مسلمي الصين، وتعلم اللغة العربية حتي يكون مترجمًا، واشتغل بالترجمة.

ولد ماهوان في مدينة خوي جي(تعرف الآن باسم شاوشينغ) التي تقع علي بعد 150 ميلًا جنوب مرافئ بناء السفن في نانجين، وتبعد بضعة أميال إلي جنوب مدينة هانجو(Hang- Zhou) أحد الموانئ التجارية في ذلك العصر في مقاطعة تشجيانغ(Zhejiang) إحدي المقاطعات الساحلية في الصين وتعد من أكثرها إكتظاظًا بالسكان وموطن الأرز والشاي والحرير.

ماهوان اسمه القلمي المستعار "حطاب في الجبال"، ولقب المجاملة "زونغ داو. اشترك في ثلاث رحلات بحرية من إجمالي 7 رحلات قادها رائد الإكتشافات البحرية في القرن الخامس عشر الأدميرال المسلم الصيني جينغ جه. خلال الأعوام الثلاثة 1413، 1421، 1431 علي التوالي، ودونّ ما شاهده بأم عينه في الجغرافيا والإقتصاد، والسياسات، وأحوال الطقس والبيئة، والعادات والتقاليد المحلية، وقانون عقوبة المجرمين. وقد بدأ

تسجيل مشاهداته منذ أولي رحلاته البحرية وانتهي من المسودة الأولي وأصبحت جاهزة في حوالي سنة1451م. وكان عنوان كتابه:

باللغة الصينية: "瀛涯胜览"

وترجمته باللغة العربية: "مشاهدات رائعة وراء البحار الشاسعة"

وباللغة الإنجليزية: "The Overall Survey of the ocean's shores"

وفي أثناء أسرتي مينغ وتشينغ، كانت هناك نسخ مطبوعة من هذا الكتاب، بالإضافة إلي نسخ مكتوبة بخط اليد أيضًا. وقام المؤرخ الشهير فينغ تشينغ جون بتحرير النسخة الموثوق بها وعلق علي حواشيها. وكان تحرير الطبعة الحديثة علي أساس النسخة المكتوبة باليد في أسرة مينغ(1644- 1368) ونشرتها دار نشر المحيط بالصين.

وكانت الترجمة الإنجليزية، والتعليق علي حواشيها قام بها J. V. G. Mills.(1887-1987)، وتم نشرها من جانب Hakluytsociely في عام 1970 تقريبًا، ثم طُبع الكتاب مرة أخري في عام1997 من قبل مطبعة اللوتس الأبيض في بانكوك وكانت ترجمة ميلس استنادًا إلي الطبعة التي قام بتحريرها المؤرخ فينغ.

وقام العديد من الباحثين بدراسة الكتاب مثل: J. J. L. Duy Vendak، Feng Cheng Jun، Paul Pelliot، F. Hirth، J. V. G. Mills، Xiang Da.

ويري كثيرون من علماء الصينيات في العالم أن الكتاب يتحلي بالأهمية الكبري ويعد المصدر الرئيس والأساسي في دراسة تاريخ أسرة مينغ الإمبراطورية في مجال الملاحة البحرية، ناهيك عن تاريخ الهند.

وتجدر الإشارة إلي أن ماهوان لم يكن من النبلاء أو خاصة الملك، بل كان رجلًا بسيطًا وربما موظفًا ذا رتبة دنيا، فقد وصف بنفسه بانتقاص بأنه "حطاب في الجبال"، ومثل بقية الرجال علي متن سفن الرحلات البحرية، سيغيب عن موطنه وأهله أكثر من عامين.

ومذكرات ماهوان مهمة علي وجه الخصوص، لأنها واحدة من ثلاث روايات عيان باقية عن هذه الأساطيل البحرية الإمبراطورية في عصر أسرة مينغ. أما الروايتان الأخريان فقد كانتا لكل من الرحالة:

- **الرحالة (في شين):** وقع عليه الإختيار للسفر في الرحلة إلي المحيط الهندي، فوافق الأدميرال جينغ خه المبعوث الخاص إلي ما وراء البحار أربع مرات، حيث اطلع علي سلوك الناس وعاداتهم وتقاليدهم ومنتجاتهم في البلدان التي زارها، وسطر ذلك كله بين دفتي كتابه "تجولات في أقاصي المعمورة" الذي يقع في جزءين، أولهما سجل فيه ما شاهده بأم عينه، وثانيهما مأخوذ عما نقله المترجم من المعلومات المختلفة.

- **الرحالة (قونغ تشي):** كان مستشارًا لتشينغ خه في الرحلة السابعة إلي ما وراء البحار في عام1431. وكتابه "سجل البلدان في المحيط الهندي" يتناول عشرين دولة متوافقة مع كتاب "مشاهدات رائعة وراء البحار الشاسعة" تقريبًا من حيث المواد والترتيب. وذكر قونغ تشي في مقدمة كتابه المذكور أعلاه: "إن كل ما ورد في الكتاب إما أن يكون ما رأته عيناي، وإما أن يكون ما بلغ مسمعي أو ما وصلني من المعلومات التي نقلها المترجم خلال الزيارات والتي دونتها دون أن أترك منها شيئًا". ومن المرجح أن هذا المترجم المذكور في الفقرة السابقة هو (ماهوان). وأن المعلومات الواردة في متن الكتاب أخذت من محضر من ماهوان أيضًا. وذكر تونغ تشي أن أسطول جينغ خه "يعبر المحيط الهندي مسترشدًا بالنجوم"، ويحدد اتجاهاته بواسطة البوصلة المائية، وأن سارية السفينة الإمبراطورية وشراعها ومرساتها ودفتها تحتاج إلي مئتي أو ثلثمائة رجل كي يحركوها. كما ذكر كيفية تخزين المياه العذبة اللازمة للرحلة الطويلة، بالإضافة إلي معلومات التي لم ترد في الكتابين السابقين والتي تتحلي بالأهمية القصوي والبالغة في دراسة تاريخ الصين في القرن الخامس عشر في مجال الملاحة البحرية.

1. التجارة الخارجية الصينية في زمن ماهوان (عصر أسرة مينغ):

كانت البضائع الصينية في زمانه قد جابت جنوب شرق آسيا والمحيط الهندي لقرون مضت. ويذكرنا ذلك بالبضائع التي شكلت جلّ حمولة حطام السفينة أنتان(Intan) في القرن العاشر التي غرقت في بحر جاوة(Java Sea) علي مسافة 600 ميل إلي جنوب شرق بخاري في العام1000 ميلادية تقريبًا. إلا أن السفن الصينية لم تغامر في الذهاب إلي ما وراء غربي شبه جزيرة ملاوي. وحتي القرن الثالث لم يسجل ابراهام بن يجو، تاجر التوابل اليهودي، مشاهدة أي أسطول صيني في أثناء العشرين سنة من إقامته في ساحل ميلبار في الهند.

في أواخر القرن الثالث عشر شهدت الساحة السياسية في الصين تطورًا مرعبًا حيث سيطر المغول علي الصين كلها في عام1279 تحت قيادة أحد أحفاد جنكيزخان. ورأيت الغزوات المغولية بشكل فاعل أي انقسام بين شمال وجنوب الصين. وبعث المغول إرساليات سيطرة إلي عمق جنوب شرق آسيا. كما بعثوا حملة ضد جاوة، التي أخفقت بدورها إخفاقًا لافتًا، وخلفت وراءها أعدادًا كبيرة من الصينيين الذين تقطعت بهم السبل في جاوة، الأمر الذي أنعش بدوره تقنيات بناء السفر والتقنيات العسكرية. وربما أن عدم اكتراث المغول بالتجارة في داخل الصين، قد ساعد التجار المستقلين علي تفادي رقابة الحكومة والضرائب.

كانت الأساطيل الصينية الضخمة بحلول العقود الأولي من القرن الرابع عشر قد أفلتت من حدود تجارة جنوب شرق آسيا وأبحرت غربًا إلي الهند. وفي عام1330 تقريبًا شاهد ابن بطوطة بنفسه مثل هذا الأسطول ذا التمويل الخاص تمامًا، وضم ثلاث عشرة سفينة. ورسا هذا الأسطول في ميناء ميلبار في قالقوط، حيث مكث الأسطول عدة أشهر، وبعدها غادرها بأكمله إلي الصين. كان التجار الكبار يعرفون أية توابل يريدون، فجلبوا معهم بضائع معينة للمقايضة بها. وكان واضحًا أن ذلك قد بهر ابن بطوطة وهو أمير

الرحالة العرب، وكانت رحلاته البحرية في الفترة من 1325- 1354. وجاء ذلك واضحًا في كتابه إذ كتب يقول:

"ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلعًا فما دونها إلي ثلاثة، وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبدًا، ويديرونها بحسب دوران الريح. وإذا رسوا تركوها واقفة في مهب الريح، ويخدم في المركب منها ألف رجل، منهم البحرية ستمائة؛ ومنهم أربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجرخية، وهم الذين يرمون بالنفط. ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة...."

في سبعينيات القرن الرابع عشر، أعادت سلالة مينغ الجديدة سيطرتها علي الصين حينما انتزعوها من ورثة جنكيزخان، ونقلت العاصمة من نانجين إلي بكين في عام 1421م. وبعد قرنين من الإنعزال، تنامي في الصين اهتمام في التجارة البحرية الجنوبية. وكانت سلالة مينغ، أوائل القرن الخامس عشر، في أوج سلطتها وثروتها. فلقد أمر الإمبراطور بتشييد المدينة المحرمة في بكين. وهي عبارة عن مجمع قصور جديد مسور علي مساحة 180 فدانًا، مستخدمًا كلًا من الدبلوماسية والحرب. بسط الإمبراطور سلطة الصين غربًا علي امتداد طريق القوافل محصنًا الأراضي الجديدة بأبراج مراقبة وطلائع مسلحة، وهاجم غربًا حتي تركستان الشرقية وجنوبًا إلي فيتنام اليوم. وسخر ولاته العمال لإصلاح أجزاء ضخمة من السور العظيم وإعادة بناء أخري. وبعث بالسفراء إلي العديد من الحكام في آسيا الوسطي والشرق الأوسط واستقبل، بالمقابل، سفراءهم.

وهكذا ازدادت في هذه البيئة الطموحة، الأساطيل الصينية في حجمها وامتداد نشاطاتها. وانخرط الإمبراطور يونغ له(永乐 Yong- Le) الذي تربع علي عرش الإمبراطورية مينغ لمدة 22 عامًا والذي انخرط شخصيًا في مخططات الأساطيل، وعين

أحد مخنثيه من أعلي المراتب كقائد للأساطيل الأدميرال جينغ خه(Zheng- He). كان يرام من هذه الأساطيل الضخمة بسط الهيمنة التجارية والدبلوماسية علي امتداد كل من جنوب شرق آسيا، سيرلانكا، والهند الساحلية والشاطئ الغربي للشرق الأوسط وكذلك شاطئ أفريقيا الشرقي.

في الواقع كانت الصين حينئذ في ذروة قوتها وعنفوانها. وكان بريق الإمبراطور الساطع يشع علي كافة أرجاء آسيا: من اليابان إلي كوريا في الشمال الشرقي ومرورًا بجنوب شرقي آسيا وإلي جنوب الهند والخليج وسواحل شرقي أفريقيا، حيث كانت جميع دولها ومراكزها التجارية قد وضعت نفسها اسميًا علي الأقل تحت حماية الإمبراطور. لذا فإن الإمبراطورية التجارية التي كانت الصين تسيطر عليها شملت جميع البحار الآسيوية: البحر الياباني والصيني الشرقي في الشمال، وبحر الصين الجنوبي والمحيط الهادي بأسره.

كانت إمبراطورية يونغ له التجارية "نظامًا دوليًا" عصريًا يختلف عن النظام الذي كانت الإمبراطوريات الإمبريالية الأوروبية- بعد مئات السنين- ستطبقه في العالم؛ إذ ان الصينيين لم يستعبدوا الشعوب الواقعة وراء البحار أو يبيدوها، كما فعل الغزاة الإسبان مع شعب الأزتيك في المكسيك وشعب الإنكا في جنوب أمريكا، أو كما فعل المستوطنون البريطانيون بالهنود الحمر في أمريكا الشمالية. ولم يؤسس الصينيون مستعمرات عبر البحار تحتم عليهم احتلالها وإدارتها، بل كانوا يكتفون بأن يقوم أعضاء الإمبراطورية التجارية الصينية بالإعتراف بسلطان الإمبراطور رسميًا ومزاولة التجارة في الصين حسب القواعد الصينية. وكان هذا النظام التجاري الذي وضع حاكم البلاد قواعد عقلانيًا وذا تكاليف معقولة، وعلي عكس الحكم الإستعماري الأوروبي، ناهيك عن التطرق إلي الناحية الأخلاقية لهذين النظامين. لم يتوصل الأوروبيون إلي هذه المعرفة إلا بعد مرور أربعة قرون ونصف القرن، إثر كارثة الحرب العالمية الثانية.

2. أفول نجم "التجارة الخارجية" و"السفن البحرية" الصينية في أعالي البحار

في النصف الأول من القرن الخامس عشر، كانت الصين تبسط سيطرتها علي البحار والمحيطات، وبدت قاب قوسين أو أدني من السيطرة علي العالم ووصول سفنها إلي رأس الرجاء الصالح وترسو في المرافئ الأوروبية. ولكن حدث ما لم يتوقعه أحد علي الإطلاق، إذ أوقفت الصين رحلاتها البحرية وتقوقعت علي نفسها.

وهنا السؤال المباغت الذي يطرح نفسه علي بساط البحث وأثار حيرة الكثيرين في الشرق والغرب، وهو: ما هي الأسباب الكامنة وراء قرار الصين من وقف جميع الرحلات البحرية بلا رجعة، ناهيك عن توقف بناء السفن، وخاصةً "سفن الكنز"، وإتلاف جميع مخططات بناء السفن؟

ويمكننا- علي نحو من الأنحاء- إجمال تلك الأسباب في النقاط الرئيسة التالية:

أولًا: حريق المدينة المحرمة عام 1421م: تعرض القصر الإمبراطوري(المدينة المحرمة) في بكين التي كان الإمبراطور لونغ له قد نقل إليها عاصمته إلي صواعق أشعلت النيران فيه وكادت أن تقضي عليه بصورة كاملة. وفي أغسطس1424 توفي الإمبراطور، وأمر خليفته الإمبراطور هونغ شي(1378- 1425) الذي حكم لمدة عام واحد فقط، أمر بالتوقف عن بناء السفن البحرية، وبعد أن قضي نحبه هو الآخر بعد فترة وجيزة أمر خليفة الإمبراطور شوان دي(1398 Xuan De- -1435) الذي حكم لمدة11 عامًا، بالقيام برحلة بحرية كبيرة في عام1430، بغرض ضخ دماء جديدة إلي أوصال عملية دفع الأتاوي والعلاقات التجارية. بيد أنه ودع دنيانا في عام1435، مما وضع نهاية لجميع الرحلات البحرية وبناء السفن، بالإضافة إلي موت آخر أساتذة صنع السفن من عصر الرحلات الإستكشافية، ومن ثم انقرضت معرفة طريقة بناء "سفن الكنز" Treasure Ships.

ثانيًا: معارضة المسؤولين الكونفوشيوسيين:

في العام 1477م طلب أحد الخصيان الحصول علي كتب الملاحة العائدة إلي الأدميرال جينغ خه الموجودة في الأرشيف، وعارض ذلك الموظفون الكونفوشيوسيون وقاموا بإتلاف تلك الكتب والوثائق البحرية من أجل قطع دابر أي محاولة لإحياء تلك الرحلات الإستكشافية البحرية. وهكذا تم منع الملاحة في عرض البحار وصدرت الأوامر في عام 1525م إلي جميع سلطات الموانئ بتدمير جميع السفن البحرية وإلقاء القبض علي مالكيها.

ولعل من نافلة القول أنه في عام 1368 أطاحت أسرة مينغ بأسرة يوان المغولية، ومنعت المواطنين الصينيين من الإشتغال بالتجارة البحرية وفرضت قيودًا عليها. وفي عام 1433 فرضت أيضًا حظرًا وألغت القيام بأية أنشطة بحرية بعد رحلات البحار المسلم الصيني رائد الإستكشافات البحرية جينغ خه郑和.

وبغض النظر عما قيل ويقال فإن السبب تمثل في إيقاف الملاحة البحرية في أواسط القرن الخامس عشر: إن اقتصاد السوق الحر وإقامة المجتمع الصناعي كانا غير متوافقين مع المذهب الكونفوشيوسي، لأنهما كانا سيحولان الصين إلي بلد يختلف عما كان يجب أن يكون عليه من وجهة النظر هذه. كانت النخبة الحكومية الكونفوشيوسية تسعي إلي تحقيق استقرار الدولة والمجتمع، والعمل علي منع الالتحام بين النظام الهرمي للحكم والرخاء الإقتصادي. ولذا فإن كل تهديد لهذا التوازن كان يصطدم بمقاومة مريرة من طبقة الموظفين والطبقة العليا الإقطاعية التي كان الموظفون ينتمون إليها أصلًا. وكما هو معروف فإن الكونفوشيوسيين كانوا يحتقرون التجار أخلاقيًا ويصفونهم بأنهم طفيليات، ولم يكونوا إطلاقًا علي استعداد لمشاطرة هؤلاء "الطفيليات،" السلطة في الدولة، والتخلي عن مراكزهم في نهاية المطاف، كما حدث لطبقة النبلاء خلال الثورة

الفرنسية في القرن التاسع عشر. لقد واجهت النخبة الحكومية الكونفوشيوسية في صين إمبراطورية سونغ(960- 1279) السؤال نفسه الذي يواجه النخبة الحكومية الشيوعية في صين العصر الحالي: هل نقوم بفتح الطريق أمام الصين للإنطلاق إلي المستقبل بالسماح للقطاع الخاص بالنهوض، والتعرض بالتالي إلي خطر فقدان السلطة مع مرور الوقت؟ كان القرار حينها ضد هذا الإتجاه.

ثالثًا:الأزمة المالية الطاحنة تعصف بالبلاط الإمبراطوري

في عهد الإمبراطور يونغ له واجهت الإمبراطورية الصينية أزمة مالية حادة بسبب الرحلات الإستكشافية البحرية، وبناء قصر الإمبراطور(المدينة المحرمة)، والحرب في آنام(فيتنام الشمالية).

رابعًا:تهديد المغول في شمال الصين.

في الشمال تفاقم بصورة حادة خطر المغول الذين كانوا قد استعادوا قواهم، واظهر نقل العاصمة إلي بكين بأن السياسة الأمنية التي كانت لها الأفضلية في المقام الأول لحماية الحدود الشمالية من هذا الخطر المحدق. وقد يبرز ذلك للعيان أسباب منع الدولة القيام برحلات بحرية جديدة، وحظر صناعة السفن البحرية، بيد أنها لا تقدم الإجابة الشافية، سبب قرار الصين بتحطيم السفن الموجودة ومنع الرحلات البحرية الخاصة أيضًا.

خامسًا: التقاليد الكونفوشيوسية والسياسة الداخلية.

رغبت الصين في العودة إلي الإستمساك بالتقاليد الكونفوشيوسية التي كان الإمبراطور يونغ له قد "انحرف" عنها بسياسته البحرية، كانت الصين بلدًا زراعيًا، وكانت

الزراعة تعتبر المصدر الوحيد للثراء. وهنا تتساءل الصين: ماذا ينتج التجار؟ وما هي المنافع التي عادت عليها من هذه الرحلات البحرية المكلفة؟ إن التجار لا ينتجون شيئًا، بل إنهم مثل الطفيليات ويأتي ترتيبهم في أدني درجات المجتمع. وقد جلبت تلك الرحلات حيوانات غريبة للإمبراطور، وأحجار كريمة ولآلئ، ونباتات وأعشاب طبية ومشتقات حيوانية. ولم تكن الصين في حاجة إلي ذلك مطلقًا باستثناء المواد الطبية. ثم إن الرحلات البحرية المكلفة لم تكن سوي مشروعات للوجاهة والأبهة وغير مدرة للأرباح، لا بل كانت مكلفة كثيرًا.

سادسًا: رؤية الصين تجاه التجارة الخارجية

في ذلك العصر ارتأت الصين أن التجارة الخارجية غير ضرورية، بل أنها كانت مفسدة للأخلاق والعادات لأنها تجلب الأفكار الغربية إلي البلاد مما يعكر صفو الانسجام الإجتماعي، ثم أنها كانت مصدر للتجار والمغامرين، علاوة علي تقويتها سلطان ونفوذ الخصيان المنبوذين والمكروهين والمحتقرين من قبل الموظفين الكونفوشيوسيين. وبعد ذلك، لا غرو، أن تمكن الموظفون الكونفوشيوسيون من إقناع الأباطرة الذين اعتلوا عرش الحكم بعد الإمبراطور شوان دي بالتوقف عن مواصلة الرحلات البحرية والعودة إلي التقاليد العريقة والرشاد. وبدل السفن البحرية شرع أباطرة سلالة مينغ ببناء "سور الصين العظيم" وأغلقت الصين نفسها نهائيًا علي العالم.

وعلي هذا النحو، توقفت الملاحة الصينية في عرض البحار خلال القرن الخامس عشر نقطة تحول وانعطاف خطير في تاريخ الصين وفي تاريخ العالم أيضًا. لقد تخلي الصينيون عن الملاحة في عرض البحار في تلك اللحظة بالذات التي بدأ فيها الأوروبيون يركبون البحار بحثًا عن الطريق البحري إلي آسيا. وأقدم كولومبوس وفاسكو داجاما علي الرحلات البحرية المحفوفة بالمخاطر من أجل الوصول إلي آسيا الغنية بالخيرات: الهند،

الصين، جزر التوابل. وفي عام1498 طاف فاسكو داجاما حول رأس الرجاء الصالح وحط في كاليكوت. وفي عام1511 سيطر البرتغاليون علي ملقا التي كانت اسميًا تحت حماية إمبراطورية مينغ، وأسسوا عام1557 في شبه جزيرة مكاو أول فرع تجاري برتغالي علي الأراضي الصينية. وأصبحت مكاو وجاركرتا وكلكتا ومانيلا مراكز ينظم فيها البرتغاليون والهولنديون والإنجليز والإسبان شؤون التعامل التجاري بين آسيا وأوروبا، كما نظموا التجارة الآسيوية الداخلية.

خلاصة القول: لو كانت السفن البحرية الصينية ما زالت تمخر عباب البحار والمحيطات، ولو كان الصينيون قد استمروا في تطويرها، لكان تاريخ العالم سيأخذ اتجاهًا آخر دون شك، غير أن الصين أعطت القوي الأوروبية العظمي حرية التجارة والملاحة في البحار الآسيوية إلي أن تعرضت نفسها في القرن التاسع عشر إلي هجوم هؤلاء الأوروبيين علي السواحل البحرية التي كانت عاجزة عن حماية نفسها. وكان ذلك نتيجة أن الصينيين لا يؤمنون بقرارة أنفسهم بوجود بلد آخر غير الصين يمكن أن يرفل بالخير والنعيم والثراء. وكانت مملكة الوسط تري أنها تمثل الثقافة الرفيعة الوحيدة المتفوقة علي العالم، وتظن أنها تملك كل ما نريده ونحتاج إليه.

3. مشاركة ماهوان في أسطول الأميرال جينغ خه:

أمير البحار المسلم الصيني جينغ خه (1371-1435) يأتي في عداد أعظم الملاحين في التاريخ، فقد قاد أسطولًا لم يسبق له مثل في ضخامته وبعد المسافات التي اجتازها زهاء خمسين ألف كيلومتر، وفي مدة إبحارة ومدي تقدمه في التقنية الملاحية. وقد وصل جينغ خه إلي أفريقيا مرارًا وتكرارًا قبل دياس بارتو لوميو البرتغالي الذي وصل في رحلته البحرية إلي رأس الرجاء الصالح عام1488، وكريستوفير كولمبس الاسباني الذي اكتشف القارة

الجديدة عام 1492. فاسكو داجاما البرتغالي الذي التف حول رأس الرجاء الصالح واجتاز المحيط الهندي عام1497، قبل أولئك جميعًا بمدة تتراوح من خمسين إلي مائة سنة. لقد سجل جينغ خه في رحلاته إلي المحيط الهندي إنجازات هائلة في الملاحة والفلك والجغرافيا وغيرها من المجالات العلمية، فبلغ شأوًا عظيمًا في تاريخ الملاحة، وقد كسب احترام مختلف الشعوب لأنه نفذ السياسة الخارجية السلمية للصين القديمة خلافًا لسياسة السلب والنهب والقتل التي سار عليها المغامرون الأوربيون في البلدان الأفرو آسيوية. كما عمق برحلاته السبع الطويلة التفاهم بين الشعب الصيني والشعوب الأفرو آسيوية بما فيها الشعب العربي، ودفع عجلة التبادلات الاقتصادية والثقافية بين الطرفين إلي الأمام، مما قدم إسهامات جليلة وأحدث أثرًا بعيد المدي في تنمية العلاقات الودية بين الشعب الصيني وهذه الشعوب.

إن رحلات جينغ خه إلي المحيط الهندي قد جاءت نتيجة للازدهار الكبير الذي شهده الاقتصاد الإقطاعي في أسرة مينغ الكبري، وثمرة لسياسة الإمبراطورية الخارجية القائلة بأن "كل من يعيش تحت قبة السماء في أقاصي الدنيا من رعايا إمبراطوريتنا". ولكن مع تعاقب الشهور والسنين وجدت أسرة مينغ خزانة دولتها خاوية علي عروشها نتيجة الفساد المستشري داخل البلاط الإمبراطورى ما نجم عنه من ضعف ووهن في جسد الدولة، فاضطرت إلي اتخاذ سياسة الباب المغلق التي "لا تهتم بالخطط البعيدة المدي"، فأوقفت بناء السفن، وأمرت بعودة السفن التي كانت تخدم في جلب النفائس. ولم يمض علي ذلك نصف قرن حتي تدافعت دول أول أوروبا الغربية إلي المشرق لتقيم مستعمرات لها، وذلك من خلال التنافس في أنشطة الملاحة في مختلف المحيطات. فكان أن طغي البرتغاليون وبغوا في المحيط الهندي حيث سلبوا ونهبوا ما وجدوه من سفن عربية وهندية، واحتلوا جزيرة سقطرة عند مدخل البحر الأحمر ومضيق هرمز عند الخليج العربي، وأدي ذلك إلي قطع الإتصالات البحرية بين الدول العربية والصين.

وقد اضطلع جينغ خه برحلاته الإستكشافية البحرية السبع في الفترة من1405 إلي1433، وكانت تواريخ تلك الرحلات السبع علي النحو الآتي:

- الرحلة الأولي (1405- 1407)، والثانية (1407- 1409)، والثالثة (1409- 1411)، والرابعة (1413- 1415)، والخامسة (1417- 1419)، والسادسة (1421- 1422)، والسابعة (1431- 1433).

وتجدر الإشارة إلي أن ماهوان عمل مترجما في الرحلة الثالثة، ثم شارك في الرحلة الرابعة التي كانت أول رحلة بالنسبة له، ناهيك عن الرحلتين السادسة والسابعة.

4. عود علي بدء: الرحالة والمترجم ماهوان:

- ربما كان ماهوان دون الخامسة والعشرين من عمره عندما تسلم أول تعيين له في أسطول الأميرال المسلم الصيني جينغ خه في عام 1413، ومن الأرجح أن عمره كان يناهز الثمانين عامًا عندما نشر كتابه "مشاهدات رائعة وراء البحار الشاسعة" في عام 1451م.

- ينحدر ماهوان من أسرة تنتمي إلي الطبقة الدنيا في المجتمع، ومع ذلك التحق بالمدرسة ونال حظًا وفيرًا من التعليم الجيد تجلي في ثنايا كتابه المذكور آنفًا من اطلاعه علي الكلاسيكيات الصينية والكتب البوذية، ناهيك عن نظمه للشعر. وعالم الصينيات الفرنسي Paul Pelliot (1878- 1945) وهو المستشرق المشهور بجهوده في الإكتشافات في آسيا الوسطي- يري أن ماهوان يتحلي بالمهارة والكفاءة حيث كتب "مقدمة" كتابه في عام1416.

- وفي الحقيقة نفتقر إلي تاريخ اعتناق ماهوان الإسلام، كما لا نعلم شيئًا عن المناصب والوظائف التي تولها، وعندما كان شابًا يافعًا صادف شخصًا كان يعلمه ويرشده في مخطوطة مكتوبة باللغة العربية أو الفارسية. وربما كانت "المخطوطة العربية المحرفة

للبحاره والتجارة" التي كانت تستخدم في الأغراض التجارية من الصين إلي البحر الأحمر في عصر الرحالة الإيطالي ماركو بولو، ثم أصبح ماهوان مترجمًا ضليعًا وكفؤًا، وتم تعيينه مترجمًا رسميًا ضمن موظفي الأميرال جينغ خه الذي تسلم مرسومًا إمبراطوريًا في عام1412 للقيام برحلة بحرية بلغت أقصي مدي لها إلي هرمز للمرة الأولي. وكان ذلك بمثابة الرحلة الأولي للمترجم ماهوان من الرحلات البحرية الثلاث التي رافق فيها جينغ خه والتي زار خلالها الكثير من الاقطار الأجنبية، وقد بلغ من العمر ماهوان آنذاك اثنين وثلاثين عامًا.

- قام ماهوان وزميله(كواتشون) برحلات داخلية في الأراضي والبلدان التي قاما بزيارتها، وسجلا ملاحظاتهما ومشاهداتهما واحتفظا بها لحين عودتهما إلي الصين. ومن أهم الأماكن التي جاءت في مذكراتهما: شامبا، جاوة، بالم نبغ (عاصمة مقاطعة سومطرة جنوب أندونيسيا)، وملاكا، وسيلان، ولاكتا، وهرمز.
- عندما عاد إدراجه إلي الصين في عام1415، قام ماهوان بترتيب وتنسيق مذكراته ومدوناته أثناء رحلاته مع زميله(كواتشون)، وأكمل كتابه وكتب مقدمته وأشعار المقدمة في عام1416، كما التزم زميله في كتاب ماهوان تسجيل مشاهداته في البلدان الأجنبية، ولم يدخرا وسعًا في نشر المعرفة والعلوم التي حصلا عليها عن الأحوال في أعالي البحار.
- لم يستطع ماهوان المشاركة في الرحلة الخامسة(1417- 1419) لأسباب غير معروفة، بيد أنه لحق بركاب الرحلة السادسة(1421- 1422) ومن بين البلدان والأماكن التي زارها: ملاكا، وسيمدرا، وسيلان، وكلكتا، وهرمز، ورما زار ظفار(عُمان) وعدن. وكان ذلك بمثابة الرحلة الثانية لماهوان تحت قيادة جينغ خه، وبعد أن عاد في عام 1422 أضاف إلي كتابه مشاهداته وأوصافه بشأن ظفار وعدن. وربما بعد عام 1424، توقع أن رحلاته إلي "البلاد الغربية" قد وضعت أوزارها، ولاسيما بعد أن قام الإمبراطور هونغ شي

بوقف بناء السفن البحرية. ولكن في عام 1430م أصدر الإمبراطور شوان دي مرسومًا إمبراطوريًا ينص علي استئناف الرحلات البحرية. ويتولي الأميرال جينغ خه دفة أسطول الرحلة البحرية السابعة، وهي آخر تلك الرحلات، واستمرت من1431- 1433. وكان ماهوان من المشاركين في الرحلة السابعة التي قادت قدماه إلي مكة المكرمة.

- وفي هذه الرحلة البحرية السابعة: أبحر ماهوان في أسطول تابع لأسطول جينغ خه تحت قيادة المخصي هونغ باو، مخر عباب البحر مباشرة من الصين إلي البنغال التي زارها، ثم سافر من شيناجونج (ميناء في جنوب شرق بنجلاديش) إلي سونارجون بالقرب من دكا العاصمة، ومنها إلي جاور ثم أبحروا من البنغال إلي قالقوط، ومن المرجح أن ماهوان كان واحدًا من المبعوثين السبعة الذين اختارهم هونغ باو للسفر إلي مكة انطلاقًا من قالقوط، ولأنه كان مسلمًا. فقد كان يتوق إلي زيارة الكعبة وتأدية مناسك الحج، ووصف مكة في كتابه وفي المقدمة- وكان يكتب ويتحدث انطلاقًا من خبرته وتجاربه الشخصية، وذلك يدحض ما ذهب إليه السياسي الهولندي Wijnand Duyrendak أن ماهوان لم يسافر إلي مكة.

- وفي ملاكا انقسمت الأساطيل الصينية الإمبراطورية كما هي العادة، فتوجه بعضها إلي البنغال، وبعضها الآخر إلي أفريقيا أو ساحل الهند الغربي. وفي عام1413 أبحر قسم من الأسطول الذي فيه ماهوان باتجاه شمال الغربي بين سومطرة وشبه جزيرة ملاوي، متوقفًا في ميناءين. ولم تحظ الدويلات الأصغر إلا بالنزر اليسير من الأهمية، إذ لم يأت ماهوان علي ذكرها إلا لماما، فقد كتب أن "بلادهم غير منتجة. وهي منطقة صغيرة".

- نظرًا لأن الرحلة من قالقوط إلي مكة تستغرق ثلاثة أشهر، كما أن انقضاء عام قبل عودتهم إلي الصين في يوليه عام 1433، فإننا نستنتج أنهم غادروا قالقوط في يوليه 1432 تقريبًا، ووصلوا مكة في أكتوبر1432 تقريبًا، ومكثوا هناك أكثر من ثلاثة شهور

حتي يناير1433 تقريبًا، ووصلوا إلي قالقوط في الوقت المحدد للإنضمام إلي أسطول جينغ خه الذي أبحر من هناك في التاسع من شهر إبريل. وكان ذلك بمثابة الرحلة الثالثة والأخيران لماهوان، وقد قدمت له فرصة سانحة لزيارة ظفار وعدن، ومن أترابه في تلك الرحلة: في شين، وقونغ تشن.

- لم يزر ماهوان شرق أفريقية، ولكنه زعم أنه زار عشرين دولة أفريقية منها12 دولة ذكرها، أما زيارته لكل من: آرو(ديلي)، وميلبار، وكوكشين، وجزر المالديف كانت في الفترة من 1414- 1415 أو من 1421- 1422. أما زيارته للدول الأربع الأخري وهي تايلاند، ونانجور، وكويلون، لا توجد لدينا معلومات مؤكدة أو موثوق بها.
- بعد أن عاد إلي الصين في عام 1433، أضاف ماهوان في كتابه ما شاهده بأم عينه في مكة وقدم أحوالها وملامحها ومعالمها في ذلك الوقت.

5. ماهوان في الرحلة البحرية الرابعة: مشاهدات ومدونات:

في عام1433 أبحر أسطول صيني مهيب يعود لعائلة مينغ الإمبراطورية، وكان يضم سبعة وخمسين مركبًا- بعضها أطول من 200 قدم- من المرافئ المرتبطة بنانجين عاصمة الإمبراطورية. كانت أكبر المراكب تدعي "سفن الكنز" بسبب الكميات الهائلة من البضائع الصينية التي كانت تحملها، والكنوز التي كانت تجلبها عائدة من الأماكن النائية عن طريق التجارة والخراج. وكان في الأسطول مراكب تحمل جيشًا يزيد على عشرين الفا من المقاتلين، ومراكب تحمل الخيول وأخري تحمل الماء فقط. وقاد هذا الأسطول جينغ خه وهو أحد مخنثي البلاط من ذوي الشأن والسلطة، وأحد أمناء سر الإمبراطور.

كان من بين أولئك علي متن هذه المراكب التي أبحرت من نانجين شخص يدعي "ماهوان"؛ لم يكن من النبلاء أو خاصة الملك، بل كان رجلًا بسيطًا، وربما كان موظفًا ذا

رتبة دنيا. وكان عمره يناهز32 عامًا، وكان مسلمًا، ويعرف العربية قراءة وكتابة. وكان مثل سائر الرجال علي متن المراكب- سيغيب عن موطنه وأهله أكثر من عامين.

كان ماهوان في البعثة الإمبراطورية الرابعة(1413- 1415) التي أبحرت من الصين جنوبًا وغربًا عبر المحيط الهندي. وكحال أساطيل الإمبراطور السابقة، أبحرت هذه البعثة في أشهر الخريف لكي تستغل رياح المنسون السائدة[1]. وسار هذا الأسطول بمحاذاة ساحل الصين في اتجاه الجنوب الغربي عشرة أيام وصولًا إلي مملكة **شامبا**(Champa) في الجزء الأوسط مما يعرف اليوم بفيتنام.

ومنذ انطلاق الرحلة دوّن ماهوان بدقة ملاحظاته حول اللباس والعادات والحياة كما رآها بأم عينه وتتسم مذكراته في هذا الخصوص بالأهمية الكبري. فقد كان ماهوان قد قرأ أدب الرحلات الصيني السابق وعرف ما هو متوقع منه. حتي أنه سرد الكثير والعديد من الموضوعات في مذكراته مثل: المناخات، ووصف التضاريس... مظاهر الناس.. العادات المحلية... المنتجات الطبيعية والحدود.

---

(1) مصطلح "**المونسون**" هو في الأصل أخذ من الكلمة العربية "موسم" وسمي باللاتينية "مونسون"، واستخدمت كلمة موسم لأول مرة لوصف الرياح التي تهب علي بحر العرب حيث كانت تهب من جهة الشمال الشرقي عادةً بين شهري أكتوبر وابريل ويبرز نشاطها في شهر يناير بينما في الفترة ما بين ابريل وسبتمبر يحدث العكس حيث تهب من الجنوب الغربي باتجاه الشمال الشرقي. ويعتبر شهر يوليو الأكثر نشاطًا لتلك الرياح كما يعد شهري أكتوبر وسبتمبر من أشهر الفترة الإنتقالية ما بين الصيف والشتاء. هذه الرياح سبقنا بمعرفتها العرب والعمانيون بشكل خاص قديمًا حيث كانوا يستخدمونها في الإبحار بسفنهم الشراعية المسماة بـ "الدهو" فكانت المونسون تدفعهم من جهة الجزيرة العربية أو الخليج للوصول لسواحل أفريقيا الشرقية، وكان لنشاط الرياح أثر واضح في تحديد سرعة وصولهم لتلك المناطق فكانوا يعرفون فترات نشاطها وهدوئها حيث كانوا يستغرقون 30- 40 يومًا في فترات الهدوء بينما في فترات النشاط تتروح المدة بين 25- 20 يومًا.

وفي شامبا: لاحظ ماهوان أن المناخ **"حار مريح وليس هناك انجماد أو ثلج، فهو دائمًا يشبه جو الشهر الرابع والخامس. والأشجار والنباتات دائمة الخضرة".**

وأعد ماهوان قائمة بالمواد التجارية التي يرومها شعب شامبا من الصين مثل: **"الأطباق والزبادي وأنواع أخري من الخزف الصيني الأزرق، وشاش الحرير وحرير القنب والخرز ومواد أخري مماثلة".**

وتحري ماهوان الناس العاديين في ميناء شامبا، ووصف عاداتهم. فبعد الزواج مثلًا: **"يزف والدا العريس مع أقربائهما وأصدقائهما الزوج والزوجة علي وقع أصوات الطبول والموسيقي، عائدين إلي بيت الأب، ويجهزون الخمر ويعزفون الموسيقي".**

كما أشار ماهوان إلي أن الأحكام القضائية في شامبا قاسية: "فهم يجلدون أصحاب الجنح البسيطة بالخيزران علي ظهورهم، أما بالنسبة إلي أصحاب الجنايات الكبيرة فإنهم يجدعون أنوفهم".

ولاحظ ماهوان عدم وجود ورق في شامبا. لذلك يستخدم الناس لحاء الشجر المردوس أو جلد الماعز للحسابات أو الكتابات الأخري.

وفي جاوة: كتب ماهوان عن أنواع البيوت، ولباس الملك وحاشيته والفرص التجارية. فقد لاحظ ماهوان أن ملك الجاويين وخاصته **لا يرتدون أثوابًا خلافًا لملك شامبا، بل يلفون أجسادهم بالحرير من الوسط إلي القدمين ليس إلا. ويمتشق الرجال بدءًا بالملك فما دون، خنجرًا مثبتًا في نطاق من الرداء نفسه.**

وفتئت ملاحظاته ومشاهداته تمتع وتدهش في وصف أنواع البيوت في جاوة إذ كتب يقول: **"البيوت مبنية علي شكل طوابق، كل طابق منها ارتفاعه زهاء أربعين قدمًا يفرشونها بالألواح ويغطونها ببسط من الخيزران الرفيع، أو ببسط عشبية ذات أنماط، يجلس عليها الناس محتبين. ويغطون سطوح المنازل بألواح من الخشب الصلب كبلاط، ويقطعون الخشب على شكل أسقف".**

وكانت جاوة الساحلية هي أول مكان حدده ماهوان كمكان يقيم فيه الصينيون الذين قدموا عبر البحار، وكونوا مجتمعًا هناك. وتوبان هو إسم الحي حيث تقطن ألف عائلة أو يزيد ويحكمها قائدان. ولقد قدم الكثير من هؤلاء الناس من إقليم قوانغدونغ Guangdong.

وبعد التوقف في سومطرة حيث وجد ماهوان مجتمعات صينية تجارية أخرى، أبحر الأسطول شمالًا على إمتداد ساحل شبه جزيرة مالاوي الشرقي، إلى حيث ما يعرف اليوم بتايلاند. كانت العاصمة أيوثيا (Ayuthia) قريبة من موقع مدينة بانكوك الحديثة. ولاحظ ماهوان أن ممارسات الرهبان والراهبات البوذيين التايلانديين تشبه، على نحو ما تقاليد، الأديرة البوذية في الصين.

أبحر الأسطول ثانية من أيوثيا عبر شبه جزيرة مالاوي إلى ميناء ملاكا، القريبة من سنغافورة في الوقت الحاضر. وكانت ملاكا، التي أنشئت في وقت ما بين 1375-1400 تقريبًا، النجم الصاعد في مرافيء القسم الغربي من جنوب شرق آسيا، ونقطة تحويل البضاعة الرئيسة بين المحيط الهندي والطرق المائية في جنوب شرق آسيا. وقد دوَّن ماهوان أن ملاكا كانت تحكمها تايلاند سابقًا، إلا أن أحد الملوك المحليين أكد إستقلالها.

والجدير بالذكر كان ملك ملاكا يتبرم بالهيمنة الصينية. فقد كان قد دخل الإسلام حديثًا، ولبس زيًا عربيًا كما أشار ماهوان. إذ "استعمل قماشًا أبيض راقيًا مستوردًا لعمامة حول رأسه، ولبس رداء طويلًا من قماش أزرق ذي نقش حسن، وعلى طراز الثوب وكذا لبس حذاء جلديًا". وقد كانت مثل هذه الثياب مألوفة لدى أغلب الرحالة مثل الدبلوماسي ابن فضلان، وتاجر الفلفل أبراهام بن يجو، والفيلسوف ابن سينا والقاضي ابن بطوطة.

الأسطول البحري الصيني ينأى عن جزيرة سومطرة، ثم يتجه غربًا عبر جزر أندمان (Andaman) إلى سيرلانكا. وعلى الرغم من أن الأسطول الصيني يضم جيشًا قوامه يزيد

على.عشرين ألف رجل، وقد يحوي قسم الأسطول، الذي أقل ماهوان 6 آلاف جندي، لكن لم يسجل وقوع أية معارك. فلم يهاجم الأسطول أو يسلب أي مرفي. وفي سيرلانكا، كما هي الحال في جميع نقاط التوقف الأخرى، كان هدف الأسطول ترهيب الدويلات المحلية والإقليمية وليس مهاجمتها. إلا أن الصينيين قد استعملوا قوتهم العسكرية في بعض الأحيان. وقد ظل الملك السيرلانكي تابعًا ثابتًا للصين. ويقول ماهوان عنه أنه "بعث، بمواظبة، رجالًا يحملون العطايا من الأحجار الكريمة وأشياء أخرى مماثلة، رافقوا سفن الكنز العائدة من المحيط الغربي. وحملوا الخراج إلى الدولة المركزية؛ أي الصين".

الأسطول الصيني يمخر عباب البحر غربًا من سيرلانكا ودار حول الرأس الجنوبي للهند ثم إلى ميلبار. وكان ماهوان يدرك جيدًا أن هذا الساحل الخصيب، المليء بأشجار جوز الهند، هو أرض الفلفل. وكتب ماهوان يقول عن هذه البلاد:

"ليس لهذه البلاد أية منتجات أخرى، عدا أنها تنتج الفلفل فقط. فالناس يقيمون في الأغلب، حدائق لزراعة الفلفل كي يكسبوا عيشهم. وفي كل عام عندما ينضج الفلفل يقوم أكبر جامعي الفلفل في المنطقة بشراء وتشييد مخازن لخزنه ثم ينتظرون حتى يأتي التجار الأجانب من مناطق مختلفة لشرائه".

وحول كيفية تحديد الأسعار في ميلبار بلاد الفلفل، يقول ماهوان:

"بداية يقوم وكيل الملك وكبير التجار في الأسطول بفحص الحرير الصيني والبضائع الأخرى ويصطلحون على تاريخ لتحديد الأسعار. ويقوم الكل في ذلك اليوم بشبك الأيادي ويتفقون أنهم لن يتراجعوا عن السعر أو يغيروه سواء كان مرتفعًا أو بخسًا. وبعدها يجلب تجار المدينة البضائع النفيسة مثل اللؤلؤ والمرجان. ولا يمكن تحديد أسعارها في يوم وحسب، وإذا ما تم ذلك بسرعة، فإنه يتطلب شهرًا أو شهرين أو ثلاثة. ثم تتم كل متاجرات الأسطول اللاحقة بناء على هذه الأسعار المحددة".

وفي المالديف (Maltive): يخبرنا ماهوان أن السلعتين المهمتين في المالديف كانتا الودع، ويستعمل كعملة ثانوية، وجوز الهند. وعن صناعة القوارب المغزولة الشائعة على إمتداد المحيط الهندي يقول:

"تحول الألياف التي تغلف جوز الهند إلى حبال سميكة حسنة الصنع، ويأتي الرجال من كل حدب وصوب على متن السفن لشرائها أيضًا... وهم لا يستخدمون المسامير أبدًا في بناء سفنهم الأجنبية، بل يقومون بعمل ثقوب فيها مستعملين هذه الحبال لربط الألواح بعضها ببعض".

وقد زار ابن بطوطة جزر المالديف قبل قرن من زيارة ماهوان لها، وهي جزر تقع حيال الساحل الغربي للهند، وكانت في ذلك الوقت حديثة الدخول في الإسلام. وقد عنّف النساء اللواتي كن كاشفات للجزء العلوي من أجسادهن واحتجّ علي ذلك. وبدورهن ضحكن منه. وفي زمان ماهوان كانت الحشمة الإسلامية قد سادت. ويقول ماهوان عن الزي الاسلامي للنسوة في المالديف:

"ترتدي النساء رداء قصيرًا يغطي الجزء العلوي من الجسم؛ ولكن أيضًا يلفُفن الجزء السفلي منه أجسادهن بمئزر. وأيضًا يضغن وشاحًا عريضًا وكبيرًا فوق الرأس، فيعطيه مظهرا الوجه فقط".

6. ماهوان يزور "الكعبة المشرفة" ويصف "مكة المكرمة":

كانت هناك بعثة بحرية أخري عام 1431م، ومرة أخري كان ماهوان علي متن الأسطول مترجمًا للغة العربية.

ظهرت السفن الصينية منذ أقدم العصور في مياه الملايو، كما كانت تظهر بين حين وآخر بالموانئ الهندية. غير أن التوسع الصيني البحري المنظم نحو الجنوب لم يبدأ إلا في الإمبراطورية مينغ. ففي حكم الإمبراطور يونغ له من سلالة مينغ جهزت حملات بحرية

متعاقبة بقيادة قائد بحري عظيم اسمه جينغ خه، وهناك واصف واف لرحلات ذلك القبطان في البحار الجنوبية خلفه لنا خصى اسمه ماهوان كان يصحب الحملة ويعمل معها مترجمًا.

وعندما خرج تشينغ خه في آخر رحلة إلي المحيط الهندي، فصل بعض القطع من أسطوله في عام 1432 لتصل إلي كوزكود (kozhikode) الواقعة علي الساحل الجنوبي الغربي من الهند، حيث اختار هونغ باو أحد المشرفين علي شؤون البلاد الداخلية سبعة رجال من بينهم المأذنون والمترجمون، ثم استقل هؤلاء الرجال السبعة سفينة كوزكودية متجهين إلي مكة، ومعهم المسك وأدوات من الخزف الصيني، واستغرقوا في هذه الرحلة سنة كاملة ذهاباً وإيابًا. وتمكنوا خلال ذلك من شراء ألوان من النفائس علاوة علي الزرافة والجمل والأسد والنعامة.....إلخ، كما رسموا نسخة من صورة "الجنة" التي عادوا بها إلي العاصمة. ولما وصلت هذه الفصيلة من أفراد البعثة الصينية إلي مكة، أولاهم سلطانها كامل العناية والاهتمام حيث وضع راحة يده علي جباههم، ولامس هامات رؤوسهم واحدًا.بعد الآخر. وأرسل وفدًا يرافق هذه البعثة الصينية في زيارة رسمية إلي الصين، ومعه من الهدايا زرافة وفيل وخيل وبعض المنتجات المحلية. ولما وصلوا إلي بكين، خرج الامبراطور شوان دي(宣德 -1426-1435) إلي بوابة فنغ تيان لاستقبالهم باعتبارهم ضوفيًا كرامًا للبلاد، ثم تسلم الهدايا منهم في غبطة وسرور، وأغدق هو الآخر عليهم نصيبًا وافرًا جدًا من الهدايا الجوابية.

وتجدر الإشارة إلي أن الصينيين كانوا يسمون الكعبة في مكة المكرمة باسم "الجنة"، فصورة "الجنة" التي سبق ذكرها هي صورة هذه الكعبة. وما دام هناك مترجمون بين الرجال السبعة من فصيلة أسطول جينغ خه، فمن المرجح أنه كان بينهم مسلمون. **وإن وفدًا صينيًا مثل هذا قام بأول زيارة للكعبة في مكة، من ثم عاد بصورتها إلي إمبراطور الصين، وهذا أمر له أهميته العظيمة في تاريخ العلاقات العربية- الصينية.**

وقد سبق لمكة أن أوفدت إلي الصين أكثر من عشرين بعثة. وكان من بين الهدايا التي حملوها إلي أسرة مينغ اليشب والمنسوجات الصوفية والمرجان والسكاكين المنحوتة من عظام السمك علاوة علي الجمل والخيول العربية الأصيلة. وقدمت أسرة مينغ لها بالمقابل هدايا من ضمنها ثياب مزخرف بتصاميم البواء(الثعبان) والتنين منسوجة بخيوط ذهبية ومسك وأدوات ذهبية وفضية.

وصف [مكة] في مادة [مكة] في كتاب: "مشاهدات رائعة وراء البحار الشاسعة" تأليف: ماهوان، تحقيق وشرح: فنغ تشينغ جيون، دار الصين، بكين، عام1955.

جاء وصف مكة في الصفحات 69، 70، 71 من الكتاب المذكور آنفًا علي هذا النحو:

تدير دفة السفينة من قالقوط في اتجاه الجنوب الغربي، وبعد ثلاثة أشهر تصل إلي جدة، ومن هناك يمكن أن تصل إلي مكة في غضون يوم واحد. وهنا تأسس الدين الإسلامي الذي يعتنقه جميع القاطنين ويتمسكون بتعاليمه. ويتحدثون اللغة العربية وأقاموا مجتمعًا سعيدًا ويخضع للتعاليم والشرائع وطقوس الزواج والجنازة حسب الدين الإسلامي. وهناك المسجد العظيم حيث الباحة السماوية.العطرة وهي "الكعبة" ويقصدها المسلمون من البلدان الإسلامية الأخري لتأدية فريضة الحج كل سنة، وكل حج ينزع قطيعة من الحرير(كسوة الكعبة) كتذكار، ويوجد قبر إسماعيل علي مقربة من الكعبة. وينطلق الآذان للصلاة من أربعة أبراج بالمسجد.

والملك يصك عملة من الذهب الخالص تسمي " تانكا " (Tanka) وفي المدينة يوجد قبر الرسول محمد ﷺ وبئر زمزم.

وفي الرحلة البحرية السابعة بقيادة جينغ خه في عام1430، أمر المخصي رفيع المقام هونغ باو بتقسيم الأسطول البحري في قالقوط، وإرسال بعثة قوامها سبعة أشخاص للقيام بزيارة مكة حيث اشتروا المنتجات والسلع النادرة. وأعرب ملك مكة عن تقديره واحترامه للبلاط الإمبراطوري الصيني.

هذا البلد هو بلد الذي تقع فيه مكة[2](Mecca- Makka). والإبحار من بلد قالقوط وتتجه إلي

الجنوب الغربي(نقطة شين Shen في البوصلة)[3]. وتمخر السفينة عباب البحر لمدة ثلاثة أشهر[4]، ثم تصل إلي مرسي السفن في البحر في ذلك البلد الذي يطلق عليه الاسم الأجنبي "جدة"[5] وهناك مسؤول رفيع المستوي يحكمها. ومن جدة تتجه صوب الغرب[6]، وبعد السفر لمدة يوم واحد تصل إلي المدينة حيث مقر إقامة الملك[7]. وعاصمة المدينة تسمي "مكة".

---

(2) يطلق الصينيون عليها اسم "تيان فانغ" بمعني الكعبة أو "البيت المكعب". ومكة هي المدينة المقدسة للإسلام يقصدها جميع الحجيج من كافة أنحاء العالم، تقع علي بعد 55 ميلًا تقريبًا شرق ميناء جدة، ويطلق علي المنطقة بأسرها أسم "مكة" وتمتد إلي أكثر من 300 ميل شمال المدينة Madina، كما تبعد المسافة ذاتها عن جنوب ميناء جيزان. وشريف مكة المكرمة كان في ذلك الوقت تابعًا لسلطان مصر وليس شخصية سياسية ولا يمتلك ثمة تأثيرًا سياسيًا، بيد أنه يضطلع من- الناحية النظرية- بالسيطرة علي منطقة الحجاز. والبلد ليس له أي أهمية اقتصادية، ولكن موسم الحج أوجد فرصة سانحة للتبادلات التجارية الضخمة.

(3) ماهوان ليس دقيقًا هنا حيث أن كلمة "شين" تشير إلي 240، والجنوب الغربي 225، كما أن الإتجاه من قالقوط إلي رأس عسير في الغرب وليس الجنوب الغربي.

(4) المسافة كانت حوالي 2500 ميل بحري، ولذا فإن معدل قطع المسافة في اليوم الواحد يكاد أن يناهز 26 ميلًا بحريًا.

(5) لم تكن جدة ميناء لمكة فقط، بل كانت معلمًا للأسطول الهندي ووجوده وأصبحت السوق التجاري الذي يتسم بالأهمية القصوي.

(6) ماهوان ليس دقيقًا، والصواب أن تسافر صوب الشرق من جدة إلي مكة.

(7) عندما سافرت البعثة الصينية من قالقوط إلي مكة في عام1432، كان شريف مكة بركات بن حسن الذي حكم من1425 إلي 1453. وكان يتسلم الوثيقة الرسمية الخاصة بتعيينه وشارة التكريم من مصر كل سنة.

وهم يعتنقون الدين الإسلامي. وقام الرجل العظيم[8]- أولًا- بنشر تعاليم مذهبه في ذاك البلد، وإلي يومنا هذا، فإن سكان ذاك البلد يتمسكون- بكل ما تحمل الكلمة من معني- بقواعد وإرشادات تعاليمه في أعمالهم ولا يتجاسرون علي اقتراف أدني(أقل) مخالفة أو انتهاك.

وشعب ذاك البلد شديدو البأس، وطلعتهم بهية، وأوصالهم ووجوههم شديدة السواد.

الرجال يعصبون رؤوسهم، ويرتدون أسمالًا بالية، وفي أقدامهم أحذية جلدية. وترتدي النسوة كلهن غطاء قماشيا فوق رؤوسهن ولا يمكن أن تري وجوههن.

ويتحدثون اللغة العربية(A- la- pi). وقانون البلد يحظر احتساء الخمر وعاداتهم سلمية وتحظي بالإعجاب. ولا توجد أسر يدهمها الفقر. ويطيع الجميع تعاليم وإرشادات دينهم، وهناك قلة قليلة تخالف القوانين. وفي الواقع أنها البلد الأكثر سعادة.

أما بخصوص الزواج والجنازة، فإنهم يتصرفون حسب الشرائع والقوانين في ديانتهم.

وإذا سافرت إنطلاقًا من هناك في رحلة تستغرق أكثر من نصف يوم، ستصل إلي المسجد الحرام مسجد الباحة السماوية، والاسم الأجنبي لتلك الباحة هو "الكعبة".

ويحوطها سور في الخارج يشتمل علي466 فتحة، وعلي جانبي الفتحات توجد أعمدة من اليشب الأبيض يبلغ عددها جميعًا467 عمودًا موزعة علي النحو التالي:

في الأمام99، وفي الخلف101، وفي الجانب الأيسر132، وعلي امتداد الجانب الأيمن يوجد 135 عمودًا.

---

(8) هو الرسول محمد ﷺ مؤسس الإسلام – ولد في مكة في عام 570 ميلادية، وبعد أن نشر الإسلام هناك من سنة 612- 622، هاجر إلي المدينة في15 يوليه 622م، وهو تاريخ الهجرة وتدشين حقبة التاريخ الهجري للمسلمين.

والردهة(الباحة) تم بناؤها بطبقات من الأحجار ذات الألوان الخمسة، وشكلها مربع، وأعلاها مستوٍ. وتوجد أعمدة في الداخل تشكل خمسة من الدعامات الأفقية الرئيسة من الخشب الزاخر بالرائحة الذكية، بالإضافة إلي رف مصنوع من الذهب الأصفر لتلقي ما يتقطر من الشموع عند إحراقها[9]. والجدران داخل الردهة بأسرها مصنوعة من مادة الصلصال المختلط بماء الورد والعنبر ومشبعة بعبق الرائحة العطرة الدائمة، ويكسوها الحرير الأسود من أعلي إلي أسفل(الكسوة - Kiswa- كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان). وهناك أسدان لونهما أسود يقومان علي حراسة الباب[10].

وفي اليوم العاشر من الشهر الثاني عشر الهجري، يقصد المسلمون من سائر الدول الأخري تلك الردهة(الكعبة) للعبادة ويتحملون المشاق والصعاب، وفي أقصي الحالات قد يقطعون رحلة طويلة تستغرق سنة أو سنتين، وكل حاج يقطع قطعة من كسوة الكعبة الحريرية ويتخذها كتذكار قبل المغادرة. وحينما يتم تقطيع أوصال الكسوة قطعة تلو الأخري من جانب الحجيج، يقدم الملك كسوة أخري قد تم تجهيزها مسبقًا، ويحدث ذلك مرارًا وتكرارًا، وسنة تلو الأخري بصورة مطردة ومستمرة وبلا انقطاع.

وفي الجانب الأيسر(للكعبة) يوجد قبر سيدنا إسماعيل ومبنيّ من الأحجار الكريمة الخضراء، ويبلغ طوله12 قدمًا، و2 بوصة، وارتفاعه 36,7 بوصة، وعرضه61,2 بوصة،

---

(9) وصف ماهوان يختلف في مواضيع عديدة عن وصف الكعبة من قبل الرحالة العربي ابن بطوطة الذي لم يشر إلي الرائحة الذكية العطرة. ولكن علمنا أنه في الغسيل السنوي للكعبة في عام1398 كانت الجدران مطمورة بالزبّاد(طيب يخرج من بعض غدد سنور الزباد) والمسك والعنبر، والجزء العلوي من الكعبة تفوح منه رائحة الزبّاد.

(10) هنا اشارة إلي الأسدين فقط، مما يعد هذا الأمر غير مفهوم تمامًا، ومن الصعب جدًا أن نصدق أو حتي نفكر أنه توجد أسود حية أو تماثيل أسود في مثل هذا المكان المقدس.

والسور المحيط بالقبر مشيد من طبقات من أحجار الزبرجد من اللون الأرجواني ويصل ارتفاعه إلي أكثر من 61,2.

وداخل جدران المسجد شُيدت أربعة أبراج في الأركان الأربعة، ويصعدون إليها من أجل العبادة ودعوة المصلين وإنشاد الترانيم الدينية. وعلي الجانبين الأيمن والأيسر توجد صالات للوعظ حيث يقوم كل واعظ بتقديم النصح والإرشاد إلي مريدية اتباع مذهبه. وتلك الأبراج مشيدة من طبقات من الأحجار ومزينة ومزخرفة بصورة تجعلها الأكثر جمالًا[11].

وصف الأحوال المناخية في مكة:

أثناء الفصول الأربعة يكون الجو دائمًا حارًا مثل الصيف. ولا يوجد مطر ولا برق، ولا صقيع أو ثلج. وفي الليل يكون الندي كثيفًا جدًا، والنباتات والأشجار جميعها تعتمد علي ماء الندي في النمو، وإذا وضعت في الليل إناء فارغًا يتلقي ماء الندي حتي انبلاج النهار، فإن عمق ماء الندي سيكون 0.3 بوصة في الإناء.

وجاء في مادة البلاد العربية أن دولة (Tianfang) أي(الكعبة السماوية) هي مكة التي يدين سكانها بالإسلام، والتي بدأ فيها النبي محمد الدعوة إلي الإسلام، وأن "لغة هذا البلد هي اللغة العربية، ونظامها يحرم علي سكانها شرب الخمر، ولأهلها عادات طيبة وتقاليد حميدة، ومسجد الجنة يسمي الكعبة... وفي اليوم العاشر من ذي الحجة من كل عام يتوافد إليه المسلمون من مختلف البلدان، حتي ولو استغرق سفرهم سنة أو سنتين، ليؤدوا فيه مناسك الحج".

---

(11) ربما اختلط الأمر علي ماهوان وكان مشوش الذهن حيث المكان المرتفع الذي يطلق عليه "مقام إبراهيم" محاط بأربعة مقامات أخري، مقام في كل جانب من الكعبة لأصحاب المذاهب الأربعة(الحنفية، والحنبلية، والمالكية، والشافعية) يعظون فيها مريديهم وأتباع مذهبهم.

"والجو حار طيلة العام، حيث لا مطر ولا برق ولا صقيع ولا ثلج، لكن الندي الكثيف هو الذي يروي النبات ويغذيه".

أما بخصوص المنتجات الزراعية:

هناك ندرة في الأرز والحبوب. وهم يزرعون بعض الأشياء مثل: الأرز غير القشري، والقمح، الدخن، اليقطين، والخضروات. كما يوجد لديهم البطيخ والشمام، وفي بعض الحالات، يتطلب الأمر الحاجة إلي رجلين ليحمل كل رجل حبة فاكهة. ولديهم أيضًا نوع من الشجر ذي الأزهار الملفوفة يشبه أشجار التوت في الدولة المركزية (الصين)، يبلغ ارتفاعه10 قدم + 2 بوصة، أو عشرين قدم + 4 بوصات (3.11 متر أو 6.22 متر)، وتتفتح الأزهار مرتين في السنة وأنها معمرة طويلًا بدون أن تذبل. وهناك أيضًا فاكهة وخضراوات مثل: السلجم + البلح الفارسي + الرمان + التفاح + الكمثري الضخمة + الخوخ، وبعضها يبلغ وزنه أربعة أو خمسة تشين(تشين = 596.80 جرام).

وتوجد لديهم بأعداد وفيرة الجمال + الخيول + القردة + البغال + الثيران + الماعز + القطط + الكلاب + الطيور + الإوز + البط + الحمام. وبعض الطيور والبط تزن أكثر من عشرة تشين(تشين = 596.80 جرام).

كما تنتج الأرض ماء الورد، واللبان، والأسود والنعامة، والظباء، كل أنواع الأحجار الكريمة، والآلئ والمرجان والكهرمان وغيرها من الأشياء الأخري.

ويستخدم الملك الذهب في صك قطعة نقدية يطلق عليها تانكا(Tanka) والتي تستخدم حاليًا، ويبلغ محيط القطعة 0.8 بوصة، ووزنها 3.73 جرام في الميزان القباني الرسمي، وإن ذهبها أكثر نقاوة بمقدار 20% مقارنة بالذهب في الدولة المركزية(الصين) وإذا كان الذهب خالصًا في مكة، فإن الذهب الصيني حينئذ كان خالصًا ناقيًا بمقدار 83.3%.

وإذا اتجهت صوب الغرب مرة أخري وسافرت لمدة يوم واحد، فأنت تصل إلي مدينة يطلق عليها "المدينة"، وقبر الرسول العظيم محمد يتوسد قلب هذه المدينة، وحتي يومنا هذا ينبثق نورًا ساطعًا من قمة ذلك القبر ليلًا ونهارًا ويتغلغل داخل السحب وهناك بئر خلف القبر عبارة عن نبع ماء صاف وحلو المذاق يسمي بئر زمزم[12]، والناس الذين يسافرون إلي المناطق الأجنبية يأخذون ماء زمزم ويقومون بتخزينها في أركان سفائنهم، وإذا وجهوا التيفون typhoon في البحر، ينثرون ماء زمزم بغرض تهدئة العواصف والأمواج.

في العام1430[13]استلمنا باحترام جم من البلاط الإمبراطوري مرسومًا إمبراطوريًا يفيد بأن المبعوث الرئيس المخصي الأميرال جينغ خه وآخرون يجب عليهم السفر إلي كل الدول الأجنبية لإبلاغ الأوامر الإمبراطورية ومنح الهدايا.

وعندما وصل جزء من الأسطول(قد تم تقسيم الأسطول مسبقًا في قالقوط) إلي البلد (قالقوط)، رأي المخصي المسؤول هونغ باو وهو المبعوث المساعد أن ذاك البلد يرسل أناسًا للسفر إلي هناك، ومن ثم اختار مترجمًا وآخرين، بلغ عددهم جميعًا سبعة افراد وأرسلهم إلي مكة وفي حوزتهم المسك + البورسلين + المنتجات النادرة وغيرها من الأشياء الأخري، وانضموا إلي سفينة تحمل علم قالقوط وسافروا إلي مكة، وقد استغرق ذلك مدة عام ذهابًا وإيابًا.

وقد ابتاعوا كافة الأنواع من السلع غير العادية وذات القيمة النادرة والأسود والجمال وغيرها من المنتجات والأشياء الأخري. وبالإضافة إلي ذلك، رسموا صورة حقيقية وواقعية لـ "الكعبة"، ثم عادوا إدراجهم إلي العاصمة(بكين).

---

(12) القول ان بئر زمزم في المدينة ليس صحيحًا، بل يقع علي مقربة من الكعبة في مكة.

(13) يشير ماهوان إلي الرحلة البحرية السابعة والأخيرة للأميرال جينغ خه والتي استمرت في الفترة من1431- 1433.

كما أرسل ملك مكة مبعوثين الذين جلبوا معهم بعض السلع المحلية وسافروا إلي الصين وقدموا الهدايا للبلاط الإمبراطوري، وكانوا بمرافقة هؤلاء الأشخاص السبعة بما فيهم المترجم وآخرون.

هذه السطور بقلم: ماهوان- الحطاب في الجبال في بلدة هوي جي.

تحريرًا في2 سبتمبر عام1451 ميلادية.

7. أهمية كتاب ماهوان:

1- قدم ماهوان واصفًا كاملًا لسبع دول التي لم يصفها أي كاتب صيني من قبل، وهي: عدن + آرو(ديلي) + كوكشين + ظفار + هرمز + ليد + ملاكا. كان هناك في العالم الغربي وصف لكل من عدن + ظفار + هرمز المسجل برحلات ابن بطوطة في عام1355؛ بالإضافة إلي مشاهدات قليلة لمدينة كوكشين في تسجيلات Conti كونتي المسجلة في عام 1444م.

2- قدم ماهوان معلومات قيمة تعد في غاية الأهمية بالنسبة لنا مثل

- تأسيس مستودع ذخيرة ومعدات عسكرية تابعة للصين في ملاكا.
- قدم أفضل التقارير حول عملية الفضول والاستطلاع التي يقوم بها الشباب الذكور في تايلاند.
- قدم إلينا عددًا من أسماء الأماكن التي لم يذكرها اى كاتب صيني من قبل، مثل: جدة + تايلاند + ملاكا + ناجور + آرو + شيتاجونج وغيرها.
- قدم لنا النطق الصوتي للعديد من الكلمات والتعابير في لغاتها الأصلية والتي لم نجدها في كتب الرحالة الأولين مثل: عربي، بئر زمزم، أنا أمير، مانجو، نقدًا، الكعبة، مكة.

3- اطلع ماهوان علي ما تتميز به البلدان التي وصل إليها من سلوك الإنسان وصفاته وخصائص العادات والتقاليد والمنتجات المحلية وما تنتهجه من أنظمة الحكم، ومن ثم أودع تلك المعلومات بين دفتي كتابه "مشاهدات رائعة وراء البحار الشاسعة". ويكون مصدرًا للمعلومات التي يبحث عنها القراء.

4- يتناول هذا الكتاب عشرين دولة بأسلوب يجمع بين التفصيل والشمول.

5- بالنسبة إلي ماهوان فقد كانت هذه الرحلات أمرًا آخر تمامًا. ومثله في ذلك مثل العديد من الرحالة- مثل ابن فضلان، وابن بطوطة، وشوان تسانغ- إذ فتش ماهوان عن الأنماط والبُني المشتركة بين المعتقدات والعادت الغربية. فقد حلل ما شاهده وحاول تقريب ما رأي وخبر إلي الأذهان. وكانت هناك حاجة دائمة إلي مثل هؤلاء الكُتاب والمترجمين في العالم الآسيوي. إلا أن مذكراته ليست مجرد تقرير عن الدبلوماسية والمنتجات وعجائب المناطق القاصية فحسب.

6- وإذا ما قورنت كتابة ماهوان بكتابات الرحالة في زمانه، فإنها تمتاز بملاحظاته البسيطة غير المنمقة، واحترامه لمن التقي، ووعيه أن ثمة أمورًا في البلدان الغربية لا تختلف اختلافًا كبيرًا عن تلك في موطنه. فقد قارن الألعاب في جنوب شرق آسيا بتلك الموجودة في الصين.

7- وقد وصف ماهوان كثيرًا من الناس بأنهم "نظيفون ومرتبون" ومجدون في تطوير الصناعات المحلية، وأطعمتهم مختلفة غير أنها مثيرة للإهتمام.

8- قد تأثر ماهوان بكيفية قبوله كمسلم في موانئ الشرق الأوسط وأهم من ذلك في مكة. وخلافًا لابن بطوطة، لم يتطرق ماهوان بتاتًا إلي الصراعات المذهبية، أو إلي الرخص الدينية السانحة في الإسلام. فقد كان يكفيه أن يحل بين أخوانه المؤمنين، وأن يكون جزءًا من هذا المجتمع المترامي الأطراف من مكة إلي الصين.

9- تتحدث مقدمة الكتاب عن عودة ماهوان إلي قريته الأصلية وتصفه بأنه رجل قد "دأب علي تنوير الآخرين، ليعرفهم بظروف الأقاليم الغربية". ولذلك تعج مذكرات ماهوان بالإمتنان، لأنه عاشر وتأوّل شعوبًا من خارج الصين، واصفًا كيف عاشوا وتزوجوا ومارسوا معتقداتهم الكثيرة. ولقد تغير ماهوان تغيرًا عميقًا وتأثر بما خبره.

10-أثارت المدينة المقدسة مكة مشاعره. وكتب عن العديد من المواضيع الدارجة: مثل العمارة والفواكه المحلية والخضراوات والمنتجات التجارية. ويقول ماهوان: "عادات الناس وادعة ومثيرة للإعجاب. وهم يلتزمون بكل وصايا دينهم، والمعتدلون قلة. حقًا أنها بلاد سعيدة".

مصادر ومراجع هذا المبحث

(1) ستيوارت غوردن (عندما حكمت آسيا العالم) ترجمة د. زياد المواجه- هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث(كلمة)- الطبعة الأولي1432هـ/ يناير 2011.

(2) باولو سانتانجيلو (إمبراطورية التفويض السماوي)- ترجمة د. ناصر إسماعيل- هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة(مشروع كلمة)، عام2015.

(3) رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار)- شرح طلال حرب، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، الطبعة الخامسة.

(4) ك. م. بانيكار (آسيا والسيطرة الغربية) ترجمة: عبدالعزيز توفيق جاويد، دار المعارف بمصر، عام 1962.

(5) كونراد زايتش (الصين- عودة قوة عالمية) ترجمة: سامي شمعون، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية- دراسات مترجمة(15)- الطبعة الأولي عام2003.

(6) قوه ينغ ده (تاريخ العلاقات الصينية العربية) ترجمة: تسانغ حيا مي- المركز العربي للمعلومات، عام 2004

(7) 马欢（瀛涯胜览）冯承钧校注，中华书局，北京，1955。

(8) 孔远志（东南亚考察论郑和）北京出版社，2008年。

(9) 马骏杰（郑和下西洋）中国财政经济出版社，2017年

(10) 陈达生（郑和与东南亚伊斯兰）海军出版社，2008 年

المبحث الثالث والعشرون

أول ترجمة كاملة لمعاني القرآن الكريم باللغة الصينية لعالم مسلم صيني سنة 1932م

منذ أن أنزل الله سبحانه وتعال كتابه الى سيدنا محمد ﷺ، وكلمات القرآن الكريم وآياته، نقطة اهتمام عالمية تجذب العديد من المؤمنين والمهتمين في كثير من الأمم، وسوف تستمر هذه الحكمة الإلهية إلى يوم الدين.

وقد دفع هذا الاهتمام العالمي بالقرآن الكريم، العديد من شعوب العالم إلى التعرف على معاني هذا الدين، حيث بدأت محاولات شتى في ترجمة القرآن الكريم إلى لغات هذه الشعوب وخلال فترات زمنية مختلفة، أملًا في خدمة الأهداف المتشعبة لكل منها. هذا بالإضافة إلى أن عملية الترجمة نفسها كانت تتعرض إلى انتقادات وآراء بعدم إجازتها، بينما نادت آراء أخرى بإجازتها بهدف إزالة الحاجز اللغوي بين المسلم الذي لا يعرف العربية وبين القرآن الكريم وتعاليمه وعلى أن القرآن الكريم أنزل للعالمين وليس للدائرة العربية فقط.

ولهذا فقد نشطت محاولات الترجمة هذه منذ عهود قديمة استمرت إلى يومنا هذا، وإلى لغات عديدة منها السريانية والفارسية والأردية والبنجالية والكشميرية والهندية والسندية والتاميلية والبنجابية والمالاوية والإندونيسية والصينية واليابانية والسواحلية الأفريقية واليوربا واللاتينية والإسبانية والإيطالية والألمانية والفرنسية والإنجليزية. ولا تزال الآن العديد من المحاولات الجارية لترجمة معاني القرآن الكريم، إلى لغات أخرى كالروسية ولغات الجمهوريات الإسلامية الجديدة وشرق آسيا وغيرها.

وتظهر "ببلوغرافيا" ترجمات معاني القرآن الكريم إلى أنه تمت ترجمة معاني القرآن إلى65 لغة طبعت في 2672 طبعة مختلفة.

وكان الرسول ﷺ قد قرر إرسال رسله إلى حكام الأمم الكبرى في ذلك الوقت، فأرسل إلى نجاشي الحبشة وإلى إمبراطور الروم وكسري فارس والمقوقس حاكم مصر وغيرهم يدعوهم إلى دخول الاسلام. وقد ذكر ابن سعد في طبقاته بأن كل رسول من رسل النبي

كان يتقن لغة البلد الموفد إليها. كما أن هناك روايات كثيرة عن النبي ﷺ، يحض فيها الصحابة على تعلم لغات الأمم الأخرى، فلقد أمر كاتبه المقرب زيد بن ثابت(ت 45هـ/665م)، أن يتعلم العبرية والسريانية فأجادهما زيد في زمن وجيز، وكان رسول النبي إلي إمبراطور الروم دحية بن خليفة الكلبي، حيث قدم كتابه إلى الإمبراطور الذي نادى مترجمه لينقل له ما في الكتاب. ويمكن لنا من خلال هذه الملاحظة ان نتبين من أن معاني آيات القرآن الكريم كانت تترجم إما على أيدي سفراء للرسول ﷺ أو على أيدي رجال الحكام أنفسهم.

وقد ذكر السرخسي عام(483هـ/ 1090م) في أحد أخباره بأن الصحابي الجليل سلمان الفارسي (عام35هـ/ 655م)، ترجم سورة الفاتحة إلى اللغة الفارسية ويبين ذلك بأن الترجمة كانت موضع اهتمام منذ صدر الإسلام، وأن المسلمين من غير العرب شعروا بضرورة شرح القرآن بلغات أخرى غير العربية.

في منتصف القرن الرابع الهجري، تزايدت حدة النقاش حول موضوع ترجمة القرآن الكريم. وجواز قيام الترجمة مقام الأصل، حيث انقسم الرأي في هذا الموضوع بين من أجاز ومن لم يجز، حيث اعتمد من أجازوا إلى هدفية نظرتهم المستقبلية بالوصول إلى الطموحات التالية: 1- تأكيد فهم القارىء غير العربي معنى ما يقرأ في الصلاة. 2- المساعدة في إزالة الحاجز اللغوي بين المسلم غير العربي، وبين القرآن الكريم وإعانته في تفهم الدين الحنيف من خلال النصوص المترجمة. 3- عدم تقييد مجال الكتاب الكريم ضمن الدائرة العربية، لأن الإسلام هو دين عالمي. والحقيقة فإن العديد من الشعوب والقبائل قد شعرت بعد دخولها في الإسلام، بالحاجة الماسة لتعلم مبادىء هذا الدين، من خلال الحصول على تفسير للمعاني القرآنية إلى لغاتهم، لتفهمها عن وضوح ويقين كاملين.

وقد حدثت المصادر التاريخية القديمة عن أوائل الترجمات كانت سريانية، قام بها غير مسلمين زمن الحجاج بن يوسف في النصف الثاني من القرن الهجري الأول، وترجمة بربرية حوالي عام 127هـ، وترجمة شفوية فارسية قام بها موسى بن سيار الاسواري قبل عام 255هـ، وترجمة هندية كاملة قبل عام 270هـ ويذكر ت. آرنولد احتمال وجود ترجمة صينية، كما ظهر في حوليات مؤرخي الصين في الفترة من 713- 742م. وتعتبر هذه الملاحظة التاريخية أكبر دليل على عدم صحة ما كتبه الهولنديون والبرتغاليون حول تاريخ شعوب الملايو، من أن الإسلام دخل إلى المنطقة في القرن الرابع عشر، بل إن هذه المعلومة تؤكد حقيقة البحث الذي قدمه الأستاذ يوسف طالب من سنغافورة ندوة الحضارة الإسلامية في عالم الملايو التي انعقدت بروناي دار السلام، والذي أفاد فيه بأن كتابات وجدت علي صخور في الصين تثبت بأن الإسلام وصل إلي الصين في القرن السابع الميلادي.

هذا وأن أول ترجمة معروفة لدينا في لغات الشعوب الإسلامية هي الترجمة الفارسية التي تمت في عهد الملك الساماني أبو صالح منصور بن نوح بن نصر أحمد بن إسماعيل(961- 976م) مع ترجمة مختصرة "جامع البيان في تفسير القرآن" لمحمد ابن جرير الطبري عام 923م.

1. أسباب تأخر ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الصينية:

من القرن السابع إلي القرن السابع عشر، لم يكن في الصين نسخة واحدة مطبوعة من القرآن الكريم لا باللغة العربية ولا باللغة الصينية المترجمة، بل كان المسلمون يتناقلون القرآن الكريم المصحف خطيًا من جيل إلي جيل عبر هذا التاريخ الطويل، وذلك إلي سببين:

أولًا: لم يظهر عبر هذا التاريخ الطويل علماء مسلمون يتقنون اللغتين العربية والصينية في آن واحد. أنه لم يظهر خلال مئات السنين الأولي من دخول الإسلام إلي الصين العلماء القادرون علي الترجمة الذين يتقنون اللغة العربية واللغة الصينية.

عرفنا في التاريخ الإسلامي الصيني، أن الإسلام دخل الصين في عصر عثمان بن عفان ′رضي الله عنه′(577- 656) ثم بعد ذلك وصل العرب إلي الصين عن طريق الحرير البري والبحري، فالبعض منهم رجعوا إلى بلادهم بعد فترة إقامتهم في الصين، والبعض منهم تزوجوا وأقاموا فيها، فمنهم من عمل بالتجارة، ومنهم من عمل بالدعوة الإسلامية. إن أول الصعوبات التي يواجهها هؤلاء الدعاة العرب هي مشكلة اللغة، فهم بدؤوا يتعلمون اللغة الصينية شفهيًا دون الكتابة، وبجانب تعليمهم الصينيين اللغة العربية لكي يقرأ المسلمون الجدد القرآن الكريم باللغة العربية، والمسلمون آنذاك كقومية جديدة في الصين عددهم قليل جدًا، ومن أجل تقوية المعرفة بالأحكام الإسلامية وتحسين قراءة القرآن الكريم باللغة العربية تعلم المسلمون الجدد اللغة العربية على يد العرب، ومع تطور التاريخ ومروره ازداد عددهم وانتشروا في أنحاء الصين فورثوا من أجدادهم العرب ما تركوه لهم من الدين والثقافة والعادات الإسلامية واللغة العربية بعد وفاة أجدادهم العرب أو رجوعهم إلى بلادهم، وظهر المسلمون الصينيون في المسرح التاريخي الصيني للدعوة الإسلامية وحلوا محل الدعاة العرب في ميدان الدعوة، وبما أنهم يعيشون في بحر الثقافات الصينية التقليدية الباطلة علموا أبناءهم اللغة العربية والعلوم الإسلامية في المساجد تاركين تعلم اللغة الصينية جيلًا بعد جيل للحفاظ على اللغة العربية ونشر الدين الإسلامي والحفاظ عليه من تدخل الثقافات الكونفوشيوسية والبوذية والطاوية الباطلة، ولكن التعليم آنذاك اقتصر على الشرح الشفوي باللغة الصينية دون الكتابة مما حدا بعلماء المسلمين آنذاك إلى ابتداع كتابة جديدة معمول بها بين العلماء فقط وسميت شو جين وتنطق باللغة الصينية ولكن تكتب باللغة العربية كحال اللغة الأردية

مثلا، واستمرت هذه الأحوال التعليمية منذ بداية دخول الإسلام بلاد الصين حتى وصل إلى عصر أواخر الأسرة مينغ(1368- 1644).

ثانيًا: الإعتقاد بأن ترجمة القرآن الكريم وهو الكتاب السماوي المنزل ستفقد معانيه الجوهرية ومن الصعب نقلها برمتها إلي اللغة الصينية.

إن القرآن الكريم كتاب الله تعالي المنَّزل باللغة العربية ومعانيه عميقة حكيمة فالعلماء يخافون ألَّا يقدروا علي التعبير باللغة الصينية عمَّا أراده القرآن الكريم لأنه كلام الله تعالي فيخشون أن يخطئوا في الترجمة بسبب عدم وجود التفاسير المعتمد عليها في الصين آنذاك، والتعليم الإسلامي كان يقتصر علي الشرح الشفوي منذ بداية دخول الإسلام بلاد الصين، حتي أوائل أسرة "مينغ" الإسلامية.

ثالثًا: إنشغال العلماء في الصين بتنظيم المسلمين لمقاومة أعداء الإسلام

جاءت الأسرة المانشورية إلى الحكم(شينغ)(1054- 1329 من الهجرة) فتغير وضع المسلمين عما كان عليه سابقًا فقاموا بالحركات التي اضطروا إليها، وكان المسلمون الذين جاؤوا إلى الصين قد تأثروا بعادات أهل البلاد، وقلدوهم في كل شيء سوى شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، وكان بجانبهم أيضًا المسلمون الجدد الذين اعتنقوا الإسلام.

وكان المسلمون بشكل عام أحسن من الصينيين البوذيين أو الكونفوشيين من الناحية المادية والفكرية والثقافية مما أثار عليهم الحقد كما أثارت عادات المسلمين وشعائرهم حسدًا وكرهًا لهم من قبل الحكام الصينيين، حيث يرون فيه مجتمعًا خاصًا لا يدين لهم بالولاء، ولا يأخذ بأسلوبهم في التقدير والاحترام، هذا إضافة إلى الحقد الذي أشعل ناره الموظفون الصينيون لمصالحهم الخاصة، ومنها تسلم المناصب مكان المسلمين؛ إذ كان المسلمون يتسلمون الوظائف العليا لإمكاناتهم ومؤهلاتهم، فيحسدهم الصينيون الذين

هم دونهم في التأهيل والإمكانات، ولكنهم لا يعترفون بذلك، ويسعون لتسلم المناصب فيحيكون المؤامرات ويدسون الدسائس، وحدثت اشتباكات مسلحة لم تكن في صالح المسلمين.

ظهرت في أواخر القرن السادس عشر الميلادي(**لغة المساجد**) وهي لغة مختلطة من المفردات الصينية والعربية والفارسية ونظمها علي أساس قواعد اللغة الصينية وتكتب بالأحرف الصينية علي الأصوات العربية أو الفارسية أو بالأحرف العربية والفارسية علي الأصوات الصينية. وظهرت ترجمة صوتية للآيات القرآنية باللغة المختلطة تستعمل في تعليم أبناء المسلمين بالمساجد وصارت هذه اللغة بعد ذلك شائعة عند عامة المسلمين وتستعمل بعض مفرداتها وعباراتها في الحياة اليومية.

بدأت نشاطات الترجمة والنقل لمعاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية في القرن السابع عشر الميلادي الذي شهد- في الواقع- بداية التجربة الحقيقية لترجمة معاني القرآن الكريم. وانقسمت تلك النشاطات إلي المراحل الأربعة التالية:

المرحلة الأولي(الاستدلالية):

بدأت هذه المرحلة من أوائل القرن السابع عشر إلي أوائل القرن الثامن عشر تقريبًا. وشهدت هذه المرحلة ترجمة المقتبسات من الآيات القرآنية عند بعض العلماء المسلمين في كتاباتهم لتعريف وتقديم الدين الإسلامي والقرآن الكريم إلي قراء اللغة الصينية، فترجموا الآيات القرآنية المقتبسة إلي الصينية مثل:

1- العالم المسلم الكبير وانغ داي يو(Wang Dai Yu 1670 -1584) في كتاب بعنوان "الفهم الصحيح للدين الحنيف".

2- العالم المسلم الكبير ليو جي(Liu Zhi 1745 -1655) في كتابه بعنوان "المراسم في الدين الإسلامي".

3- العالم المسلم الكبير يوسف ماتشو(1640- 1711م Ma Zhu) في كتابه بعنوان "الإرشادات الإسلامية".

وكان العلماء في أوائل أسرة "تشينغ" قاموا بتأليف الكتب الإسلامية باللغة الصينية لتعريف الناس بالإسلام وكانوا يستدلون خلال تأليفهم ببعض آيات القرآن الكريم، فترجموا هذه الآيات إلي اللغة الصينية لضرورة التأليف، ويعد هؤلاء العلماء: العالم المذكور آنفًا(وانغ داي يو) الذي قال في كتابه(ترجمة عن دين الحق) قال: إن هذا الكتاب يعرّف الناس بالإسلام. كما قال الشيخ ماتشو المذكور آنفًا- قال في كتابه(دليل الإسلام): إن تأليف الكتب الإسلامية الصحيحة لابد من استدلال بآيات القرآن الكريم.

كما قام العالم(لين جي- 1655- 1745م) ترجم سورتين كاملتين فقط(سورة الفاتحة) و(سورة الإخلاص) في كتابه (حفلة مباركة للكعبة المشرفة) و(سيرة خاتم الأنبياء من بلدة الكعبة) واستدّل أيضًا ببعض الآيات لكي يبين بحثه بدليل آيات القرآن الكريم، وهذه المرحلة مقتصرة علي الإستدلال بمعاني الآيات باللغة الصينية فقط، فسميت "المرحلة الإستدلالية".

المرحلة الثانية(الإختيارية):

إن هذه المرحلة تبدأ من أواخر القرن الثامن عشر حتي أوائل القرن العشرين، وشهدت هذه المرحلة الترجمة الجزئية للغرض التعليمي بالمساجد حيث اختار بعض الأئمة والخطباء الآيات القرآنية التي تتلو دائمًا في المناسبات، مع ترجمتها بلغة المساجد أو اللغة الصينية وسميت كتاب "18 سورة" أو "ختم القرآن الكريم" وقد تختلف المنتخبات من مسجد إلي مسجد ومن إقليم إلي إقليم وتضم غالبًا سورة الفاتحة والسور التي تحمل أرقام: 2، 3، 9، 36، 68، 86، 87، 93، 97، 99، 102، 103، 105- 114. ومثال ذلك:

1- منتخب الإمام ماليان يوان سماه "ختم القرآن الكريم مع الترجمة والشرح" والذي يعد أول ترجمة طبعت ونشرت في مدينة "كوينمينغ" عاصمة مقاطعة يونان في عام 1889م.

2- منتخب الإمام يانغ جينغ شيو(1870- 1952م).

3- منتخب الإمام لي تينغ شيانغ(1884- 1937م).

وقد انتشر بين المسلمين في الصين (كتاب مختار من القرآن الكريم) باللغة العربية وسماه المسلمون في الصين بأنه(ختم القرآن الكريم) يحتوي هذا الكتاب علي ثماني عشرة سورة قصيرة كاملة مع سورة الفاتحة وبعض الآيات من السور الطويلة، مثل: آية الكرسي. ولكن لم تترجم معاني هذه السور إلي اللغة الصينية، بل كُتبت ألفاظها تحت السطور العربية حسب النطق العربي باللغة الصينية كي يقرأ غير الناطقين بالعربية هذه السور حسب قراءة العربية، ثم بعد ذلك ظهر كتاب "ختم اللغة الصينية" عام 1882م، ثم ظهر كتاب "ختم كتاب الحق". وهذه الكتب كلها مقتصرة علي القراءة العربية حسب نطقها باللغة الصينية.

ومن ناحية أخري، ظهرت كتب مترجمة عدة باللغة الصينية مثل: "الختم باللغة العربية الصينية" و"كتاب الحق النفيس" و"الكتاب السماوي مع الشرح والترجمة" و"متخيّر القرآن الكريم" التي ألفها كل من: ماكوين لين، يانغ دي يوآن، ومالان يوآن، يانغ جين شو(1870- 1952).

كما كان هناك منتخب الإمام لي تينغ شيانغ(1884- 1937).

وهذه الكتب كلها مترجمة باللغة الصينية القديمة كتابة وتعبيرًا، ولقد تركت هذه الكتب المترجمة تأثيرًا هائلًا في بداية تطور ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية.

ثالثًا: المرحلة الثالثة(الترجمة الترتيبية):

بدأت هذه المرحلة في أواخر القرن التاسع عشر حينما بدأ العالم المسلم الصيني مافو تشو(1794- 1874) يترجم معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية علي الترتيب، ولكن مع الأسف الشديد إن أوراق هذه الترجمة تعرضت للحريق إلا خمسة أجزاء نجت منها فقط فطبعت ونشرت هذه الأجزاء الخمسة في الصين وسميت هذه الأجزاء(الشرح المباشر لكتاب الحق النفيس).

وحسب ما سجله التاريخ الإسلامي الصيني إن أول من واصل دراسته خارج الصين هو(مافو تشو) يوسف روح الدين، ويسمي أيضًا(مادا شين)(1794- 1874م) حيث سافر إلي مكة للحج في عام 1814م ثم وصل إلي القاهرة والإسكندرية وبيت المقدس وقبرص وإسطنبول وعدن وسنغافورة واستغرق سفره ثماني سنوات تقريبًا، وتعلم وقابل كثيرًا من علماء العالم الإسلامي، ثم رجع إلي الصين وفتح مدرسة في مقاطعة يونان وعلّم فيها، ثم اشترك في إنتفاضة يونان واستشهد بعد تسليمه للحكومة، وناهز عمره 80 عامًا.

إن أول من ترجم معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية حسب ترتيب سور القرآن الكريم وأجزائه هو الشيخ(مافو تشو) وبدأ أعمال ترجمته في أواخر القرن التاسع عشر، ولكن تمت طباعة ونشر الأجزاء الخمسة الأولي من القرآن الكريم مع الشرح فقط وسمّي "الشرح المباشر لكتاب الحق النفيس"، وأما وقت طباعة هذا الكتاب ونشره فغير معروف.

ومن ناحية أخري كانت المجلة مجلة إسلامية شهرية تأخذ مقرها في شانغهاي وقد صدرت الأجزاء الثلاثة الأولي ترجمها كل من العلماء: هادي تشين(1888- 1943م)، وو تاي قون(1886- 1961)، وشا شانغ يي(1879- 1968م) ترجمة مشتركة، مع أن هذه النسخ المترجمة لم تصل إلي معظم المسلمين بيد أنها قد دلت علي أن الترجمة الترتيبية لمعاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية قد بدأت، ومن أجل سد حاجة المسلمين إلي ترجمة

معاني القرآن الكريم فقد أصبحت الترجمة الترتيبية إلي اللغة الصينية أمرًا ضروريًا في طريق تطورها.

رابعًا: المرحلة الرابعة (الترجمات الكاملة):

ظهرت النسخ المترجمة الكاملة منذ العشرينيات حتي الثمانينات من القرن الماضي.

1) أول ترجمة كاملة لمعاني "القرآن الكريم" إلي اللغة الصينية:

كان العالم الصيني غير المسلم من قومية هان ولا يعرف اللغة العربية ولكن يجيد اللغة اليابانية(لي تي تشينغ Li Tie Zheng) أول من ترجم معاني القرآن الكريم ترجمة كاملة إلي اللغة الصينية، وذلك نقلًا عن ترجمة ساكاموتو كنيشي اليابانية والمنقولة بدورها عن الترجمة الإنجليزية "The Koran" الرودويل، حيث كانت هذه أول ترجمة كاملة في اللغة الصينية، وكان عنوان الترجمة باللغة الصينية "معاني القرآن الكريم باللغة الصينية" نشرتها دار تشونغ هوا للطباعة في بكين في ديسمبر عام 1927.

هذه الترجمة لم تعتمد علي "القرآن الكريم" باللغة العربية، لكنها كانت أول ترجمة صينية كاملة لمعاني القرآن الكريم نشرت في الصين، واضطلعت بدور تحفيزي وإيجابي في نشر الثقافة العربية والإسلامية ودفعت العلماء المسلمين الصينيين إلي ترجمة معاني "القرآن الكريم" بنشاط قبل ذلك كان هناك بعض العلماء والأئمَّة من قومية هوي المسلمة قد بدؤوا ترجمة معاني "القرآن الكريم"، لكنهم لم يحققوا نجاحًا كبيرًا بسبب حذرهم المفرط، فسبقهم العلماء من قومية هان الأمر الذي شجع كثيرًا من العلماء المسلمين للقيام بالترجمة.

استخدم لي تيه تشينغ اللغة الصينية القديمة في ترجمته ورتب ترجمته حسب ترتيب القرآن الكريم الأصلي، ولكن لم يضع فواصل بين الأجزاء والسور، بل كتب اسم كل سورة علي الهامش العلوي لكل صفحة.

لم يطبع كثير من هذه الترجمة ولأن انتشارها كان محدودًا ونفدت طبعتها، يصعب الحصول عليها حتي في بعض المكتبات الكبيرة ومكتبات الجامعة.

والجدير بالذكر أن المترجم لي تي تشينغ غير المسلم قد أشهر إسلامه بعد أن ترجم "معاني القرآن الكريم" إلي اللغة الصينية نقلًا عن الترجمة اليابانية.

2) الترجمة الكاملة الثانية لمعاني "القرآن الكريم":

بعد ظهور ترجمة لي تيه تشينغ، نشرت دار قوانغ تسانغ بحديقة آيلي في مدينة شانغهاي كتاب "الترجمة الصينية لمعاني القرآن الكريم" في مارس عام 1931، وهذه هي الترجمة الثانية الكاملة للقرآن الكريم، تمت بجهود العالم(جي جيويه مي) و13 عالمًا آخر، منهم عالمان مسلمان، وكان المترجمون الرئيسيون من قومية هان.

وترجموا عن العربية أصلًا وبمراجعة الترجمة الإنجليزية والترجمة اليابانية.

وهذا المترجم أيضًا مثقف غير مسلم، كان مشرفًا علي ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة العربية مع بعض الناس المستأجرين الذين يجيدون اللغة العربية والإنجليزية علي نفقة يهودي بريطاني الجنسية، واستغرقت أعمال الترجمة ثلاث سنوات وتنقسم هذه النسخة المترجمة إلي ثمانية أجزاء، الجزء الأول هو مقدمة المترجمين أما نصوص معاني القرآن الكريم فيبدأ من الجزء الثاني إلي الجزء الثامن.

أشار المترجمون في مقدمة هذه الترجمة إلي أنهم وجدوا أن "ترجمة لي تيه تشينغ" تعتمد علي الترجمة اليابانية مما أوجد بعض الفروق الصغيرة بين الترجمة وبين الكتاب الأصلي. وهدف هذه الترجمة أن يفهم القارئ الذي لا يعرف اللغة العربية شيئًا عن الإسلام من خلال هذه الترجمة التي لا يمكن أن تحل محل الكتاب السماوي.

استخدمت هذه الترجمة اللغة الصينية القديمة أثناء الترجمة ساهم بعض العلماء المسلمين في شرح اللغة العربية للمترجمين.

3) أول ترجمة كاملة لمعاني "القرآن الكريم" لعالم مسلم:

هذه هي الترجمة الكاملة الثالثة لمعاني "القرآن الكريم" للعالم المسلم الشهير يعقوب وانغ جينغ جاي(Wong Jing Zhai)(1879- 1949).

كان الإمام يعقوب وانغ من بين العلماء الذين ساهموا في ترجمة معاني "القرآن الكريم" إلي اللغة الصينية. كما كان أول عالم مسلم ساهم في الترجمة الكاملة لمعاني "القرآن الكريم". وفي فبراير عام1932 نشرت جمعية التقدم الإسلامية الصينية في بكين ترجمته وعنوانها "ترجمة وتفسير القرآن الكريم".

وبذل الإمام يعقوب وانغ كل جهوده في سبيل ترجمة المؤلفات الإسلامية، وحقق إنجازات عظيمة. فقد تعاون مع كثير من العلماء في ترجمة بعض الأجزاء والسور القرآنية. كما ترجم بمفرده معاني القرآن الكريم كاملًا أربع مرات، نشرت ثلاث ترجمات منها تسمي عادة الكتاب(أ) والكتاب(ب)، والكتاب(ج) لـ"ترجمة وتفسير القرآن الكريم".

– **الكتاب (أ):** هو ما ذكرناه آنفًا والذي نشر عام1932 في بكين. الترجمة باللغة الصينية القديمة، الترتيب واضح، والتفسير موجز وواضح فهو أدق وأسهل مقارنة بالترجمة الكاملة الأولي والثانية.

– **الكتاب (ب):** نشر في عام1942 في مقاطعة نينغشيا، طبع بالحجر، وجلد بالخرز، يقع في عشرة مجلدات، كان مستوي طباعته جيدًا بالنسبة لظروف الطباعة في ذلك الحين. ولكن طبع منه ستون نسخة فقط.

– **الكتاب (ج):** نشرته دار يونغ شيانغ في مدينة شانغهاي عام1946. يعتبر أكثر ترجمات الإمام يعقوب وانغ الثلاث نضوجًا وعليه إقبال أعظم. وأعيدت طباعته مرات وانتشر بشكل واسع. استخدمت هذه الترجمة اللغة الصينية الحديثة ومع بعض التعبيرات المسجدية، وأضاف الإمام يعقوب وانغ كثيرًا من التفسيرات إليها.

ولعل من نافلة القول أن الإمام يعقوب وانغ جينغ باي وُلد من أسرة مسلمة أنجبت الكثير من العلماء، وكان(رحمه الله تعالي) تعلّم علوم الإسلام واللغة العربية علي يد الإمام والده منذ صغره، ثم التحق بالمسجد بعد بلوغه؛ ثم ارتحل إلي بعض المقاطعات الصينية من أجل طلب العلم عند بعض كبار الشيوخ المشهورين في الصين آنذاك وأكمل دراسته العليا في جامعة الأزهر عام 1922- 1923م، ثم عاد إدراجه إلي الصين بعد أدائه فريضة الحج في مكة المكرمة، ثم أسس مجلة "نور الإسلام" في عام1927 بعد رجوعه إلي الصين لتعريف المسلمين بالأفكار الحديثة الإسلامية. وفي السنة نفسها أسس مع يانغ جين شون جامعة اللغة الصينية العربية في مدينة تيانجين، وقد عُين أستاذًا للجامعة، وفي عام1936 نظم "لجنة الترجمة المسلمة في بكين" وجمع فيها علماء المسلمين للتأليف والترجمة وطباعة الكتب الإسلامية ونشرها، وشجع العلماء علي الإجتهاد في ترجمة الكتب الإسلامية لمحاربة التقاليد المنحرفة الباطلة الموجودة بين المسلمين الصينيين وكان شعار اللجنة "إعداد الكوادر الممتازة للنهوض بالدين الإسلامي بطريق التعليم والتربية الإسلامية".

4) **الترجمة الرابعة الكاملة لمعاني "القرآن الكريم"**

"ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية مع الشرح" ترجمة العالم المسلم المثقف ليو جين بياو(Liu Jin Biao)، طبع ونشر في عام 1943م في مطبعة المواطن الجديد في بكين تحت إشراف المترجم نفسه؛ والمراجعون هم: شي شين إين، وتين زين وهما ليسا من المسلمين، بالإضافة إلي العالم موتان مين.

وهذه النسخة المترجمة مكونة من884 صفحة ويكون الشرح بعد ذكر الآيات فسُميت بهذا الاسم، واستغرقت أعمال الترجمة أربع سنوات، وقال المترجم في مقدمته: "إن النسختين المترجمتين السابقتين اللتين تمت ترجمتهما علي يد غير المسلم من اللغة

اليابانية والإنجليزية ليستا بصحيحتين بل بعيدتان عن معاني القرآن الكريم الحقيقية" وأضاف قائلًا: "إن النسخة المترجمة علي يد الشيخ وانغ جينغ جاي نسخة فيها بعض الكلمات يصعب علي غير المسلم أن يفهمها لأنها نسخة مترجمة باللهجة الخاصة بأسلوب التعليم المركزي المسجدي الذي انتشر بين المسلمين فقط، ولكن في الحقيقة حتي هذه النسخة لم تخل من الأخطاء الكثيرة في شرح المؤلف الذي اعتمد علي رأيه فقط دون الرجوع إلي التفاسير المعتمدة عند علماء المسلمين".

المعلومات حول هذه الترجمة قليلة، فقد قيل إن الترجمة بدأت في رمضان عام1938 حيث جمع ليو جين بياو بعض الطلاب الذين كان يدرسون في المسجد في بيته. كانوا يبدؤون في عملهم بعد صلاة الفجر كل يوم، حيث يقرأ ليو جين بيان القرآن الكريم ويترجم معانيه شفويًا إلي اللغة الصينية ويسجل أفضل طلابه ما يقول. وإذا وجد صعوبات لجأ إلي الترجمات الموجودة وكتاب "روح البيان" و"تفسير القاضي" هكذا استمر عملهم أربع سنوات. أضاف المترجم إلي الترجمة "التفسير الإضافي" الذي يعبر عن رأيه وفهمه الخاص، منه صحيح وغير صحيح.

5) الترجمة الخامسة الكاملة لمعاني "القرآن الكريم"

"الروح العظمي للقرآن الكريم" للإمام يانغ جينغ شيو يعد بمثابة الترجمة الخاصة لمعاني القرآن الكريم وتنقسم إلي ثلاثة أجزاء تتكون من456 صفحة، وعددها محدود غير منتشر في الصين، ونشرتها شركة النشر الإسلامية في بكين في أغسطس عام1947. وكانت ترجمة مباشرة، لذلك لفتت الأنظار بأسلوبها المتميز.

استخدمت الترجمة اللغة الصينية القديمة. طبعت مرة واحدة فقط. نسخ الطباعة محدودة وانتشارها لم يكن واسع النطاق. ولكن لغته جميلة وشائقة تمنح القارئ الشعور بالبساطة والمهابة والوقار. ترجم الإمام يانغ معاني القرآن الكريم مباشرة وحاول

أن يفهمها بصورة دقيقة واهتم بأسلوبه الأصلي لتتميز هذه الترجمة بجاذبية فنية. وعيب الترجمة أنها تفتقر إلي بعض التفسيرات اللازمة، حتي أنه ترجم بعض المصطلحات الإسلامية لفظيًا بدون تفسير، الأمر الذي سبب بعض الصعوبات للقارئ ذي المستوي الثقافي المتدني.

6) الترجمة السادسة الكاملة لمعاني "القرآن الكريم"

نشرت هذه الترجمة في سنة 1958 في تايوان، وصدرت عن مطبعة مجلس الدراسات الاسلامية في عاصمة تايوان(تايبيه)، واعيدت طباعتها في هونغ كونغ. قام بهذه الترجمة العالم المسلم المثقف شي جي جو Shi Zhi Zho(1879-1969م) وهو الذي هاجر إلي تايوان في عام1948 ونشر الدعوة الإسلامية هناك وأسس مسجدًا هناك للمسلمين المهاجرين في تايوان.

شي جي جو لا يعرف اللغة العربية، ترجم من اللغة الانجليزية إلي اللغة الصينية أولا، ثم راجع ترجمته وصححها ثلاثة علماء هم: جوانغ تِزي شانغ، وشون جين زون، ودينغ جون مينغ يجيدون اللغة العربية حسب نص "القرآن الكريم" العربي كلمة كلمة. جاء التعبير في الترجمة بلغة الصين الجديدة، وبينما كانت الكتابة بلغة الصين القديمة، وكل جزء يكون مستقلًا، وبلغ عدد أجزائها ثلاثين جزءًا وعدد الصفحات بلغ 908 صفحات، ورقمت كل آيه في كل السور حسب النسخة العربية الأصلية، وكل آية كتبت مبتدئة من السطر الجديد ليسهل علي الناس أن يلجؤوا إلي ما أرادوه من الآيات، وأدخل الشرح بعد عدة آيات ليشرح المعاني الإجمالية للقرآن الكريم، وأما عدد الشرح في هذه النسخة فقد وصل إلي (2117) شرحًا، ووضعت مقدمة المترجم والإيضاحات النموذجية للترجمة قبل فهرس القرآن الكريم، وألحق بها طلب الآيات بالفهرس باللغة الصينية في نهاية الكتاب.

والجدير بالذكر ان المترجم شي جي جو كان يعتمد علي " تفسير القاضي البيضاوي" خلال ترجمته. وقد طبعت هذه النسخة في لجنة البحوث الإسلامية التابعة لدار البحوث والثقافة الصينية في مقاطعة تايوان في فبراير1985م، ثم طبعت مرة ثانية في مدينة تايبيه(عاصمة تايوان). وكانت الرابطة الاسلامية في هونغ كونغ طبعتها مرة أخري أيضا.

وقد جاءت الترجمة بعنوان "الشرح والترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة الصينية"، وتنتشر بصورة رئيسة في المناطق التي يتجمع فيها المسلمون في تايوان وهونغ كونغ وبين المسلمين المغتربين.

7) الترجمة السابعة الكاملة لمعاني "القرآن الكريم"

نشرت هذه الترجمة في سنة 1981م، وقام بها العالم المسلم البارز محمد ماكين(1906-1978) الذي أسس أول قسم للغة العربية في جامعة بكين في سنة 1946. وتعد هذه الترجمة أحسن نسخة في تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية، وذلك لقوة المستوي ووضوح المقصد تعبيرًا وكتابة وحظيت بالقبول من جانب الناس.

وجاءت الترجمة بعنوان: "ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية" والتي تمت طباعتها في عام 1981 في بكين تحت إشراف مطبعة المجمع والعلوم الصينية، ثم طبعها ونشرها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمملكة العربية السعودية.

ومن الترجمات المشهورة للعالم البارز محمد ماكين(محمد جان) الكتب الآتية: "كلام إسلامي"، و"نور اليقين"، و"تاريخ الكلام الاسلامي"، و"الثقافة الاسلامية النصرانية"، و"تاريخ التربية الاسلامية"، و"التاريخ العربي المختصر"، و"التاريخ العربي العام". وكان يشرف أيضا علي تأليف "معجم العربية الصينية" أول قاموس عربي صيني في تاريخ الصين.

8) الترجمة الثامنة الكاملة لمعاني "القرآن الكريم"

كانت الترجمة الثامنة بعنوان "ترجمة معاني القرآن الكريم" ترجمة شمس الدين(توزيع داو جانغ Tong Dao Zhang-1920-1986) وهو الصحفي الصيني المسلم هاجر إلي الولايات المتحدة الامريكية بعد ان كان سجينًا في سنغافورة بتهمة في احدي القضايا الاعلامية هناك.

كان المترجم من الجالية الصينية في الولايات المتحدة، وكانت الترجمة من اللغة الانجليزية إلي الصينية حسب ثلاث عشرة نسخة إنجليزية ونسخة فرنسية وخمس نسخ صينية، واستغرقت أعمال الترجمة سبعة عشر عامًا، وتتحلي تلك النسخة بالمميزات التالية:

1- طبعت باللغتين العربية والصينية لكي يسهل علي القارئ أن يلجأ إلي ما أراده من الآيات.

2- الترجمة مزودة بالشرح الإجمالي وسبب نزول الآيات بعد كل من أسماء السور.

3- الشرح الإجمالي للسور الطويلة جاء بعد ذلك عدد من الآيات.

4- شرد المعاني الإجمالية في نهاية كل السور.

5- تسلك الترجمة أسهل الطرائق في التعبير لكي يقرأها عامة الناس.

6- ألحق في نهاية الكتاب "فهرس القرآن الكريم باللغة الصينية" و"شجرة الأنبياء" و"جدول أسماء رجال مشهورين في التاريخ الإسلامي وأسماء الأماكن المشهورة في العالم الإسلامي". وقد تمت طباعتها في مطبعة الترجمات في مدينة نانجين في سنة 1989م.

9) الترجمة التاسعة الكاملة لمعاني "القرآن الكريم"

المترجم والأستاذ الجامعي المسلم في جامعة القوميات المركزية بالصين لين سونغ المولود في عام1930. كان يري أن القرآن الكريم هو أُم الكتب يشتمل علي القصص

والتعبير الأدبي الراقي، وكان يحب الشعر فعزم علي أن يترجم القرآن الكريم بأسلوب الشعر، ولا غرو أن يصدر ترجمته بعنوان "ترجمة معاني القرآن الكريم بالأسلوب الشعري".

بدأ ترجمته في عام1977، وأكمل ترجمة الجزء الأول للتجربة وطبع هذا الجزء لاستخراج آراء العلماء، ثم استأنف ترجمته حتي إكماله، ثم بعد ذلك طُبعت هذه النسخة الكاملة المترجمة بالأسلوب الشعري في بكين عام 1988م تحت إشراف "المطبعة التابعة للجامعة المركزية للقوميات الأقلية في بكين". وتنقسم النسخة إلي جزأين، وأُلحق في نهاية الكتاب "ترجمة موجزة عن كتب مترجمة بمعاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية خلال ستين عامًا" و"فهرس القرآن الكريم باللغة الصينية".

10) الترجمة العاشرة الكاملة لمعاني "القرآن الكريم":

عنوانها "ترجمة معاني القرآن الكريم" ترجمة العالم الصيني المسلم تشو تشونغ سي المولود في عام 1925م وهاجر إلي باكستان ثم إلي انجلترا، واسمه العربي عثمان. تمت طباعة الترجمة في سنة 1990 في المطبعة الدولية الإسلامية في بريطانيا باللغتين العربية والصينية، ثم طبعت مرة أخري في شركة الطباعة الملونة "جايي" في سنغافورة. وكتب المترجم مقدمة لكل سورة يبين فيها وقت وسبب نزول السورة. وهو يؤول جميع الآيات المتشابهة معتمدًا علي التفاسير الأحمدية وهو علي طريقة الفرقة الأحمدية الضالة. وهذه الترجمة غير منتشرة في الصين وتعرضت لنقد شديد من المسلمين بالصين واعتبروها ترجمة منحرفة.

الترجمات الكاملة لمعاني "القرآن الكريم" في ميزان النقد:

- دخل الإسلام الصين قبل ألف وثلثمائة سنة، وكان من الطبيعي أن الفترة الأولي للوجود الإسلامي بالصين لم يكن بها مصحف مطبوع أو مصحف مترجم إلي اللغة

الصينية، وكان نشر القرآن الكريم يعتمد علي دراسة مضمونة مباشرة والشروح الشفهية لرجال الدين، وكان تعليم القرآن مقتصرًا علي المساجد والأسر المسلمة.

- لم تبدأ ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية إلا في فترة أسرتي مينغ وتشينغ(1368- 1911م) ومنذ أكثر من 500 سنة ومن أجل نشر الإسلام وإبراز الثقافة الإسلامية للصينيين، شرع بعض العلماء المسلمين الصينيين يترجمون معاني القرآن الكريم، ويترجمون الكتب التي تتناول الشريعة الإسلامية والتاريخ الإسلامي. في البداية، كانوا يترجمون معاني القرآن في بعض الآيات للإستشهاد بها في كتبهم باللغة الصينية. وبعد ذلك، من أجل تلبية حاجة المسلمين الصينيين لدراسة الكتب الإسلامية المكتوبة باللغة الصينية.

- حاول بعض العلماء الذين يجيدون اللغة العربية ترجمة معاني سور كاملة من القرآن وبعض الآيات التي يستخدمها المسلمون الصينيون دائمًا إلي اللغة الصينية وجمعها وإصدارها في كتيبات، وذلك تيسيرًا لقراءتها وحملها.

- بسبب الحاجز اللغوي بين المسلمين الصينيين واللغة العربية، لم تظهر في الصين ترجمة موجزة لمعاني القرآن الكريم حتي القرن التاسع عشر. وفي القرن العشرين، وعي المسلمون الصينيون بعمق أنه لنشر دينهم الحنيف يجب أن تكون هناك ترجمة كاملة لمعاني القرآن.الكريم إلي اللغة الصينية، لأن ذلك لا يساهم في نشر الإسلام في الصين علي نحو أفضل فحسب، بل يفيد في تعريف وتدريس القرآن للمسلمين الصينيين ومتابعة وتطوير الثقافة والتقاليد الإسلامية الصينية، ومن هذا المنطلق، اعتبر المسلمون الصينيون ترجمة معاني القرآن الكريم "فريضة".

- ومن أجل تفادي وقوع الخطأ والزلل في الترجمة، كان علي المترجمين أن يجيدوا اللغتين العربية والصينية، ليس هذا فحسب، بل أن يكونوا علي معرفة جيدة بقواعد

الإسلام، وكان عليهم أن يترجموا معاني القرآن المنزل باللغة العربية إلي اللغة الصينية مباشرة وليس عبر لغة وسيطة.

- بدأت أولي هذه المحاولات الترجمة الكاملة لمعاني القرآن الكريم في عام1914، حتي قام العالم الإسلامي الجليل محمد ماكين بـ "ترجمة معاني القرآن الكريم" باللغة الصينية التي صدرت في عام1981، وصدرت الطبعة الثانية لترجمته في الكويت سنة 1986، كما صدرت الطبعة العربية الصينية في المملكة العربية السعودية في سنة 1987م عن مطابع الملك فهد ′رحمه الله′.

- تعتبر الطبعة الثالثة من ترجمة الإمام العالم يعقوب وانغ جينغ جاي والتي نشرت في شانغهاي عام 1946م- أفضل ترجمة صينية لمعاني القرآن الكريم حتي وقتنا هذا وأكثرها توزيعًا وشيوعًا في الصين.

- نلاحظ أنه ظهرت ثماني ترجمات خلال الفترة من1927- 1958م، وست ترجمات ظهرت خلال الفترة من1981- 1990(10 سنوات) ومعني ذلك أن عددًا متزايدًا من العلماء يشاركون في نشاطات الترجمة القرآنية، وسوف تظهر ترجمات جديدة في هذا المجال عما قريب.

- تعددت أساليب الترجمة مثل: أسلوب اللغة الصينية القديمة الكلاسيكية، وأسلوب اللغة الصينية الحديثة الفصحي، وأسلوب لغة المساجد المختلطة، وأسلوب السجع. ويجب أن تكون الترجمة باللغة الصينية الحديثة الفصحي وبالأسلوب السهل في القراءة والحفاظ علي المعني الأصلي الصحيح.

- التباين الواضح في مستوي الثقافة والقدرة علي التعبير اللغوي عند المترجمين أثر تأثيرًا بالغًا في فهم النصوص وفي اختيار المفردات المناسبة في الترجمة.

- شرح الترجمة لبعض النصوص هو ضروري للفهم الصحيح، ويبدوا أن بعض المترجمين توغلوا في الشرح حسب الأهواء.

- كانت الترجمة الصينية لمعاني القرآن الكريم قائمة علي أساس الجهود الذاتية الفردية وتفتقر إلي التنسيق وإلي التعاون، وما زال هناك الحاجة إلي الترجمة القرآنية الكاملة(أن تكون تشتمل علي الترجمة للنصوص والتفسير والشروح) وأن تكون موثوقة تمامًا(أن تكون مقبولة عند الأوساط العلمية والأكاديمية والأوساط الدينية، وكذلك عند القراء من المسلمين وغير المسلمين).

- لاشك أن هذه الترجمات- المشار إليها آنفًا- قد استفاد منها المسلمون كثيرًا وقامت في تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية بمساهمة كبيرة وكذلك في مجال الدعوة الإسلامية وتعريف الناس بالإسلام.

- إن ظهور الكتب المترجمة هو الحد الفاصل بين الحالة السلبية والحالة الإيجابية ودليل علي أن الدعوة الإسلامية في الصين وصلت إلي أوج عصرها.

- قبل ظهور حركة الترجمة، كان حال المسلمين يدعو للأسي، حيث انتشر الجهل بالدين الإسلامي مما ساعد علي ظهور البدع والتقليد الجاهلي الأعمي والإبتعاد عن طريق الحق والهداية وظهور العصبية. ولكن ظهور ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية قد عدّل هذه الأوضاع بعض الشئ وسنح للمثقفين المسلمين الذين لا يجيدون اللغة العربية فرصة لدراسة معاني القرآن الكريم علي وجه الخصوص.

- خطا العلماء المسلمون في الصين خطوة عظيمة نحو التقدم في تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية، ولا ضير إن سمينا هذه الفترة باسم "حركة الترجمة الإسلامية الصينية" لأنها حركة تستنهض المسلمين للقيام بالنهضة الإسلامية في الصين وساهمت في تاريخ التطور الإسلامي الصيني مساهمة عظيمة.

- انتشرت العقائد المنحرفة الضالّة بين المسلمين الصينيين منذ القرن السابع عشر الميلادي حتي أوائل القرن الفائت، أي قبيل دخول الدعوة السلفية بلاد الصين،

وبهذين الطريقين أصبحت عقيدة المسلمين في الصين عقيدة منحرفة ومعقدة؛ فهي خليط من العقائد التقليدية الصينية والصوفية بعيدة عن العقيدة الإسلامية الصحيحة الأصلية، وكل فريق ملتزم بطريقته ويبني الأضرحة علي قبور دعاتهم بعد موتهم، ويصلون ويدعون عندها، واستغل الغربيون هذه الأوضاع المزرية وصاروا يدسون الدسائس بعمل ترجمات مشبوهة لمعاني القرآن الكريم بغرض إفساد عقائد المسلمين، وكانت تقف وراء كل نسخة من هذه النسخ المشبوهة مقاصد ونيات تبعًا لمن يتولي ترجمتها، ومثال ذلك البريطاني الجنسية من أصل يهودي والذي تولي نفقات ترجمة معاني القرآن الكريم، وفي هذه الحالات نجد أن لكل من المترجمين قصده في ترجمة معاني القرآن الكريم، فمنهم غير مسلم ترجم علي نفقة يهودي بريطاني الجنسية، ومنهم كذلك مثقف متخصص بالبحث عن الثقافة الكونفوشيوسية والبوذية والطاوية الصينية، وأدمج هذه الثقافات الضالَّة في الثقافة الصينية.

- إن معظم هذه الترجمات فيها شرح لآيات القرآن الكريم بيَّن فيه المترجمون ما فهموه من آيات القرآن الكريم، واعتمدوا في ترجماتهم علي تفاسير غير معتمدة وليست علي منهاج السلف الصالح، والجدير بالإيضاح أنه ليس في زمانهم تفسير معتمد عليه مثل: ابن كثير وابن جرير الطبري، وتنقصهم كتب الأحاديث النبوية مثل: صحيح البخاري وصحيح مسلم وكتب الحديث النبوي الأخري، لأن هذه الكتب وصلت إلي بلاد الصين متأخرة.

- الجدير بالإشارة أن الأستاذ محمد ماكين قد حصل علي بعض التفاسير المعتمدة وكتب الحديث النبوي في زمنه أثناء الترجمة، ولكن للأسف فإنه 'رحمه الله تعالي' استعان ببعضها وترك البعض الآخر ملتزمًا بالمنهج الأشعري.

- هناك المترجمون الآخرون غير المسلمين والمترجم علي مذهب الفرقة الأحمدية، والمترجم الذي ترجم معاني القرآن الكريم علي نفقة اليهودي، والمترجم الذي ترجم من الإنجليزية واليابانية والفرنسية إلي الصينية كل هؤلاء لا اعتبار لهم أو بعبارة أخري: إن ترجماتهم غير صحيحة بدون شك، رغم أن مستواهم في اللغة الصينية قوي، ولكن المستوي في اللغة شيء والفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية الصحيحة شيء آخر، بل الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية أهم شيء قبل كل شيء بالنسبة للمسلمين، خاصة المترجمين.
- مما سبق يتبين لنا أن الترجمات السابقة ما زالت مليئة بالأخطاء وستظل تشوه عقائد المسلمين في الصين ما لم نقم بعمل فعال وحاسم لتنقيح هذه الترجمات وتحقيقها والبدء بعمل ترجمات معاني القرآن الكريم وفق الكتاب والسنة علي منهج السلف الصالح.
- "ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية" ترجمة محمد ماكين، يقبل معظم الناس علي هذه الترجمة من حيث المستوي في التعبير والترجمة، ولكن الخلاف دائر بين الناس في قبول معاني آيات الإعتقاد.

تمت طباعة هذه الترجمة في عام1981 في بكين. وقد كان محمد ماكين بدأ يترجم معاني القرآن الكريم بعد عودته من مصر إلي الصين في عام1939، وانقطع عمل الترجمة عدة مرات ولم يكمل ترجمته إلا في أواخر السبعينيات قبل وفاته ولكن مع الأسف الشديد لم تتم طباعة هذا المصحف الشريف المترجم لمعانيه إلي اللغة الصينية بشكل رسمي حيث وافته المنية قبل الإنتهاءمن مراجعته، وبعد وفاته أكمل عمله تلاميذه من غير المسلمين الذين كانوا يتعلمون في جامعة بكين ولم يشارك أحد من علماء المسلمين في مراجعة هذا المصحف الشريف المترجم قبل طباعته أو بعده.

- **وهناك سببان رئيسان لعدم ظهور ترجمة صحيحة لمعاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية من ناحية العقيدة:**

أولًا: إن تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية قد مضي عليه أربعمائة سنة تقريبًا منذ القرن السابع عشر أي منذ المرحلة الأولي(المرحلة الإستدلالية). وحتي الآن ما زالت هناك صعوبات جمة منذ ذلك الحين. وعلي أية حال، إن أكثر الترجمات لمعاني القرآن الكريم ظهرت من العشرينات إلي الثمانينيات من القرن العشرين في خلال ستين عامًا. ومع أن العلماء في الصين بذلوا أقصي جهودهم في الترجمة، بيد أنَّه- وللأسف الشديد- ليس من هذه الترجمات ترجمة واحدة صحيحة من ناحية العقيدة، بل إن معظم المترجمين يركزون جهودهم علي الناحية اللغوية، أما في العقيدة فهم يسلكون منهج التأويل والتحريف متعمدين أو معتمدين علي بعض التفاسير غير المعتمدة وهم يحتجون بأن هذا هو الأسلوب الإصطلاحي للترجمة الصينية أو أن عامة الناس لا يفهمون صفات الله تعالي الذاتية والفعلية لذا لابد من تأويلها حسب عقل الإنسان. ولهذا لم يظهر حتي الآن أحد يترجم معاني القرآن الكريم حسب منهج أهل السنة والجماعة علي فهم سلف الأمة الصالح، هذا بسبب التزام المسلمين في الصين بالعقيدة الصوفية المنحرفة منذ مئات السنين.

ثانيًا: أن الدعوة السلفية دخلت الصين متأخرة عام 1936م، فحاربها معظم المسلمين كما حاربها الناس انطلاقًا من شبه الجزيرة العربية، وهم لا يقبلون هذه الدعوة المباركة التي تدعو الناس للرجوع إلي كتاب الله تعالي وسنَّة رسوله الكريم ﷺ.

وهذان سببان رئيسان لعدم ظهور ترجمة صحيحة لمعاني القرآن الكريم إلي اللغة الصينية من ناحية العقيدة.

قائمة المصادر والمراجع

(1) **جورج فضلو حوراني (1958):** العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطي، ترجمة السيد يعقوب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

(2) **يوسف الشاروني(2000):** أخبار الهند والسند، الدار المصرية اللبنانية.

(3) **محمد سليمان الندوي(2013):** الملاحة عند العرب، ترجمة جلال السعيد الحفناوي، المركز القومي للترجمة، العدد(2071)، القاهرة.

(4) **د. عبدالمنعم خفاجي وآخرون(1999):** معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي، ط. الثانية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.

(5) **ف. هايد(1991):** تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطي، ترجمة أحمد رضا محمد، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(6) **د. حسين محمد فهيم(1989):** أدب الرحلات- سلسلة عالم المعرفة، الكويت.

(7) **د. زكي محمد حسن(2008):** الرحالة المسلمون في العصور الوسطي، ط. الأولي، الناشر شركة نوابغ الفكر، القاهرة.

(8) **أحمد حسن الباقوري(1988):** بقايا ذكريات، ط. الأولي، مركز الأهرام للنشر والترجمة.

(9) **د. زكي محمد حسن(2016):** الصين وفنون الإسلام، وزارة الثقافة والرياضة، دولة قطر.

(10) **آدم متز(2008):** الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، الجزء الثاني، ميراث الترجمة، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

(11) **بدر الدين حي الصيني(1950):** العلاقات بين العرب والصين، مكتبة النهضة المصرية.

(12) **المؤرخ المسعودي(2000):** مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

(13) المقدسي

(14) **ياقوت الحموي:** معجم البلدان، الجزء الثالث، طبعة مصر.

(15) **فهمي هويدي(1981):** الإسلام في الصين، العدد رقم43، عالم المعرفة، الكويت.

(16) **حسين نصار(1991):** أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر ومكتبة لبنان.

(17) **أبو علي التنوخي:** نشوار المحاضرة وأخبار المذكرة، تحقيق عبود الشالجي، الجزء الثالث.

(18) **سعيد لنجونمن(1946):** نبذة عن الصين- من منشورات المفوضية الصينية، مطبعة المعارف، بغداد- العراق.

(19) **ابن الأثير:** الكامل في التاريخ.

(20) **د. قاسم عبده قاسم(2009):** إعادة قراءة التاريخ، كتاب العربي رقم78، الكويت.

(21) **د. حسن إبراهيم حسن(1953):** تاريخ الإسلام- الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية.

(22) **العلامة كاركورن:** تاريخ ممالك جين، طبعة كلكتا.

(23) **مخطوطات تاريخ الإسلام في الصين(1982)**: دار الشعب للنشر، نينغشيا، نيتشوان، الصين الشعبية.

(24) **إبراهيم أسعد(1965)**: ماركو باولو- قصص الرحالة والمستكشفين رقم9، دار المعارف، مصر.

(25) **تشيان تسوف شون(2004)**: تاريخ الورق والطباعة في الصين، دار نشر جامعة المعلمين في قوانغشي- الصين الشعبية. (باللغة الصينية)

(26) **مجموعة علماء التاريخ في الصين(1986)**: تاريخ الصين، الجزء الأول، ط الأولي، مطبعة اللغات الأجنبية. بكين- الصين الشعبية.

(27) **د. سمير عبدالمنعم أبو العينين(2005)**: التاريخ العام لأهم خصائص الحضارة الصينية القديمة، بدون دار نشر.

(28) **فرنسيس وود(1999)**: ماركو بولو هل وصل إلي الصين؟ ترجمة فاضل جتكر، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق- سورية.

(29) **لوفير(1964)**: الصين وإيران، ترجمة لين جيون ين، دار الشؤون التجارية للنشر. (باللغة الصينية)

(30) **ب. ك هيتي(1974)**: تاريخ الصين، طبعة نيويورك.

(31) **ابن بطوطة(2011)**: تحفة النظار في غرائب الأمصار، شرح طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت.

(32) **أتربي أبو العز وعبدالعزيز حمد(2014)**: نبذة عن الصين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة- القاهرة.

(33) **محمد محمود زيتون(2016)**: الصين والعرب عبر التاريخ، سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة.

(34) **ابن النديم**: الفهرست.

(35) **محمد صبيح:** شيانج كاي- شيك، كتاب الشهر- دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، عام1944.

(36) **ابن جرير الطبري:** تاريخ الرسول والملوك، الجزء الرابع.

(37) **توماس آرنولد:** الدعوة إلي الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم ود. عبدالمجيد عابدين.

(38) **عبدالرحمن ناجونغ(1978):** مختصر تاريخ العرب، من مطبوعات معهد اللغات الأجنبية في بكين.

(39) **د. حسين فوزي(1943):** حديث السندباد القديم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

(40) **أندريه ميكيل:** جغرافية دار الإسلام البشرية في منتصف القرن الحادي عشر، ترجمة إبراهيم غوري، وزارة الثقافة السورية.

(41) **المروزي:** رحلات العرب والفرس.

(42) **محمد بيرم الخامس التونسي(1997):** صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، الناشر دار الكتب العلمية.

(43) **جمعية دراسات إشكاليات القوميات(1982):** إشكالية قومية هوي هوي، ط الثانية، دا القوميات للنشر، بكين- الصين الشعبية. (باللغة الصينية)

(44) **جمال محمد عبدالمنعم(1995):** المسلمون في الصين- الملف الضائع، ط الأولي، لجنة الدعوة الإسلامية، دولة الكويت.

(45) **د. فوزي درويش(1994):** الشرق الأقصي- الصين واليابان، مطابع غباشي، طنطا، مصر.

(46) **بارتولد(1981):** تاريخ الترك في آسيا الوسطي، القاهرة.

(47) **أبو الفدا(1840):** تقويم البلدان، باريس.

(48) **ياقوت الحموي:** معجم البلدان، دار صادر- بيروت.

(49) **قسم البحوث والدراسات- دار الدعوة للطبع والنشر(1993):** تركستان بين الدب الروسي والتنين الصيني، ط الأولي، اسكندرية.

(50) **عبدالعزيز جنكيزخان(2010):** تركستان قلب آسيا، ط الأولي، مركز الحضارة العربية.

(51) **بدرالدين و. ل. حي:** تاريخ المسلمين في الصين في الماضي والحاضر، دار الإنشاء للطباعة والنشر، طرابلس- لبنان.

(52) **عيسي يوسف ألبتكين(1987):** قضية تركستان الشرقية، ترجمة إسماعيل حقي شن كولر، دار الحكمة والنشر، استانبول- تركيا.

(53) **محمد قاسم أمين(2000):** تركستان الشرقية في عهد الملوك الطوائف وفي الوقت الحاضر، دار تكلامكان الأوريغوري، استانبول- تركيا.

(54) **ارشال بروم هال:** الإسلام في الصين.

(55) **جيان بوه تسان وآخرون(1985):** موجز تاريخ الصين، ط الأولي، دار النشر باللغات الأجنبي، بكين- الصين الشعبية.

(56) **مي شو جيانغ:** الإسلام في الصين، ترجمة وانغ ماو، دار وو تشو للنشر، الصين الشعبية، بدون تاريخ.

(57) **محمد مكين(1353هـ):** نظرة جامعة إلي تاريخ الإسلام في الصين وأحوال المسلمين فيها، المطبعة السلافية ومكتبتها، القاهرة.

(58) **أ.ف. تcroMلين:** فلاسفة الشرق، ترجمة عبدالحميد سليم، دار المعارف، القاهرة (بدون تاريخ).

(59) **لين يوتانغ(1953):** فلسفة من الصين، سلسلة "علم نفسك" رقم9، دار العلم للملايين- بيروت.

(60) **منشورات عويدات(1978):** يوم تنهض الصين... يهتز العالم، منشورات عويدات 1978/1/529، المطابع البولسية، جونيه، لبنان.

(61) **باولو سانتا نجيلو(2015):** إمبراطورية التفويض السماوي- الصين بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر، ترجمة د. ناصر إسماعيل، مشروع كلمة، أبو ظبي، الإمارات العربية.

(62) **د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز(2005):** المسلمون في الصين، سلسلة كتاب أخبار اليوم- أخبار اليوم، القاهرة.

(63) **محمد تواضع(1364هـ):** الصين والإسلام، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة.

(64) **فراس السواح(2000):** كتاب الطاو- إنجيل الحكمة الطاوية في الصين، منشورات دار علاء الدين.

(65) **هـ. ج. كريل(1970):** الفكر الصيني من كونفوشيوس إلي ماوتسي تونغ، ترجمة عبدالحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

(66) **لاوتسي(2020):** الكتاب المقدس في الطريق والفضيلة، ترجمة د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز، دار الكتاب الحديث، القاهرة.

(67) **هادي العلوي(1994):** المستطرف الصيني، دار المدي للثقافة والنشر، دمشق- سوريا.

(68) **د. تركي صقر(1993):** عملاق... يستيقظ، ط الأولي، الشادي للنشر والتوزيع، سورية.

(69) **وليد سليم عبدالحي(2000):** المكانة المستقبلية للصين في النظام الدولي، ط. الأولي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبو ظبي.

(70) **هـ. فان. براج(1998):** حكمة الصين، ترجمة موفق المشنوق، ط الأولي، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية.

(71) **تشينغ يوي تشن(2014):** لمحة عن الثقافة في الصين، ترجمة د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز، مشروع كلمة- أبو ظبي.

(72) **ك. م. بانكيار(1962):** آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، دار المعارف بمصر.

(73) **هيلدا هوخام(2002):** تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتي القرن العشرين، ترجمة أشرف محمد كيلاني، المشروع القومي للترجمة، القاهرة.

(74) **د. محمد صادق صبور(2006):** موجز تطور الحضارات الإنسانية، دار الأمين للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.

(75) **جرجي زيدان:** تاريخ التمدن الإسلامي، الجزء الثالث، دار الهلال، القاهرة. (بدون تاريخ)

(76) **وزارة الأوقاف المصرية(2005):** موسوعة الحضارة الإسلامية، الجزء الرابع، القاهرة.

(77) **ماهوان:** مشاهدات رائعة وراء البحار الشاسعة، بكين، الصين الشعبية.

(78) **يوسف الشاروني:** عجائب الهند، رياض الريش للكتب والنشر. (بدون تاريخ)

(79) **محمد عودة(2007):** الصين الشعبية، المجلس الأعلي للثقافة، القاهرة.

فهرس

الموضوع	ص

تم بحمد الله